نهاد سيريس

رياح الشمال

رواية

إهداء

إلى عبد الجليل سيريس...

والدي الذي ساهم بذكرياته في كتابة هذه الرواية.

الجزء الأول

"سوق الصغيّر"

(1)

في منتصف الطريق الواصلة بين باب الحديد وساحة بانقوسا، كما يحلو للناس أن يسموها، وأغيور أو أقيول، حسب المستندات الرسمية العثمانية، يقع سوق الصغيّر.

لم يكن هذا السوق في يوم من الأيام صغيراً، ولكنه سمي هكذا نسبة إلى سوق باب جنان أو سوق المدينة لضخامتهما، فإلى اليمين وأنت قادم من بانقوسا تقع خانات بريمو وبيرقدار للخضار، فهي تستقبل مئات العربات والدواب المحمّلة بالخضار والفاكهة يومياً، أما إلى اليسار فتقع مصابغ الخيوط وأسلاكها الممتدة بعيداً على الأسطحة والتي تنشر عليها جزز الحرير والقطن المصبوغة بألوان متعددة فاقعة تجعل منظر سوق الصغيّر جميلاً وقت الأصائل.

عند السوق مباشرة وباتجاه الشرق يقع مسجد صغير مبني بحجر الغشيم الحلبي الصلب اسمه جامع سوق الصغيّر، مقابل المسجد مباشرة يقع شارع يصب في زقاق طويل يمتد خلف الخانات يفضي إلى حارة الريش، ويصب أيضاً نزولاً في أغيور حيث يقع مبنى الريجي وحمام أغيور ومزار الولي سيدي محمد، هذا بالإضافة إلى سوق الباعة بالمفرق وصولاً إلى خانات آل المنجد والزيتوني ودكاكين آل السباهي والسلحدار، حيث تنتهي عند تخوم المقبرة العالية التي سميت بجبل العظام تفكها من قبل أهل حي اغيور، أخيراً وفي أقصى الشمال تقع مطحنة أقيول البخارية التي ركّبت في خان قديم أمام المقبرة مباشرة.

أمّا بمحاذاة مسجد سوق الصغيّر فقد شقت طريق صغيرة تقود إلى ساحة فيها نبع صغير سمي بالقسطل، كان الناس ينقلون ماءه إلى بيوتهم بواسطة أوان من الفخار وصفائح التنك، اسم هذه الساحة هو (السليمانية) نسبة إلى جامع السليمانية الصغير الذي يقع في طريق الماوردي، المتفرعة من الساحة التي تؤدي إلى قسطل الجورة.

غير بعيد عن ساحة السليمانية وفي نفس شارع الماوردي الذي لم يرصف بعد بأحجار الطرق السوداء، كان يقع بيت يتجه نحو الغرب، ذو باب عريض مصنوع

من خشب الحور الذي أصابه التسوس منذ زمن بعيد.

كان اسمه بيت الزيات، وكان عبارة عن دهليز يؤدي إلى صحن البيت الذي تشرف عليه غرفتان عاليتان سقفهما من العوارض الخشبية المستديرة المتوضعة بشكل متوازٍ جميل، وقبو تحتهما، يتم النزول إليه بأربع درجات، مقسوم إلى قسمين، القسم الخارجي نظيف ذو أرضية مصقولة وفيه رفوف توضعت عليها سلال البصل والثوم وأوعية البرغل والزيت وغيرها، أما القسم الداخلي فهو عبارة عن مغارة تم إهمالها فأصبحت مأوى للجرذان والعناكب والعقارب.

في الطرف الآخر من الحوش وبمحاذاة الدهليز بني المطبخ والمرحاض، كانت حوش الدار مظللة بشجرة تين برّي وفيها حوض من التراب الأحمر زرعت فيه نبتات الورد الجوري وعرق السوس وزهر السلطان ونبات جميل لورد النفنافة اللطيف المنظر.

كان البيت قد بني من قبل رجل محترم، ذي هيبة، معروف في السوق اسمه عبد الحميد الزيات، وقد قام هو نفسه بترميم البيت مرة أخرى قبل أن يموت، ذلك لأنه كان يستقبل في بيته كبار أعيان البلد.

كان لعبد الحميد الزيات عشرة أولاد، أصغرهم كان علياً الذي ولد وشبّ وتزوج في البيت نفسه بعد وفاة أبيه، كان علي يعمل في تجارة الزعتر، ولم تلد له زوجته صبياً إلا بعد أن رزق بأربع بنات، تزوجن كلهن قبل سن السابعة عشرة، لذا فقد فرح كثيراً وكاد أن يطق عقله، حينما وضعت له صبياً في أحد أيام الربيع فأسماه ربيعاً بن علي الزيات.

أقام تاجر الزعتر الأفراح ووزع الزعتر دون مقابل على الفقراء، وأعلن أنه سيحج إلى مكة في الموسم القادم شكراً لله على هديته له.

وفي السنة التالية، تهيأ للسفر إلى الحجاز، أخذ معه كمية لا بأس بها من الزعتر إلا انه لم يعد من هناك، فقد مات من جراء ضربة شمس، وحينما جاؤوا بخبره حدث عزاء كبير ولبست زوجته السواد عليه، واعتكفت في البيت سنة كاملة.

قام أحد أخوة زوجها بإدارة محل بيع الزعتر لعدة سنين، كان يقدم لها بعض المال لتعيل نفسها وتربي أطفالها، إلا أنه ما لبث أن سُرِق المحل وأغلق مما اضطر

الأم للعمل في الريجي كي تطعم أطفالها، خصوصاً وأن أخوة زوجها قد تخلوا عنها بسبب نزاعهم على إرث أبيهم وشقيقهم علي، إلا أنها استطاعت أن تزوج آخر بناتها بهية إلى شاب يتيم يعمل في حفر الآبار اسمه عمر بنبوك قدّم لها بعض المساعدة.

نشأ ربيع في البيت، كانت تتركه يلعب في الحارة مع الصبيان وتذهب إلى الريجي منذ الصباح الباكر وحتى المساء، وعندما كانت تعود من العمل، كانت تجده نائماً وقد تعفر بالتراب أو شجّ رأسه إثر محاجرة مع صبيان أغيور الشياطين.

كان ربيع يقود صبيان حارته في صراعهم مع صبيان أغيور، فقد كان يبدو اكبر سناً من الجميع، مع أنه كان في سنهم، كان طويلاً، صلباً، اكتسب قوته من جده عبد الحميد الزيات، كما اكتسب جمال الوجه من أمه.

في سن السابعة، أرسلته أمه إلى الكتّاب، قالت له: كفى، لقد أصبحت أكبر أزعر في البلد، عليك أن تتعلم القراءة والكتابة وأن تحفظ القرآن...، إلا أن الشيخ طرده في السنة التالية، قال لها: خذيه! لقد تعلم شيئاً، إنه ذكي، تعلّم قبل أقرانه، لا أريد أن أرى وجهه مرة أخرى!، وعندما عاد إلى البيت رجته أن يحكي لها السبب، فقال ربيع: هو البادئ، لقد ضربني بعصاه الطويلة، كنت جالساً فضربني.

فقالت: وأنت ماذا فعلت بعد ذلك؟

فقال: كسرتُ له العصا وضربته بها.

في اليوم التالي، أخذته إلى مدار قريب لها اسمه أبو حديدة، كان المدار عبارة عن معمل للنشاء، أخذه القريب أبو حديدة بعد أن وعدها بأن يعلّمه الصنعة، ولكن دون أن يجهده، فلم يكن ربيع قد أتمّ الثماني سنوات، إلا أن العمل كان يجهد الصبي كثيراً، كان يعمل منذ الفجر وحتى المغرب، وعندما كان يعود إلى البيت، كان يسقط على الفراش وينام، دون تناول العشاء، ومع ذلك تركته أمه يعمل، فالعزاء الوحيد لها هو تلك القروش القليلة التي كان يكسبها ويعطيها لأمه.

وما إن بلغ الخامسة عشرة حتى أصبح المعلم أبو حديدة يعتمد عليه في كل شيء، في البيع والشراء والعمل، كان يبدو كالضائع عندما يغيب ربيع عن المدار لأمر ما، وفكر صاحب المعمل... كانت لديه ابنة صبية اسمها عائشة، ربيع يناسب عائشة ويناسب أبا حديدة، راح يرسله إلى بيته لبعض الأمور، دعاه أحد أيام الجمعة

على الغداء في بيته، هناك، قابل ربيع عائشة، وكأي بغل مدار معصوب العينين، انبهر ربيع بجمال عائشة، ابنة الثالثة عشرة التي بكّرت كثيراً في مراهقتها، وما إن تأكد أبو حديدة من أن عائشة قد أسرت قلب ربيع حتى عرض عليه المشاركة في المدار، قال له:

– على فكرة... لقد بدأ التعب يتسلل إلى جسدي، وأنت تعلم أنني لم أرزق بصبي يأخذ مكاني ويريحني في العمل، أنت يا ربيع شاب نشيط وأمين، من الآن فصاعداً أنت شريكي في الثلث.

وما إن سمعت أم ربيع بهذا حتى وافقت على الذهاب إلى أم عائشة كي تطلب يد ابنتها لابنها. في الماضي كانت ترفض، كانت تقول: اتركنا من هؤلاء الناس، لو كان أبوك ما يزال على قيد الحياة، لكانت حياتنا أفضل، إلا أننا أقل منهم مستوى، أهجر التفكير في هذه الفتاة يا ابني، هم قوم ونحن قوم!

ولكنها الآن وافقت، أصبح شريك أبي حديدة، إلا أنها آثرت التريث حتى يستطيع ربيع أن يجمع بعض المال لشراء الجهاز الذي يليق بابنة أبي حديدة.

إلا أنه لم يمض على ذلك وقت طويل، حتى جاء الجفاف العظيم في سنة 1913 – 1914، فشحّت الأغذية وقل القمح، وبدأت علائم المجاعة تظهر على البلد، وفقد كثير من الناس أعمالهم، صرفوا أم ربيع من العمل في الريجي الذي لم يعد بحاجة لكثير من العمال، فقعدت في بيتها.

إلا أن هذا الأمر ما كان ليهمها أبداً، فابنها ربيع يعمل وقد أصبح شريكاً في معمل النشاء، ولكن أمراً خطيراً بدأ يعصر الصدور، فلم يعد الناس يسمعون عن الجمعيات والإضرابات والمظاهرات التي تنظم ضد الاحتلال العثماني فحسب، بل وصل إلى أسماعهم أيضاً أن حرباً كبيرة قد اشتعلت في مكان ما، وأن كل دول العالم راحت تُزَجُّ فيها.

إنها الحرب العالمية، الحرب التي أشعلها مجنون عندما قتل الأرشيدوق في صربيا، هكذا قالوا، يكفي أن تقتل ملكاً حتى تلتهب الأرض بمن عليها، ولكن، ما علاقة الباب العالي في مصرع الأرشيدوق، هل هو شقيق السلطان رشاد؟ ذلك الدب المتوّج؟ ... وأصبحت القضية إسلامية، فقد أعلنت الإمبراطورية العظيمة اشتراكها

في الحرب إلى جانب ألمانيا، وفي نفس ذلك اليوم التشريني العاصف صفق أبو حديدة كفاً بكف، وقال وهو يطقطق بلسانه:

– اشو صار يا ناس؟ وما دخلنا بالكفار إذا هم تقاتلوا!

إلا أن ربيعاً، الذي طفح حماسة لمجرد سماع الأخبار الأولى للحرب، هز رأسه كالرجال المسنين وقال:

– يا عم أبو حديدة، لا تقل ذلك، سنساعد الكافر على الكافر حتى ينتهوا. إلا أن الجميع ذاقوا طعم المأساة.

فقد تم تعيين أحمد جمال باشا والياً على سورية، مطلق الصلاحيات، وجاءت معه الأوامر الصريحة من الباب العالي (نحتاج للغذاء والقمح والوقود... والرجال) وراحت فرق الإعاشة تجوب البلاد والقرى لتصادر القمح والشعير والعدس والقطن والفحم والحطب وكل شيء يخطر على بالها، صادروا المواشي والبغال والأحصنة وكثيراً من الحمير، صادروا أيضاً عربات النقل.

وتوقفت الحركة في البلد، وفي سوق الصغيّر، لم تعد الخانات تستقبل أطنان الخضار والفواكه، وتوقفت المصابغ عن نشر شلل الخيطان الملونة، ولم يعد أحد يقوم بإنارة شارع الماوردي الجميل الذي تظلله في الصيف أشجار التين البري التي راحت تمد أغصانها الوارفة من ساحات البيوت عبر الأسطحة، وتوقف معمل أبي حديدة للنشاء وصادروا له بغلتيه، فقعد ربع في البيت لا يخرج منه إلا ليقعد في مقهى أبي حسين في سوق الصغيّر أو في مقهى أبي سلمو عند ساحة باب الحديد.

وما إن مرّ أقل من عام حتى كان ربيع وأمه قد أكلا نقود المهر الذي جمعه ليقدمه إلى أبي حديدة لقاء تزويجه ابنته عائشة، إلا أن أم ربيع أحست بفطرتها أن أبا حديدة قد صرف النظر عن هذا الزواج ولو مؤقتاً، فقد توقف عن استقبال ربيع في بيته، وراح يختلق الأعذار لتأجيل أي حفل زفاف قد يخطر على بال النساء، فالدنيا قد ركبها عفريت، والرجال يسحبون زجراً إلى الجيش، وهل على رأس ربيع بن علي الزيات خيمة؟

وبالفعل، فقد صدق تنبؤ أبي حديدة، ففي صباح أحد أيام تموز الحارة 1915، خرج ربيع من بيته قاصداً مقهى أبي حسين غير البعيد عن جامع سوق الصغير،

جلس على كرسي من القش وطلب قهوة، ثم راح يرشفها وهو يستمع إلى رفاقه على الطاولة الذين كانوا يتحدثون عن مغامراتهم الماضية في بيت العاهرات الواقع في محلة (بحسيتا) في حلب، أحدهم تحدث عن سارة اليهودية بسوء، فكادت أن تحدث مشاجرة بينه وبين ربيع الذي كان يفضلها، وفجأة قطع الطريق عند مداخل سوق الصغير، قطعه الجنود بالحبال، كي لا يتمكن أحد من الهرب، بقي ربيع ورفاقه جالسين، فقد كانوا صبياناً في السادسة عشر من عمرهم، (والجنود يأخذون الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والخمسين فقط)، اقترب ثلاثة جنود منهم فسارع أحدهم وأمسك بقبضته كتف ربيع وقال للجنديين الآخرين:

- خذ هذا!

صاح ربيع: ماذا؟ أنا صغير... أنا صغير!

ثم راح يقنع الجندي أن عمره لم يتجاوز السادسة عشرة بعد، وراح رفقاء ربيع يدعمون كلامه، إلا أن الجندي، فاقد الصبر، وصاحب أطول ذراعين شاهدهما ربيع في حياته، انبرى وصاح في وجوه الصبيان الآخرين مهدداً:

- اسكتوا وإلا أخذتكم معه، إنه رجل أكثر مني!

فصمتوا... وراحوا يراقبون الجنود وهم يجمعون الرجال ثم وهم يسوقونهم إلى ثكنة بانقوسا، انطلق أحد الصبيان كالسهم، دق باب بيت أم ربيع، ولما فتحت له، كلمته من خلف الباب، أخبرها بالذي حدث، وهي غير مصدقة صرخت صوتاً سمع حتى شارع سوق الصغير الذي وقف فيه الناس وهم يحصون بالعدد والاسم من أخذهم الأتراك.

لم تعرف كيف لبست ملحفتها وانطلقت راكضة وهي تعلن أبا عثمان الكبير، وانطلق خلفها جمع من الأطفال والصبيان وهم يشرحون لها كيف قام جنود فصيلة التجنيد بفعلتهم.

كان عليها أن تثبت أن ربيعاً مازال صبياً في السادسة عشرة من عمره، وليس أكبر من ذلك كما يبدو، ولما وصلت إلى باب الثكنة الجنوبي ومعها الجمع الذي تضخم، رفضوا التحدث معها ومنعوها من الدخول لمقابلة القائم مقام قائد الثكنة، عندها راحت تولول ثم مزقت ملحفتها وقذفت الحرس بالحجارة وشتمت عريفاً ذا كرش

متدل أسفل بطنه، ولما أصبح عدد النسوة اللواتي كن يتظاهرن خارج بوابة الثكنة خمساً، خرج ملازم عربي يبلغ من العمر خمسين سنة وتحدث إليهن بهدوء، قال:

– إياكن وهذه الأعمال، كل شيء سينصلح، وإذا ما تماديتن في الصراخ والعويل، فإنهم سوف يقومون بتعذيبهم، وضربهم، وقد يسجنونهم، الآن... اذهبن إلى بيوتكن وأنا أعدكن بإرسال رجالكن في إجازة قريباً جداً.

صدقت النسوة كلام الملازم، فعادت أم ربيع إلى البيت، وبعد ثلاثة أيام عادت وسألت عن ابنها، إلا أن الحارس أخبرها أنهم أرسلوا إلى مكان مجهول في حلب، لم يرسلوا إلى الحرب بل مازالوا في حلب، إلا أنها سرعان ما فهمت أنها قد فقدت ابنها، فقدته إلى الأبد، ولدها الذي ولدته على أربع بنات، أخذوه منها وسيرسلونه كما قالت النسوة الأخريات إلى بلاد لا يعرف أحد اسمها وأين تقع، وهناك سيلاقي حتفه مثل جميع الرجال، فبكت بحرقة، كانت تستوقف الرجال العجائز في حيهم والذين كانوا يعرفون زوجها، وتحدثهم عن مصيبتها، كانت تسترجع صورة ابنها بسهولة، فهو يشبهها كثيراً إنه صورة لها، طويل وعريض، أشقر الشعر وصاحب عضلات مفتولة وشخصية قوية، وعندما كانت تجمع أغراضها في بقجة كي تترك البيت وتذهب إلى بيت ابنتها بهية، راحت تسترجع في ذهنها صورة ربيع الزعيم بلا منازع لصبيان حي سوق الصغيّر والذي كان يقودهم في حربهم ضد صبيان أغيور الشجعان، الذين كانوا يتفاخرون بكونهم من أغيور ويعيّرون ولدها والآخرين لأنهم من سوق الصغيّر، كانوا يأتون وهم يصرخون: (فتّح وردة جورية، لعيون الأغيورجية).

إلا أنهم لا تمضي ساعة، حتى يولوا الأدبار مختفين في أزقة أغيور الضيقة.

وبعد عشرة أيام قبضوا على زوج ابنتها بهية وابن عمه صالح وأرسلا بدورهما إلى ثكنة بانقوسا.

بعد ليلة قضوها في تلك الثكنة اللعينة، رحِّل ربيع ورفاقه إلى معسكر للجيش العثماني مقام في (مسلمية) حلب وهناك، خضعوا لتدريب متواصل على الركض والغوص في الوحل والضرب واللسع بالشتائم، ودون أن يعلم أحد إلى أين، تمّ صفهم في أرتال أحادية وأعطي الإيعاز للصعود إلى عربات القطار المغلقة، حيث افترشوا الأرضيات الخشبية وهم يحسون بالاختناق بسبب سوء التهوية. وبعد ثمانية أيام من

السير والتوقف وصولا إلى الأستانة التي شاهدوا شوارعها وأبنيتها من خلال الشقوق في جدران العربات الخشبية العتيقة، ثم أنزل الجنود في محطة "حيدر باشا"، وناموا ليلتهم الباردة في العراء، وفي الصباح الباكر صعدوا إلى قطار آخر كان محملاً بالذخائر والجنود وانطلق خارجاً من الأستانة باتجاه الجنوب الغربي، حيث المضائق التي كان الجيش العثماني يدافع عنها في مواجهة الجيشين الإنكليزي والفرنسي.

كانت المضائق (الدردنيل) في منطقة (غاليبولي) تتعرض بالفعل لضغط متواصل من قبل الحلفاء، كان الهدف من احتلالها، فتح الطريق البحري أمام سفن الحلفاء للوصول إلى شواطئ روسيا على البحر الأسود والاتصال بها لدعمها في مواجهة الأتراك والألمان الذين زادوا من ضغطهم على حدودها الغربية وأصبح الوضع العسكري على هذه الحدود سيئاً، إلا أن الصورة لم تكن واضحة تماماً للجنود عندما أنزلوا هناك، كانوا خائفين، مشدوهين وغير مسلحين بعد.

أرسلوا ربيعاً وسبعة آخرين من بلدته إلى إحدى السرايا، سجلوا اسمه في سجل السرية وأعطوه سيفاً وقالوا له: اقتل إنكليزياً وخذ بندقيته! ثم جعلوه يبصم بأصابعه العشرة. عاينه طبيب أشقر . ألماني . تفحص عينيه وتحت جفنيه وأسنانه وخصيته، دهنوا رأسه وجسمه بدواء كريه طارد للقمل، ثم أرسلت السرية بأجمعها إلى منطقة الخنادق، هناك حلت السرية رقم /333/ مكان السرية رقم /13/ التي كانت قد أبيدت عن بكرة أبيها في آخر قتال نشب مع الإنكليز منذ يومين، وما كادوا يستقرون في الخنادق المحفورة في التربة الحوارية البيضاء حتى شن العدو، الذي كان أفراده يعتمرون قبعات حديدية غريبة الشكل، هجوماً استطاعوا فيه الوصول إلى الخنادق التركية، نزل الإنكليز إلى خنادق الأتراك بغتة وحدثت مذبحة رهيبة، كان الجنود يذبحون بعضهم بعضاً بالسيوف والسكاكين، إما أن تذبح عدوك الذي أمامك، أو إنه سيذبحك لا محالة، إلا أن ربيعاً الذي تبللت ثيابه العسكرية الخاكية بالبول والقيء، لم يكن على استعداد بعد لتنفيذ هذه الفكرة.

أُنقذ ربيع في آخر لحظة، كان جرحه عميقاً في الصدر، لكن رئتيه وقلبه لم يصابا لحسن حظه. نزف كثيراً، إلا أن جسده القوي تعافى من جديد، بعد أن قضى شهراً ونصف في تلك القرية البعيدة عن الخنادق والتي كانت تسمى المستشفى حيث

يتمدد على الأرض ألوف الجرحى دون أدوية وأطعمة كافية.

كان شفاء الجريح مرهوناً بقوته الجسدية وحظه، فليس هناك من يسأل، أما الأطباء الذين كانوا يتنقلون بين الجرحى في غير مبالاة، فقد كان عملهم، بتراً للأعضاء المتفحمة فحسب، وعلى الجريح أن يداوي نفسه ببضع حبات من الكينا المرة اللعينة.

إلى جانب ربيع كان يتمدد رجل عراقي من البصرة، كان قد فقد ذراعاً وعيناً، إلا أنه استطاع أن يعيش بعد أن نزف نصف دمه، كان قوياً كالبغل، فاستطاع أن يحدث ربيعاً عن هذه الحرب اللعينة وعن جمال بساتين البصرة والأهوار.

كانت الحرب العالمية قد بدأت في تموز من عام 1914 وخوفاً من روسيا القيصرية قامت تركيا بعقد حلف مع ألمانيا في آب وبذلك أصبحت من دول المحور، ولكي تساعد تركيا ألمانيا دخلت الحرب في تشرين الأول وقامت بهجومها على روسيا في الشتاء، في منطقة القفقاس، إلا أن الهجوم باء بالفشل وكان ذلك العراقي من البصرة مجنداً في تلك الحملة، إلا أنه عاد سالماً مع خمسة وعشرين ألف جندي بقوا من أصل مئة ألف، فلقد ماتوا في الطريق إلى الحملة من الجوع والبرد، وكان الثلج يسقط آنذاك على الجبال الشاهقة والوديان التي قطعتها قوافل الجيش فسقط ألوف الجنود متجمدين من البرد القارس ودفن آخرون في الثلوج، ومات خلق كثير من الجوع والنزلات الصدرية ومن تيفوس القمل، وحينما التحمت القوات كانت الذخائر قد أصابتها الرطوبة، وكثير من البنادق كانت معطلة، وكانت المدافع قد تركت في الطريق، لصعوبة جرها، وعاد الجيش وهو لا يملك سوى ربع أفراده وهم لا يصلحون لأية معركة.

ومع أن أغلب الباقين كانوا غير مجهزين جيداً ومصابين بفقر الدم والتيفوس، فقد تم نقلهم إلى اليونان وعسكروا في السهول الفاصلة بين مدينة سالونيك والبحر، فحفروا الخنادق ومكثوا فيها أشهراً وهم لا يعلمون من سيحاربون إلى أن أنزل الحلفاء فرقهم العسكرية من البحر (قبالة سالونيك) وهكذا جمد الموقف هناك وتمترس المتحاربون في الخنادق يهاجمون بعضهم بعضاً، وإلى هناك أرسلوا ربيعاً الزيات بعد أن شفي من جرحه، وبعد مدة أرغموا ربيعاً على الالتحاق برتل يسير على الأقدام

نحو الشمال الغربي وكانت الأمطار تهطل بغزارة مخلفة سيولاً وأطياناً على الطرقات الوعرة، وكانت ألبسة الجنود وأحذيتهم قد تبللت تماماً بالمياه حتى وصلت الرطوبة إلى العظام، وبعد مسير ثلاثة أيام بلياليها وصل الرتل إلى منطقة الغابات فنزلوا في خنادق محفورة بجانب غابة كثيفة، وقعد ربيع في الخندق المليء بالماء والوحل ونام على الفور، وهو مقرفص، وهكذا فعل كثيرون غيره.

* * *

طلع الفجر على الخنادق المتعرجة إلا أن الضباب كان كثيفاً، وامتدت يد غريبة لا ترى تمسح على وجه ربيع الزيات ولحيته الزغبية النابتة، فسرى دفء رقيق فيه، فتح عينيه إلا أنه لم ير أحداً بجانبه، كان يحم بأمه، لعن نفسه لأنه استيقظ، وقال في نفسه:

- صرت كالكلب، يا عم ربيع؟

كان الطين يلوثه من قبعته حتى حذائه، وكان البرد الذي تسلل إلى عظامه يمنعه من الحركة فقد كانت قدماه غائصتين في الماء طوال الليل.

نظر إلى طرفي الخندق فرأى مجموعة من الجنود متكومة على بعضها تدخن سيجارة ضخمة ملفوفة كيفما كان وهم يتناقشون، عرف منهم بعض الناس الذين جاء معهم بعد خروجه من المستشفى، كان احدهم يقول بالتركية:

- كنا نزرع ثلاثة فدادين... نحن عشرة أشخاص.

فرد آخر:

- الزراعة في هذه الأيام أسوأ من الماضي، ما أن تجني المحصول حتى يأتي أولاد القحبة هؤلاء ويأخذونه، ونحن نبقى باقي السنة دون شعير، فنزرع البطاطا ونتركها مطمورة في الأرض، في السنة قبل الماضية حتى البطاطا لم تكن كافية.

- أبي يزرع التتن.

- أعطني السيجارة، لا تكن أنانياً.

- البارحة قتلوا إنكليزياً في الغابة ووجدوا معه سجائر معطرة.

تلفت أحدهم فوجد ربيع الزيات جالساً يصغي إليهم فصاح صاحب الوجه

المجدور والذي كان يمسك بالسيجارة:

– تعال اشرب يا ابن العم، مد له السيجارة، تعال... لا تستحي كالبنات، أنت جندي في جيش السلطان!

جلس ربيع الزيات إلى جانهم ودخن قليلاً ثم سلّم السيجارة إلى جندي آخر ممتلئ الجسم، أحس بدوخة وحرقة في زلعومه. سعل ومسح عينيه اللتين أثارهما الدخان فضحك الجنود، ثم قال المجدور:

– من أين أنت يا أخ؟

– من حلب.

– من حلب؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

– مسكوني وجندوني.

قال آخر:

– رجال سورية يرسلونهم إلى جبهتي قناة السويس والعراق.

– هذا إذن حظي.

سكت الجميع برهة، كان ربيع الزيات يرتجف فيشد معطفه عليه بلا فائدة، أعطوه السيجارة مرة أخرى، ولعلهم يشفقون عليه فشد نفساً عميقاً وهو يحس بامتنان لأصدقائه الجدد فسعل وقال:

– نحن إذن في اليونانستان.

فلم يجب أحد فقال:

– كنت في الخنادق القبلية وجرحني أولاد الكلب هنا (أشار إلى صدره) ولكن الله ستر وفي المستشفى كانوا يقطعون الأيدي والأرجل كما يقطعون الفجل، أظن أنني سأموت من البرد قبل أن يقتلني الإنكليز هؤلاء، أو ربما سأغرق في هذا الخندق.

ضحك الرجال ضحكة اهتز لها الرجل السمين، سأله أحدهم:

– هل قتلت أحداً من الجنتلمان؟

– من هؤلاء؟

– الإنكليز.

– لا... إنني لا أملك بندقية، بل سيفاً لا أعرف كيف أستخدمه.

– عليك أن تتعلم أيها الأخ إن أردت أن تعيش، فالبنادق في هذه الحرب لا تعمل جيداً والرصاصات مسترطبة، منذ مدة أحرقنا عجلات المدفع لأن القنابل أصبحت فاسدة.

انبثق قرص الشمس من الشرق أحمر يبشر بالدفء، وعمت الحركة الخندق كله، نهض ربيع بعد أن انفض الجميع وألقى نظرة على السهل، على بعد مئتي متر كانت خنادق الإنكليز، ولا يفصل بينها وبين الخنادق الصديقة أي ساتر ولا حتى شريط مانع كما كان في الجنوب.

كانت خنادق الإنكليز تعج بالحركة، فقد نشرواستراتهم وقبعاتهم وراحوا يضخون مياه الخنادق بواسطة أواني الطعام، كان ربيع يشاهدهم، لأول مرة مسالمين، يسيرون دون خوف بجانب الخنادق، وكانوا يعرضون أجسادهم للشمس، وكأن اليوم المشمس هو يوم سلام بالنسبة للجميع، وبدأ الأتراك أيضاً بالاغتسال وتنظيف الخنادق، وقام ربيع بصنع مكان خاص له، للنوم، في الخندق ثم اغتسل ونشر ثيابه المتسخة والرطبة تحت أشعة الشمس الباردة. جلس على حجر بجانب الخندق يتأمل الإنكليز وهم يروحون ويجيئون.

كانت الشمس قد غدت حامية وكأن كانون الأول لم يعد له وجود، أحس بالنعاس إلا أن الجوع كان يقرص معدته، عليه أن يصبر حتى الظهر لنهم يوزعون الطعام مرة واحدة في اليوم، كان الإنكليز يلعبون كرة القدم، وكان المتفرجون هم من الإنكليز والأتراك على السواء حيث انقسموا في التشجيع ما بين الفريقين، وكان الجنود يصرخون ويصخبون.

– أي حرب هذه، لو يعلمون ما جرى في الخنادق القبلية منذ شهرين، قال في نفسه.

أغلق عينيه وراح يتذكر الواقعة، لقد رأى إنكليزياً يذبح تركياً، وبعد أن ذبحه راح الدم ينبجس من قربته كأنه نبع حقيقي، ثم راح التركي يشخر بتشنج بينما جحظت عيناه وكأنهما ستسقطان على الأرض يا الله، لا أريدهم أن ينتقموا الآن، أي كلبة ابنة كلبة هذه الحرب. قال في نفسه وأضاف: لعلهم سيرحلون قريباً ويتركوننا نذهب إلى

بيوتنا صاح الجنود بعد أن سدد أحد الفرقاء هدفاً، انتبه ربيع وعاد يتابع المباراة، فرأى رجلاً أشقر يقترب من الأرض الواقعة بين الخنادق وهو يحمل صرة، كان الرجل يسير باتجاهه، توقف في منتصف المسافة وبدأ يصيح بلهجة أجنبية:

– محمد ... محمد!

كان الإنكليز ينادون على كل عربي وتركي باسم محمد، قال ربيع في نفسه: اسمي ربيع، إلا أن الإنكليزي تابع الصياح وراح يشير لربيع أن يأتي.

– ماذا تريد يا ابن الـ ...؟

– محمد ... محمد!

صاح وهو يشير إلى الرزمة.

في هذه الأثناء جاء جندي واقترب من ربيع وكلمه:

– إنه يريد أن يعطيك خبزاً.

– خبز ... ولماذا أنا بالذات؟ قال ربيع.

– إنهم يفعلون ذلك غالباً. اذهب وخذه! قال الرجل.

– لا... لا. أريد مشاكل، يكفيني ما أنا فيه.

– سوف أحضره لك، قال الرجل، وانطلق باتجاه الإنكليزي، بعد أن اجتاز الخندق.

وقف الرجل على بعد عشرين متراً من الإنكليزي، فقذف الأخير الرزمة وكلمه ثم استدار وركض، فاقترب الرجل من الرزمة والتقطها ثم ركض عائداً.

راح الرجلان يقضمان اخز بنهم، كان حلو المذاق من طحين القمح.

– افترضت أنه يريد قتلي، قال ربيع، فقال الرجل باستغراب:

– ولماذا؟ إننا لا نتقاتل الآن.

– ولماذا يعطيني الخبز مادمت سأقتله فيما إذا حدث قتال؟

– على الأقل، لقد نسينا القتال، فمنذ شهر لم يحدث شيء. قال الرجل.

كان الرجل أسمر وذا ذقن مدببة ولا يشبه الأتراك، وكان نحيفاً وعيناه زرقاوان، بصق وأخذ نفساً عميقاً، ثم قضم من جديد رغيف الخز، وراح يمضغ بسرعة.

قال الرجل بالعربية وفمه مليء بالخبز:

- اسمي محفوظ، أنا تركي، إلا أنني أتكلم العربية، يقولون إنك أتيت البارحة وكنت مصاباً.

- صحيح.

- سوف تعتاد على العيش هنا وعليك ألا تقترب من الضباط.

- أين هم الآن، إنني لا أرى ضباطاً؟ سأل ربيع.

- إنهم يختبئون في الغابة، وأضاف بصوت خافت، إنهم أنذال.

عبثت الريح بشعر محفوظ فانكشف أثر جرح طويل في رأسه واصل إلى جبهته. كان منظره مضحكاً وهو يمضغ الخبز ، فقد تكورت طابة كبيرة في كلا خديه بحيث ضاعت ذقنه بين الانتفاخين وتطاول فمه وصغُرت عيناه، مسح ربيع أنفه كم معطفه ثم شرق كي يسلّك صوته.

- ضربوك على رأسك، أولاد الحرام . آ؟ سأل ربيع.

- كادوا يقتلوني، كان ذلك في الصيف، ذهبت لأسرق من الإنكليز أطعمة وسجائر ، ولكنهم شعروا بي وحسبوا إنني أتسلل لقتلهم، لا أعرف بالذات ماذا حسبوا، المهم أنهم هجموا عليّ وضربني أحدهم بالسيف على رأسي، الحمد لله أنهم حسبوني قد قتلت فتركوني، وزحفت طوال الليل إلى الخندق، كنت أشعر بظوظ رأسي ينبض تحت يدي، وقد أنقذني طبيب ألماني.

عبّ قليلاً من الماء من كوز معدني ثم راح يلف سيجارة في ورقة عتيقة طبع عليها نداء من الإنكليز إلى الجنود الأتراك والعرب، أشعل سيجارة وهو يتابع بنظره عصافير السيجارة الحقول وهي تطير جماعات فوق الأرض المشبعة بالأمطار، حطت العصافير فوق شجيرة وعلا صوتها وهي تزقزق بلا نم، رد عليها شحرور من الغابة، فجاء صوته بعيداً وعميقاً.

تابع محفوظ بعد أن مسح عينيه من الدمع الذي طفح فيهما من دخان السيجارة الثقيل ثم تمطى ومد قدميه فبان الحذاء العسكري الإنكليزي الذي يرتديه. كان محفوظ قد غنمه من جثة جندي إنكليزي قتل في خندق الأتراك:

- بعد أن أصلحوا لي رأسي بعت البندقية وهربت إلى قريتي التي هي في ضواحي أدنه، قررت أن لا أحارب بعد ذلك أبداً، وفي الليالي كنت حلم برجل يحمل

فأساً ويهوي به على رأسي، وبعد مدة أصبحت كالمجنون بسبب الصداع الذي انتابني، كنت أرى المجندين يمرون خلال أدنه فأحس بالغثيان، وفي إحدى المرات لحقتني وشاية فجاء رجا الشرطة وقبضوا علي وأنا مختبئ في مستودع المؤونة الموجود تحت المطبخ، وضعوني في السجن ثلاثين يوماً كنت مرتاحاً هناك، ولكنهم أرسلوني إلى هنا، اتفو، إنني الآن نصف مجنون وهم يريدونني مجنوناً كاملاً.

سحب نفساً من سيجارته ثم تابع:

– خذ نفساً من السيجارة! أعطاه السيجارة. في المرة القادمة سأرمي مدحت باشا! نعم؟ لا تعرفه... آ؟ إنه قائد الفرقة هنا وهو يقبع في جحره في الغابة، وعندما يشتهي مضاجعة زوجاته يرحل إلى قصره، وهناك تقم زوجاته حفلاً على كرشه حتى ينحف. سأقتله يوماً ولكن إياك أن تقول ذلك لأحد، هل تحب الراكي؟

قال ربيع وهو ينفث الدخان ذا الرائحة الكريهة:

– ما هذا التتن يا الله؟ كأنه خرقة، وما هذا الراكي؟

– إنه العرق، عرق يوناني أصيل، لم تشرب منه... آ؟ هناك أرملة يونانية في القرية، وأشار إلى خلف الغابة، تقدم لي زجاجة كلما ذهبت إليها...

– ولماذا تدفع لك بالزجاجة؟ هل تنظف لها الزريبة؟

– ليس عندها حيوان غيري. إنني أضاجعها. ضحك ربيع حتى انتابته موجة سعال قوية من فعل دخان السيجارة فأعادها هـ. سأذهب الليلة إليها، هل تذهب معي؟ .... ماذا؟ كلا؟ ولم لا؟ سوف تعجبها كثيراً، إنك وسيم وقوي، لست ضعيفاً وأطرش مثلي.

– لا أريد أن أضاجع قحباتك أيها المجنون، قاطعه ربيع.

– إنك على حق، أنا مجنون، ولكنها أرمة محترمة وليست مومساً، على كل حال إنك تعجبني سأحضر لك من عندها دجاجة مسلوقة وزجاجة راكي، إلى اللقاء.

– إلى اللقاء، قالها ربيع وهو ناعس، تبعه بنظره، كان محفوظ يميل إلى اليمين وإلى اليسار، كالنواس عندما يسير، كان يرتدي معطفاً عسكرياً كبيراً لا يناسبه فاستغرب ربيع كيف يتحمل هذا الإنسان الضعيف ثقل المعطف.

في المساء، هبت ريح قوية، قطبية، على السهل، التجأ الجنود إلى الخنادق

يحتمون من الصقيع بعد أن أشعلوا أغصان أشجار الغابة المتيبسة وراحوا يتلذذون بالدفء. كانت الرياح تصفر فوق رؤوسهم وتقذفهم بالأعشاب اليابسة وبالغبار، كانت أصوات الأشجار وهي تتلاطم تسمع من الخنادق، أما النار التي أشعلها ثلاثة من الجنود قريباً من مكان نوم ربيع فقد كانت تتراقص كالمجنونة، ترسم أشباحاً كثيرة على جدران الخندق، بينما اتكأ ربيع ساهماً في النار يفكر في حلب وفي أمه. في تلك الأثناء سقط جرذ من جرذان الحقول خطأً في الخندق، كان هارباً من العاصفة فأحدث هرجاً ومرجاً وتصايح الجنود وهم يحاولون قتله، ثم هدأ الجميع بعد أن لقنه أحد الجنود الدهاة درساً بأخمص بندقيته.

كان الجنود الثلاثة وهم الرجل صاحب الوجه المجدور والرجل السمين والثالث رجل اسمه صبحي ذو لحية غزاها الشيب وقد بلغ سن الأربعين، وهو عربي من مدينة إسكندرون، كان قد دب فيهم النشاط بعد أن لاحقوا الجرذ فراحوا يتناقشون بصوت عال لا يخو من السباب والشتائم، قال ذو الوجه المجدور:

– ضعوني في السجن، في زنزانة صغيرة لا تتسع لإنسان واحد ومع ذلك كان هناك سجين آخر، جلدة وعظمة، كان طوال النهار يفلّي رأسه ويسحق القمل بأظافره، مع أن القمل كان يتزايد كالجراد. وجدته مرة نائماً، كان القمل يسير على وجهه ومعطفه في خطوط، أما لحيته ورأسه فقد كانت تغلي، حلقت له رأسه ولحيته وبعد يومين لحقني القمل وراح يعج في رأسي كالشيطان، اتفوه، بصق من القرف، إن هذه الخنادق موبوءة، كل جندي يحمل نصف ثقله من القمل.

– يجب أن تنظف نفسك من القمل لكي لا تموت من فقر الدم ومن التيفوس، قال صبحي.

– وكيف؟ علي أن أذهب إلى حمام السلطان حتى أنظف نفسي من كل هذه القذارات.

– وأي سلطان سيدعك تدخل حمامه أيها الأحمق، سيشنقونك من عضوك، قال السمين.

– لا يهم، يقولون إنها حمام كبيرة، قال المجدور.

– سوف تتسع لك وله آ...؟ انظر إلى عجيزتك كم هي ناعمة، رد عليه

صبحي.

– صبراً يا رفاقي، قال السمين، مرة نزلت إلى المدينة لأتسوق، مررت على الحمام، قلت لنفسي يا ولد تحمم، مضى عليك شهران ولم تصب ولا حتى طاسة واحدة، وهناك حدثت معركة بالأيدي.

قالوا إن أحدهم لمس فخذ آغا كان يستحم، فضربه حتى سال الدم من وجهه. كان الرجل يقسم أنه لمس الآغا دون قصد، إلا أن الآغا أصر على أن الرجل لمسه عن قصد... وبينما كان الضرب مشتغلاً كان الجميع يحدقون بعجيزة الآغا البيضاء ويحسدون الرجل لأنه لمسها.

ضحك الجميع ثم توالد النكات القذرة، وفي منتصف الليل هدأ الجميع ونام بعضهم وراح بعضهم الآخر يحلم بعد أن طار النوم من أعينهم. راحت ندف رقيقة من الثلج تهطل على السهل وعلى الخنادق وعلى أجساد النائمين والحالمين، كان ربيع يحلم بعائشة ابنة أبي حديدة صاحب معمل النشاء، لقد تركت الباب مفتوحاً بعد أن أخذت منه الحاجيات التي اشتراها من السوق، كانت جميلة وهيفاء وذات عينين حالمتين، وقفت عند باب غرفتها وراحت تشير له أن يدخل:

– ادخل، لا تستح، إذا كنت سأنتظر حتى يزول الخجل فسأنتظر طويلاً! تعال يا ولد مالك واقفاً كالأبله، إنني امرأة، لماذا لم تخطني حتى الآن؟ انظر إلى شنبك لقد أصبحت رجلاً، تعال ضمني إلى صدرك، فإن كنت تريدني زوجة لك، عليك أن تكسر أضلعي بيديك أولاً، وهل تظن أن أبي سيطردك؟ لماذا لا تسأله؟ قال لي إنه ينتظرك، وإن لم تأت فسوف يبصق في وجهك، ويطردك من المعمل، من يملك تفاحة عليه أن يأكلها قبل أن تستوي وتتعفن، آها.. اخطُ أكثر، تعال، أنا أحبك أيضاً يا فارسي! ولماذا ترتعد؟ من رفسك على قفاك؟ إنك حافي القدمين أيها الرعديد، وأين وضعت صرمايتك؟ إنك ترتجف يا حبيبي، لا يهم، حافي أم لا، المهم أن لا ترتجف... ماذا؟ لست خائفاً...؟ بل من البرد؟ تعال لأضمك، سترى صدراً دافئاً، خذه، هذا هو صدري، من يجب عليه أن يعطي أغلى ما عنده!

ركض ربيع وخرج من الدار وهو يهرول، كان كالمذعور، لقد انقلبت عائشة إلى تمثال من الجليد قال في نفسه:

– لماذا علي أن أركض حافياً، ومن أين أتى البرد، إننا في شهر تموز آه... لقد تجمدت قدماي، علي أن أشعل ناراً. سقط ربيع على الأرض وتدحرج، ما عاد يشعر بأقدامه وفجأة... وجد نفسه معلقاً من قدميه بحبل، كانت هناك ألوف الديدان تأكل لحمه.

– آه، أمي، عائشة، إنني أموت، آه قدماي... قدماي.

كان يحلم، فتح عينيه، إنه ثقب في جدار الخندق، لم يكن معلقاً من قدميه، كانت قدماه خارج المعطف الذي غطى نفسه به، كان الثلج قد غطاهما، نهض ونفض الثلج عنه استغرب لكمية الثلوج التي هطلت، كان الثلج يغطي جدران الخندق، وكان السهل أبيض، واختفت الغابة بفعل ندف الثلج الذي كان يهل بكثافة، أما إلى الأمام حيث خنادق الإنكليز فقد كان كل شيء هادئاً، وكانت هناك نار أشعلها الحراس الإنكليز بجانب الخندق.

قال ربيع الزيات لنفسه بعد أن أنعشه منظر الثلج على السهل:

– أعوذ بالله، أي حلم هذا، لقد تجمدت قدماي بالفعل، انظري يا أمي ما يحدث لي. كان علي أن أتزوج عائشة، تقول رجل؟ طبعاً أنا رجل، وهل أنا حريمة، وهل تأتي امرأة إلى هنا، ولماذا انقلبت إلى تمثال من الجليد؟ كانت دائماً تشعرني بالحرارة عندما كنت أقابلها، وفي تلك المرة التي لمستها فيها، لقد تصبب العرق مني، وتلعثمت وقلت تفاهات لا معنى لها، وتحرك شيء أسفل بطني، ها... ها.. (ضحك) لم تستفد من كل الفرص يا ولد، شخص مثلك لا يجب أن يكون صبوراً إلى هذا الحد. كان يجب أن أفعل شيئاً ما، عند المومس سارة فشلت أول مرة، ولكن بعد ذلك جعلتها تتمتع، وفي إحدى المرات قبلتني، مع أن سارة لم تكن تقبل الزبائن، آه يا سارة، الأمور هنا ليست على ما يرام، ليست كما ف سريرك الدافئ العريض، إنني أستغرب لهذا السرير وأتمناه. لم أر سريراً بهذا العرض من قبل، وله رائحة لا أجدها في أي مكان، إلا عندها، رائحة عطور أم رائحة عرق جسد المرأة اللذيذ الدافئ؟ شم كفيه ليجد نفس الرائحة دون جدوى، إنه عرق المومسات، أي ابن قحبة الذي أرسلني إلى هنا؟ كان علي أن أكون في أحضان سارة، ولكن سارة هربت، تزوجت يهودياً وسافرت إلى فلسطين، لعل الناس هناك لا يعرفون عنها أي شيء، إنني اعرفها

جيداً، لديها هواية، الزنى عندها هواية وليس حرفة، سوف يصبح ذلك اليهودي الأبله قواداً ماهراً.

سمع صوت انسحاق الثلج، كان هناك رجل قادم من الغابة باتجاه الخنادق، كان يسير بصعوبة بسبب طراوة الثلج وانسحاقه تحت قدميه، وعندما اقترب الرجل عرفه ربيع، كان محفوظاً، إنه يرقص كالنواس.

سمع صوت الحارس العثماني يسأل:

– من أنت؟

– جندي من خدم السلطان.

– ماذا تفعل في هذا الوقت يا ابن الكلب؟

أجابه محفوظ:

– كنت عند أمك أتغوط.

فقال الحارس:

– اذهب، عليك ستين لعنة، تتغوط عند أمي أيها القميء؟ إنك تعملها في سروالك كالعادة ورائحتك نتنة من كيلومتر.

– اسكت وإلا اقتربت منك أكثر! قال محفوظ.

– اذهب ونم، صحيح إنك مجنون...!

قفز محفوظ داخل الخندق، كان وجهه مزرقاً من البرد. اقترب من ربيع وقال:

– آهه، إنك مستيقظ، لعلك تنتظرني...

– ولماذا أنتظرك؟ رد ربيع ثم عاد لينظر إلى السهل...

– لقد جئت بما وعدتك به، اخرج من تحت معطفه رزمة ملفوفة بخرقة، دجاجة مسلوقة وقنينة راكي، إنك تعجني أيها الرجل، سأكون كلبك الوفي.

مد محفوظ الخرقة على أرضية مكان نوم ربيع، ثم صب العرق في وعاء معدني وأضاف إليه قبضتين من الثلج الأبيض فاستحال لون العرق إلى حليبي وراحا يأكلان، شرب محفوظ وقال:

– في صحة أرملتي الجميلة فروساكي.

غبّ قليلاً من العرق فاحمر وجهه ثم قدم الوعاء إلى ربيع مشجعاً: هيا، اشرب

اشرب... سوف تعود روحك إليك. في هذا العرق سقطت دموع الأرملة فروساكي حزناً على زوجها، من يشرب دموع الأرامل يدخل الجنة!

– ولكنني لم أذقه من قبل.

– سوف تتعود يا أخي، خذ نفساً عميقاً ثم اشرب دون أن تتذوقه، ورأساً إلى حلقك.

شرب ربيع، تغير شكل وجهه كأنه اشمأز من رائحة نتنة، نفخ طويلاً وشهق:

– كذا في أمه، إنه بدون طعمة، قال ربيع وهو يحاول أن يعيد تنفسه إلى شكله الطبيعي.

– عندما تشرب إياك أن تفكر كيف ستفعل ذلك، إذا فعلت نفس الشيء عندما تأكل فسوف تموت مختنقاً.

شرب ربيع ثانية، وتمزمز ثم أعطى الوعاء إلى محفوظ.

– إنه يحرق معدتي، على كل إنه يشعرني بالدفء، ما شكل أرملتك هذه؟

زفر محفوظ ثم وضع الوعاء:

– إنها جميلة، صدرها ممتلئ وكذلك ردفاها، ولديها بيت جميل أبيض، كلمتها عنك هذه الليلة، قالت إنها تود أن ترك، إنها لا تشبع يا أخي.

سحق محفوظ فخذ الدجاجة بأسنانه وشرب من الوعاء، قال وهو يتجشأ:

– طردتني اليوم، قذفتني بفردة حذاء عتيقة وضخمة، الله أعلم من أين أتت بها، كانت ترغب أكثر من استطاعتي، فتركتها نصف عارية تنشج وتسب باليونانية، عليك أن تشبعها أنت يا أخي! أما أنا فيكفيني زجاجة راكي كل أسبوع، حتى تنتهي هذه الحرب الملعونة، إنني نصف مجنون أو هكذا يحسبون، وسأكون في تمام عقلي عندما أقتل مدحت باشا.

توقف ربيع عن المضغ وهمس:

– إياك أن تفعل شيئاً، إنك فاقد العقل بالفعل.

– عليك أن ترفع صوتك لأنني لا أسمعك ولماذا أنت مذعور؟

رد ربيع وهو يهدده بقبضته:

– سوف يقتلونك قبل أن تصل إليه.

– إنني أحتفظ ببندقية إنكليزية بحالة جيدة في الغابة، أما الرصاصات فهي في جيبي.

اخرج ست رصاصات دافئة وعرضها على ربيع.

– ولماذا تريد قتله؟

– عندما هربت إلى القرية ثم أعادوني إلى هنا استدعاني مدحت باشا وجلدني برسن حمار. عندها بصقت في وجهه فأوقفني أما شجرة وأقسم أنه سيطلق النار علي، تشهدت، وبالفعل كبس على الزناد إلا أن الرصاصة لم تنطلق، كانت فاسدة، قذف البندقية إلى الأرض، وراح يضربني بيديه ورجليه حتى فقدت الوعي، لم أمت ولكنني أقسمت أن أقتله.

عب طويلاً من الوعاء ثم مسح شفتي بكم معطفه، وبدأ يلف سيجارة، راقبه ربيع وقد بدأ يحس بخمول في رأسه ثم أضاف محفوظ:

– إنه يتلذذ بالقتل، فقد قتل حتى الآن ثلاثة أسرى من الإنكليز يقولون إنه يضاجعهم ثم يذبحهم بالسكين، وهو الذي قتل زوج الأرملة فروساكي، إن الجميع يتمنون موته، في الماضي كان يأتي إلى الخنادق ويعطي الأوامر بالهجوم على الخنادق المعادية وكل من يتلكأ يأمر بإطلاق النار عليه، والهجوم على الخنادق الإنجليزية ليس بالأمر السهل حيث أن نصف المهاجمين يقتلون، وما تكاد ببالغ الصعوبة تقارب تلك الخنادق حتى تعود إلى هنا، لا يهمه كم من الناس سيقتل، وهو يعلم أن هذا العمل لا معنى له.

أشعل السيجارة ثم أعطاها لربيع وراح يلف سيجارة أخرى لنفسه. كانت عيناه قد احمرتا إلا أن شعاعاً رهيباً صامتاً راح ينعكس فيهما، مد لسانه ورطب الورقة ثم أشعلها وراح يدخن بصمت، سعل ثم قال:

– لذلك سأقتله لقد أقسمت لفروساكي ولعلها تؤويني عندها لأنني سأثأر لموت زوجها.

نهض ربيع وجمع قليلاً من الثلج الأبيض في الوعاء ثم صب ك ما بقي في الزجاجة على الثلج وراح يشرب، أحس بحرارة تُلهِب وجهه وأحشاءه، كان لسانه قد أصبح ثقيلاً، ضرب ساق محفوظ بكفه ثم قرب وجهه من أذنه وهمس:

– يقولون إنك مجنون... آ؟ لست كذلك، هم المجانين، اشرب يا أخ، يبدو لي أنني بدأت أحب هذا الشراب، سوف نقتل مدحت باشا سوية (ضحك ربيع) قل لأرملتك ذلك، سوف نقتل ذاك الخنزير!

نام محفوظ في مكانه وهو مقرفص، وعلا شخيره، صاحت الديكة من بعيد، وراح الحارس الإنكليزي يغني أغنية حزينة انسابت مع الريح الخفيفة وطافت على خنادق الأتراك.

أصاخ الحارس التركي السمع، أما ربع فقد انسابت دمعتان من عينيه وهو يستمع، لم يكن يفهم معنى الأغنية، إلا أن اللحن فجر فيه أشواقاً عدة، ولما انتهت الأغنية وسكت الإنكليزي أحس ربيع بالبرد، وكأن الصمت قد أطفأ الجمر الذي كان يتدفأ به.

* * *

(2)

كانت الحرب تدور وكأنها لن تنتهي، فقد دخلت في أتونها كل دول أوروبا، وروسيا وشمال أفريقيا ودول الشرق الأوسط وإيران وحتى الهند، وكان الجيش التركي مهلهلاً يتلقى الضربات في كل مكان يتواجد فيه، فروح الإمبراطورية كانت تتبدد وجيوش السلطان فاترة القوى ومعنوياتها منهارة.

كان فشل حملة القفقاس قد قصم ظهر (الباب العالي) وراحت الأمور تسوء أكثر فأكثر، فالإدارة كانت فاسدة والجيش تنقصه العدة والذخائر والمدافع، وكان معظم جنود الجيش هم من العرب الذين جندوا بالقوة وسحبوا إلى جبهات القتال دون أي تدريب يذكر، كما أن الهروب من الجبهات أصبح عادة للجنود المساكين، الجائعين والبردانين.

في ذلك الحين كانت حملة القفقاس تسير إلى نهايتها السيئة، وبأمر من الحكومة الهندية (الإنكليزية) قام الأسطول الحربي الإنكليزي بمحاصرة الشواطئ العراقية على الخليج وقصف مدينة الفاو التي كانت في أيدي الأتراك، وبعد يومين من القصف تردد إلى سمع نيكسون قائد الحملة أن الأتراك قد هربوا من المدينة فاحتلها ثم سارت الحملة صاعدة إلى معامل تكرير النفط في عبدان، وفي تلك الأثناء كان الجيش التركي يخلي مدينة البصرة دون قتال، فقد رفض الجنود العرب القتال فهربوا وهرب معهم الجنود الأتراك.

تتالت الهزائم التي لحقت بالجيش التركي على يد الإنكليز في العراق، فبعد أن سقطت البصرة وهي متنفس العراق على الخليج، سقطت مدينة القرنة والعمارة وسوق الشيوخ والناصرية وراحت الحرب تقترب من كوت العمارة.

كان الأتراك قد عززوا دفاعهم أخيراً في الكوت فحفروا الخناق وحصلوا على إمدادات مهمة من سورية، فقد كانت أوامر الأستانة صريحة: (عدم تمكين الإنكليز الكفار من إحراز أي تقدم آخر واحتلال الكوت) فاستغل الرائد كمال قائد الحماية في الكوت ذلك وطلب تعزيزات أخرى وإلا: (فإننا لن نستطيع الصمود لأن الإنكليز يسيرون بجيش يفوقنا عدداً) حسب برقيته التي أرسلها إلى الأستانة.

استجابت القيادة لطلب كمال آغا وأرسلت له من حلب قافلة من خمسمائة مقاتل انطلقت على عجل مع سبعين بغلاً محملاً بالذخائر والأطعمة، فوصلت الموصل في منتصف شهر أيلول 1915 وبدون أن تستريح تابعت نزولاً إلى بغداد.

كانت القافلة تسير في خط طويل عبر الجبال والوديان، فقد كانت الطرقات ضيقة لا تتسع لأكثر من عربة يجرها بغل، وكان الرجال . وأكثرهم من العرب . يغذون السير وهم يحملون بنادقهم الطويلة بعد أن وزّعت عليهم عشر طلقات لكل رجل.

كان عمر بنبوك زوج بهية أخت ربيع الزيات من ضمن القافلة، وقد جنده الأتراك بعد أن قبضوا عليه بكمين في أحد الشوارع، وقد التقى في الثكنة بابن عمه صالح وبصديقه وحيد الأسدي الذي كان قد كسر طقم أسنانه أثناء مشاجرة مع عريف تركي.

توقف الطابور للاستراحة عشر دقائق، فاستلقى عمر بين صالح بنبوك ووحيد الأسدي وهو ينوي أن يغفو ولو لدقائق، فقد كان التعب يشله تماماً بعد أن ساروا أكثر من ثلاثة أيام رغم أنه كان قوي البنية، كان عمر أسمر البشرة خشن اليدين ذا عذارين كبيرين يمسدهما بيده دائماً بحركة لاإرادية، وكان لا يزال يرتدي ألبسته المدنية ويضع على رأسه طاقية مصنوعة من شعر الجمل، وبخلاف صالح الذي استطاع أن يحصل على ألبسة ومعطف وطاقية عسكرية.

سكن الجميع قليلاً إلا أن عمرَ لم يتمكن من النوم، فقد كان الإرهاق يمنعه من ذلك. صاح موجهاً كلامه إلى وحيد:

– كل الحق عليك أيها الأحمق، لماذا أعطيت مكانك في العربة إلى ذلك التركي القذر؟

– لقد أنزلني بالقوة، قال وحيد وهو يصفر بفمه.

– كان عليك أن تضربه ولا تنزل، حقيقي إنك امرأة!

– لا أريد أن أكسر رأس بعد أن كسروا لي طقم أسناني، كيف سآكل الآن، والخبز الذي يطعموننا إياه قاس كالحجر، ضحك الجنود المستلقون حولهم من طريقة وحيد في الكلام.

– سوف أمضغ لك الطعام في فمي أولاً ثم أزقه في فمك.

فعلق أحد الجنود:

– بل عليك أن تعطيه بزّك لكي تنبت له أسنان أخرى!.

انفجر الجنود ضاحكين، فاحمر وجه وحيد وصاح في الجندي وهو يصفر:

– أنت أيها الكلب الجربان، أمك في حاجة إلى مثل هذا (البز).

فصاح جندي آخر وهو يكاد يختنق من الضحك:

– لن تستطيع أن تعضنا بعد الآن، لم يبق لك إلا أن تهز ذنبك.

فقال عمر بنبوك وهو يريد أن يداري صديقه:

– بس يا أولاد الحلال، لقد فقد أسنانه ولكنه لم يفقد عضوه بعد.

نهض وحيد كالملسوع وملأ كفه بالتراب الأحمر وقذفه نحو عمر فحاول هذا الهرب، فتصايح الجنود وهم يضحكون بصوت عال، وشرع وحيد يركض خلف عمر وهو يصيح:

– سأقطع لسانك أيها المشاغب اللعين.

عادت القافلة إلى السير وكان من نصيب الثلاثة أن جلسوا في عربة محملة بالخبز يحرسها جندي تركي. جلس صالح الذي لم يستطع أن يغفو كما فعل رفيقاه وراح يتأمل الغابات والقرى التي كانوا يمرون خلالها، كان خبر مرور القافلة يسبق سيرها، فقد أوصد الناس على أنفسهم الأبواب ومنعوا نساءهم من الخروج والتسكع، كما أنهم قاموا بجمع دجاجاتهم وأغنامهم وحميرهم قبل مرور القافلة خوفاً عليها من السرقة.

تذكر صالح، مشتاقاً، لعبة الداما والشطرنج، فمنذ شهر ونصف لم يلعب أي دق ولذلك تأمل أنه حالما يصلون إلى حيث يسافرون فإن الأمور سوف تستوي وسوف يستطيع ممارسة هذا الولع، ولم يكن صالح يعلم إلى أين يسافرون، كل ما علمه أنهم ذاهبون إلى الجبهة العراقية، وأنهم قد يضرون للقتال ضد الإنكليز الذين كان الأتراك يصفونهم بالكفار.

وبالفعل، كان صالح من أوائل لاعبي الداما في حلب، وهو يفكر بتأليف كتاب فيها، أما اللعب بالشطرنج فلا بأس، فهم خصم عنيد لأمهر اللاعبين، لقد استطاع

أن يهزم الشيخ داوود الصيرفي عدة مرات وهو المعروف عنه أنه داهية في اللعب.

ابتسم صالح وهو يتذكر كيف خسر الشيخ داوود مرة، فحلف أن لا يغادر صالح بيته حتى يخسر، ولكن دون جدوى، فقد مكث صالح خمسة عشر يوماً وهو يلاعب الشيخ، إلا أن الشيخ لم يستطع أن يكسب دقاً واحداً، وحينما عاد صالح إلى بيته، كان الناس قد قلبوا الدنيا بحثاً عنه حتى إنهم حسبوه قد طفش أو مات، وبعد أن اطمأنوا عليه سألته زوجته عن الحنطة التي ذهب إلى المطحنة ليطحنها، إلا أنه كان قد نسي الموضوع، رد: كفى. فقالت له زوجته: يا رجّال، اترك هذه اللعبة الشيطانية، سوف نموت من الجوع، الحنطة ضاعت، ونحن لا نملك مؤونة للشتاء؟، وبعد يومين ذهب ابن عمه عمر إلى المدار وأحضر الطحين.

وصلت القافلة أخيراً إلى مدينة كوت العمارة، كانت المدينة تعج بالجنود والبغال والمؤن، فازدحمت بهم الشوارع غير المرصوفة والتي علا فيها الغبار، كان الجميع في عجلة يتصايحون باللغتين العربية والتركية، وكانت الدور الطينية فارغة من أصحابها الذين هربوا إلى الشمال خوفاً من المعارك، إلا أن كثيراً من هذه البيوت لم تسلم من النهب في وضح النهار حيث كان الجنود يكسرون الأبواب ويدخلون باحثين عن بعض الغنائم أو من أجل المبيت ليلة أو ليلتين ريثما يتم فرزهم في تلك الخنادق العديدة التي حفرت في السهل المقابل للمدينة. كانت الخنادق تشكل أربعة أو خمسة أقواس تحيط بالمدينة من طرف البر تنتهي في أولها وآخرها بمنحدر نهر دجلة العريض الذي كان يسيل بتمهل، أما في طرف النهر فقد دمرت عدة بيوت وأحرقت من جراء قصف السفن الإنكليزية التي حاولت الاقتراب عدة مرات من المدينة.

تم فرز الكتيبة، فعسكرت في الخندق الثالث، وكان هذا الخندق متصلاً بالخنادق الأمامية والخلفي بواسطة خنادق اتصال ضيقة، وعلم فيما بعد أن بعض الضباط الألمان قد أشرفوا على تصميم وحفر تلك الخنادق، إلا أنه رغم ذلك لم تبطن أبداً، بل ظل التراب ينهمر إلى أسفل الخنادق عند أقل لمسة بسبب هشاشة التربة في هذا المكان. استقبلت القافلة والتي سميت بالكتيبة الرابعة والأربعين بالهتاف الممزوج بالسخرية والضحكات المائعة من قبل الجنود الآخرين، وكان معظمهم أيضاً من العرب فصاح أحدهم:

– هل جئتم تهزمون الإنكليز؟

وصاح آخر:

– يا أخوان... ها قد أصبحنا في أمان، جاءت النجدة.

وحدث لغط فظ:

– انظروا إلى هذا... كيف سيحارب بمثل هذه المؤخرة الثقيلة؟

– على مهلك يا أخ، ستفتق قبل أن تبدأ المعركة.

– انظروا... انظروا، كأنه في بيته وفي حضن أمه، لقد جاء بصرمايته الحمراء!

نهض رجل من القادمين، كان اسمه عبد الرحيم وقال وهو يريد أن يسكت الجنود:

– بس يا أخوان... نحن عرب مثلكم، جئنا من حلب، لماذا تستهزئون بنا هكذا؟ لو كنتم قبضايات لكان الإنكليز الآن في البحر، لكنكم حريم، تستحقون نتف شواربكم، سوف ترون ما سنفعله بالإنكليز.

ضج الخندق بالضحك والصفير والتعليقات القذرة، ضحك عمر بنبوك بصوت عال، أما وحيد الأسدي فقد بانت لثته الوردية وغابت عيناه بين ثنيات خدوده وهو يصفر ضاحكاً.

وقف صالح بنبوك وقال بصوت عال أسكت الجنود الهائجين:

– ألا يوجد بينكم أحد من حلب؟

فرد عليه عدة جنود مرة واحدة بكلام يفهم منه أنهم من بغداد والبصرة، فتابع صالح:

– إن كنتم من بغداد أم من البصرة، فهذا لا يهم، سوف نفطس جميعاً هنا، سوف نرى أي ابن قحبة هذا الذي لن يبول في لباسه عندما يأتي الإنكليز، كل واحد يشوف شغله!

خفتت الأصوات بفعل هذا التنبؤ الذي أطلقه صالح والذي راح بعد ذلك يجهز مسنداً له على جدار الخندق، ثم صنع لنفسه مقعداً ومكاناً من التراب كي يضع عليه رقعة الشطرنج.

في المساء وعندما خفت الحرارة قليلاً، انقسم جنود الخندق الثالث إلى مجموعات صغيرة تثرثر فيما بينها، جلس عمر وصالح بنبوك ووحيد الأسدي وبعض الجنود من المعارف في الخندق متحلقين حول بعضهم يتحدثون في أمورهم، كان وحيد الأسدي يشكو همومه لأصحابه، فالذي كان يشغل باله، هو زوجته وأولاده، الذين تركهم في بيت حماته ولا يدري كيف سيعيشون، إلا أن عمر بنبوك طمأنه، فولد وحيد الأكبر يستطيع الخروج للعمل، في هذه الأثناء اقترب رجل منهم، يبدو أنه من دمشق، وقال:

مرحبا يا أخوان... إنني أبحث عن شخص اسمه صالح بنبوك، يقولون إنه وصل اليوم مع الجنود من حلب.

فرد صالح وهو مستغرب:

- ماذا تريد منه؟

- سمعت عنه في دمشق منذ سنوات، إنه لاعب شطرنج.

- أنا صالح بنبوك، اجلس.

أوسعوا له مكاناً فجلس ثم قال:

- كيف حدث لنلتقي هنا؟ ... لقد حدثني عنك رجل مصري اسمه الأستاذ محمد الحنفي قال إنه جاء إلى حلب ولعب معك، لقد مدحك كثيراً، قال إنك أخذت منه دقاً.

كان الجميع يحدقون بالرجل الدمشقي، فأحس بالإحراج، سلّك صوته ثم قال:

- ... اسمي عبد المهيمن، وأنا تاجر حبال... أريد أن ألعب معك إن أردت، لقد صنعت أحجار الشطرنج من عجين الخبز... لدي طقمين من الأحجار، سأعطيك واحداً إن أردت.

فقال صالح وهو يبدي سعادة غامرة:

- هذا شيء جميل... أشكرك، ولكن ماذا تفعل هنا؟

فقال الرجل:

- جندني الأتراك منذ ستة أشهر، كنت في البصرة، وقد هاجمنا الهنود والإنكليز وهم يتعقبوننا من البصرة وحتى هنا، والحبل على الجرار.

فقال صالح:

– الهنود؟... لماذا الهنود؟

– إن الإنكليز يجندون رجال المستعمرات من هنود وأستراليين وغيرهم... وهم الآن يقودون العرب في الأماكن التي يحتلونها، ويقذفون بهم في أتون هذه الحرب، وقد استطاعوا طردنا من البصرة وحتى هذا المكان.

أخفت صوته ثم تابع:

– بل قل إننا نهرب، قسماً بالله العظيم إننا نهرب، من يريد أن يحارب؟ العرب؟ ولماذا يموتون؟ إن هذه الحرب ليست لنا، فالأتراك يكرهوننا قبل أن نكرههم، انظروا إلى هؤلاء الجنود المساكين. لقد خطفوهم من بيوتهم ليحاربوا من أجل دولة استعمرتنا أربعمئة سنة. البارحة وقبل أن تأتوا أنتم، أعدموا خمسة من العرب لأنهم هربوا، لقد هرب كثيرون ولكنهم أمسكوا بهؤلاء وجعلوهم كبش فداء، إنهم هناك، بالقرب من الشاطئ، تركوا جثثهم لنشاهدها، إنهم أنذال هؤلاء العثمانيون.

تنهد عمر بنبوك ثم قال:

– وهل سيهاجمنا الإنكليز بالتأكيد؟

رد عبد المهيمن قائلاً:

– لقد جاءت سفنهم عدة مرات إلى هنا وقصفت المدينة، وهم يجهزون أنفسهم جيداً، وربما هجموا غداً أو بعد غد.

فقال وحيد الأسدي وكأنه اشتم شيئاً قذراً:

– لا يا عم... سأهرب في الليل، أنا لا أريد أن أقتل، فلدي أطفال وزوجة ينتظرونني في البيت، إنهم بالتأكيد جائعون.

فنهره عمر بنبوك قائلاً:

– اجلس أيها العجوز ولا تكن أحمق، وهل لدينا نحن قطط؟ ثم إلى أين نذهب ونحن لا نعلم الله أين وضعنا، ما اسم هذه المدينة؟

فرد عبد المهيمن:

– إنها كوت العمارة، ولكن الهرب ليس شيئاً سهلاً، فالشرطة العسكرية تجوب كل الطرق وتطلق النار رأسها على الهاربين، عليكم أن تصبروا، يقولون إن الأتراك سوف يقاتلون هذه المرة، وإن الإنكليز لن يتمكنوا من احتلال المدينة.

فقاطعه صالح قائلاً:

– وإن استطاعوا...؟

فأجاب وحيد منرفزاً:

– عندها نصبح مثل روث الحيوانات.

فقال عبد المهيمن:

– هذا يعني إما أن نكون قد هربنا أو متنا.

فقال عمر بنبوك:

– يبدو أننا أصبحنا بين صفاقين، الأتراك والإنكليز، لهن الله هذه الحرب القذرة.

سأل صالح عبد المهيمن:

– يقولون إن كل الدنيا تتحارب؟

– نعم . رد عبد المهيمن . لقد دخلت تركيا الحرب إكراماً للألمان، والعرب يحاربون بعضهم، انظروا. فالأتراك يجندوننا والإنكليز يجندوننا وهم يتحاربون بنا، ولا عجب أن تقتل أخاك في آخر المطاف!

سأل صالح وهو يهرش رأسه بأظافره، فوجد قملة، فسحقها:

– وما الحل؟

– على الأتراك والإنكليز أن يخرجوا من هنا، أقصد من بلادنا، فهم غرباء ويُدْخِلوننا في حروب ليس لنا فيها مصلحة.

فرد عليه وحيد:

– إنك تحلم يا أخ.

إنني لا أحلم، ولكن ذلك شيء واقعي، ألا تسمع ماذا يفعل جمال باشا في الشام؟

فقال وحيد وهو يزم شفتيه:

– لن يخرج الأتراك إلا دولة قوية مثلهم، أقصد الإنكليز.

فأيده الجميع إلا أن الدمشقي عبد المهيمن قال بعد أن أخرج كيس تبغه وبدأ يلف سيجارة:

– ومن سيخرج الإنكليز بعد ذلك؟ سوف يستعمروننا أربعمئة سنة هم أيضاً، الحل الصحيح هو أن يكف الآخرون عن اعتبار العرب كالبهائم ويتركوننا وشأننا.

أشعل عبد المهيمن سيجارته ثم أعطى كيس تبغه إلى الآخرين، أخذ عدة أنفاس متلاحقة من سيجارته ثم قال:

– تظنون أن الإنكليز سيحرروننا من الأتراك ثم يخرجون؟ إنكم تخرّفون أيها الأخوان..

فقال صالح وهو يرطّب ورقة الجرائد التي لفّ بها سيجارته:

– يا عم... إنّنا لا نحبُّ الإنكليز، ولكن على قول المثل: عدو عدوك صديقك، الأتراك والإنكليز أعداء، ونحن والأتراك أعداء، يجب إذن أن يأتي الإنكليز وهذا لمصلحتنا، شوف أهالينا في حلب وفي الشام إنّهم يموتون من الجوع، أنا بالمناسبة مات لي طفل في العام الماضي، لم تستطع أمه أن ترضعه، فقد توقف حليبها، كلّ ذلك بسبب الجوع، هذا غير المرض والنهب، كفى يا أخ...!

فصاح الناس المتجمعين حولهم:

– صحيح... صحيح.

– الأتراك يلزمهم الإنكليز.

– الإنكليزي راح ينسحبوا فوراً بعد طرد الأتراك.

– كذا وكذا في أم الاثنين.... !

وقف صالح بنبوك وأسكت الجميع بحركة من يديه، واجه الجميع بوجه صارم ثم قال:

– أنا أرى أن الأتراك لا يستطيعون الوقوف في وجه الإنكليز، خذوا مثلاً ما يجري الآن في العراق، أقصد هون، والعرب قعدوا أربعمئة سنة وما استطاعوا أن يفعلوا نفس الشيء مع الأتراك، مع أنهم طلعوا، أقصد الأتراك، جبناء، ولو أنهم لم يجندونا لكانوا خسروا الحرب من زمان، ومع ذلك قايم قاعد جمال باشا بيشنق فينا.

فقال عبد المهيمن بعد أن أقعد صالح:

– يا شباب، ما في أمان من الأوروبي، شوفوا الجزائر، صار لها زمان تحت حكم الفرنسيين. وشوفوا مصر، الإنكليز أصحابكم مستعمرينها وقاعدين من أربعين

سنة، والآن جاؤوا إلى العراق وغداً سيدخلون سورية، وايش الحجة: بدهم يساعدونا على طرد الأتراك.

استمر الحديث حتى منتصف الليل، ثم هجع الجميع وفي أنفسهم خوف من أحداث الغد. لم يهاجم الإنكليز في اليوم التالي ولا بعد يومين، بل في فجر 26 أيلول.

بدأ الإنكليز الهجوم بقصف مدفعي عنيف من البر ومن السفن الرأسية في نهر دجلة. كانت القنابل تصفر وهي نازلة ثم تنفجر في الخنادق وفوق البيوت وفي الشوارع مُخلّفة سحابات من الدخان الأسود الكثيف.

كان هناك ثلاثة مدافع تركية تعمل باتّجاه السفن إلاّ أنّه لم يمضِ وقت حتى سكت أحدها، وتعطل آخر وكان يُرابط بالقرب من الخندق الثالث.

انهالت القذائف على الخنادق الثلاثة الأولى كالجحيم، ولفَّتهم سحابةٌ سوداء حوّلت الفجر الزاهي إلى ليل معتم. قرفص الرجال في الخندق الثالث متكومين وقد أصابهم الهلع، كانت القنابل المتفجرة ترشقهم بكتل كبيرة من التراب والحجارة، واسودّت وجوههم من السخام الأسود، وراحوا يسعلون، ويبصقون، وهم يرتجفون من الهلع. حدث هرجٌ ومرج إلى جانبهم، فلم يشاهدوا كيف أنّ رجال الخندق الأول والثاني راحوا يهربون عبر خندق الاتّصال الذي تداعت جدرانه الترابية الهشة، وفي تلك اللحظة انفجرت قذيفةٌ هائلة إلى جانبهم فانهار جدار الخندق الذي كانوا يحتمون به. استطاع الرجال الخمسة التّخلص من التّراب والانبطاح من جديد فوق بعضهم البعض.

صاح عمر بنبوك بأعلى صوته وكأنّه قد أصابه الطرش:

– يا شباب، هذا يوم القيامة، أقسم بالله إنّها يوم القيامة، أستغفر الله العظيم وأتوب إليه انتشاهدوا على أرواحكم يا شباب، آه... إنّني أنزف، انظروا يوجد دم على وجهي، سأموت... والله سأموت.

لم ينظر إليه أحد ولم يفكّر أحد برفع رأسه، إلاّ أنّ قنبلة أخرى قد انفجرت غير بعيد عنهم، فعاد عمر بنبوك للصياح:

– آه... آه... لن ينفكوا حتى يقتلونا، يا أخوان هيا نهرب، الإنكليز أشرار مثل

إبليس آه... يامو، الدم مازال ينزف من وجهي (وبعد فترة وجيزة) إنني لا أرى، لقد عميت يا شباب، واحد يشوف شو صار لي.

فصاح صالح، وكان رأسه فوق ظهر عمر:

- اسكت يا عمر، سنموت كلّنا.

- ولكنّني عميت.

- هذا لا يهم الآن، المهم أنّك حي، صاح الأسدي.

في هذه الأثناء حدث إطلاق رصاص داخل الخندق، فسقط أحد الرجال وهو يرتعش ثمّ همد، كان الأتراك يطلقون على الهاربين من الخنادق الأخرى، عند ذلك صاح أحدهم باللغة التركية وهو يهدد ببندقيته:

- أيها الكلاب، تريدون أن يذبحونا، عودوا إلى الخنادق وإلا قتلناكم، أطلقوا النار على الإنكليز الكفار... قولوا: الله أكبر، هيا، الله أكبر!

سُمِع لغط وصياح معناه أنّ الإنكليز يهاجمون الآن، فصاح نفس الصوت السابق:

- الله أكبر، اضربوا الإنكليز، ماذا تفعلون يا خونة الدين، عرب خاين، عرب خاين، انهضوا وإلاّ قتلتكم!

أطلق التركي على جندي جالس لا يتحرك، فتهشم وجهه، فانبجس منه الدم وهو يفور ومات في الحال. عند ذلك نهض عمر وصالح والآخرون، وانبطحوا على جدار الخندق وبدأوا يلقمون بنادقهم، ويطلقون. لاحظ عمر بنبوك أنه يرى، فلقد شاهد الخنادق الأولى وهي شبه مهدّمة، ومردومة بالتراب في عدّة أماكن حتى سطح الأرض. كانت جثث الجنود منثورة هنا وهناك، وشاهد عدّة جثث تحترق، وكانت الأرض قد اصطبغت باللون الأسود الفاحم والدّخان الأسود الخفيف مازال يلفُّ المكان كلّه، تلمّس وجهه فوجد أنّه ينزف من جبهته فصاح:

- صالح... خذ هذا المنديل، واربط لي رأسي، هيا خذ!

ربط له رأسه بالمنديل، وربت عليه بلطف، وقال:

- جرحٌ بسيط يا ابن العم، لا تهتم.

فاقترب منه عمر، وصاح في وجهه:

– قبّلني يا ابن عمي، قد نموت، وإذا بقيت أنت حياً وصيتي لك بهية والأولاد.

عندها ضربه صالح على كتفه، وصاح في وجهه، وهو يلقّم بندقيته:

– لن تموت، أنا واثق، أنت قطة بسبعة أرواح يا ابن الحرام!

– عليك اللعنة يا ابن العم، كيف ترى الوقت مناسباً للمزاح؟ ردّ عمر وهو يصيح في أذن صالح، ثمّ لقّم بندقيته، وأسندها على كتفه، وعين شعيرة البندقية على نقطة سوداء متحركة، وراح يتابع النقطة التي لم تكن لتستكين أبداً. سمع صالح يصيح:

– لماذا لا تطلق النّار أيّها الأهبل، سوف يقتلونك من الخلف؟!

– لقد ناشنت على أحدهم ولكنّه يتحرك باستمرار.

قال عمر.

– أطلق عليه، ليس من الضروري أن تقتله، المهم أن تطلق النار. صاح صالح.

– اتفو على هذه الورطة التي نحن فيها.

وأطلق النار بعد أن أغمض عينيه، صدمته البندقية بقوة على كتفه، فآلمته قليلاً، نظر إلى الجهة التي أطلق عليها فوجد الجندي قد توقف عن الحركة، وراح يسقط بهدوء على الأرض، تكوّر وبدأ يتمرّغ في التراب بحركة لا تهدأ. يا للهول، لقد قتله. انظر يا عمر كيف يموت الرجل، لو أنّهم أصابوك فستموت هكذا، سوف ترفس بيديك ورجليك، ثمّ ترفع رأسك، وتطيح به على أوّل حجر قريب منك حتى تشجع، وإن لم تمت فعليك أن تطلق على قلبك. إلاّ أنّ الجندي استلقى على ظهره دون حراك، فصاح عمر:

– انظر هناك... لقد قتلت أحدهم!

– سوف يكون الأمر أسهل في المرّة القادمة.

– وهل تريد أن أقتل غيره أيّها المتوحش؟ قال عمر.

فقال صالح وهو يصيح بأعلى صوته:

– سوف يقتلوننا أيّها المسطول، انظر إليهم إنّهم لا ينتهون، سوف يبصقون على جثتك حينما يصلون إليك..

- أين الذخيرة، لم يبقَ لديّ طلقات؟ ... صاح وحيد الأسدي.

- ابحث في جيوب القتلى!، صاح صالح.

- أين هو ذلك التركي الذي كان يقتل الناس؟ لماذا لا يعطينا شيئاً من الذخيرة؟

- انتظروا! خذ هذه الطلقات وأنا سأبحث عن غيرها. قال عمر، وهو يُخرج من جيبه خمس طلقات، ويعطيها للأسدي، ثمّ أسند بندقيته إلى جانب صالح، ومشى في الخندق حانياً هامته كي لا يصاب.

في هذه الأثناء ركّب الإنكليز مدفعاً رشاشاً محتمين بمرتفع صغير، وراحوا يُصلون الخنادق برصاص غزير، فبدأ الرجال يطلقون عليه، وهم يشاهدون بخار ماء التبريد، يتسرّب من فتحاته. كان الرجال يلقّمون بنادقهم، وهم مقرفصون داخل الخندق، ثمّ يستقيمون، ويطلقون على تلك الآلة العجيبة، ومن ثمّ يعودون ليحتموا أسفل الخندق.

استمرّ المدفع في حصد الخنادق، وحينما كان يصمت أو يوجه نيرانه نحو الجهات الأخرى، كان صالح بنبوك والرجال الآخرون يطلقون عليه بسرعة وهم غاطسون، رؤوسهم بين أكتافهم، لا يبرزون سوى ما يمكّنهم من رؤية الهدف، صاح صوت من الخلف بالتركية:

- يا حيوانات... أطلقوا النار على الجنود، اتركوا المدفع الرشاش، إنّ الجنود يتقدّمون نحونا!

وما لبث أن بدأ المدفع التركي الوحيد بقصف موقع الرشاش، بطلقات متفرقة ومتباعدة إلاّ أنّ القنابل كانت تسقط بعيداً عنه، ومهما كان، فقد استفاد الرجال من ذلك، وراحوا يبرزون رؤوسهم، ويطلقون على الجنود الهنود والإنكليز القادمين باتّجاههم، واختلطت أصوات إطلاق النار المصمّة للآذان بأصوات الرجال المبحوحة، والتي تنادي موزع الذخائر الذي اختفى، وأبقى نصف البنادق من دون طلقات!.

- لم يبق عندي غير هذه الطلقة. صرخ صالح، واستطرد: لماذا يتركوننا من دون ذخائر؟

أشعل وحيد الأسدي سيجارته التي لفّها، وأخذ عدّة أنفاس، ثمّ ناولها لصالح:

– اقعد يا رجل ودخّن هذه السيجارة وفّر الرصاصة الأخيرة لنفسك!

قرفص صالح داخل الخندق عند أقدام وحيد، وراح يدخّن، وهو يبصق بقوة، لقد نسي الخوف الذي تملّكه حين بدأ القتال، وما كان شيء يزعجه بقدر إطلاق النار المدوي. أغلق أذنيه بإصبعيه، وراح ينفث دخان سيجارته الحار ذي الرائحة الثقيلة. شعر بقدم وحيد ترفسه، فرفع إصبعيه عن أذنيه، فسمع وحيداً يقول:

– ما بك، ألا تسمع؟ تعال انظر!

نهض صالح، ونظر باتّجاه موقع مدفع الرشاش حيث كان وحيد يشير بسبابته، كانت هناك كتلةٌ هائلة من الدّخان الممزوج بالتّراب تصعد إلى الأعلى من الموقع وهي تدور على نفسها كالدّوامة. لقد أصاب المدفع التّركي موقع الرشاش. انتثرت ثلاث جثث في الأسفل وهي تحترق، ويتصاعد منها البخار.

– إنهم شطار رجالنا، أليس كذلك؟ قال وحيد بسخرية.

فرد صالح وهو يصفر:

– يا الله ما هذا، كان عليهم أن يقصفوه من زمان.

– لقد أطلقوا عشرين طلقة حتى أصابوه.

وصل عمر وهو يحمل صندوقاً خشبياً صغيراً مملوءاً بطلقات البنادق، وراح الرجال يتقاسمونها، قال عمر وهو منهمك بتوزيع الطلقات:

– وجدت صديقك عبد المهيمن، إنّه جريح لقد أصابته شظية قذيفة مدفع في رأسه وساقه، إنّه ينزف ولكنّه حي.

– هل سيموت؟ سأل صالح.

ردَّ عمر:

– محتمل، هناك رجلٌ من دمشق يعتني به، لقد نزف كثيراً، وأظنُّ أنَّ الشظية قد كسرت ساقه.

نهض الرجال وبدأوا يطلقون على الإنكليز المتقدّمين، لقد أصبحوا أقرب إليهم الآن ومن السهل إصابتهم، إلاّ أنّ الهنود والإنكليز ما لبثوا أن تراجعوا راكضين بالاتّجاه المعاكس هاربين من نيران الأتراك التي حصدت الكثير منهم. راحت

صيحات النصر تنطلق من أفواه الجنود، الذين زادت حماستهم، وراحوا يطلقون على الجنود الهاربين. إلاّ أنّ عمر بنبوك بقي غاطساً في الخندق يساعد أصدقاءه في حشو بنادقهم.

* * *

(3)

كان فشل جنوده في احتلال كوت العمارة مفاجأة كبيرة لقائد الحملة الجنرال نيكسون الذي كان يراقب المعركة من على ظهر إحدى السفن الراسية في مياه دجلة. ضرب حافة السفينة المدهونة باللون الأبيض الناصع بعصا كان يحملها، ثمّ تمتم بشيء غير مفهوم، امتدّت رؤوس بعض معاونيه قريباً من فمه لالتقاط الأوامر التي يمكن أن يتفوّه بها، إلاّ أنّه آثر الصمت لبعض الوقت.

جلس الجنرال على مقعده، وراح يتابع الخرائط بعينيه، بينما راح بحارٌ يساعده في الإمساك بها لئلا تُطيح بها الريح المشبعة برائحة البارود. وثرثر ضبّاط أركان حربه وهم يشيرون عليه بمعاودة الهجوم غداً عند الفجر. إلاّ أنّ الجنرال لم يكن يستمع، فقد كان يحاول أن يزيل ذلك الثقل الذي يقبع على صدره دون أن يستطيع أن يظهره أمام ضبّاطه.

– أريد أن أجتمع بالكولونيل تاونستد الآن!

أمر الجنرال بذلك ثمّ عاد إلى صمته.

بعد نصف ساعة كان الجنرال والكولونيل والضباط الآخرون متحلّقين حول الخرائط في قمرة أركان الحرب، فالهجوم لم يكن ناجحاً، وقد تكبّد الجيش خسائر فادحة من دون أن يتمكّن من اختراق دفاعات العدو رغم ضعفه البادي للعيان. كان الكولونيل تاونستد هو قائد القوات المهاجمة على البر وهو رجل يمتاز بذكاء خارق، طويل ونحيل، أشقر الشعر، وله شارب صغير أشقر أعطى لوجهه نعومة رغم عينيه الحادتين. أشعل الكولونيل غليونه للمرّة الثانية، ونفث دخاناً معطراً، ثمّ قال:

– إنّ دفاعات العدو مهلهلة، سيدي الجنرال، ونحن بإمكاننا اخترقها خلال ساعتين لو كان الإسناد من البحرية جيداً. الخطأ الذي وقعنا فيه هو أنّنا تصوّرنا أنّ الأتراك ومعهم العرب سيهربون بعد قصف عادي من المدعية، والأتراك يعقدون آمالاً كبيرة حول موقعهم في الكوت ولهذا حفروا عدة خطوط من الخنادق تبلغ الخمسة، تبدأ وتنتهي على ضفاف دجلة، ويبدو أنّ المدفعية التركية لا تعمل ولذلك فإنّهم يعتمدون على العناصر، أرجو أن تأمر سيدي الجنرال مدفعية السفن بالقصف ابتداء

من الساعة الواحدة والربع، وأيضاً ستعمل مدافعنا على البر، أمّا الهجوم فسيكون في الثالثة تماماً.

خلع الجنرال نظارته، وتطلّع إلى الكولونيل، وقال:

– هل جمعتَ قواتك من جديد؟

– نعم سيدي الجنرال، لم نفقد سوى مائة وخمسة وأربعين رجلاً، وأنا أعتقد أنّ عدم إعطاء مهلة للأتراك إلى يوم الغد، سيمكّننا من إرباكهم، واختراقهم.

فقال الجنرال:

– متى تغيب الشمس؟

– في السابعة سيدي الجنرال، أجاب أحد الضباط.

– عليك أن تدخل الكوت قبل حلول الظلام، والآن أين ستوجه ضربتك.

– سوف أعيد الكرّة هنا أيضاً، وأشار بإصبعه نحو الجهة الجنوبية من الكوت وأضاف:

لقد دمّرنا جزءاً مهماً من الخنادق في هذا المكان، ويبدو أنّ جنود العدو هنا غير مدربين بشكل جيد، وهم منهكون، وتنقصهم الذخيرة كما أعتقد.

وضع الجنرال كلتا يديه على الطاولة، وزفر:

– سوف تبيدهم يا كولونيل، فأنا متأكد من ذلك، والآن سنشرب الشاي.

راح الضباط يثرثرون وهم يدخنون، إلا أنهم لم ينسوا وقارهم ولباقتهم المعتادة. جاء الشاي ووزع على الحضور في أوانٍ من الصيني المزهر ثمّ راح كلّ واحد يرشف من قدحه دون أدنى صوت. جلس الكولونيل في وضع مريح ووضع رجلاً على رجل ثم أشغل غليونه جيداً بعد أن حشا بالتبغ المعطّر. كان الكولونيل يلفت انتباه جميع الضبّاط بمن فيهم الجنرال بالذات ولذلك فهو يمتلك كلمة مسموعة ومحترمة، هذا عدا عن أنّه بادي الذكاء وداهية، وهو شجاع يحبُّ المهام الصعبة. مال إليه الجنرال قليلاً، وقال له بودٍّ ظاهر:

– ما هي أخبار ماري يا كولونيل؟

– إن زوجتي تهديك تحيّاتها يا جنرال، لقد اكتملت سعادتها حينما زرتها في لندن في الربيع الماضي يوم كنت تقضي إجازتك في الوطن.

– إنّها امرأة جميلة حقّاً، عليك أن تعود إليها سالماً يا كولونيل.

ابتسم تاونستد، وتابع تدخينه، ثمّ رشف قليلاً من الشاي. تنشّق الجنرال دخان الغليون المتصاعد، وهو يقصد ذلك، فقد كان يحبُّ رائحة دخان تاونستد بالذات. استدار الكولونيل وقال:

– ما هي أخبار الحلفاء، هذه الأيام؟

مسّد الجنرال شاربيه طويلاً، وهو ساكت كأنّه لم يسمع السّؤال. وببرودة شديدة ومن دون أن يتطلّع في وجه الكولونيل المتعب والمغبر، قال:

– يبدو لي أنّ ملة الدردنيل قد فشلت، والجنرال هاملتون يلقى صعوبة كبيرة في غاليبولي.

ثمّ تابع:

– لقد كانت فكرة عظيمة أن نحتلّ المضائق باتّجاه البحر الأسود كي نتّصل مع روسيا، ولكن يبدو أنّ الجنرال هاملتون لن يفعل أكثر مما فعل الجنرال (ستوبفورد) الذي استدعوه إلى لندن. إنّ قوات مصطفى باشا كمال قد مرّغت قواتنا في الوحل في غاليبولي، وأظنّ أنّ الحكومة تفكّر بسحب قواتنا من هناك، أما قواتنا في اليونان، فقد جمّدت نشاطها وهي قابعة في الخنادق.

– في الوقت الحاضر، ألا تظن معي أنّ إشغال قوات العدو بهذا الشكل في أوروبا سيمكّننا من إكمال ضربتنا صعوداً حتّى نصل إلى بغداد؟

– سنرى. قال الجنرال وهو يهمُّ بالوقوف.

وقف الكولونيل أيضاً، فمدّ الجنرال يده، وصافحه، ثمّ قال وهو يبتسم:

– أتمنّى لك التوفيق يا كولونيل، اذهب الآن وحارب. ولكن لا تنسَ أنّ ماري تنتظرك في لندن بفارغ الصبر.

خرج الجنرال بعد أن ودّع الجميع، وراح الكولونيل يشرب شايه برشفات سريعة، ثمّ عدّل هندامه، وخرج. هبط سلم السفينة حيث كان في انتظاره قاربٌ عسكري صغيره، فأمر البحار الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة:

– إلى مركز القيادة.

* * *

في الواحدة والربع كان الحرّ شديداً. كان الهواء الملامس للأرض يغلي، فيغبّش الصورة في عيون الجنود الذين كانوا يراقبون مجيء الإنكليز مرّة أخرى. سالت حبّات العرق على وجه عمر ورقبته، وكان قميصه قد التصق بجسده، فرفع سترته يستظلُّ بها، وقد زمّ عينيه من شدّة وهج الشمس.

حضر صالح ووقف إلى جوار عمر، وهو متجهم، وقال:

– مات عبد المهيمن يا عمر.

– متى؟ الآن؟ كان يبدو لي أنّه يحتضر.

صمتاً، فكّر صالح فيما كان يقوله عبد المهيمن، إنّ الإنكليز أسوأ من الأتراك، كيف علينا أن نخرج من استعمار وندخل في استعمار آخر؟ اليوم نقتل الإنكليزي وغداً يجنّدوننا لكي نقاتل الألماني، خراء... ولماذا لا يتركوننا نعود إلى البيت؟

لكنّ عمر اقترب منه، وقال:

– لازم نهرب يا صالح، أقسم أنّ أهلنا يموتون من الجوع، ونحن سنروح فطيسة، أشو رأيك؟

– علينا أن ننتظر حلول الظلام، ومن ثمّ نرى.

انشقّت السّماء فجأة، وبان الجحيم ثمّ انطبق على الأرض. كلُّ شيء كان يرعد، حتّى الأرض كانت تهتز تحت أقدامهم، وتنهار جدران الخنادق، وانتبشت الأرض، وراحت كتل الأتربة تصعد إلى السماء مجبولة بالنار، ثمّ كانت تهبط بقوة على الرؤوس وه حارة تلسع بقوة. ضاعت الشمس، إلاّ أنّ الحرَّ بقي شديداً. سمع صالح أحدهم يولول، وآخر يصرخ بقوة، بكلمات غير مفهومة، بأيّ لغة يصرخ هذا المجنون؟ ولماذا يصرخ هكذا؟ ثمّ لماذا هذا الدبيب؟ وهل هذا وقت المزاح؟ إلاّ أنّ الجحيم استمرّ بلهاثه، فأحسّ صالح بضيق نفسه. أخرج رأسه من كومة التّراب التي انهالت عليه بحركة لا إرادية قبل أن يضيق نَفَسه أكثر. لماذا عليّ أن أضع المخدّة فوق رأسي حينما أنام؟ بحث عن ساق زوجته. مدّ يده أكثر، ولكنه وجد الفراش رطباً، ماذا فعلت يا صالح في فراشك؟ لن تتخلّص من لسان زوجتك بسهولة بعد الآن، ومتى كان الرجل يبول في فراشه؟

استمرّ الدبيب في أذنيه، وشعر به في جسمه كلّه، لعق شفتيه بلسانه الجاف،

ثمّ بصق التراب الذي علق بلسانه، كان يشعر بظمأ طاغٍ رهيب. لماذا لا يلعب عبد المهيمن؟ إنّه يفكّر طويلاً قبل أن ينقل أحجاره، ولكن هذه المرّة، كأنّه تجمّد في مكانه!. لقد أحسّ بخسارته عندما مات الملك، سقط رأس عبد المهيمن فوق أحجار اللعب، وامتلأت الدّنيا بالدّماء، والآن... لقد مات الرجل، اتفوه على هذه الحياة، كم هي لعينة وساقطة...

– صالح. ردّ عليّ الله يخليك. قتلوك أولاد القحبة؟

فتح صالح عينيه، كان عمر جالساً إلى جانبه ينظر إليه، انفرجت أسارير عمر ومال عليه وقبّله، لم يكن الظلامُ قد حلَّ بعد، فعرف أنّ المغرب قد أذّن منذ زمن.

دار بعينيه، علّه يجد شيئاً يفهم به ما حدث. نظر في وجه عمر الذي أصبح مسوداً كالفحم، إلاّ أنّ عينيه اللتين كانتا بلون الدم، وأسنانه الصفراء هي التي انقشعت من ذلك الوجه المتفحم.

– ماذا حدث يا عمر؟ قال صالح بصعوبة، وبصوت تشوبه الحشرجة.

– لا شيء، لا أرى أيّة نقطة دم تنزف منك.

– ماذا يعني ذلك؟

– يعني أنّك بخير.

حاول صالح أن ينهض إلاّ أنّه سقط. كان رأسه يدور، ويحسّ بوجع ما في صدره ورأسه. أنهضه عمر ثمّ حمله على ظهره مسافة عدّة أمتار، إلاّ أنّ صالحاً كان ثقيلاً، فأجلسه، مُسنداً ظهره على كومة تراب. أغمض صالح عينيه إلاّ أنّه خاف، خاف أن يموت، فأعاد فتحهما، سمع بعض الرجال يتحلّقون حوله، وهم يتحدّثون بصوت منخفض:

– ماذا به؟

– لا أعلم، لا يستطيع النهوض مع أنّه غير جريح.

– اغسل رأسه بالماء البارد!

سكبوا ماءً فوق رأسه، فأحسّ بالبرودة المنعشة تسري إلى دماغه.

– اسمع يا هذا إنّ صاحبك مصدوم، قال أحد الرجال ويبدو أنّه شيخ في الستين من عمره.

– ما معنى أنّه مصدوم؟ سأل عمر.

– يعني أنّ قنبلة انفجرت بجانبه إلاّ أنّه لم يصب بها.

– هذا والله تخريف يا شيخ.. أجاب عمر، وهو يمسح على عذاريه.

– أنا لا أخرّف يا أهبل، انظر هناك خيط رفيع من الدم يسيل من أذنه!

جلس عمر، وعاين أذن صالح اليسرى، كان الدّم قد جفّ وقد اختلط بسخام القنابل. نقّر بإصبعه على أذن صالح، وسأله هل يسمع؟ فأجاب صالح بالنفي بحركة من رأسه.

حمل الرجال المصاب إلى المستشفى، الذي كان عبارة عن إسطبل قديم. وكان مئات الجرحى مستلقين على الأرض خارج البناء وداخله. كان الطبيب الوحيد، وهو تركي، يركض في كلِّ الاتّجاهات، حيث ينادي عليه مساعدوه من دون أن يفعل شيئاً!.

– ماذا به؟ سأل مساعد الطبيب وهو ممرض كان يعمل قبل الحرب في ختان الصبيان.

– صدمته قنبلة، وثقبت أذنه اليسرى، إنّه لا يستطيع النّهوض. أجاب عمر.

عاينه الممرض فوجد كدمة زرقاء في صدره. سقاه شراباً، ثمّ أعطى عمر بعض الحبوب ليسقيه إياها، ثمّ رحل. استلقى عمر إلى يمين صالح، وقال له:

– إنّك بخير يا ابن العم، يقولون إنّها صدمة، وستزول في الصباح، بماذا تشعر؟

– أشعر بالغثيان.

– سوف نبقى هناك لأنّ الإنكليز لا يقصفون المستشفى.

– كثّر الله خيرهم.

أجاب صالح، ثمّ أضاف بعد قليل، ماذا حدث؟

– ومن أين لي أن أعلم. بعد الظهر، راح الإنكليز يقصفوننا بالقنابل، كان كلّ شيء يموج مثل البحر، حتّى أنّني طُمرت في التّراب، ولحسن حظي بقي أنفي خارجه لكي أتنفس... وماذا تنفست؟ كان الدّخان الأسود يغطي كلّ شيء وكدت أختنق من رائحة النفط، ولكنّهم لم يتوقفوا، لقد جنوا تماماً، بلت ثلاث مرّات في

لباسي، وتشهّدت على روحي، إلاّ أنّني دعوت الله أن لا تسقط إحدى القنابل على أنفي. لم يتوقف القصف إلاّ عند العصر، عندها بدأ إطلاق النار من البنادق، خرجت من تحت التّراب، ورحت أطلق النار على الإنكليز. حسبتك قد متّ فجُنَّ جنوني، أظنّ أنّني قتلت منهم اثنين، وعندما شاهدوا أنّ جماعتنا مازالوا يدافعون عن المدينة، انسحبوا مرّة أخرى.

فقال صالح ببطء:

– هل مات أحدٌ من عندنا؟

– مات كثيرون، ودفن آخرون تحت التراب.

صمت عمر قليلاً، ثمّ قال:

– وحيد الأسدي.

– وما به.

– لم نجد له أثراً، كأنّه اختفى، بحثنا عنه كثيراً، وحفرنا في المكان الذي كان فيه، إلاّ أنّنا لم نعثر عليه، يبدو أنّه قد قُتل، ودفن تحت التراب.

أدار صالح رأسه، وتطلّع في وجه عمر، إلاّ أنّ الظلام كان قد حلّ، فأحسّ بغصة في صدره وبوحشة هائلة، راح ينشج بهدوء، لا لم يمت وحيد، ولماذا يموت في هذه البلاهة المقرفة... وماذا يحدث لو أنّ صالحاً أغلق عينيه ولم يفتحهما أبداً؟ عليه أن يبقى صاحياً حتّى الفجر.

أحسّ عمر بجسم صالح يرتجف، فسأله:

– هل تشعر بالبرد؟

لم يأته جواب، مسح بيده وجه صالح، فوجده يبكي، دنا منه، وهمس:

– مم أنت خائف؟

فأجاب صالح بلسانه الثقيل:

– سأموت أنا أيضاً.

– لن تموت لأنّك لا تنزف، انظر إلى هؤلاء النّاس المسطحين على الأرض، وحسب قول المثل مين شاف مصيبة غيره هانت مصيبته!

فقال صالح، وهو يشعر بالدوار:

– إن لم نمت الآن سيقتلوننا غداً، حينما يعاودون الهجوم.

– اصبر يا ابن عمي، سنرى ما يحدث غداً، لقد أصبح الأمر لديّ سيان فالعيش في هذا الجحيم أسوأ من الموت.

– إذن اهرب أنت إن استطعت.

فقال عمر بحزم:

– لن أهرب وحدي، وأتركك هنا، أنا لست مشتاقاً لبهية بهذا القدر، هل تعلم يا صالح أنّني أتأسف على كلّ يوم مرّ من دون أن أنام مع بهية؟

– إنّك تمزح...

فتابع عمر، وهو يريد أن يروِّح عن نفس صالح:

– أنا لا أمزح، هل فكّرت بينك وبين نفسك، ما هو أحلى شيء في الدّنيا؟ طبعاً لم تفكّر لأنّ الشطرنج يأخذ كلّ عقلك.

– وما هو هذا الشيء؟ قال صالح وهو يبعد عن ذهنه ذلك الضجيج الهائل الذي يموج في رأسه.

– أن تضع يدك على فخذ زوجتك الناعم.

قهقه عمر بصوت عالٍ، وهو يتمدّد على ظهره، ويرفس برجليه، فأثار ضحكه بع الجنود الواقفين غير بعيد عنهما، صاح أحدهم بلغة أهل جنوب العراق:

– ما شاء الله، العالم بتموت وأنت بتضحك مثل الشراميط.

فأجابه عمر فوراً، وهو يوجه له قبضته:

– اخرس، وروح شوف شغلك!

فردّ عليه الرجل:

– ماكو حيا يا ابن الكلب!

لكنّ عمر انشغل بصالح، فقد راح يتقيأ بقوة، وعندما فرغت معدته أحسّ بشيء من الراحة، ثمّ أغمض عينيهن وغفا.

* * *

تلألأت النجوم في سماء كوت العمارة، وعبق الهواء بزنخة السمك الآتية من

النهر والممزوجة برائحة احتراق الخشب وبالرائحة الحريفة التي يخلّفها انفجار القنابل، والتي استوطنت تربة المدينة. كان الصمت يعمُّ الأنحاء فيما عدا تأوهات الجرحى المساكين، وهم يسهرون مع أوجاعهم، أو وقع أقدام الجنود، وهم يتحدّثون بصوت غير مسموع وكأنّهم يتحسبون من إيقاظ العدو الغريب، الذي سكن بعيداً عن المدينة يهيئ نفسه لمعارك الغد.

لم يكن القمر قد بزغ بعد، إلاّ أنّ بصيصاً انبعث من جدران البيوت والطرق التي استلقى فيها الجنود من دون وعي، بعد أن أنهكتهم معارك اليوم، وقامت مجموعة من الرجال بالسطو على مستودع المستشفى، وحصلوا على شيء يأكلونه، ثمّ جلسوا يدخنون، وقد أسندوا ظهورهم إلى جدار بيت احترق سقفه.

فتح عمر عينيه فجأة، لقد استطاع أن يغفوا قليلاً، لمس صالح بيديه، ولاحظ أنّه يتنفّس بانتظام، فاطمأن، ثمّ جلس يراقب النور الآتي من داخل المستشفى من سراج معلق إلى السقف، جلس يمسِّد عذاريه، ويفكّر بذلك الإبليس الذي سكن هذه المدينة، ثمّ فكّر أنّه قد يموت غداً، فوجد نفسه لا تبالي بالموت، وأنّه كان صادقاً مع صالح حينما أخبره بذلك. ولكنّه تذكّر بهية والأولاد، وفكّر كيف أنّهم لن يروه بعد الآن، فسرت قشعريرة شديدة في جسده، فتمتم بشيء، ثمّ بصق. شوهد حصان يعدو في الشارع، وعلى ظهره فارس يعتمر طاقية تركية عالية، ويحتزم بحزامين متصالبين للطلقات على صدره. أوقف الفرس بجانب المستشفى، ثمّ ترجّل الفارس، وركض إلى الداخل وهو يقبض على بندقيته المعلقة خلف ظهره، وراح يبحث عن الطبيب، شاهد عمر الممرضين والطبيب يتحلّقون حول الجندي، فنهض، واقترب منهم. كان الجندي ينقل للطبيب أمراً من القائد الأعلى للحامية التركية في كوت العمارة:

– وقررت القيادة الانسحاب من المدينة باتّجاه بغداد.

– متى؟ سأل الطبيب.

– هذه الليلة.

– وكلّ هؤلاء الجرحى؟

– يأمرك القائد بنقل الجرحى الذين يمكن شفاؤهم، وكلّ من يستطيع السير، أمّا الآخرون فيمكنهم أن يبقوا هنا، لا يوجد لدينا عربات كافية لنقلهم جميعاً، الأفضل أن

تأخذوا معكم ما تبقى من الأدوية والأطعمة والبطانيات، وهذا هو الأمر الخطي.

بعد ساعة بدأ الجنود يتراكضون في طرقات البلدة، وراح كلّ واحد يبحث عن معارفه أو عن أيّ شيء يحمله قبل الرحيل. أيقظ عمر صالحاً دون جدوى، وعندما حضرت العربات المخصصة لنقل الجرحى وعتاد المستشفى... استطاع عمر أن يلقي صالحاً في إحداها بمعونة بعض الجنود، ثمّ انضمَّ إلى مجموعة من الجنود الذين عمّ فيهم الفرح بعد أن عرفوا بخبر الانسحاب، وراحوا يثرثرون، وهم يدخنون ويبصقون:

– لا يوجد أيّ أمل في الحفاظ على البلدة، فالجيش قُتل نصفه.

هكذا قال أحد الرجال، وهو يهرش رأسه.

– لا يوجد لدينا مدافع ولا ذخيرة، قال آخر.

– يقولون إنّ الإنكليز يُحضرون الآن آلة عجيبة من الحديد لا تخترقها القنابل، وتتسع لناس كثيرين. كيف سنقتلهم، آ، لا نملك سوى أن ندعو عليهم؟

– ومن أين سمعت بهذا الخراء؟ قال ثالث.

– أقسم بشرفي، على كلٍّ، لن نراها غداً لأنّنا سنكون في طريقنا إلى بغداد.

فقال عمر:

– قال لي أحد الأتراك إنّ الألمان يملكون مثل هذه الآلات، وإنّهم سيرسلون بعضها إلى الجيش التركي.

فأجاب أحد الجنود:

– لن يلحقوا أن يرسلوها، ولماذا الشدّة؟ نحن سنذهب لنحضرها لأننا سنبقى ننسحب حتّى نصل إلى ألمانيا.

ضحك الجنود، وراحوا يخبطون أيديهم بكلِّ قوتها على ظهر الجندي الذي حاول الهرب من ضرباتهم، وتعالى صياحهم وهم يمزحون، وراحوا يثرثرون أكثر حينما سارت العربات حتّى خرجت من المدينة باتّجاه الشمال. وعندما علم الكولونيل تاونستد في فجر اليوم التالي أنّ الأتراك انسحبوا من المدينة، تنفّس الصعداء، فلقد حلم خلال الليل أنّ انتصاراته في العراق سوف تتحوّل إلى فشل ذريع.

* * *

(4)

اقترب عيد الميلاد، كان الثلج يغطي السهل الممتد بعيداً حتى البحر، واكتست الغابة بحلّة بيضاء أمّا أغصان أشجار الصنوبر والسرو، فقد تدلّت إلى الأسفل وهي تكاد تنكسر من ثقل الثلج المتراكم عليها.

راح الإنكليز، على جبهة سالونيك، يزيّنون الشجيرات المتبعثرة في الحقل قرب الخنادق بقصاصات الورق الملونة، وبالخرق الممزقة من الألبسة العتيقة، احتفالاً بقدوم عيد الميلاد. حتى أنّ أحدهم علّق فردة حذاء على أحد الأغصان، وآخر وضع صورة لامرأة نصف عارية وهي تبرز مفاتنها.

وفي يوم 23 كانون الأوّل وصلت عدّة سيّارات إنكليزية تحمل ضباطاً يضعون أشرطة غريبة وملونة، وقد لفت انتباه الجميع رجلٌ بدين ذو كرش هائل، يسير ببطء وصعوبة، ويفسح له الجميع الطريق باحترام ظاهر، ويبدو أنّه كان برتبة جنرال، مكث الضباط عدّة ساعات، وهم يصافحون الجنود والضباط، ويقدّمون لهم الهدايا المتنوعة ورسائل البريد، ثمّ راحوا يراقبون الخطوط التركية بواسطة المناظير المبكرة، ويتناقشون طويلاً، وكان الجميع يحاولون تقديم المساعدة للجنرال بتفسير هذا الأمر أو ذاك، وما كان على الجنرال إلاّ أن يهز رأسه موافقاً جميع المتحدثين، ومن دون أن ينبس بكلمة. ثمّ ودّعوهم، وانصرفوا راكبين السيارات، التي كانت تسير متمايلة، تطقطق، وتنثر الثلج في وجوه المودعين.

علم مدحت باشا بزيارة الجنرال "ساريل" القائد الإنكليزي لجبهة سالونيك، فتجهّم قليلاً، ثمّ قام على الفور بزيارة خنادق فرقته، تصحبه حاشيته من الضباط والمعاونين الذين بلغ عددهم خمسين ضابطاً. ترجّل مدحت باشا من فوق فرسه بمساعدة ثلاثة أو أربعة من مساعديه، فقد كان هو الآخر بديناً ذا رأس ضخم ووجه سمين أحمر، وراح يسير بمساعدة عكّاز، متجهم الوجه، يرفع يده ليسكت من يحاول أن يتحدّث إليه. لم يسلّم على أحد ولم يتكلّم مع أحد، بل راح يراقب الخنادق الإنكليزية، هو أيضاً، بواسطة منظار ألماني ضخم، ثمّ أمر بالانصراف بعد أن أفرغ كمية هائلة من غازات بطنه بصوت مسموع.

بدأت ألسنة الجنود تلوك الإشاعات عن هجوم يقوم به الإنكليز تارة أو الأتراك تارة أخرى، وقال أحد الجنود الذي يدّعي المعرفة بكلّ شيء، وكان يحاول دائماً أن يبدو ذكياً وأنيقاً،: إنّ وقت الراحة والاسترخاء قد انتهى إلى الأبد. فعقّب أحد المستمعين إليه، أنّه يظنّ أنّ الإنكليز إذا ما هاجموا فإنّ الأتراك سوف يلقونهم هذه المرّة في البحر.

ويبدو أنّ الجنرال ساريل قد حذّر جنوده من التآخي مع جنود العدو، فلم يعد الأتراك يلقون صدى طيباً لنكاتهم وصراخهم، من الجنود الإنكليز، ليوم أو اثنين، ثمّ عاد كلّ شيء إلى ما كان عليه قبل زيارة الجنرال.

وفي مساء كانون الأوّل ترك رجلان الخنادق التركية، ومشيا باتّجاه الغابة حيث دخلاها، وتابعا سيراً على الأقدام باتّجاه الشرق، حيث تقع قرية الأرملة فروساكي على سطح هضبة من الهضاب الكثيرة التي تفصل مدينة سالونيك عن البحر.

تجنّب الرجلان موقع قيادة الفرقة حيث يقبع مدحت باشا وأركان حربه، وسارا بين الأشجار على طريق معروفة سلفاً من قبل محفوظ الذي كان يسير في المقدمة، يميل إلى اليمين واليسار، يحمل عصا غليظة يتكئ عليها تارة، ويضرب بها أغصان الشجيرات التي كانت تقف في طريقه تارة أخرى. كان الضوء المنعكس من الثلج يضفي جمالاً أخاذاً على الغابة التي غمرتها سكينة عميقة لا يخرقها سوى وقع أقدام الرجلين وصوت احتكاك المعاطف بالسيقان والأيدي. أحس ربيع بفرح عارم، وراح يغني أغنية كان يرددها في حلب عندما كان يعمل في معمل النشاء:

يا شجرة الليمون يا عينيّ

يا منظرك ساحر وجميل

يا ريحتك ريحة زكية

يا شجرة الليمون يا عينيّ

غنّى ربيع ومن ثمّ استطاع محفوظ أن يتعلّم اللحن، فراح يردد معه. سكت ربيع، فقد أخذه صوت محفوظ الرخيم، الذي كان يردد الأغنية بصوت خافت، وكأنّه يخاف أن يوقظ الغابة التي عبقت برائحة الصنوبر الزكية. توقف محفوظ عن الغناء، وتردد في الغابة صوت تهشم الثلج تحت أقدامهما، قال ربيع لمحفوظ وهو يودُّ أن

يكسر الصمت:

– لديك صوت جميل يا أخي، ولكنك بخيل في الغناء ولو لم أغن أنا، ما عرفت ذلك أبداً.

– لا تقل ذلك، كان صوتي أحلى من الآن، في الماضي كنا نجتمع في القرية في مناسبات الأفراح والأعياد، وكان الجميع يطلبون مني أن أغني لهم، حتّى أنّهم كانوا يحضرون الأطعمة وزجاجات العرق إلى بيتنا بكثرة ومن دون حساب، لأنّهم كانوا يريدون الاستماع والطرب. كنت آنذاك في السابعة عشرة، كنت نحيفاً أيضاً، ولكن ليس بهذا القدر الذي أنا فيه الآن. كانت هناك فتاة اسمها فاطمة ذات عينين ساحرتين، كنت أقف أمامها وأتطلّع في عينيها، فيسهل عليّ الغناء، حتّى أنّني كنت أرتجل قصائد عديدة على لحن حزين، وأغني ساعات طوالاً وأنا أعزف على البزق. ففاطمة لم تكن تمل الاستماع، وأنا لم أكن أتعب من الغناء، أمّا الآخرون فقد كانوا غافلين عن عيون فاطمة مطروبين أو مسحوقين.

فسأل ربيع بعد أن زفر:

– وماذا حدث لها؟

– أرسلت لي رسالة تقول فيها: لقد شبّهتني بالقمر وهذا كثير عليّ، تعال قابلني في الحقل!

ذهبت، قعدنا من دون أن أنبس بكلمة. كنت أتطلّع إليها من دون شبع، وحينما أردت أن أتكلّم معها، تلعثمت واحمرّ وجهي خجلاً، فتكلّمت هي، وطلبت مني أن أغني أغنيتها التي تحبُّها كثيراً، كنت أعرف أيّ الأغاني تحبّ، لأنّها كانت تبتسم وتهز رأسها حينما كنت أغني أغانيها المفضلة. غنيت لها أغنية "يا زهرة الزنبق" ولما انتهيت، نهضت وقبّلت خدي. كانت هذه أوّل قبلة لي من فتاة. شعرت حينئذ بسعادة عظيمة، وحينما ذهبت، بقيت مستلقياً في الحقل حتّى المساء وأنا خائف أن يطير أثر القبلة من خدي.

فسأله ربيع بصوت أعلى كي يسمع:

– ولماذا لم تتزوجها؟ كانت تحبك.

فقال محفوظ:

– في إحدى المرات طلبت منها أن تتزوجني فقالت لي، أن أذهب وأقابل والدها الحاج جودت. وبالفعل ذهبت مع أمّي لأنّ والدي كان قد مات منذ سنتين بمرض السل، كان يعرفني وأنا أعرفه، فأهل الضيعة معروفون، الواحد من الآخر. سألني لماذا ابنتي بالذات ولكنني لم أستطع أن أجيب كما يجب، ماذا كان عليّ أن أقول؟ قلت له لأنّني أحبّها، وفجأة شخّص عينيه وكأنه قد أصيب بفالج، ارتمى عليّ، وراح يضربني، وبصق في وجهي ثمّ رفسني على مؤخرتي، وطردني، وطرد والدتي بعد أن نصحها بأن لا تقترب مرّة أخرى من بيته، وأن تبحث لي عن زوجة رقّاصة. هكذا نصحنا هذا الابن الكلب. أقسمت أن أنتقم منه، رحت في إحدى الليالي، وتبولت على جدار بيته، ثم أحرقت له زريبة الحيوانات من دون أن يراني أحد.

– وهل علم بمن قام بذلك؟

– أظنّه فهم ولكنّه سكت، ها قد وصلنا إلى نهاية الغابة، هل أعجبتك قصتي؟

– كان عليك أن تخطف فاطمة، وتحرق قلبه، قال ربيع.

– كان عليّ، ولكنّه زوّجها بعد أسبوعين لابن عمها.

انتصبت القرية أمامهما، على بعد مئتي متر، فور خروجهما من الغابة. كانت البيوت، التي صُبغت باللون الأبيض، مصفوفة الواحد فوق الآخر، متسلقة الهضبة، يفصل بين البيوت طرق ضيقة غير مرصوفة. وكانت هنالك عدّة أشجار متناثرة بين البيوت تنتظر فصل الصيف، كي تحمي أصحابها من أشعة الشمس المحرقة. دخل الرجلان ساحة القرية، التي انتصبت فيها، مئذنة جامع بناه الأتراك، وإلى جانبه نبع ماء يسيل بغزارة من خلال أنبوب معدني يصبُّ في حوض، وقد كتب على النبع "سبيل كمال بك". شرب الرجلان من النبع، ثمّ صعدا في الطريق إلى اليمين مباشرة حيث كانت الكلاب تنبح بصوت متواصل مستثارة من هذين الغريبين، اللذين توقفا أمام بيت خشبي مدهون حديثاً باللون الأزرق الفاتح. دقَّ محفوظ الباب بقوة، ثمّ أشار إلى ربيع أن ينتظر. سمعا وقع أقدام سريعة، ثمّ صوتاً نسائياً يتكلّم لغة غريبة، وبعد لحظة، فُتح الباب وأطل رأسٌ نسائي معصوب بخرقة سوداء. لم يميز ربيع وجه المرأة.

– آه... هذا أنت يا محفوظ؟ ادخلا، قالت المرأة باللغة التركية، ثمّ سبقتهما إلى

الداخل وهي تسير بخطا سريعة وعصبية.

جلست المرأة على الأرض المفروشة ببساط منزلي وبعدّة جلود للخرفان، وراحت تتابع عملها بسرعة، حيث كانت تفرم بعض الخضار استعداداً للطهو. جلس محفوظ فوراً إلى جانبها وراح يساعدها، أمّا ربيع فقد جلس على أريكة خشبية مبطنة قبالة المرأة. كانت الغرفة متوسطة الحجم ذات سقف مصنوع من جذوع الأشجار المطلية باللون الأبيض، وكانت هنالك رفوف وخزانة وسجادة رخيصة معلّقة على أحد الجدران وصورة للسيدة العذراء مع طفلها يسوع المسيح، ورف صغير تحت الصورة وضعت عليه شمعة مشتعلة. كانت الغرفة مدفأة بمدفأة تعمل على الحطب، وإلى جانبها سرير خشبي مفروش بملاءات نظيفة ناصعة البياض. جلس ربيع يراقب البيت وصاحبته. كان كلّ شيء يعبّر عن صاحبته التي كانت تعيش في هدوء ونظافة لا مثيل لهما. تطلّع إلى معطفه وبنطاله وجواربه الممزقة. كان كلّ شيء يدل على القذارة والإهمال. كيف سيخبئ جواربه عن عينيها اللتين تتفحصانه بسرعة من تحت حواجبها؟ انتشرت رائحة القذارة منه بعد أن سرى الدفء في جسده. تململ وهو جالس، وقد احمر وجهه خجلاً لا يريد أن تلتقي عيناه بعينيها المتفحصتين، إلا أنه لمحها تراقبه. قام وخلع معطفه وقبعته ورماها خارجاً عبر باب الغرفة، ثمّ عاد وجلس في مكانه.

تحدّثت المرأة مع محفوظ في بعض الأمور، فارتاح ربيع لانشغالها، كانت بين الخامسة والثلاثين والأربعين، بيضاء الوجه ذات شعر أسود، كما لاحظ ربيع من خصل الشعر الخارجة من عصبة الرأس. كانت جميلة جداً، لم يرَ ربيع امرأة بهذا الجمال. خصوصاً أنّ ثوبها الطويل الأسود كان يبرز صدرها العارم وردفيها الممتلئين، راح ربيع يفكّر في نفسه. كم أحسد محفوظ على هذه المرأة، اسمها فروساكي، ما معنى اسمها يا ترى؟ الله أعلم، سأسأل محفوظ عن ذلك، ومن أين لمحفوظ أن يعلم؟ سوف أسأله على كلِّ حال. الآن فهمت لماذا قتل زوجها ذلك الوحش الذي اسمه مدحت باشا. لو كان لها عشرة رجال لقتلهم جميعاً، وهل كانت عشيقة مدحت باشا؟ أم أنه قتله لكي ينفرد بها؟ حاول أن لا يسعل كي لا تنظر إليه ولكنّه سعل. آه كم هما عميقتان سوداوان عيناها، أن تنظر إليّ، لعلّها تشمئز مني،

على كلّ حال كانت تستقبل محفوظ، وتلقيه على سريرها ذاك. الحمد الله أنّها لا تتكل معي... آه يا ربيع كم تخجل من النساء؟ كأنّك فتاة فقدت بكارتها يوم أمس.

انتهت من عملها فوضعت القدر على المدفأة، ثمّ راحت تلمّ أدواتها. خرجت مع محفوظ إلى خارج الغرفة. بقي محفوظ هناك إلاّ أنّ المرأة كانت تدخل إلى الغرفة لتحضر شيئاً، ثمّ كانت تخرج مسرعة مثلما تدخل، ولا تنسى أن تلقى نظرة سريعة على ربيع من دون أن تنبس بكلمة.

أحضرت المرأة قليلاً من الحطب، فوضعته داخل المدفأة، ثمّ مدّت على الأرض قريباً منها شرشفاً عتيقاً.

أحضرت من المطبخ وعاء ضخماً ذا شكل بيضوي، وضعته فوق الشرشف، وراحت تدخل حاملة سطولاً مليئة بالماء حيث تسكبها في الوعاء حتى امتلأ.

أغلقت المرأة الباب، ثمّ وقفت أمام ربيع، وهمست له:

– هيا، انهض، واخلع ثيابك هذه!

امتثل ربيع للمرأة من دون أن ينبس، وراح يخلع عنه ألبسته القذرة. ساعدته المرأة في خلع كلّ قطعة، ولما أصبح عارياً إلاّ من سرواله الدّاخلي الطويل، الذي تحوّل لونه الأبيض إلى ألوان أخرى، تردد في خلعه بسبب وجودها ونظراتها الفاحصة اللعينة.

أحسّت المرأة بتردده، فاستدارت تجمع الألبسة من الأرض، وقالت له:

– اخلعه بنفسك ثمّ اجلس في الحوض!

صرخت المرأة على محفوظ، وأعطته الملابس القذرة، ثمّ راحت تغسل رأس ربيع وسده بالصابون والماء الحار، وهو جالس في الحوض يحسّ بنشوة سيلان الماء على جسده ونعومة يدي فروساكي الناعمة، واللتان كانتا تتحرّكان بخفة وفن على بشرته التي راحت تلين من تأثير الماء الحار.

انتبه ربيع إلى وجود بعض البثور منتشرة هنا وهناك على جلده، ولاحظ أنّه أصبح أنحف من ذي قبل، قال وهو يدفع رأسه إلى الخلف، وينظر إلى سقف الغرفة.

– كذا في أم هذه الحرب، إنّها تأكلني ابنة الحرام.

نظر إلى المرأة ليرى ردّها على شتيمته، كانت تبتسم، إلاّ أنّ عينيها لم تتغيرا،

بقي فيهما العمق، والرهبة. لقد اعتاد أن يخشع أمام نظرها، حاول أن يفسر ماذا تريد أن تقول بعينيها، ولكن كلّ التّفاسير يمكن أن تضيع حين النظر إليها، سألته وقد أحست بنظراته:

– لماذا تحدّق بي هكذا؟

دفع رأسه مرّة أخرى إلى الخلف، وعاد لينظر باتّجاه سقف الغرفة، كانت المرأة قد جلست إلى جانبه، وهي تفرك صدره بالصابون، أنزلت يدها إلى الأسفل وهي تناور على صدره، ثمّ على بطنه، ولمسته، ارتجفت يد المرأة إلاّ أنّها بقيت لحظة، ثمّ ابتعدت. عاود النظر إلى وجه المرأة. كان وجهها قد اصطبغ بلون أحمر خفيف. نظرت إليه، وقالت، وهي تهمس:

– هل أنت مرتاح؟

– نعم، كثيراً، لقد عادت إليّ حياتي.

– كان عليك أن تأتي منذ زمن، يبدو لي أنّني كنت أنتظرك.

– لم أكن أعرف محفوظ، ولولا أنّه ولد طيب لما جاء بي إلى هنا.

سكبت على رأسه وجسده ماءً ساخناً، ثمّ عاودت الغسل بالصابون، وقالت:

– لقد أخبرني عنك أشياء طيبة، قال إنّك الوحيد الذي ارتاحُ له، أمّا البقية فهم يعتبرونه مجنوناً.

– لقد ارتاح إليّ، ربّما لأنّني مجنون أيضاً.

ضحكت المرأة، جمعت بيدها رغوة الصابون، وقذفتها في وجه ربيع. غسلت وجهه بالماء الساخن، إلاّ أنّه راح يفرك عينه براحتيه، فقد أحسّ بحرقة في عينيه، تطلّع إليها، فرأت عينيه الحمراوين، فقالت:

– لقد آذيتك، أليس كذلك؟ إنّني آسفة، سأغسلهما بالماء النظيف.

– لا عليك، قال وهو يفرك عينيه.

قرّبت وجهها من وجهه، وعندما فتح عينيه، وجد شفتيها قريبتين منه، فقبّلها قبلة سريعة، فقالت وهي تبتسم برقة:

– انتظر.

فهمس وهو يحدّق بها:

– يبدو لي أنني أذوب عندما تنظرين إليّ، أيّة قوة وضعتها في عينيك يا فروساكي؟

أغمض عينيه، وتابع:

– عندما دخلت إلى هنا منذ ساعة، كان همي أن لا تلتقي عيوننا، وها آنذا الآن أخاف من النظر فيهما، هل هما بركان متفجر أم مغارة سوداء باردة. حينما أتطلّع لا أرى فيهما أيّ شيء من شدّة الظلام الذي يكتنفهما، إنّك امرأة وأنا أحسّ بك، ولكن الذي في عينيك هو الضدّ، هو الستار الذي يحجب عني الرؤيا.

قالت وقد أغمضت عينيها، قبل أن تشرع من جديد في غسله:

– سوف نصبح أصدقاء يا رابي (تقصد ربيع)، دعك من الخوف أو من الغموض فلقد جعلتني الحياة هكذا، وهي التي ستعيدني إلى ما كنت عليه.

لفته المرأة بشراشف نظيفة تفوح منها رائحة الصابون البيتي، ثمّ ألبسته بياضات زوجها المرحوم. وفي حوالي منتصف الليل جاءت بالمائدة، فأكل ربيع حتى الشبع، ثمّ شرب نبيذاً أحمر معتقاً، تعبت فروساكي في صنعه. هنا أحس بنشوة لذيذة تصعد إلى رأسه وبدوار خفيف، وحينما استلقيا في فراشها، ضمّها بقوة حتّى تأوهت. كان يبحث عن تلك الرائحة اللذيذة التي تعود أن يشتمها في فراش سارة.

لم يكن الفجر قد طلع بعد حينما أيقظه محفوظ، فنهض رغم نعاسه الشديد، ورغم ذلك الرباط الذي كان يشدّه لأن يبقى في الفراش الدافئ بين أحضان فروساكي. كان محفوظ مخموراً، ولم يكن قد نام. ارتدى ربيع ألبسته العسكرية التي نظفها محفوظ وانطلقا بهدوء دون أن يوقظا المرأة، حيث وصلا إلى الخنادق قبل أن ينبلج الفجر بقليل.

(5)

أفاق مدحت باشا. فتح عينيه ونظر إلى النافذة، كان الظلام يخيم على الغابة، فلم يكن الفجر قد طلع بعد. عاد وأغمض عينيه، كان يريد أن ينام ولو ساعة أخرى، إنّه يكره الشتاء، ويكره أن ينهض من فراشه. تقلب إلى طرفه، ونظر إلى الموقد، لا بأس، فالحاجب قد سها، وأبقى الموقد مشتعلاً. أشاع منظر النار الدفء في عينيه. مكث هكذا قليلاً، ثمّ جلس في الفراش، أين كأس الماء؟ سأل نفسه، اللعنة على هذا الحاجب، عليه أن ينهض ليصل إليه، وإذا نهض فسيفقد ملمس الأغطية البيضاء الدافئة على قدميه العاريتين. لقد اعتاد أن يشرب الماء حال استيقاظه، فعليه أن ينظم خروج أمعائه، هذا غير الملينات التي يبتلعها كلّ يوم، أما زيت الخروع فهو لا يطيقه. تذكر طعم زيت الخروع، فأحسّ بغثيان وقرف، فظهرت تجاعيد واضحة عند طرفي عينيه. في صغره كانوا يسقونه كثيراً من هذا الزيت، فهو مصاب منذ ذلك الوقت بالإمساك المزمن، إلاّ أنّه كان يرفس، ويعض، ويقاوم أمّه وجدّته والخدم حينما كانوا يرغمونه على شرب ذلك الشراب اللعين. نهض، شرب الماء، ثمّ فتح باباً يفضي إلى كرسي المرحاض. عاد، آه، اللعنة على هذه البواسير اللعينة، لقد نزفت من جديد، لقد نصحوه أن يستعمل حشرة العلق لتمص الدم المحتقن فيها، إلاّ أنّه يخاف أن يرى شيئاً يمتص دمه، حتّى أنّه يكره البعوض، ففي السرايا التي نشأ فيها كانوا يشعلون بعض الحشائش المدخنة لطرد البعوض، بناء على رغبته، أمّا هنا فقد أغاظته تلك الحشرة كثيراً، فهي تدخل حتّى من ثقوب الناموسية الدقيقة لتمتص دمه، يبدو أنه زبون مدهن. ابتسم لتلك الفكرة، زبون مدهن، فوزنه لا يقل عن مئة وعشرين كيلوغراماً، ودمه حلو، وبشرته بيضاء، تألم أثناء التغوط، ولعن الدكتور هانز، وهو الطبيب الألماني الذي يلازمه مثل ظلّه، والذي تمعن في شرجه ستة آلاف مرّة، ومع ذلك لا يمك علاجاً حاسماً لقضية البواسير. أمسك الجريدة التي كانت موضوعة على منضدة أمامه، عليه أن ينسى ما يفعل ليترك أمعاءه في حالة الراحة والحركة الذاتية، ولكن ماذا يقرأ؟ كلّ الأخبار تجعل الدّم يصعد إلى الرأس. وسام للقائد جمال باشا، هذا القذر... ومتى استحق وساماً؟ يبدو أنّهم يطبعون هذه الأخبار لإغاظته،

كان عليهم أن يأتوا إلى هنا، ويكتبوا عما آل إليه الإنكليز والفرنسيون. لق حبسهم مدحت باشا في هذه الخنادق كالجرذان. في إحدى المرات كتبوا عن عمله هذا في الصحف، قالوا: لقد وقع الحلفاء في (المعتقل الاختياري) في اليونانستان، فرقة إنكليزية وأخرى فرنسية، وهناك أيضاً كثير من العرب، لقد أعجب الألمان بعمله هذا، وقدّروه واستفادوا منه في جبهة فرنسا، وها هم الآن ينزلون الضربات الأليمة بالقوات الإنكليزية والفرنسية وأين؟ على الأرض الفرنسية بالذات. انشرح صدره، وتنفّس بعمق، لقد ارتاح لمجرد مقارنة عمله هناك بعمل الألمان على الجبهة الغربية، آه... إنّهم يكتبون عمّا يحدث هناك: (إنّ حصيلة ما جرى في عام 1915 على الجبهة الغربية هو أنّ الجيش الألماني الذي تمركز في خنادق وقلاع منيعة يقوم بصدّ كلّ هجمات الجيوش الإنكليزية والإفرنسية ويكبدها خسائر جمّة في الأرواح، مما جعل وضع كلّ من كتشنر في إنكلترا وجوفر في فرنسا صعباً للغاية). آه من هؤلاء الألمان، قال مدحت باشا في نفسه، إنّهم دهاة وباردو الأعصاب، إنّني أحبّ هؤلاء الآريين ومدافعهم الضخمة الّتي تُطلق قنابلاً باستطاعتها تدمير مبنى كاملاً من ثلاثة طوابق. صفّر مدحت باشا وهو يتصفح جريدته. صفر لحناً تركياً قديماً معروفاً جيداً بالنسبة إليه، وأحسّ باشتياق كبير لحفلة سمر يصدح فيها صوت البزق وهو يرقص على أنغامه. أين ذلك المطرب الذي أبكاه مرّة؟ كان اسمه ... نسي اسمه، ومن أين له أن يتذكّر كلّ الأسماء الّتي مرّت في حياته؟ وخصوصاً أثناء الحرب، آه، اسمه ناظم، في تلك الليلة شرب كثيراً من الخمر حتّى أنّه لم يعِ من حمله إلى سريره، ومن وضع ابنة ذلك الفلاح القميء إلى جانبه، ونسي حتّى كيف اغتصب عفتها وفض بكارتها، تأسف لأنّه لا يتذكر ذلك، ما هي المتعة إن لم ترسخ في الذاكرة؟ إن لم نحس بها على بشرتنا وشفاهنا، وإن لم نعد رسمها في رؤوسنا. في إحدى المرّات، قرأ في كتاب، يعلم الله ماذا كان اسمه: "إنّ المتع الحسية ومنها الجنسية نحس بها للحظات قليلة فقط، ولكنّ بقاءها في الذاكرة يجعلها مستمرة". قرأ عن فشل حملة الإنكليز على مضيق الدردنيل (إنّ هذا العمل هو إحدى مآثر الجيش التركي العظيم، فقد تمّ وإلى الأبد قمع الاستراتيجية الإنكليزية المغامرة والتي كانت تقول باحتلال مضائق الدردنيل والوصول إلى البحر الأسود، لفتح الطريق إلى روسيا، ومن ثمّ عزل

تركيا عن ألمانيا وتسليم الأستانة إلى الروس)، احم... سلّك حنجرته، ولكن لماذا لا يكتبون عن مخازي جمال باشا، بل يكتفون بمنحه الأوسمة، ذلك الدب الأجرد. لقد فشلت الحملة على قناة السويس، وكانت بقيادة ذلك المهووس، ومات جنودنا في صحراء سيناء. أحس بغيظ شديد ينهش أعماقه. تململ على كرسي المرحاض الذي راح يصر من ثقله. شتم أمعاءه الكسولة، وقال في نفسه: لو كنت صغيراً لحُلت المشكلة بقليل من زيت الخروع، كانوا سيرغمونني عليه، أمّا الآن فأنا لا أتصوره. كيف ستجري أمعاؤه بعد هذا الانقباض الذي أحس به بعد أن قرأ عن جمال باشا؟ ثمّ لماذا جمال باشا بالذات؟ يبدو أنهم قد جنوا هناك في الأستانة، أو أنّ الدّم لا يمكن أن يصبح ماء. أعجبه المثل الأخير، فلقد وجد تفسيراً مقنعاً، إنّ أعظم رجل في عائلته كان أباه، وقد كان حاكم قلعة، ولكنه مات، قتل في انقلاب 1909 أثناء إزاحة السلطان عبد الحميد عن الحكم، أما هو فقد دخل المدرسة العسكرية، وتخرّج ضابطاً، ثمّ خدم في فلسطين، وكان قائد كتيبة من الأوباش (كان يسميهم هكذا) ثمّ أرسلوه إلى ألمانيا، ودرس هناك علم المدفعية، وعاد ليقود كتيبة مدفعية، وليدير مزرعة أبيه الضخمة، وقد استدعوه لتشارك كتيبته في أكثر العمليات خطورة وقسوة، ومنها طبعاً العمليات ضدّ الأرمن.

ولما استدعي على عجل لقمع انتفاضة القائد نيازي في تموز عام 1908 تحرّك بكتيبته من ضواحي الأستانة باتّجاه مقدونيا. فكّر في أحداث تلك السنة، لو لم يقف هذا الموقف الصحيح لكان الآن أحقر من روث الحيوانات، ولكنّ الحظ قد أسعفه.

لقد مرّت العاصفة دون أن تمسه بسوء، بل على العكس، إلاّ أنّ وضعه مازال غير مُرْضٍ بالنسبة له. لقد استدعوه في عام 1907 لتأييد (حركة تركية الفتاة) إلاّ أنّه لم يأبه بها. اتصلوا به، جاء مصطفى كمال بذاته ليقابله. حدثه عن مظالم السلطان عبد الحميد الثاني عدّة ساعات، إلاّ أنّه كان يهز رأسه دون قناعة، أيّة ظالم يتحدّث عنها مصطفى؟ الأرمن والعرب والمقدونيين؟ تقرير المصير لهم؟ لم يكن ذلك يعني له شيئاً، أخبره مصطفى عن قراراتهم: (المقاومة المسلحة ضدّ السلطان حتّى الثورة والإطاحة به)، ارتعد مدحت آغا آنذاك من الخوف، راعه تغير الأمور،

فالسلطان لم يكن يوماً من الأيام بخيلاً على عائلته، سأل مدحت: وكيف ذلك؟ فقال مصطفى: إنّهم قرروا إشاعة القلاقل بين الناس، وسيدفعون الموظفين للإضرابات والامتناع عن دفع الضرائب، وعندما كان يودّع مصطفى كمال عند الباب همس في أذنه أنه لن يشارك ولن يعارض، الحياد، هذه الكلمة الحلوة في مثل هذه الظروف، أمّا عندما تمرّد نيازي (وكان قائد حصن رسنة في مقدونيا آنذاك) واعتصم بالجبل وأعلنت الثورة بعد أن انضم إليه أصحاب الأسماء البراقة (أنور ومصطفى وأحمد جمال وآخرون مع وحداتهم) فقد تردد كثيراً.. مع من يكون؟ احتلّ المتمردون مدينة المناستير في مقدونيا، وهدّدوا بالزحف على الأستانة إن لم يسقط السلطان، وجاء أمر السلطان بالتحرّك لقمع التمرّد، وعندما تحرّك، جاءه رسولٌ من مصطفى كمال: إن تحركت سنحطّم رأسك! ما هذه السياسة؟ فالوضع كان حرجاً جداً، عندها كذب؟ أرسل إلى مصطفى يقول له إنّه آت لينضم إليهم، ولكنّ مصطفى أمره بالتوقف للاستفادة منه قريباً في العاصمة. أرسل إلى والده يسأله عما يفعل؟ إلاّ أنّ والده نصحه بأن يكون مع السلطان. تعقد موقفه أكثر، توقفت الكتيبة بحجة أن مرض التيفوس قد بدأ يفتك بالجنود. فكرة جميلة وناجحة لكسب الوقت، وأنقذه السلطان، فقد استسلم لمطالبهم إلاّ أنّه رفض ترك الكرسي، وتمّ حل الإشكال، وانتصرت أخيراً حكمة مدحت آغا. ولما حاول السلطان التمرد، مرّة أخرى، على شروط استسلامه، حدثت مذابح رهيبة، فقتل أبوه. قتله جمال باشا، ذلك اللعين الذي لم يعد يطيقه منذ ذلك الوقت، وراح يلعن جمال وأبا جمال في سرّه، ثمّ أقسم في نفسه، سأقتله يوماً ما. كاد أن يتمرّد على تهديدات مصطفى كمال. فكّر مرّة أن يتمرّد، إلاّ أنّ الحظ حالفه مرّة أخرى، عزل السلطان عبد الحميد نهائياً، ونادوا بالأمير رشاد سلطاناً جديداً، أصبح السلطان الخامس، ولم يتورط مدحت آغا، وكتب رسالة إلى مصطفى يؤيده فيها.

أطلق تنهيدة خفيفة، وتابع قراءة الصحيفة. بعد أن تنتهي الحرب ستنتهي خدمته في الجيش إلى الأبد، هكذا قرر، فقراراته تأتيه على حين غرّة، ثمّ يمعن النظر فيها مدّة من الزمن دون أن يغيّرها. واليوم خطر له أن يترك الجيش، ولكن متى؟ طبعاً حينما تنتهي هذه الحرب، وكيف ستنتهي؟ إذا انتصر الألمان والنمساويون

ومعهم الأتراك، في معارك الجبهة الغربية، وفي معارك الشرق الأوسط، فعليهم أن يستمروا، فأحس بإحباط. هذا معناه أنّه سيموت في وحول الخنادق الأبدية. هذه السلسلة لن تنتهي، ثمّ هناك روسيا إنّها شاسعة وشعبها عنيد كالبغل. إنّه يتركك تتبعه حتّى تصل إلى عمقه وعندها ينهمك في إبادتك. تململ في مقعده وسعل، إنّه يعرف الروس، لقد حاربهم أبوه في بلغاريا وحدّثه عنهم، قال أبوه إنّه شنق أسيراً روسياً أثناء الحرب، وفي الليل لم يستطع أن ينام، تقلّب في فراشه عدّة ساعات من دون جدوى، فنهض وأشعل مصباح الكاز، وحينما أضيئت غرفته شاهد الروسي واقفاً أمامه وهو يحملق فيه. لم يستطع أبوه أن يصرخ، فلقد انعقد لسانه، وراح يرتجف، ثمّ وقع على الأرض عند أقدامه، وسجد وهو ينتظر أن يُقتل، لم يحدث شيء، كما قال له، تجاسر ونظر باتجاه قدمي الروسي، إلاّ أنّه لم يجد شيئاً، غاب الرجل كما أتى، وأقسم أبوه أن لا يشنق أحداً بعد الآن، وبعد أيام انسحبوا من قمة (شيكا) إلى غير رجعة. وها هي القوات الألمانية تخترق حدود روسيا بعرض عشرين ميلاً، قرأ ذلك في الصحيفة، وتغوص في روسيا، إذن، لن تنتهي الحرب عما قريب. شيء مقرف، قال في نفسه، الأفضل أن لا أفكر في العواقب، المهم أن نحارب الآن ولنترك الشيطان يمسك بطرف السلسلة. لقد أصبحت العودة إلى قصره في إحدى قرى بورسا شيئاً بعيد المنال، ولنفترض أنّني عدت، فإنّني سأصاب بالسأم بعد أسبوعين، قال ذلك في نفسه، لذلك قرّر أن يسافر في الربيع لمدّة أسبوعين، إنّه يفتقد زوجاته الثلاث بل في الحقيقة إنّه يفتقد الصغرى فقط، مسّد لحيته وهو يبتسم، راح يتخيلها، شقراء نحيلة ذات عيون زرقاء حالمة لها أجمل أنف شاهده في حياته. إنه دقيق مثل البندقة ومع ذلك فهو يشمخ إلى الأعلى. إنّها ابنة أحد إقطاعيي الأناضول، سافر إليه في أحد أيام الصيف، فقد كان مدعواً منذ زمن بعيد، وهناك، تحت ظلال أشجار الزيزفون والسرو، حيث كانوا يجلسون وهم يدخنون النرجيلة، وحيث كان يغفو على خرير الساقية الهادئ، رآها، كانت تتلفح بالحرير، صبية لم تبلغ العشرين بعد، سلّم عليها، فقالت له: مرحباً يا عم، لم تجد آنذاك سوى كلمة عم تحطم قلبه بها، إلاّ أنّه سرعان ما أرغمها كي تنسى هذه الكلمة. تزوجها، ورحل بها إلى بورسا، وصاروا ينادونها علية هانم وهي تناديه حبيبي مدحت، هو الذي علّمها كيف تناديه، كما أنّه

علّمها أشياء أخرى. ضحك بصوت خافت، وأحس بالزهو، إنّه يحبّها، ثمّ أنّها لم تحمل منه فبقي جسمها غضاً ومتناسقاً. أحس بالشهوة تحرق أحشاءه، في إحدى المرات خطر له فجأة، كما يحدث معه دائماً، أن يأتي بها إلى هنا لتعيش معه، إلاّ أنّه عدل عن الفكرة، لأوّل مرّة يتراجع عن فكرة تخطر له، فالمكان يعج بالضباط الشباب، هذا عدا بعض الألمان جميلي الطلعة والذين يتقنون فن الغزل واللباقة مع النساء، فتمّ إنقاذ شرفه في آخر لحظة. إذن، لابد أن يستدعي تلك الأرملة اليونانية التي قتل زوجها يوماً ما. إنّها جميلة وسمراء ذات عيون متوحشة، مثل القطط، إنّه يحبّ أن يذل تحته إحدى هذه القطط. سمع وقع خطوات على الألواح الخشبية للسقيفة الخارجية، فنهض، واغتسل، ثمّ رفع سرواله الصوفي الطويل، وصرخ ينادي الحاجب.

انتهى مدحت باشا من ارتداء ثيابه بمساعدة الحاجب، الذي كان يرتعد، في داخله، خوفاً من ارتكاب أيّة هفوة مهما كانت صغيرة، فيد الباشا قد تهوي في أيّة لحظة، وتقذف به إلى الطرف الآخر من الغرفة، محطّمة على رأسه إحدى قطع أثاثها. قدّم له الإفطار، فشرع الباشا يلتهم قطع اللحم المسلوقة بنهم شديد، ثمّ بلع ثلاث بيضاء مسلوقة أيضاً، وصحناً من سلطة الملفوف وكمية لا بأس بها من العسل الصافي، وفي تمام التاسعة، ألبسه الحاجب معطفه، ثمّ انطلق ليعلن عن مجيء الباشا.

اعتاد مدحت باشا أن يشرب قهوة الصباح في غرفة قيادة أركان جيشه، وبحضور ضباط الأركان والضباط الألمان، الذين كانوا يقدّمون المشورة للقائد، وأيضاً، بحضور طبيبه الخاص الدكتور هانز. دخل مدحت باشا فحيوه وقوفاً فلم يصافح أحداً بل رفع يده إلى كتفه مثنياً إياها عند المرفق، ثمّ أخفضها. جلس في مقعده الضخم، خلف طاولة كبيرة من خشب الصنوبر مفروشة بمخمل أخضر، فتحت عليها خريطة واحدة لا غير، مشار فيها بالألوان إلى مواقع الجيوش التركية والإنكليزية والإفرنسية والبلغارية والعربية (كان البلغار يحاربون مع الأتراك ضدّ الحلفاء).

كانت الغرفة ذات أرضية من الباركيت المصقول، وجدرانها مطلية بالكلس

الأبيض الناصع ولها نافذتان. إحداها تطلّ على الغابة، أمّا الأخرى، فعلى ساحة الدار، التي غصت بالحرس والأحصنة وبعربتين، وكانت أرض الساحة موحلة حيث انسحق الثلج واختلط بالطين الأسود. أما من بعيد فتطلّ أشجار الصنوبر والسنديان وقد ارتدت لباساً أبيض ناصعاً، كانت الغرفة مدفأة بموقد يعمل على الحطب موضوع في إحدى الزوايا.

قُدّمت القهوة التركية وراح الجميع يدخّن سجائر ألمانية ما عدا الباشا الذي كان لا يحبّ تدخين السجائر، فهو يفضّل النرجيلة، ثمّ وقف أحد الضباط وكان في العقد الخامس أصلع الرأس، ذو شارب أسود فاحم، مدبب ومرتفع إلى الأعلى عند طرفيه، وبدأ يشرح وضع الجبهة، كان كلّ شيء هادئاً، فالإنكليز والفرنسيون يحتفلون بعيد الميلاد في الخنادق، وهم يشربون الخمور، ويقذفون الزجاجات الفارغة، ثمّ يصوبون عليها، وفي أحد القطاعات تمّ القبض على عربيين كانا قد زحفا في الليل والتقيا بعض الجنود الإنكليز، حيث راحوا يشربون النبيذ معاً، وهذه طبعاً جريمة، فأخذ العربيان إلى السجن، وكان عبارة عن غرفة محفورة في الأرض، وقد وضعا على الفلق، وأخذا جزاءهما.

ثمّ نهض ضابط آخر برتبة رائد، وتحدّث عن التموين، فالأطعمة قليلة، ولازالوا يقدمون وجبة واحدة للجنود يومياً، وإذا استمرّ الوضع على حاله فإنّهم سيضطرون لتخفيض كمية الوجبة. كما أنّه وصلت شحنة من البنادق الألمانية الحديثة، وسيقومون بتوزيعها على الجنود الذين لا يملكون بنادق، أمّا الذخائر فهي متوفرة نوعاً ما إلاّ أنّه لم يصل شيء جديد منذ شهرين.

صمت الجميع بانتظار أوامر الباشا. سكب له الحاجب فنجاناً آخر من القهوة، ثمّ زفر زفرة طويلة قبل أن يسأل بصوته الثخين المتحشرج:

– هل لدى الإنكليز نوايا عدوانية؟

فنهض عقيد عجوز ذو لحية اسمه مصطفى، وكان الشيب قد غزا شعره ولحيته كلّها، وقال بصوت ضعيف، وكأنّه لا يستطيع أن يتكلّم، ويتنفس في وقت واحد:

– لا توجد نوايا من هذا النوع، إنّهم يفضّلون أن تمرَّ أعياد الميلاد ورأس السنة الميلادية بهدوء.

– وماذا فعل الجنرال ساريل هنا؟ سأل مدحت باشا.

– سألنا أحد الجنود الإنكليز عن ذلك، فقال إنّه جاء للاستطلاع والتهنئة بالأعياد.

– لديّ معلومات تقول إنّ الإنكليز يقومون بالتحضير للانسحاب من مضائق الدردنيل بعد أن فشلوا هناك، وأظن (تمخط ثمّ بصق في منديله) إنّهم قد ينقلون جنودهم إلى هنا ليقومون بالهجوم علينا، واختراقنا بغية احتلال مرتفعات سالونيك، وعلينا أن نفهم نواياهم بدقة، وأن نراقبهم جيداً. أليس كذلك يا ديتريش؟

كان ديتريش هو الضابط الألماني الأعلى رتبة بين الضباط الألمان الآخرين، وكان مدحت باشا يحسّ أنّ لديتريش قناة اتّصال مباشرة مع الأركان الألمانية، ولذلك كان الباشا يحرّضه دائماً على الكلام. لم يرفض مباشرة ظنون الباشا إلاّ أنّه ألمح إلى أنّ الإنكليز يودون إغلاق ملف هذه الحملة، على الدردنيل، نهائياً، وأنّهم يريدون تقوية موقفهم في فرنسا تجاه الجيوش الألمانية، ثمّ ختم حديثه بأنّه مع الباشا في حذره من نوايا الإنكليز، فهم ثعالب برية ماكرة. شخص الباشا إلى ديتريش وهو ساهم وقال في نفسه: ها هو يراوغ هذا الألماني المشاكس، سنرى أخيراً من هو الثعلب البري الماكر، ثمّ خطر له خاطر ففكّر فيه بصوت عالٍ:

– ها... هاه (ضحكة مصطنعة من مدحت باشا) لديّ الامتحان المناسب (واقترب بجسمه من الخارطة) هنا، في هذا المكان، سنهاجم بكتيبتين خنادق الإنكليز، ومتى؟ في اليوم الأوّل من العام الجديد، اتركوا الإنكليز يسكرون، ولكن نحن سنبقى نفرك عيوننا لئلا نغفو، وعند الفجر، سنفرمهم فرماً.

كانت سعادته هائلة، فالفكرة رائعة، وقد جعل الضباط يذهلون من هذه الخطة التي راودته على الفور، نشطت دورته الدموية واصطبغ وجهه بلون زهري، وراح يلعق شفتيه مثل طفل يأكل حلوى، وشعّت عيناه ببريق أخاذ، وأحس أنّه شاب، لولا ذلك الألم المزعج في أسفله.

اعترض ديتريش، ذلك الألماني الخبيث يحشر أنفه في كلّ شيء. لماذا لا يرسلونه إلى الجبهة الغربية ما دام فائق الذكاء بهذا الشكل؟ ولكن، هذه المرّة، سوف أنفذ بدونه (هكذا فكّر مدحت باشا).

– نحتاج لموافقة الأركان العامة، قال ديتريش، فهذا العمل يخرج عن الاستراتيجية المتبعة في هذا المكان، تصوروا مدحت باشا، ماذا سيحصل لو أنّ هذا العمل لم يعد له ضابط يمنعه من التصعيد، أنت تريد أن نقسم الخنادق إلى شرق وغرب، ونخترقها بطول ميلين أو ثلاثة، حسناً، ولكن هل سيبقى ساريل مكتوف اليدين؟ يوجد احتمال أنّه قد يقوم بإحراق مواقعنا الضعيفة أيضاً، وقد يطوّر عمله نحو العمق. وحرّك يده كالسهم، واخترق خطّ الجبهة على الخريطة إلى العمق.

– إنّ جنودنا يموتون من البرد في الخنادق، علينا أن نسخّنهم، ثمّ إنّ هذا العمل سيخفف العبء على الجبهة الغربية، قال النقيب سليمان، الشاب الطموح والمقرب من الباشا والذي يقود إحدى الكتائب.

وبعد ساعة من النقاشات الباردة اتفقوا على استشارة الأركان العامة بواسطة التلغراف العسكري. تمّ صياغة البرقية على الشكل التالي: نقترح القيام بأعمال الدفاع النشط بمستوى كتيبتين للمشاة في اليوم الأوّل من العام الجديد، السبب ظهور بوادر تآخي بين جنودنا والعدو، يرجى الموافقة في أقرب وقت، التوقيع.. مدحت... وديتريش.

بعد إرسال البرقية بدأ ضباط الأركان وقادة الكتائب إجراء الحسابات، وتأمين اللازم، للقيام بالمجزرة، حين ورود برقية الموافقة من قبل الأركان العامة. وزّعت البنادق والذخائر، وحصل بعض الجنود على قنابل يدوية أسطوانية الشكل مصنوعة في ألمانيا، وحصل ربيع على بندقية، فانهمك في تنظيفها من الشحم. سرت شائعات قوية بين الجنود مفادها أنّ الأتراك يحضّرون لشيء ما ضدّ الإنكليز، وتكهن العارفون، وثرثر الجنود وهم قابعون في حفرهم، وتراهن آخرون، وكانت الرهانات عبارة عن قبضات من التتن البيتي المفروم. قال بعضهم إنّ زيارة ساريل هي التي وترت الأجواء، وقال آخرون إنّ مدحت باشا لا يعجبه هذا السكون وأنّه اشتاق لمنظر الدم وهو يسيل على الثلج الأبيض الناصع. تحمّس قليلون، إلاّ أنّ معظم الجنود أصابهم هم ثقيل قبع كغمامة سوداء في قلوبهم، وراح كثيرون منهم ينعزلون عن الجنود الآخرين وهم لا يفهمون ما الذي سيجري غداً عند الفجر. إلاّ أنّ ربيعاً كان يتسلّى بتنظيف بندقيته، وراح يتأملها بين حين وآخر، ويتمرّن على النيشان.

اقترب منه شخص عربي معروف الملامح، كان الناس يصيحون له باسم عيوش (يظن ربيع أنّهما قدما معاً إلى هنا حين خرج من المستشفى) بادره عيوش:

– مرحباً.. أليس اسمك ربيع الزيات؟

فقال ربيع: نعم.

جلس الرجل بجانب ربيع، وقال:

– اسمي عيوش، أنا عربي من إنطاكية، حدّثني عنك الحاج وهبي، وطلب مني أن أسألك إن كنت في حاجة إلى أيّ شيء.

– من هو الحاج وهبي؟

فقال عيوش:

– الحاج وهبي البصري الذي كان معك في المستشفى.

– عرفته، أشكرك أنا لا أحتاج لشيء، وبعد فترة صمت قصيرة سأل: ماذا جرى له هل سرح من الجيش؟

فقال عيوش وهو يمسح وجهه بكلتا يديه:

– قال إنّه سيسافر إلى العراق عندما يسرّحونه، لقد مدحك كثيراً، وطلب مني أن أضمك إلى شلتنا.

نظر ربيع إلى عيوش بطرف عينه، كان الرجل يرفرف بعينيه باستمرار، بحركة عصبية، وكان في بعض الأحيان يرفع حاجبيه إلى منتصف جبهته، ثمّ ينزلهما وكأنّه يريد أن يزيل شيئاً من تحت جفنيه. كان وجهه أسمر وشاربه أسود فاحماً أمّا شعر رأسه فقد راح الشيب يدبّ فيه، مسح عيوش براحته أنفه الضخم وشاربه، كانت يده ضخمة وخشنة، فتساءل ربيع في نفسه عمّا كان يعمل قبل الحرب. يبدو أنّه كان حمّالاً، فرائحة الدّواب مازالت عالقة فيه، انتبه ربيع إلى أنّ عيوش يتطلّع إليه، فسأله:

– وما هي هذه الشلة التي تريدني أن أنضم إليها؟

فقال عيوش على الفور:

– نحن أربعة شباب لنا تفكير واحد، وأنت تستطيع أن تتفاهم معنا على الفور، فتعال اليوم نحن نقعد هناك (وأشار إلى مكان غير بعيد عن مكان ربيع داخل

الخندق) خذ ودخن هذه. ناوله السيجارة التي كان يلفها، أشعلها ربيع، وراح ينفث دخانها الثقيل من فمه وأنفه، استمتع بها، لأوّل مرّة يُخرج الدخان من أنفه ولا يسعل.

– قلت إنّك من إنطاكية، آ؟ إنّها مدينة لطيفة، شاهدتها أثناء مجيئنا إلى هنا.

– ألم تزرها قبل الحرب؟

– لا... أنا لم أخرج في حياتي كلّها خارج مدينة حلب، تصور ذلك، وفي الحال يضعوني في خندق أمام جيش عرمرم من الإنكليز وغيرهم، في أرض لم أحلم في زماني أن آتي إلى هنا، كم نبعد عن حلب؟

فأجاب عيوش على الفور:

– أكثر من ألفي كيلومتر.

– يا إلهي... وهل جئت أنت من حلب؟

– نعم... أكثر من مرّة، كنت أذهب لأقابل معلماً يدرس في السلطانية اسمه الأستاذ عبد الودود هل تعرفه؟ ... إنّك لا تعرفه... إنّه ضدّ الاستعمار العثماني، وقد سجنه الأتراك مرّتين، وعذّبوه حتّى إنّه كاد أن يموت في المرّة الثانية، فأطلقوا سراحه بعد أن تعهد لهم بأن يكفّ عن شتم العثمانيين (صمت قليلاً ثمّ تابع) إنّني أكرههم هؤلاء الكلاب، ما رأيك فيهم؟

تفرّس ربيع في وجه عيوش، أراد أن يعرف مدى صدق الرجل، لم يقل شيئاً، هناك كثير من الجواسيس يشتمون الأتراك أيضاً، على المرء أن يكون حذراً، ولكن الحذر لا يجب أن يدوم طويلاً، إنّه يعرف الحاج وهبي البصري، وقد أوصاه الحاج به، إذن لا خوف منه، امتلأت عيناه بالدّموع من جراء دخول دخان السيجارة فيهما، احمرّتا، فركهما بظاهر كفيه، أراد أن يسحق السيجارة بحذائه إلاّ أنّه عدل عن ذلك، فالدّخان مع ذلك مسلاة تعلّمها في الجيش.

في الماضي، كان يراقب أمَّه وهي تدخن (بدأت التدخين بعد أن مات أبوه علي الزيات) كان يحبّ رائحة التبغ المنبعثة من ثياب أمِّه وشعرها، وفي إحدى المرات وجدته أمُّه يشعل سيجارة ملفوفة بطريقة عشوائية، نهرته أمُّه وقالت: مازلت صغيراً على هذه الأشياء. التدخين ممنوع على الصغار، أمّا الكبار فهم يدخّنون لأنّهم يكسبون نقودهم من عرق جبينهم. وعندما بدأ يكسب بعض القروش من معمل النشاء

كان قد نسي التدخين.

– بماذا تفكر؟ سأل عيوش.

– كنت أفكّر في أمّي، كانت تمنعني عن التدخين... قل لي هل صحيح أنّهم في الوطن لا يجدون شيئاً يدخنونه؟ قال ربيع وهو يريد أن يسبر تفكير الرجل.

فقال عيوش بعصبية:

– لا يوجد تبغ؟ إنّك مسطول، بل قل إنّ الناس يموتون من الجوع، فلقد قامت السلطات بجمع الحبوب والدواجن والتتن وغير ذلك لإرسالها إلى الجبهات، والأطفال يموتون من الجوع والبرد. أمّا الرجال فهم يساقون مثلنا كالدواب إلى الحرب، ليقتلوا عند أوّل إطلاق رصاص، أو أنّهم يعلّقون على أعواد المشانق بعد محاكمة هزلية، لقد طفح الكيل بأهلنا من تصرفات الأتراك وجمال باشا، لماذا نحن هنا؟ آ... ؟ وما دخلنا بهذه الحرب؟ إنّني هنا أبحث عن عدو محتمل ولا أرى، هل الإنكليز أعداؤنا؟ الفرنسيون؟ اليونانيون؟ ...

فقال ربيع ببرودة أعصاب، وهو يريد أن يغيظه:

– إنّنا هنا لنحارب الكفار من أمثال الإنكليز، أمّا الأتراك فهم مسلمون مثلنا.

فردّ عيوش بصوت عال غير خائف من أن يسمعه أحدهم:

– لقد قرأوا عليك بيان السلطان العثماني الذي يدعو العرب المسلمين للجهاد ضدّ الكفار إنّني أرى كافراً واحداً في هذا العالم.

– من هو؟

– السلطان العثماني الذي غطسنا في هذا الوحل.

– ولكنّه على كلّ حال مسلم، هكذا قال ربيع.

– كذا في أمّ هذا المسلم الذي يريد أن يطحنني في هذا الطاحون بلا نهاية...أراد ربيع أن يقاطعه إلاّ أنّه قال: بس يا أخ، إنّك تغيظني!

نهض عيوش بعصبية، مسح وجهه براحته الضخمة والخشنة. أراد أن يضيف شيئاً، كان وجه ربيع هادئاً، مما أثار أعصاب عيوش أكثر، استدار الرجل وعاد من حيث أتى، وابتعد بعد أن تمخط وبصق. ضحك ربيع في سرّه، لقد أغاظ الرجل، إلاّ أنّ ركلات عيوش كانت تدعو إلى الإشفاق. شيّعه بنظره حتّى غاب عند منعطف

الخندق، لماذا دافع عن العثمانيين؟ إنّه لا يدري..، يبدو أنّه كان يريد التسلي، الموضوع ليس محصوراً هكذا... فكّر ربيع، وليس المهم أن تكره أو أن تحبّ، يمكن أن يكون لديك صديق تحبّه وصديق لا تحبّه، شخص تكرهه وشخص لا ترتاح إليه، ولكن الموضوع يختلف عند الحديث عن العثمانيين (سحب نفساً طويلاً من سيجارته، كان الدّخان يحرق حنجرته، ويخدش أنفه من الداخل، قد يكون بسبب الورق السميك الذي لفّ السيجارة به)، لو لم يكن العثمانيون لما كنت هنا (هكذا فكّر في نفسه) وراح يشتم نفسه، كان عليه أن يهرب أو أن يختبئ في المعمل، وهناك يمكن أن يقابل عائشة، قد تأتي ببعض الطعام، ولكن أباها راح يرفض مجر أن يراها، إما أن تخطبها أو أنك لن ترى ظفرها، وحتى لو خطبها فإنه لن يدعها تجالسه إلا بعد الزفاف، ولكنه شرع يرفض التحدث في هذا أيضاً. أحس بكره نحو والدها، ماذا حدث لها يا ترى؟ في هذه الأشياء يخبئون النسا أو أنهم يزوجون البنات خوفاً عليهن من الأيام السود، وهل هناك أسود من هذه الأيام؟ إذن لابدّ أنّه زوجها الآن، فأبوها من الرجال الذين يخافون إبقاء البنات من دون زواج، الله يستر عليك يا أبا حديدة، زوّج بناتك أوّلاً بأوّل وقبل أن يتفتحن، ولكنّني أعجب البنت، وحتّى لو زوجها فإنّني سأجرّها إلى مكان ما، وهناك سأعجبها أكثر، لا أعتقد أنّ لها مزاجاً أصعب من مزاج سارة وفروساكي، سأجعلها تلعن الصدف التي سلبتني منها.

سمع ربيع أصوات ضحك الجنود، كان هناك سبعة أو ثمانية من الأكراد الذين التفوا حول جندي آخر لفّ خصره وراح يرقص وهم يصفقون، اقترب منهم وراح يصفق، كان الراقص نحيفاً، ويلبس سروالاً عريضاً. كان السروال يسحل، فيتضاحك الجنود ببذاءة، اقترب أحدهم من الراقص، ولمس أسفله بإصبعه الوسطى، ثمّ أخرج له لسانه، وراح يضحك كاشفاً عن أسنان مكسرة وسوداء، انزعج الراقص، وتوقف عن الرقص، وراح يسبُّ بالكردية، وما لبث أن حدث عراك بالأيدي بين الراقص وأحد الجنود. ابتعد الآخرون قليلاً ما عدا اثنين راحا يكيلان اللكمات للرجل وهو يدافع عن نفسه بيد، ويمسك سرواله بالأخرى. اقترب ربيع من الرجلين، ووقف أمامها يمنعهما من ضرب الرجل النحيل، فقال له أحدهما بلغة عربية ركيكة:

- ابتعد أنت وإلا كسّرت رأسك.

فقال ربيع وقد أسند بندقيته على الجدار:

- اتركوا الرجل بحاله وإلا ...!

تلقى ربيع لكمة من الرجل الآخر، سمع بسببها فكه يطق، فراح يضرب الرجلين، ثمّ أمسكهما، وأطاح بهما على الأرض، وراح يرفسهما بقوة، ثمّ لما عرف أنهما هزما، أمسك بندقيته بهدوء، وعاد إلى حيث كان يجلس من دون أن ينبس بكلمة.

بعد ساعات وبينما كان جالساً مع محفوظ الذي كان يثرثر في أمور كثيرة جداً، عاد الرجلان مع ثلاثة آخرين، وهجموا على ربيع يريدون أن يعيدوا الاعتبار لأنفسهم، حدث عراك بالأيدي والأرجل، كُسر فك أحد المهاجمين، واستلقى آخر منكمشاً على نفسه مقطوع الأنفاس، بعد أن تلقّى ضربة في بطنه، واستطاع الآخرون الهرب بعد أن جاء عيوش وجماعته راكضين للدفاع عن ربيع.

مكث الجميع بجانب بعد أن قرروا حراسته، فمن المحتمل أن يحاول شيرزاد وجماعته (هكذا كان اسم أحدهم) الانتقام من ربيع، وقتله برصاصة في رأسه أثناء الليل، وبناء على نصيحة محفوظ، فقد قرروا تعيين حراسة من رجلين كلّ واحد منهما يراقب الخندق من اتّجاه.

قبل المغيب بساعة جاء جندي وصاح:

- ربيع الزيات...

- ماذا تريد، سأل محفوظ.

- يطلبه الملازم مصطفى.

كان الملازم مصطفى هو قائد السرية التي يخدم فيها ربيع، وهو من أب تركي وأم عربية إلاّ أنّه كان أشقر الشعر، أبيض البشرة، ذا عينين عسليتين، كان الملازم لطيفاً كالنساء وربما بسبب ذلك أسموه (الست صفية)، وكان الجنود يراقبونه بعيون شبقة حينما كان يمر، حتى أنّ أحد الجنود تنهّد مرّة بعمق، وأقسم أنّه سيغتصبه.

دخل ربيع إلى غرفة صغيرة لا تتسع إلاّ لسرير وطاولة، محفورة في الأرض. أغلق الحارس الباب من الخارج، وبمشقة شاهد ربيع الملازم جالساً على كرسي خلف الطاولة، وقد وضع عليها مصباح زيت مشتغل لا ينير إلاّ نفسه. سمع صوتاً ناعماً

يقول له:

- هل أنت ربيع الزيات من ولاية حلب؟

- نعم، أنا.

فأمره الملازم:

- أجلس على السرير لكي أراك.

جلس ربيع على طرف السرير المصنوع من ألواح الخشب. كانت الغرفة باردة جداً ورطبة. نظر باتّجاه الملازم الذي لف نفسه بمعطف عسكري ثقيل. كان بالقرب منه وعاء مملوء بالصفية وعليها ثلاث أو أربع قطع من الفحم المتوهج، كان الملازم يمدُّ يده من فوق الوعاء ليحس بالدفء. سلّك الملازم صوته، ثمّ قال:

- اخبروني أنّك كسرت فكّ أحد الجنود في عراك حدث بينكما عند الظهر.

لم يجب ربيع، كان يستمع لصوت الملازم الناعم والهادئ، أحس بمتعة الجلوس في الظلام والاستماع إليه، تابع الملازم:

- أرسل الرجل إلى المستشفى.

أخرج الملازم علبة دخان أجنبية (يبدو أنّها ألمانية)، أخرج سيجارة، وأشعلها بولاعة تعمل على البنزين، فعل ذلك ببطء شديد، حتّى إنه كان يتلذذ بما يفعل، استغرب ربيع لأن الملازم لم يشعل السيجارة من المصباح مباشرة، بل أخرج قدّاحة. على كلٍّ، كان صوت إشعال وإطفاء القدّاحة مسلياً، تابع الملازم حديثه بعد أن عبقت الغرفة بدخان سيجارته المعطر:

- بما أنّك قوي لهذا الحد، فلماذا ضربت جندياً مثلك بهذا القوة؟ كان يمكن أن تقتله، لم يصدق الطبيب أنّ لكمة واحدة قد تحطم فكَّ إنسان بهذا الشكل.

تابع ربيع حركة سيجارة الملازم في الظلام وهو صامت، انتظر الملازم قليلاً، ثمّ صاح:

- لماذا لا تقول شيئاً؟

فتح ربيع فمه، وقال بصوت وسنان:

- كنت في حالة الدفاع عن النفس، كانوا خمسة أشخاص، راحوا يضربونني فضربت أحدهم، جاءوا لكي ينتقموا، لقد دافعت عن أحد الأشخاص، إنّهم مجموعة

من الأشرار، و... هذا ما حدث.

فقال الملازم على الفور:

لم أفهم شيئاً... اسمع إنّني أحذرك، عليك أن تستعمل قوتك مع العدو وليس مع جنودنا، سوف نسجنك، وسأضع قدميك في الفلق بنفسي، ولكنّك محظوظ فنحن مشغولون في أمر آخر....

صمت لحظة، راح يدخّن خلالها، نقر بإصبعه على الطاولة، يبدو أنّه يريد أن يقول شيئاً آخر، ولكنّه راح يقلب الكلمات في ذهنه، أحسّ ربيع بالكراهية نحوه. لماذا يقوم بهذه الحركات؟ ولكنّ الأمر انتهى دون الفلق الذي تحدّث عنه، يبدو أنّه طيب القلب، وإلا لما كان قد تركه هكذا.

– اسمع يا ولد: قال الملازم . قد يحدث قتال بيننا وبين الإنكليز خلال الأيام الثلاثة القادمة، لا أريد أن تخبر أحداً. ولكن أريد منك أن تجلب أسيراً، أريده إنكليزياً، أنت تميزهم جيداً... آ... آ؟ انتبه، يوجد بينهم بعض المصريين، وأن استطعت، سوف ننسى موضوع فك الرجل الذي حطمته... هذا أمر، إنّنا في الجيش، والطلب عندنا يعني أوامر، أنت طفل ولكنّك ذكي وقوي (شتمه ربيع في نفسه ببذاءة) آهه... ماذا تقول؟

عدّل ربيع جلسته، وحكّ ذقنه:

– وإن لم أستطع؟

– سنضعك في السجن، وسنضربك علقة محترمة.

– إذن... ضعني الآن في السجن، إنّك لا تخيفني، (صمت لحظة ثمّ تابع) إذا أردت الأسير فعلاً، فأنا على استعداد لأن أقدّمه لك، أعطني سيجارة! (وكأنّ عقرباً قد قرصه، أخرج الملازم علبة السجائر، وأعطاه واحدة، ثمّ أشعلها له) نفث الدخان وقال: الأسير مقابل شيء آخر.

– ما هو؟ سأل الملازم بحنق وهو يفرك كفيه.

– أبعدني عن هذه الخنادق القذرة، قال ربيع بجرأة.

توقف الملازم عن فرك كفيه، تسمّرت عيناه في وجه ربيع الذي غاص في ظلام الغرفة، ثمّ قال في نفسه: (أيّ ابن قحبة هذا الجندي، كيف تجرأ..؟) سمع

صوت تنفس ربيع الهادئ، فاستقرّ على أنّ الرجل يثق بنفسه كثيراً، سأله:

– ماذا قلت؟ أعد... أعد...

أعاد ربيع طلبه مرّة أخرى، ابتسم الملازم ابتسامة صفراء شاهدها ربيع جيداً ولكنّه ما لبث أن سمع الضابط يقول بصوت كالهمس:

– على كلّ... سأتحدّث بشأنك، سأطلب تعيينك مراسلاً حربياً.. هذا إذا أتيت بصيد جيد.

عاد ربيع إلى رفاقه. كان الجميع يظنون أنّه سيضرب أو يسحن، إلاّ أنّ المفاجأة كانت عندما أخبرهم حديث (الست صفية) حول القتال القريب بينهم وبين الإنكليز. راح الجميع يشتمون، ويتناقشون بصوت منخفض، وهم يدخّنون السجائر. حاولوا إقناع ربيع بعدم الاستماع لترغيب الملازم وعدم جلب أي أسير، ولكن من دون جدوى. فقد رأى أن الفرصة قد حانت ليتخلص من هذا (الحوض الملآن بالغائط) الذي يغوص فيه بلا معنى، ثمّ راح عيوش ورفاقه (عبد الكريم ومحمود وجاسم) يفكّرون بطريقة يستطيعون بواسطتها الخروج من القتال أحياء، أمّا محفوظ فقد جلس بجانب ربيع، وحثه على الذهاب إلى بيت فروساكي للاختباء هناك في حالة اندلاع القتال، وفي النهاية بصق عبد الكريم (وكان أصلع الرأس، أملس الوجه) بحنق واتهم ربيعاً بأنّه قد خان العروبة.

* * *

(6)

في كانون الأوّل يكون الطقس في العادة بارداً، وقد يهطل الثلج وتتدنى الحرارة إلى ما دون الصفر، عندها تنقلب الأرض إلى قطعة من البوظ، قاسية تجرح اليد أو القدم الحافية. ولكن الأمر يختلف في اليونان، فبعد هطول الثلج بيوم أو يومين ترتفع درجة الحرارة إلى ما فوق الخمس درجات، عندها يذوب الثلج، وتتعجن الأرض، ويصبح السير غوصاً في الطين، ونثراً للرذاذ، وتنقلب السحنات وتصطبغ الأحذية وحوافر البغال بلون بني، مثل لون الجرب. أمّا في الخنادق فيتحوّل كلّ شيء إلى قذارة، فالطين يلوث الأيدي والأوجه واللحى والقبعات والمعاطف والبنادق وقصعات الطعام وقناني الماء وقطع الخبز القاسية المتيبسة، وصبح الجلوس صعباً وكذلك الاستناد إلى أيّ شيء، فعليك أن تظلَّ واقفاً كالطود مستنداً إلى بندقيتك وحذائك غائص في الطين، إلى ما فوق أخمص قدميك.

في تلك الحالة تكون أعصاب الجنود متوترة، يتصارعون لأتفه الأشياء وتعلو الشتائم والكلمات البذيئة، واللعنات القذرة الموجهة إلى كلّ شيء حتّى إلى السماء، أما في الليل فيبقى الجميع سهرانين يرتجفون من البرد، لا يستطيعون إشعال شيء ليدفئهم، فالنار لا تستطيع إحراق قطع الحطب التي تقطر ماء.

في مثل هذا الوقت وصلت برقية القيادة المنتظرة، لا مانع لديهم من القيام (بأعمال محدودة) الهد منها إزعاج الإنكليز ورفع الروح المعنوية للجنود العثمانيين. فاجتمعت هيئة أركان الفرقة بقيادة مدحت باشا، ووضعت اللمسات الخيرة للخطة، وعينت الكتائب التي عليها أن تقوم بالمهمة، وهي بالتحديد كتيبة النقيب سليمان وكتيبة أخرى يقودها رائد اسمه صباح الدين. تم وضع الكتيبتين في (الجاهزية). راقبوا الذخائر والبنادق، وراح صف الضباط يركضون ذهاباً وإياباً لتنفيذ ما يؤمرون به. وزّعت السرايا على فرق صغيرة، واختلف الناس أثناء التوزيع، فكلّ جندي يريد أن يكون مع صديقه أو قريبه، وأصرّ أحد الجنود على أن يكون هو وشقيقه في فرقة واحدة، وتصايح الجنود وشُتِمَ الرقيب في وجهه، وردّ هو على الشتيمة بأشدّ منها، ولما جاء (الست صفية) حذرهم، وقال:

- كفى... يا أخوات القحبة!

فهمس أحد الجنود وهو يغمز لصديقه الواقف بجانبه: روح استر قفاك يا... فالجنود كانوا قد أشاعوا أنّ الملازم مصطفى شاذ جنسياً، وأنّه يدفع وجبة طعام شهية لكلّ من يضاجعه، وإن حارسه الخاص السابق قد أقسم يميناً أنّه ضاجعه أكثر من عشر مرّات في أسبوع واحد.

انتقل الخبر الذي بثه ربيع إلى أصدقائه بسرعة البرق، وصدّقه الناس بسرعة، فقد كان الجواب الشافي على تساؤلاتهم حول كلّ ما يجري، وانتقلت عدوى النقاشات الحامية إلى الجميع، وانقسم الناس إلى قسمين، قسم يؤيد الأتراك، والقسم الآخر بدأ يعبّر عن رفضه لكلّ ما يجري، ويحرّض الجنود على الهرب، وعدم القتال، إلاّ أنّ هؤلاء (وكانوا في معظمهم من العرب) ما لبثوا أن صمتوا بعد أن سمعوا تهديداً حازماً من القسم الآخر.

وصل أخيراً الخبر إلى الإنكليز، فقد قام جندي عربي، ويبدو أنّه قد تأثر بدعاوى حزب اللامركزية السوري، بنقل الخبر إلى الإنكليز سراً، وحذّرهم من أن الأتراك ينوون شنّ عمليات عسكريات على خنادقهم بغتة في الأيام الثلاثة القادمة، فقام الإنكليز بالاستعدادات اللازمة وزادوا عدد الحراس، ومنعوا التدخين وإشعال النيران، وتحسبوا بأنّ الأتراك ربّما هاجموا في صباح اليوم الأوّل من العام الجديد. فتوترت الجبهة، وقبع الطرفان في خنادقهم يراقبون بعضهم بعضاً، وحدث بعض إطلاق النيران المتفرق على الجنود الذين تجاسروا وساروا في العراء، وهكذا فشلت تحضيرات الأتراك في مباغتة العدو. وفي اجتماع حضره مدحت باشا وديتريش تمّ إلغاء الهجوم المقرر في فجر اليوم الأول وتأجيله إلى اليوم الثالث من العام الجديد، وتمّ إعطاء الأوامر للضباط الألمان والأتراك بمراقبة العدو، والإيحاء له بأنّ الأتراك قد عدلوا عن الهجوم.

وفي مساء ذلك اليوم . 31 كانون الأول . عندما انحدرت الشمس هابطة باتّجاه البحر، حيث اصطبغ لونها واستحال إلى برتقالي شفاف يأخذ الألباب، أخذت الظلمة تسربل أحراش الغابة الندية، وراحت زقزقة العصافير. التي لم تهاجر. تهدأ رويداً رويداً حتّى صمتت، وراحت تسمع في الغابة خشخشة الأعشاب الميتة حين يدوس عليها

ابن آوى يبحث عن طريدة، أو يسمع فيها نقيق طويل وهادئ لضفدع كهل قبل أن ينط بتكاسل في رومة ماء تجمع من ذائب الثلج عن أغصان الأشجار.

في هذه الأثناء كان ثلاثة فرسان يمرقون بجيادهم بين جذوع الأشجار الباسقة، يغمزون أكفالها وكأنّهم يداعبونها، أمالوا رؤوسهم إلى الأسفل، وهم يتقون الأغصان الواطئة.

كان يسير في الوسط مدحت باشا، ما الفارسان الآخران، فأحدهما كان حاجبه الطيب القلب المذعور أبداً، والآخر كان أحد حراسه الموثوقين. بانت لهم القرية ببيوتها البيضاء المتسلقة، فدخلوا ساحتها ثمّ وصلوا إلى الجامع التركي وسبيل الماء، انعطفوا إلى اليمين، وراحوا يصعدون.

كانت فروساكي جالسة في غرفتها المدفأة، ترقّع بعض الثياب العتيقة، وتفكّر بسعادة في ذلك المخلوق الذي اسمه ربيع. كان ربيع قد منحها لذة عارمة في تلك الليلة، ورغم خجله الشديد، فقد اشتعلت تحته بنار لم يهدأ إلاّ بعد أن كزت على أسنانها، وأحسّت أنّها ستنسحق. ابتسمت، ودندنت بأغنية يونانية عتيقة، فهي مازالت تشعر في داخلها بضغطه الهائل، وعندما قذف، أحسّت وكأنّ نصف رطل من مائه قد أصبح في جوفها. مالت برأسها إلى الجانب وهي تعض على شفتها السفلى برقة، إنّها تتمنّى أن يأتي. وعندما طُرق الباب انقذفت إلى صحن الدّار، ثمّ إلى ذلك الدهليز الذي يوصل إلى الباب بخفة، حافية القدمين غير آبهة بجواربها السوداء.

فتحت الباب. وقفت مشدوهة، فقد امتلأت فتحة الباب جسم هائل يعود لمدحت باشا. أمر حاجبه والحارس بأنّ ينتظراه في ساحة القرية عند حوض سبيل (كمال بك) وأغلق الباب دونه، ثمّ اجتاز المرأة إلى الغرفة التي كان يعرف الطريق إليها جيداً.

جلس مدحت باشا على الأريكة الخشبية، فصرّت من تحته، خل قليقه ومد مثانته التي تكورت إلى الأمام. الغرفة نفسها، واللون الأبيض الناصع نفسه، ولم يتغيّر السرير أو مكانه ولا المدفأة الحطبية العتيقة. تطلّع إلى الباب فوجدها واقفة عند العتبة، وقد كتفت يديها على صدرها، وكأنّها تحمي عفة ما. كانت تلبس الأسود، حتّى قشطة رأسها، كانت سوداء، وجواربها أيضاً، لا تنتعل صندلاً، وكأنّها

لا تحس بالبرد من ملامسة أرضية العتبة الحجرية الملساء.

قال لها بصوته الجرش وهو يريد أن يبدي لطافة:

– تعالي اجلسي بجانبي، ألم تشتاقي إلي؟ أنا مدحت باشا...!

كأنّها لم تعرفه، هكذا تحسَّب، فقد كانت واقفة ببلاهة مشدوهة، كيف تجرّأ هذا الخبيث اللعين. بيده هذه البيضاء السمينة قتل زوجها ميخائيل. لقد جلس إليها هكذا أيضاً من دون أيّ علم، دخل، وأرسل حارسيه إلى ساحة القرية لينتظراه، وهنا في هذه الغرفة أبطحها على السرير، وقذف نفسه فوقها، قاومت، عضته بأسنانها، خرمشت رقبته بأظافرها، إلاّ أنّه استطاع أن يمزّق سروالها، وعلى حين غرّة أحسّت أنّه ولجها، فاستسلمت، كيف يمكن للمرأة ألاّ تحس باللذة وهي تغتصب؟ إنّه من حقّها على الأقل، فهذا أيضاً سلاح. شعرت بنفسها تبكي، حينذاك انهمرت دموعها، عفتها المسكينة الضائعة، شرفها المهدور يحتاج لبعض الدموع. وعندما قذف، نخر من أنفه، ثمّ تصلّب، وهمس: مم... مم... مم...، ثمّ انفكَّ عنها. إلاّ أنّها أحسّت بغثيان يقلب أمعاءها، وراحت تشهق وهي تبكي، وتكورت على فراشها وماؤه يسيل منها، مدراراً. لماذا يقذف الجنود كلّ هذا الماء؟ نهض آنذاك مدحت باشا، وراح يصلح سرواله. عندها انفتح الباب، دخل زوجها وتسمّر عند العتبة منشدهاً، مثلها الآن، إلاّ أنّه تجاسر، راح يصيح باليونانية، نثر اللعاب على وجه مدحت باشا، هذا اللعين القذر، إلاّ أنّه لم يتفوه بكلمة واحدة، أخرج مسدسه من حزامه بهدوء شديد، لقّمه، بسط يده موجهاً المسدس إلى رأس الزوج، ثمّ لفظ كلمة أو كلمتين، فهمت أنّه كان يقول: ابن الزانية...، ثمّ أطلق مباشرة على رأسه. اخترقت الرصاصة صدغه وخرجت من الطرف الآخر، ودخلت في الجدار. خرَّ ميخائيلس صريعاً، ينفر الدم منه كنافورة ماء، ميّزت، فروساكي آنذاك كلّ الأصوات، وكلّ الحركات. سقط الزوج على الأرضية وهو ينتفض، ويخور، وسرعان ما استكان. لم يغمض عينيه، بل كان يتطلّع بجزع إلى أسفل السرير، والدم يسيل ببطء هذه المرّة، من دون صوت، وهو يكوّن بحيرة حمراء قانية والجسد يسبح فيها، أمّا مدحت فقد أعاد المسدس إلى حزامه، ثمّ تطلع إلى بنطاله وبوطه الأسود العالي حتّى الركبتين، فقد تلوث بالدم، ثمّ وضع قليقه، أمسك عصاه، وخرج إلى صحن الدار منتشياً.

والآن، ماذا يريد هذا البغل؟ أراد محفوظ أن يخبئ عندها بندقية إنكليزية وعدة طلقات، لو كان فعل، لقتلت مدحت باشا الآن فوراً. أواه يا محفوظ، يا من تتكلم عن كلّ الأشياء ولا تفعل شيئاً... سمعت مدحت باشا يوجه إليها كلامه:

– لماذا أنت واقفة يا صغيرتي؟ تعالي إلى جانبي!

صرخت في وجهه دون أن تتحرك من مكانها:

– لقد قتلت زوجي، أما الآن، فماذا تريد؟ هيا اقتلني أنا أيضاً!

حاول أن يكون أكثر لطفاً وعطفاً فقال لها متودداً:

– هيا... لا تلفظي هذه السخافات، إنّني أحبُّك يا صغيرتي، كلّ واحدة في هذه القرية تتمنّى أن أدخل إلى بيتها... أمّا أنت... فقد تمتعنا معاً مرّة، وأنا أريد أن تكوني لي، إنّني آسف عما حصل لزوجك، لقد تهجم عليّ، حتّى كاد أن يضربني، لقد كان قذراً. كيف كنت تتحملين ذلك الرجل؟

صاحت وهي تتميز غضباً:

– إنه رجلي... زوجي، وأنت الذي قتلته... هيا اخرج من بيتي، أو، إن أردت، أخرج مسدسك، وضعه في رأسي، لن تلمسني هذه المرّة.

ابتسم، بانت أسنانه الصفراء، انتفخت الجيوب تحت عينيه، ورقت كرة تحت ذقنه، فقد كانت غدته الدرقية متضخمة، قال:

– غداً، رأس السنة لعالمكم، وأنت تجعرين هكذا، الأفضل أن تأتيني بشيء نشربه، أفضل العرق البيتي، وأنا جائع حقاً.

– حقّاً . قالت فروساكي وهي تقلده . انهض، واذهب إلى مستنقعك... لن تحصل مني على أيّ شيء....

نهض مدحت باشا، سار باتّجاهها، ارتجت الأرض تحته، ثمّ أمسك بها، قاومت فروساكي بيديها ورجليها، صفعته عدّة مرات، ثمّ ضربته بركبتها على أعضائه التناسلية، غبق لون وجهه، تألم كثيراً، وقال من بين أسنانه يا ابنة الكلبة، ثمّ راح يكيل لها الصفعات على وجهها من دون أن يعي، ولكنّه توقف فجأة، تسمّرت يده وهي مرفوعة، كانت تبحلق في وجهه بعينيها الرهيبتين، قطة مخيفة، تعد بكلّ أذى قد يخطر على بالك، خاف، تراجع إلى الخلف، وأنزل يده، تمتم بكلمات غير مفهومة،

كان خيطاً رفيعاً من الدم يسيل من فمها إلى ذقنها. راح الدم ينقط على ثوبها، فيغيب لونه في السواد الحالك، ماذا حدث لها ابنة العاهر هذه؟ ضاعت السهرة الحمراء التي فكّر بها، أمّا هي فقد طارت قشطة رأسها، وامتدت بعض خصل شعرها الأسود إلى الأمام، كأنّها سيوف ممدودة باتّجاهه، وامتلأ الوجه بحقد، وطفح، وراح يشع من عضلات وجهها ورقبتها المتوترة. بأسى استغربت حصولها عليه. قالت في نفسها متضرعة: (من أجلك يا ربيع على الأقل، لن أسلمه نفسي، حتى ولو قتلني)، في هذه الأثناء وكأنّه يهرب منها، أمسك طربوشه وعصاه، ثمّ اتّجه نحو الباب وهو يتجنبها قدر الإمكان، ثمّ خرج، صفق الباب، سمعت صوت أقدامه وهي تبتعد، صفق الباب الخارجي أيضاً، ثمّ تنهّدت بعمق، وارتخت أعصابها، إلاّ أنّها أحسّت بسعادة عارمة تجتاحها.

انسلّ اثنان من الخنادق، باتّجاه الغابة تحت جنح الظلام، وراحا يخوضان في مستنقعاتها وهما صامتان. كانت الغابة تعبق برائحة الصنوبر اللاذعة، والخشب الرطب وبرائحة التربة الندية اللذيذة، وفي منتصف الطريق، اختبأ، فقد ميزا في الظلام ثلاثة فرسان عائدين من القرية، في رتل أحادي، كان الثاني ضخم الجثة، يسب ويلعن، بادي الغضب، أمّا الآخران، فكانا صامتين، يتلقيان الشتائم بصبر وذل، لكز محفوظ ربيعاً بمرفقه، وهمس:

- إنّه مدحت باشا، أقسم برأسي أنّه هو، ماذا يفعل ابن العاهرة في هذه الساعة؟

غاب الفرسان عن أعين ربيع ومحفوظ فتابعا سيرهما، فقال ربيع وقد أحس بخوف يسري في صدره:

- كانوا في القرية، هيا نسرع!

وصلا إلى بيت الأرملة فروساكي، كان الباب منفرجاً، ولج ربيع مسرعاً واجتاز الدهليز ثم صحن الدار، ولما دخل الغرفة، رأى فروساكي تقف أمامه، شقية، يسيل الدم من فمها وقد انتفش شعرها، صاحت: رابي، وألقت بنفسها بين يديه، قبلته بنهم، ومرغت وجهها في صدره وعنقه ثم سمعها تهمس:

- لقد هزمته، لم يلمسني، كنت أفكر فيك عندما واجهته بمفردي.

* * *

– هذه الحرب ملعونة يا شباب، إنّها ابنة قحبة، وكلّ من يحارب فيها إن أراد، وإن لم يرد فهو ابن قحبة أيضاً.

هكذا كان يشتم بحقد، عبد الكريم . الرجل أملس الوجه، الذي لم ينبت له شارب ولا لحية رغم أنّه قد أصبح في سن الأربعين، سمع الجميع ربيعاً وهو يرد على عبد الكريم:

– وأنت أيضاً ابن قحبة، أم أنّ لك ميزة؟

تردد صوت القهقهات، وراح كلّ واحد يلقي بدلوه، ويوجه لعبد الكريم شتيمة بذيئة كالتي وجّهها للحرب وللمتحاربين. كان يحاول أن يدفع عن نفسه الشتائم بشتائم أخرى.

كان الجميع متأهبين مستلقين على جدا الخندق، بمواجهة الإنكليز، وهم ممسكون ببنادقهم ينتظرون إيعازاً ما، ولا يعرفون ما سيفعلون بعده بالضبط، وكانت السماء صاخبة، ومنذ قليل بدأ ينبلج الفجر على سماء مرصعة بنجوم تضهج ببرود، ثم راحت تختفي واحدة إثر أخرى وكأنها تتحسب لشيء مخيف قد يحدث عند صعود الشمس من الشرق.

كان ربيع يمسد لحيته الزعبية التي نمت وطالت، إضافة لأنه، ولعادة اكتسبها أخيراً، راح يقوم بفتل شاربيه، رغم أنهما كانا يستقيمان فوق شفته العليا وأحياناً، كان يشدهما إلى الأسفل كي يعض عليهما وذلك عندما يكون ساهماً في شيء، أو مفكراً في أمر ما. في تلك اللحظة، كان يجمع الشعيرات بقبضته ثمّ يتركها، وهكذا، لأنّه كان قلقاً مما سيحدث في حال أعطوا الإيعاز بالهجوم.

كان ربيع محاطاً بمحفوظ الذي كان يهرش بطنه وساقيه بسبب مرض فطري أصابه. كان يسبّ ويقول ألم يكن يكفينا القمل؟ ... وبعيوش وجاسم ومحمود وعبد الكريم، الذي كان مزاجه غير رائق هذا الصباح، وكان هناك عريف شركسي، وضعوه معهم ليقودهم، كما أنّهم أضافوا إليهم جندياً أرمنياً اسمه وانيس، والإسكندروني صبحي، ذا الرأس المدور كالكرة، والحية البيضاء، والرجل السمين

الذي كانوا يسمونه (بطيخة).

أما إلى يمينهم على بعد أمتار، فكان يقف شيرزاد الكري وجماعته، كان يسترق النظر باستمرار إلى ربيع، فلقد أقسم أنّه سيثأر لرفيقه، وقد حسب لذلك مئة حساب، وقدّر أنّه قد يحين ظرف ممتاز، ويسدد لربيع طلقة في ظهره، وقد أسرّ لأحد رفاقه بخطته وحازت على إعجاب، إلاّ أنّه طلب منه التريث حتّى يسقط الكثير من القتلى في الساحة، وإذا حدث وقتله الإنكليز، فهذا أحسن، فلسوف يوفر رصاصته.

لم يدم الانتظار طويلاً، فما إن برز جزء الشمس العلوي طالعاً من الشرق، حتى دوّت طلقة مدفع ألماني حديث، نصب خصيصاً لهذا اليوم في مكان ما خلف خط الخندق. سقطت القذيفة بعيداً عن الخندق الإنكليزي، عاودوا القصف مرّة ومرتين، وتمّ تصحيح التسديد، سقطت إحدى القذائف قريباً جداً من الخندق، فتطاير الطين وعلت سحابة من الدخان الأسود وهكذا تمّ خرق شبه هدنة دامت أكثر من شهرين.

سمع صوت أحد الرقباء الأتراك يصيح في بوق معدني:

– أيّها الجنود المسلمون، هيا . اسحقوا العدو الكافر...!

ضاع صوت الرقيب، فقد راح الجنود يطلقون النار وهم قابعون في خنادقهم، كانوا يسددون على أيّ شيء يبرز من الخنادق الإنكليزية، إلاّ أنّ الإنكليز كانوا قد هيأوا أنفسهم لهذا اليوم، فلا شيء يبدو سرياً في هذه الحرب، فراحت عدّة مدافع إنكليزية وصناديق الذخيرة التي كانت منثورة هنا وهناك، بلا نظام، وتعالت أصوات القذائف المتفجرة، وانتشرت غمامات سوداء لم يستطع نسيم الصباح البارد أن يبددها بسرعة. رد الأتراك، فقد بدأت ثلاثة مدافع بالقصف بعد أن كشفوا مواقع مدافع الإنكليز، إنها حيلة من حيل مدحت باشا التي يفتخر بها.

قبع الجنود الأتراك والإنكليز ينتظرون انتهاء حرب المدافع، طلب ربيع سيجارة فلفوا له واحدة فراح يدخنها وقد أمسكها بشفتيه في زاوية فمه الأيسر. كان يقرفص أمامه عبد الكريم وهو يرتعد، أما عيوش فكان يمسح وجهه براحته حتّى مرّغه بالوحل والسخام دون أن يدري، ضحك ربيع، وصاح في وجه عبد الكريم:

– إياك أن تبول في لباسك...

- اتركني يا شيخ... ردّ عبد الكريم.

- انظر، إن بنطلونك نديان!

أمال عبد الكريم، ونظر بين ساقيه، كان قد بلّله بالفعل، ضحك الجنود بمن فيهم عيوش، احمرّ وجه عبد الكريم، فغاب الاصفرار الذي كان يشوبه، ابتسم محرجاً فبان مكان السن المكسور في مقدمة فكه الأعلى.

أعطي الإيعاز للجنود الأتراك بواسطة بوق، فنهض العريف الشركسي صاحب الوجه المتجعد والعيون الزرقاء، وأمر أصحابه بالنهوض:

- هيا الحقوني!

ثم قفز بحركة واحدة خارج الخندق، وراح يسير باتّجاه خنادق الإنكليز. قفز ربيع ثمّ محفوظ، ولحق بهم الباقون بعد أن ساعدوا (بطيخة) على تسلق جدار الخندق. سار الجميع، وقد أحنوا هاماتهم. كان كلّ واحد منهم يطلق رصاصة من بندقيته، ثمّ يلقمها مرّة أخرى، ويسير. قطعوا الخمسين متراً الأولى، والإنكليز مازالوا قابعين في خنادقهم. كان ربيع يسمع عبد الكريم وهو يطلق الشتائم البذيئة، أمّا (بطيخة) فقد كان يلهث. وقف ربيع بدوره، وأطلق رصاصته إلاّ أنّها لم تنفجر، بصق بحدة، ووضع أخرى في المحراق، سدّد مرّة أخرى، وقال: والآن...؟ كبس على الزناد، إلاّ أنّ الرصاصة الثانية لم تنفجر أيضاً، صاح:

- الرصاص فاسد، عليهم اللعنة.

وفجأة ظهرت خوذات الإنكليز المضحكة، ومواسير بنادقهم، وقد ركبت عليها الحربات صاح العريف بلغة ركيكة:

- انبطحوا... انبطحوا!

انبطح الجميع على الأرض الطينية، وراح الرصاص يلعلع فوق رؤوسهم، سمع ربيع محفوظ يضحك، ويقول:

- هذه الحرب مضحكة... لماذا علينا أن نخرج من الخنادق؟

فردّ عليه السمين بحدة:

- لكي لا تعود إليها يا غبي!

فقال ربيع بعد أن نجح في إطلاق رصاصة:

– اسكت يا بطيخة وهل هذا وقته؟

شاهدوا الجنود الآخرين ينهضون، ثمّ سمعوا صوت العريف يأمرهم بالنهوض، وصلوا إلى منتصف المسافة الفاصلة بين خطي الخنادق، وهم يتناوبون في إطلاق الرصاص، ميّز ربيع خوذات الإنكليز، وهي تختفي، وتظهر، وتطلق النار بحركة رتيبة، ولكن ما لبثت مدافع الإنكليز أن بدأت تزرع المنطقة بقنابلها، وأصبح دوي الانفجارات أقوى، وانتشرت رائحة البارود الحادة. انبطح الجميع، وراحوا يزحفون، رفع ربيع رأسه وقدّر المسافة الباقية، مازالوا بعيدين، قرفص، وسدد، شاهد وجه أحد الإنكليز تحت الخوذة يتحول إلى بقعة حمراء، ثمّ غاب، لقد قتله، لا بأس، رغم أن ثقلاً قد أطبق على صدره، سمع صوته عيوش يصيح:

– انبطح... سيقتلونك، ماذا حدث؟

انبطح ربيع ثمّ استدار نحو عيوش، وقال:

– لقد قتلت واحداً.

– حسناً... تهانينا، (قال عيوش بسخرية) ولكن حافظ على نفسك سوف يخرجون أمعاءك.

سقطت قنبلة مدفع إلى يمينهم، شاهد ربيع رجلاً يرتفع في الهواء، ثمّ يسقط متكوماً على نفسه، وقد فرم فرماً، كان الدخان يتطاير من الجثة الممزقة.

– من هذا؟ سأل ربيع.

– لا أعلم. قال محفوظ.

شاهد ربيع شيرزاد يزحف مسرعاً نحو الجثة، وهناك راح يصيح: (رشيد... رشيد قتلوه، أولاد الكلب... أخويا) هرع إليه بعض رفاقه وشدوه عن الجثة، التقت عينا ربيع بعيني شيرزاد الوحشية المتألمة. أحس بعطف نحوه. في هذه الأثناء كان الإنكليز يقذفون قنابلهم بجنون باتّجاه المنبطحين، سقطت ثلاث قنابل دفعة واحدة قربهم، فارتجت الأرض، وغابت السماء، وراحت قطع الطين تتساقط كالمطر، نظر ربيع باتّجاه عيوش، كان قد دفن وجهه في الطين وهو يتمتم، سأله ربيع:

– ماذا بك، هل آذوك؟

جأر عيوش بأعلى صوته، كان وجهه قد تمرّغ بالطين الأسود:

– لا ... إنني أقرأ أية "الكرسي".

فأجاب ربيع وهو يبتسم:

– اقرأ... هذا أحسن شيء نفعله الآن!

سمعوا صوت البوق التركي البعيد، إنّهم يأمرون الجنود بالتراجع إلى الخنادق. نهض البعض، وركض نحو الخلف هذه المرّة، ومشى آخرون، وهم ساجدون يسيرون على أربع بعد أن علّقوا بنادقهم على ظهورهم. كانت المسافة طويلة جداً، والانفجارات مستمرة إلى الخلف منهم لا تنتهي. برزت خوذات الإنكليز وراحت تطلق النار على المنسحبين الهاربين من جهنم انفجاراتهم، ولما وصل ربيع إلى حافة الخندق، قذف نفسه من دون وعي، فسقط متدحرجاً داخل الخندق الذي علت جدرانه وقعره لزوجة الطين الدبق ذي الرائحة الكريهة العفنة.

في الخندق أحصوا أنفسهم، كان العريف الشركسي صاحب الوجه المتجعد غائباً، نظر ربيع إلى الساحة، كان هناك عدّة أشخاص مستلقين. كانوا أكثر من عشرة، يبدو أنّه قد قتل، أما إلى يمينهم فقد كان شيرزاد مقرفصاً، وقد غطّى وجهه بكفّه وهو ينشج، لقد قتل أخوه الأصغر، كانت أمّه قد أوصته به، أمّا الآن فكيف سيفسر لها ما حدث؟ قد يحميه من شخص يريد الاعتداء عليه، أمّا قنابل المدافع فهي تسقط في كلّ مكان من دون أن تعرف ذلك، وفي لحظة، تخطف منك أعز ما لديك، قد يكون حياتك، وعلى الأغلب يحدث الأمر بسرعة، وحتّى أنّها لا تعطي مجالاً للإنسان كي يعطس.

راح الجميع يلفون السجائر، ويدخنون، أعطوا لربيع واحدة، وأشعلوها له. حتى السيجارة كانت ملوثة جميعها بالطين. كان كلّما سحب نفسهاً تطقطق. إلاّ أنّها كانت مريحة للأعصاب وطعمها لذيذ. يجب أن يشتري تتناً خاصاً به ما دام قد تعلّم التدخين، واعتاد أن ينبسط به. غبق الخندق بالدخان، وراح يصعد منه كغمامة بيضاء. سمعوا رجلاً يصيح وهو يشير بسبابته إلى الخارج، نهض الجميع، وأسندوا صدورهم على جدار الخندق، فشاهدوا الإنكليز وقد صعدوا من خنادقهم، وهم متجهون إليهم، صفّر شيء هابط من السماء، وانفجرت قنبلة قريبة منهم، ولكن في الخارج. سمعوا إيعازاً يطلب عدم إطلاق النار، بلا الانتظار حتى يقترب العدو،

استمرّ هطول القنابل، وسقطت واحدة داخل الخندق في مكان فارغ لا يوجد فيه سوى ثياب مغسولة معلّقة على غصن شجرة مقطوع، قبع الجميع بعد أن سمعوا الانفجار القريب، وهبّت عليهم عاصفة من الطين والدّخان الأسود الحار الذي يلتصق بالثياب والأوجه وحتّى بالطين، وصعدت رائحة البارود المختلطة برائحة الثياب المحترقة، كانت الثياب تخص صبحي، فلما رفع رأسه وشاهدها تحترق، شتم أمَّهم، وقال:

– ألم يجدوا غير لباسي الداخلي... إنني لا أملك غيره...

قهقه الجميع وقال، السمين غامزاً بعينه:

– ماذا ترتدي الآن؟...

– بنطالي الخارجي فقط... تصور!

فصاح ربيع:

– انتبه لئلا تحرقه أيضاً، وعندها فسوف تبين طيزك البيضاء.

تشجع السمين وخاطب صبحي بسخرية:

– عليك الذهاب إلى القرية.. وهناك امكث في قرنة حائط، وعندما ترى عجوزاً شمطاء اخدعها وأخبرها أنّك تحبّها، وإذا ذهبت معك إلى الغابة، شلحها لباسها واسرقه.

فقال صبحي وقد فهم النكتة:

– اسمع يا ابن القحبة، لماذا لا تذهب معي أنت إلى الغابة... آ...؟

فقاطعه السمين، وقال:

– وماذا لو ذهبت؟ لقد فقدت لباسك، وستفقد عفتك إن شاء الله.

ضحك الجميع بمن فيهم صبحي، وسمعوا نفس الرجل يصيح مرّة أخرى: نار... نار. كان صوت الملازم (الست صفية). انفجرت قنبلة مدفع تركي بعيداً جداً عن الإنكليز القادمين، وتبعها عدّة انفجارات، وكانت تقترب منهم رويداً رويداً، راح الجنود يطلقون النار، والانفجارات تهز الأرض من تحتهم، فقد استمرّ الإنكليز في قصفهم، سقطت القذائف أمام الخندق وخلفه، فاحتار الجنود كيف يخفون رؤوسهم. تارة، كانوا يغطّونها بأيديهم، وتارة أخرى كانوا يقبعون في عمق الخندق دقيقة، ومتى توقف سقوط قطع الطين والشظايا، نهضوا، ولقّموا بنادقهم، وراحوا يسددون على

الجنود الآتين من بعيد، في مثل هذا الجحيم تتمنّى أن تنشق الأرض وتبتلعك ولكن دون أن تدفنك، إلى الأبد، هكذا كان يفكر عيوش، وهو يطلق النار على تلك الأجساد التي تبدو كعيدان القصب. ولكنّه كان يتمهّل في الكبس على الزناد، وإن كبس بإصبعه المتعرق فلكي يطلق باتّجاه الأفق البعيد، حيث البحر الأزرق الفاتح، أو ليطلق على الأرض بعيداً عن أقدام هؤلاء الرجال جميلي الطلعة أصحاب العيون الزرقاء الذين يضعون طاسات تشبه إلى حد كبير طاسات الحلاقين في إنطاكية وحلب.

حدد عيوش موقفه منذ أكثر من سنتين، في بداية عام 1914، عندما اجتمع بالأستاذ عبد الودود مدرّس التاريخ في مدرسة السلطانية في حلب، عندها كان قد وصل إلى حلب ليشتري فردتي صابون غار، فعيوش يملك دكاناً للعطارة في إنطاكية، وهناك اعتاد الناس شراء الصابون الحلبي بكثرة. أوصاه جاره الشيخ محمد . فقد كان رجلاً تقياً يخاف الله، ويقرأ القرآن كثيراً، ويسبّ الأتراك . بأن يذهب إلى الأستاذ، ويعطيه رسالة. ذهب إليه، دخل المدرسة الكبيرة، وسأل عنه، شاهد هناك الطلبة متحلقين جماعات جماعات وهم يتناقشون، ويبصقون. سأل عيوش عن الأخبار وهو ينتظر مجيء الأستاذ عبد الودود، قالوا له إنّ جمال باشا قد أعدم أكثر من عشرين وطنياً عربياً، ولماذا أعدمهم؟... قالوا له أنت لست بغلاً. صمت. قرر أن يسأل الأستاذ، ولكن الأستاذ تأخر، ماذا حدث، فقال له الحاجب: إنّ المدرّسين مجتمعون، ستنتظر حتى انفضاص الاجتماع، حسناً، يبدو أنّ الأستاذ شخصية مهمة، هكذا فكّر في نفسه عندها، وشكر الشيخ محمّد، جاره التقي، لأنّه سيتيح له التعرف على مثل هذه الشخصية، وفجأة، وقف أحد الطلبة على حجر، وكان يلبس قنبازاً، ويلف زناراً عريضاً حول خصره، ويضع عمامة بيضاء على رأسه الحليق. صاح الشاب بقوة حتّى انبحّ صوته:

– يا إخوان... يا إخوان، اسمعوا ما قاله الشاعر:

قد بلينا بأمير ظلم الناس وسبّح
فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبح

فتعالت الهتافات، وطارت بعض العمامات في الهواء، وانفلشت، ثمّ وقف

شخص آخر . على نفس الحجر. وراح يلقي أشعاراً أخرى، ثمّ سقطوا حكومة "الاتحاد والترقي" وسمع عيوش أحد الطلاب وكان يقف إلى جانبه، يقول:

– هذه الحكومة، صفة عرصات منافقين لقد...

وضاع صوته أثر تصفيق حار، ثمّ راح الجميع ينشد أغنية سمعها من قبل:

آه يا لدن يا لدن يا لداني

يا باشة العربان آمان آمان

دام هيجان الطلبة قرابة الساعتين، ثمّ انفضوا بعد أن أشيع أنّ فرسان العثمانيين يتجهون نحو المدرسة. بعد ذلك شاهد عيوش رجلاً يلبس طقماً من القطيفة الأجنبية وقميصاً أبيض وقد عقد ربطة حول عنقه، يتحدّث مع الحاجب. كان الحاجب يشير إليه، تقدّم الأستاذ، وألقى التّحية، وسأله ما يريد، فقال عيوش، وقد أحرجته أناقة الأستاذ ومظهره الطيب:

– معي رسالة لك يا أستاذ عبد الودود من صديقك الشيخ محمّد من إنطاكية.

قاده الأستاذ إلى غرفة داخلية داخل المدرسة مفروشة بمكتب من الخشب البني المصقول، وقد غطي بقماش مخملي أخضر، وصفّت ستة أو سبعة كراسٍ حوله. بعد أن قرأ الأستاذ الرسالة، تحدّث قليلاً، وسأل كثيراً حول الأوضاع في إنطاكية، فقال عيوش:

– لا تجري الأمور عندنا كما هي الحال عندكم.

فأجاب الأستاذ عبد الودود بحزم:

– بل يجب أن تجري. ولكن الأستاذ أحس أنّ عيوشاً لم يكن منخرطاً في أيّ نضال ضدّ العثمانيين، وأنّه رجل عادي، ولا يزيد عن كونه رسولاً من الشيخ محمد.

راح الأستاذ يتحدّث بلغة بسيطة يتقنها جيداً:

– انظر يا أخي، آ.... ماذا كان اسمك؟

– عيوش.

– انظر يا أخي... عيوش، (وكأنه تنبه لأمر ما)... ولماذا أسموك عيوش؟

– لا أعلم... يا أستاذ (احمرّ وجهه) ولكن يبدو أنّ والدي كان يخاف من العين وقد ولد له صبيان اثنان وماتا، أمّا البنات فقد عشن، ولما ولدت أنا أطلق عليّ اسم

عيوش كي أعيش.

فقال الأستاذ وقد افترَّ ثغره الناعم عن ابتسامة:

– وهكذا... نجحت نظريته.

– كما ترى...

– إذن يا أخي عيوش... إنّ ما تراه في بلدنا، وفي بلدك أيضاً . ولكن يبدو أنّك لا تنتبه لما يجري حولك في إنطاكية . يحدث بسبب استهتار الأتراك بمشاعرنا، فنحن عرب ونتكلم العربية، وقد كان زعماؤنا قد اتفقوا مع هؤلاء الذين أطاحوا بالسلطان عبد الحميد الذي عاث فساداً في بلادنا، على مساندتهم في الإطاحة به، يوم كان سلطاناً، حدث ذلك في بلد اسمها باريس، هل تعلم أين تقع هذه المدينة؟ (أجاب عيوش بأن هز رأسه مثلما كان يفعل باستمرار أثناء الحديث) إذن تعلمها ... نعم... اتفقوا هناك، وكانت حركتهم تسمى تركيا الفتاة، وعدوا بأن يعطونا الحكم الذاتي، هذا معناه أن يكون لنا إدارة من أنفسنا، ولكن ضمن السلطنة العثمانية. نحن من جانبنا وافقنا وهذا كان أقصى ما نريد، فنحن لم نكن نفكّر بالاستقلال عن تركيا نهائياً، هل تفهم؟ (هز عيوش رأسه مجدداً) إذن (مسد الأستاذ بحركة جذابة، مرفقيه بكفيه) عقدوا معاهدة هناك، في باريس في عام 1907 ميلادية، ووعدونا بأن يشاركونا في الحكومة، بوزراء أكثر، وفي البرلمان أيضاً وبأن لا يأخذوا جنودنا الذين يجندونهم في العسكر ليخدموا في بلاد أخرى، كما وعدونا بأن يخفضوا الضرائب عنا، وبأن لا يقوموا بالاستيلاء على المحاصيل الزراعية وغيرها... ولكن ماذا حدث؟ ... بعد أن استلموا السلطة وفرح شعبنا وتأمل خيراً منهم، نسوا ما وعدوا به، حتى أنّ طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا وهم زعماء حزب الاتّحاد والترقي الحاكم طلعوا علينا بسياسة جديدة (هز عيوش رأسه متسائلاً) السياسة الطورانية، وهل تعلم ماذا تكون هذه السياسة؟ ... كلا...؟ لا تعلم؟ حسناً، سوف أقول لك يا أخي عيوش إنّها السياسة المتبعة الآن من قبل الحكومة والحزب (يقصد حزب الاتحاد والترقي) وملخصها أنّه يجب إعادة نسج إمبراطورية جديدة من القوميات التركية، وهي عرقية المبدأ... إذن حسب السياسة الطورانية فإنّنا يجب أن نتكلّم اللغة التركية، وهم بكلمة واحدة سوف يقومون بتتريك جميع القوميات الأخرى التي تتكون منها الإمبراطورية

الجديدة. وعلى سبيل المثال لن يبقى هناك عربي أو كردي أو شركسي أو حتى أرمني، هؤلاء الذين ينزحون إلى عندنا هرباً من الظلم الواقع عليهم، بل كلنا سنكون أتراكاً... وأتراكاً فق، هل هذا يجوز؟

لا ... وحق الله، . أجاب عيوش مغضباً . وما العمل الآن؟

أجاب الأستاذ، وقد وجد صدى طيباً لكلامه:

– هلاً . لقد قامت حركات وجمعيات كثيرة تدعو لإنقاذ الوطن، ومنها حزب اللامركزية. وهل حدثك الشيخ محمد عن هذا الحزب؟

– لا...

– إنّنا الآن نطالب بالاستقلال الذاتي عن السلطنة العثمانية، وتأليف حكومات عربية في الولايات العربية... وأن يكون لنا حرية في توقيع المعاهدات مع الدول الأوروبية وأن نطلب إليهم دعم بلادنا كي تزدهر.

– ومن هي هذه الدول الأوروبية؟

استغرب الأستاذ عبد الودود السؤال المفاجئ، وقال:

– الدول الأوروبية؟ ... خذ مثلاً فرنسا، إنّها تريد مساعدة سورية من أجل الاستقلال عن الأتراك، ومن دون هذه الدول لن نتحرر من الطورانيين حتى ولا بعد مئة سنة. الفرنسيون والإنكليز عندهم نوايا حسنة تجاهنا، وهم طيبو القلب وصادقون، ولا يطمحون سوى لازدهارنا.

ولما عاد عيوش إلى إنطاكية قاطراً صابونه، ذهب مباشرة إلى الشيخ محمد، وأعطاه رسالة من الأستاذ عبد الودود، ثمّ راح يسرد له ما شاهده في مدرسة السلطانية، وما سمعه من الأستاذ، وخصوصاً حول حزب اللامركزية الذي سمع باسمه عدّة مرّات من قبل ولم يكن قد جذب انتباهه.

منذ ذلك اليوم أصبح عيوش محسوباً على الحزب. وما لبث أن أقنع ابن خالته جاسم فانخرط هو الآخر في هذه الحركة، وراحا يبثان الدعاية، ويحرّضان الناس على الثورة ضدّ العثمانيين.

جُنِّد عيوش وجاسم في الجيش في شتاء 1914 وتمّ ترحيلهما إلى مدينة دمشق حيث كانت تجري التحضيرات في الجيش التركي الرابع للقيام بحملة عبر فلسطين

وصحراء سيناء لاحتلال قناة السويس، وانتزاعها من الإنكليز والمصريين المتعاونين معهم. وفي شباط من العام التالي حاول الجيش التركي عبور القناة من بقعة قريبة من الإسماعيلية إلاّ أنّه لم يستطع، فقد كانت مقاومة الإنكليز ومعهم المصريين، الذين فضّلوا الوقوف مع الأجانب اتّقاء لوقوعهم مرّة أخرى تحت الجزمة العسكرية التركية الضارية. هرب عيوش وجاسم تحت جنح الظلام باتّجاه الشمال، فقاما بمقايضة إحدى بندقيتيهما ببغلة حيث ركباها إلى إنطاكية، وهناك قبضوا عليهما مرّة أخرى وسفّروهما في قطار يسير على حرق أغصان الزيتون، ولكن باتّجاه جبهة سالونيك هذه المرّة.

وفي جبهة سالونيك التقى عيوش وجاسم بالشيخ وهبي من البصرة والذي كان يدعو للتعاون مع الإنكليز لطرد الأتراك، وكونوا جماعة، واستطاعوا أن يجلبوا إليها محمود المحمد وعبد الكريم، إلاّ أنّه سرعان ما أصيب الشيخ وهبي، وصرف من الجيش مما أدّى إلى تجميد أعمال الجماعة لأنّ الشيخ وهبي كان من أكثر نشطائها، وكان لا يهاب أحداً وخصوصاً الجواسيس الذين كانوا ينقلون باستمرار أخبارهم إلى قيادة كتيبتهم.

في هذه الأثناء كان الإنكليز مازالوا منبطحين أرضاً ينتظرون وقتاً مناسباً للانقضاض على خنادق الأتراك. وكانت مدفعيتهم تقصف بشدة هذه الخنادق التي دمرت في مواضع عديدة، وطمرت الأتربة المنهارة عدداً من الجنود. حاول الإنكليز النهوض والاقتراب من الأتراك، فالوقت مناسب، فلم يكن يطلق عليهم أحد بسبب التصاق الجميع بجدران الخنادق ولا أحد يجرؤ على رفع رأسه. إلاّ أنّ المدافع التركية كانت تعمل، وكانت قد كشفت المكان الذي وصل إليه الإنكليز، فراحوا يزيدون من تركيز القصف، مما منعهم من متابعة الهجوم. رفع عيوش رأسه فجأة، كانت النار تهبّ إلى الأعلى، ثمّ تنطفئ وتتحول إلى دخان أسود يغشى الأبصار. ثمّ تبدأ كتلة الدّخان بالتّحرك جنوباً وهي تلامس الأرض، وبلمح البصر رأى جنياً إنكليزياً ينتقل إلى الحفرة التي سبّبها انفجار القذيفة، وهناك قبع ملتصقاً بالتربة المدخنة التي عبقت برائحة البارود والنفط. نظر عيوش إلى يساره، كان ربيع مسطحاً على ظهره، على جدار الخندق المائل وهو يتابع تدخين عقب سيجارة يمسكه بطرفي إصبعيه بحذر،

أما محفوظ فكان يعلك قطعة خبز جافة، صاح عيوش لربيع:

– انظر ... قد يصلون بعد قليل، لم يبقَ لهم سوى ربع المسافة!

رفع ربيع وهو في مكانه كتفيه، دلالة على عدم اكتراثه بالأمر، نفث دخاناً كثيفاً من فمه، ثمّ راح يتفل رقائق التتن التي علقت في شفتيه. كان يفكّر في كيفية التقاط الصيد، قبل يومين كانت الفكرة سهلة، أمّا الآن فهي مستحيلة، والأفضل أن يبقى على قيد الحياة، أما (الست صفية) فليذهب إلى الجحيم. سمع صوتاً من بعيد: نار... أطلقوا النار فوراً! راح الجميع يطلقون النار وكأنّهم يحتاجون إلى هذا الإيعاز المنقذ، تقلّب ربيع، ورفع رأسه، شاهد الإنكليز ينهضون من حفرهم، وينقذفون إلى الأمام وبنادقهم مشرعة الحراب، راح يطلق على أحدهم كان ذا شنب ووجهه مسوداً من دخان القنابل. اقترب الجندي، لم يصبه ربيع بعد، سدد عليه جيداً، أوقف تنفسه ثمّ أطلق، قال ربيع لنفسه: أردت أن أصيبه في صدره، فأصبت ذكره، سوف يتعذب الرجل، رأى من بعيد الدّم ينفر من بين أصابع الإنكليزي، مازال يتلوى، فاغراً فمه وهو يصيح. لقّم ربيع بندقيته مرّة أخرى، وضع رصاصة في المحراق، ثمّ أقفل المغلاق، سدد إلى رأس الرجل، ثمّ أطلق، لم يصبه، جاءت الرصاصة بعيدة عنه ذرعاً كاملاً، سمع عبد الكريم يصيح:

– انظروا ... إنّهم ينسحبون، اتركوهم... لا تطلقوا عليهم!

إلاّ أنّ البوق أعطى إشارة الهجوم، شتموا بحقد وبذاءة، ثمّ بصقوا ونهضوا قافزين خارج الخندق، بسهولة هذه المرّة، ثمّ راحوا يلاحقون الإنكليز الهاربين، أطلقوا عليهم، وأصابوا عدداً لا بأس منهم، سقط عدد آخر من الإنكليز، وهم يركضون بسرعة ليحتموا في خنادقهم، وفجأة وصل ربيع إلى مكان الجندي المصاب، انبطح بجانبه، رأى الدم المختلط بالبول يسيل من مثانته، كان الرجل يعض على شفته السفلى حتى أدماها، قال له ربيع:

– ما بك؟ ... هل أنت حي؟

لم يجب الرجل، لم يفهم ما يقوله ربيع. كانت عروق رقبته ووجهه نافرة، وعيناه تبحلقان في ربيع بخوف وهلع، أشار الإنكليزي إلى بندقية ربيع، ثم وضع إصبعه على رأسه، إنه يريد أن يقتل كي يستريح، هكذا فهم ربيع، فقال له: حسناً... لك ما

تريد، وجه فتحة ماسورة البندقية نحو الرأس الذي تندى تماماً من العرق، إلاّ أنّ ربيعاً غيّر رأيه، أبعد البندقية ثمّ قال للجندي الذي فهم قصده:

– لن أقتلك، ... هيا معي فأنت صيدي!

قاوم الجندي، ولكنّه كان ضعيفاً، فاستسلم لقبضة ربيع الذي راح يجره بيد ويزحف بيد أخرى، لحق به محفوظ وساعده حتى وصلوا إلى الخندق، فأنزلا الجريح، وراح محفوظ يتفحص جرحه، ثمّ وضع له خرقة فوق الجرح ليوقف النزيف.

عاد الجنود إلى الخنادق وهم منهوكو القوى، ونقل الأسير إلى مقر الأركان وهناك تمّ تضميد جرحه، وقاموا بالإسعافات الضرورية له، ثمّ قام الملازم (الست صفية) ورائد ونقيب باستجوابه، فعلموا أنّه رقيب أوّل واسمه ميلتون، وأنّه من المنتظر أن يصل للإنكليز تعزيزات من جبهة غاليبولي التي قررت القيادة الإنكليزية سحب الجيوش منها بسبب فشل الحملة هناك، وأنّ معظم القوات سوف تُسحب إلى أوروبا، وأنّ التعزيزات إلى جبهة سالونيك ذات طابع دفاعي بحت وليس هجومي، ثمّ أعلمهم أن لا رغبة لقيادة الحلفاء هنا، بتطوير أعمالها، بل الانتظار حتى تحين فرصة ما، ولكنّه لم يعلم عن هذه الفرصة أدنى شيء. ثمّ أخبرهم أنّ هجوم الأتراك كان متوقعاً ومكشوفاً بسبب بعض الجواسيس وبسبب الفوضى التي لوحظت قبل الهجوم، ثمّ حفروا حفرة صغيرة، ووضعوا فيها الأسير الجريح فيها، وأطلقوا رصاصة على رأسه، وردموا الحفرة عليه، وقد زاولهم شعور العطف لأنّه كان يتعذب من جرحه. في ذلك المساء أصدر القائد فرماناً يشيد بشجاعة الجندي ربيع الزيات (الذي اخترق عاصفة من الرصاص، وسار بين انفجارات القنابل ليقوم بأسر جندي إنكليزي كانت القيادة في حاجة إليه ولذلك فقد تمّ ترفيعه إلى قائد مجموعة برتبة عريف أوّل).

* * *

(7)

عمر بنبوك، رجل مسالم لا يحب الحروب، بل يحب زوجته بهية الزيات، هكذا كان يقول عمر لنفسه، عندما كان قاعداً ينتظر خارج المستشفى، وكأنّه كان يعترف إلى الرب، أو كأنّ عمر بنبوك ليس إلاّ شخصاً آخر سمع عنه صدفة، افترض عمر

أن عمر بنبوك شخص تعرف عليه الآن، وهو مقرفص أمامه، يدخّن سيجارة إثر أخرى، كما يفعل هو الآن. أول سؤال سوف يتبادر إلى ذهنه هو: ماذا تفعل هنا يا عمر بنبوك، يا ابن ستين صرماية، يا أبله، يا حقير، يا صغير (أو يا قزم من بلاد الأقزام الحقيرة)، يا مسطول، يا غبي، يا ابن الزانية (يقول في حلب: ابن القحبة) يا جبان، يا رعديد، يا صديد... يا ابن الكلب؟

إلا أنّ عمر استحى من نفسه، واحمرّ وجهه ولكنّه شعر براحة نفسية هائلة بعد أن أعطى نفسه حقها تماماً، وجعلها تعي ما هي بالواقع. وعد نفسه أن لا يتجاوز الحدود مرة أخرى، فهو رجل مسالم، سواء أكان في الحرب أم لا، تجاه الآخرين، أو حتى تجاه نفسه. ولكن ما العمل، إذا كانوا قد وضعوه في رتل عسكري وأعطوه بندقية لا تساوي عشرة قروش وساقوه إلى هنا؟ وأين؟ إلى كوت العمارة ليشاهد أكبر هزيمة للجيش التركي العتيد، وقد هزم بالذات مع هذا الجيش، وغادروا الكوت ليلاً كالفئران تاركين ألفاً وخمسمئة قتيل وجريح، وهربوا إلى بغداد.

لف لنفسه سيجارة أخرى وأشعلا من عقب السيجارة التي كان يدخنها، لم يبق معه سوى حفنة صغيرة من التتن، أما النقود فهي عدة قروش (سماها براغيت). وهو جائع، وينتظر منذ ثلاثة أيام ليدخلوه إلى هذا البيت ذي الطابقين الذي تحول إلى مستشفى. البارحة فقد أعصابه، لا يعلم أي شيء عن صالح الذي هو في الداخل. عندما وصلوا إلى مشارف بغداد، أمروا الجيش المنسحب بالتوقف، أما الجرحى فقد سمحوا لهم بدخول بغداد. بقي جالساً في عربة صالح، حاملاً غصناً يكش الذباب عن وجهه. أوقف جندي تركي العربة وسأل عن الجريح، فقال عمر: كيف تقول إنه غير جريح؟ إن الرجل يموت، ... ماذا حدث له؟ ... صدمته قنبلة مدفع تزن مئة رطل. والله العظيم لم تقتله، ولكنه أصبح كالمسطول، وانثقبت أذنه وسال منها الدم، انظر... هذا هو الدم. ثمّ راح يهذي، وعندما يصحوا يطلب الماء، ولكنه لا يعلم أين هو. لقد حسبني أمه، قال لي: أريد ماء يا أمي، انظر إليه، سوف يحسبك أبوه عندما يفيق، إنه ابن عمي، اسمه صالح بنبوك، وأنا محسوبك عمر بنبوك، ألم تسمع باسم صالح بنبوك؟

– لا... ومن هو صالح (بنبوق) هذا؟

- صالح بنبوك... إنه أشهر لاعب دامة في حلب كلها، بل قل في سورية، عندما كنا نعيش في الخندق، في كوت العمارة، جار رجل، رحمه الله... قتله الإنكليز هناك، وقد دفناه. كان اسمه عبد المهيمن. أقول جاء، قال إنه سمع بوجود صالح بنبوك هنا، هل رأيت. إنه مشهور، وأنا أحرسه. هل يرضيك أن أتركه وحيداً يفرّخ عليه الذباب، ثمّ قد يفيق ويقول: أريد ماءً يا أمّي... من أين آتي بأمّه؟ لو أستطيع لأتيتك بزوجتي بهية..

ضحك الجندي وسأله:

- هل لديك تتن؟

أخذ الجندي التتن وترك العربة تمر.

حسناً.. كأنّه مصاب بالجذام. لكي يمر عليه أن يدفع كلّ التتن الذي يملكه. ولمن...؟ لجندي صاحب شنب كبير ومستقيم وأسود كالفحم، يلبس طربوشاً حميدياً، ويركب فرساً جربانة، أكلها الجرب، وتحول لون جزء كبير من كفلها، إلى أصفر منطفئ ينز منه الدم.

- هيا يا حيوان، سوق الدابة!

صاح التركي في الجندي الجالس خلف البغل، الذي شدّ بدوره الرسن وهو وسنان فسارت العربة تطقطق وتئز.

وهذا غير كافٍ، غير كافٍ على الإطلاق، لو تسمح لي يا عمر بنبوك الذي هو أنا ولكنني لا أعرفك من قبل، بل تعرفت عليك اليوم، . هكذا راح يفكّر مع نفسه وهو لازال مقرفصاً بجانب باب المستشفى . لو تسمح لي لأقول لك ما هو هذا الشيء غير الكافي على الإطلاق.

إن كل الذي جرى مازال غير كافٍ ليشعرني بالغثيان، فمعدتي ثابتة، ورأسي لا تدور ولكنك يا عمر بنبوك إنسان ناقص، أو هكذا يشعرون، ولا فرق لدي من أن أعلم، إنك ناقص أو أن يشعر بذلك الآخرون. سوف أعتبر نفسي غير عمر بنبوك الذي يقرفص أمامي، وسأتهمه: ألم تضرب يا عمر بنبوك امرأتك بهية بسطل الزبالة؟ ألم تقتل إنكليزياً أمام كوت العمارة؟ وماذا عن مقتل وحيد الأسدي؟ ... أواه يا وحيد (وطفر الدمع من عينيه) ودين النبي محمد إنّك لا تستأهل الموت في أرض

غريبة. سوف تنهش الضباع جسدك، وسيأتي ذئب جائع يعض لحم فخذه من جوعه، سيراك وسيشم رائحتك من بعيد، وعندما يقترب، سيرى عظامك فقط، لأنّ لحمك، أقصد جلدك، لأنك جلدة وعظمة فقط، قد نهشته الضباع الجائعة المسعورة من قبل. عندها سيقف الذئب فوق عظامك وسيبول، ثمّ سيصدر عواء طويلاً موحشاً، يخترق صمت أرض المعركة، التي أصبحت في ليلة واحدة، مقبرة تسكنها الأشباح وروحك غير الآثمة.

وتذكّر عمر، تذكر زليخة أمام باب الثكنة حينما جندهم الأتراك، هو وصالح ووحيد الأسدي، وزليخة هي زوجة وحيد الأسدي، قبيحة ونحيلة، تكبر زوجها بخمس سنين، ركعت زليخة أمامه، وأمسكت بساقه وصاحت متضرعة:

– دخيلك يا عمر، دير بالك على جوزي، إذا مات، قضي علي!

ولماذا يقضي عليك؟ . فكّر في نفسه . وهل بإمكان وحيد الآن أن يشرح لي من أين أتى بهذه المرأة الحمقاء إلاّ أنّ تضرعها كان مؤثراً، وخصوصاً أنّ بهية فعلت نفس الشيء فوراً، قذفت نفسها راكعة أمام المرحوم، وأمسكت بكلتا يديها ساقه الراجفة النحيلة كساق الديك، وصاحت وهي منفوشة الشعر بعد أن انحسر غطاء رأسها الأسود:

– دخيلك يا وحيد، دير بالك على جوزي عمر... إذا مات...

لم تستطع أن تكمل، بل راحت تبكي وتنوح، ثم نتفت شعرها، ولطمت وجهها، لم تقل (سيقضى علي) مثل تلك السفيهة التي جاءت إلى باب الثكنة مع أولادها التسعة ولولا لطف الله، لكانوا قد جندوا اثنين من أولادها، ولكنهم هربوا قبل أن يفطن إليهم الأتراك. المهم . فكّر عمر . لم تستطع يا عمر بنبوك يا سافل يا نذل، أن تدير بالك على جوزها وحيد الأسدي، وهكذا مات، لن يعود إلى بيته ليطعم عشرة أفواه، يا للخزي يا عمر، كان عليك أن تموت بالتيفوس، وليتحطم إلى الأبد قلب بهية، فهذا لم يعد يهمني بعد الآن.

تنملت ساقاه بسبب قعدته الطويلة، غيّر جلسته، ثمّ نظر باتّجاه الشمس، كانت الساعة بين التاسعة والعاشرة، أحسّ بجوع ينهش معدته، وبمرارة في فمه بفعل تدخين السجائر المستمر. مسّد عذاريه كعادته، ثمّ أخذ نفساً عميقاً وزفر طويلاً، أحس بألم

في رئتيه، لعن في نفسه التدخين، وحمد الله لأنّ التتن لديه أوشك على الانتهاء.

كان باب المستشفى ضيقاً ومع ذلك فقد وقف حارسان أحدهما عربي يحملان على كتفيهما بندقيتين عتيقتين. وكان هناك جمهور صغير من العجائز جالسين متكومين على بعضهم ينتظرون الإذن لهم بدخول المستشفى، إلاّ أنّ البواب كان متعجرفاً وصاحب لسان زفر، كان يوصد الباب من الداخل بالدرباس، وحينما يأتون بجريح ما، كان يفتح الباب على مصراعيه بسرعة، ويسرع بطرد الناس، فيسبهم ويركلهم بقدمه كي يفسحوا المجال أمام القادمين. كان عمر، حينما وصل مع صالح، قد أعطاه معظم ما يملك من النقود، فقد منع البواب صالح من الدخول، فلم يكن صالح جريحاً والتعليمات محددة، لا مكان في المستشفى إلا للجرحى، أما مرضى التيفوس فلا يجب حتى الاقتراب من الباب. عانى عمر كثيراً قبل أن يقنع البواب أن صالحاً غير مصاب بالتيفوس، ولكن بعد أن دفع له. حينها فتح الباب، واستلموا المريض، ومنعوا عمر من الدخول: المرافقة ممنوعة. وفكّر عمر... عليه أن يدفع له لكي يسمح له بالدخول، إلا أنّه لم يعد يملك سوى عدّة قروش لا تساوي شيئاً، ولذلك فقد مكث أمام الباب، يلعن البواب، ويلعن نفسه، بعد أن قرّر أن لا يترك صالحاً أبداً، فيكفيه ما أصابه من عذاب الضمير بسبب تركه وحيداً الأسدي يموت... حسبما كان يخاطب نفسه.

نهض عمر، واقترب من الحارس العربي، ووشوش في أذنه:

– أرجوك، تكلّم مع البواب، لماذا لا يدعني أدخل، الجريح في الداخل هو ابن عمي صالح بنبوك وأنا لا أعرف عنه أيّ شيء منذ ثلاثة أيام، ولنفترض أنّني ذهبت في حالي... كيف سأفسر ذلك لزوجته، سيقولون عني.. سافل ومنحط، ثمّ إنّه ابن عمي، وأنا الآن أموت من القهر لأنّنا لم ننقذ صديقنا وحيد الأسدي... هل تعرفه؟ طبعاً لا كما تقول... ولكنّك رأيت صالحاً يدخل فأنت إذن تعرفه، ولذلك... تكلّم أرجوك مع هذا التيس ليدعني أدخل بدون ضجة... قل له بأنّني سآخذ خمسين قرشاً من صالح، وسأعطيها له...!

– خمسين قرش؟ ... وماذا ستعطيني أنا؟

– نحن لا نملك غيرها.. عليكم أن تتقاسموها!

– اتفقنا... انتظر قليلاً!

وقف الحارس يتهامس مع البواب، كانا ينظران بطرفي عينيهما إلى عمر، وهما يتشاوران. هز البواب اللعين رأسه ثمّ غمز بعينه، تركه الحارس يتعارك مع العجائز واقترب من عمر، وهمس:

– اسمع، خمسين قرشاً لا تكفي، ضع فوقها عشرين أخرى، البواب سيتركك تدخل، وتخرج متى أردت وبإمكانك جلب الأطعمة لابن عمك.

بصق عمر على الأرضية الحجرية، ثمّ مسح بصقته بحذائه، تطلع إلى الحارس وهو يمسح على عذاريه بيديه:

– لعن الله الأبواب والبوابين... وهل سيدخلني إلى الجنة. على كلّ، سأدخل وسأرى ماذا يوجد في حوزة ابن عمي. سأحاول أن أجمع سبعين قرشاً، كان الله في عوننا...

دخل عمر بنبوك، أدخله البواب، علّمه أن يقول إنّه مرافق أحد الضباط الجرحى هذا في حال سأله أحد ما، وعليه أن يلفق كذبة معقولة، وإلاّ فإنّهم سيطردونه ولن يكون البواب مسؤولاً في حال تمّ طرده، بل سيستوفي منه القروش السبعين.

كان الطابق الأول عبارة عن صالون واسع يفضي إلى أربع أو خمس غرف مشرعة الأبواب وكلّها ملأى بأجساد الجرحى المستلقين على الأرضية، حتّى أنّه لا يوجد مكان لإنسان آخر، لم يكن هناك أسرة ولا مقاعد، بل أجساد متألمة مسحوقة تتلوى. وقف عمر يتطلّع في الوجوه، كلّها متشابهة، سمراء أحرقتها الشمس، وبان عليها التعب، أغلب الرؤوس كانت مربوطة بشاش أبيض متسخ، يبين منه لون الدم أو اليود الأحمر، تطلعت إليه هذه الوجوه بأعين كالأزرار غائرة بيضاء في مساحة من السواد واللحى النابتة وهمس، يسمع نفسه فقط:

– صالح ... بنبوك... صالح... بنبوك..

خطا بين الأجساد، احترس كي لا يدوس على قدم أو ذراع، لعن نفسه: أنت يا عمر بنبوك تعيش في وحل آسن، تستحق أن يشنقوك من خصيتيك...

أنّبه ضميره: كفى يا عمر كفى... إنّ نفسك لا تستحق كلّ هذه اللعنات، انظر

حولك. هذه هي مأساة شعبك. إنّهم يتألمون وأنت تلعن نفسك مثل كلب أجرب متشرد. وصلت إلى أنفه دفعة واحدة رائحة العرق والدم المتجمد الذي تفسّخ بفعل الحرارة. ورائحة قذرة تأتي من الأجساد والأقدام التي علتها القذارة. إلا أنّه اشتم رائحة نفاذة داعبت خياشيمه، كانت رائحة اليود والمطهرات الأخرى. سدّ فتحتي أنفه الواسعتين بيده. إلا أنّه سرعان ما خجل من نفسه، فأنزلها. قال في نفسه: رائحة الدواب أفضل. رأى إلى جندي يتألم. كان يحرك رأسه يميناً ويساراً من الألم، لفوا يده كلّها برباط أبيض. أما قدمه فقد كانت مكشوفة، وتنز دماً. سمع الجندي يهمس:

– دخيل الله، جيبولي الحكيم، سأموت، جسمي يشتعل...

أحس عمر بثقل ينزل على صدره. تجعّد وجهه، ومطّ شفتيه. قرّر ألا ينظر إلى الجندي. إلا أنّه تطلّع إليه مرّة أخرى، فأحسّ بالغثيان في معدته. خاف أن يفرغ عصارة معدته، وأحسّ أنّه يختنق. لماذا لا يفتحون النوافذ؟ ثمّ راح يسيل عرقه في خطوط طويلة على صدغيه ورقبته... الحر شديد والهواء فاسد. لمح وجهاً يشبه صالح. كان الرجل يسند ظهره على الحائد وهو في وضع الجلوس. استمر عمر في السير كأنّه يخطو على حبل معلق من جنبين، كاد أن يقع عدة مرات، وكاد أن يدهس رأساً معصوبة لشخص نائم. شخص؟ ... بل طفل... طفل في السابعة أو الثامنة من أتى به إلى هذه المجزرة؟ وكيف جرح؟ تطلع مرة أخرى إلى الرجل الجالس، تيقن أنه ليس صالحاً بل وجه لرجل معروف. ومن يكون يا ترى؟ خانته الذاكرة، ذاكرته مثل امرأة فاسدة، ولكنّه أصرّ على التذكر، أعمل ذهنه، إلا أنّه كان بليداً، فالرائحة القذرة ورؤية الطفل الجريح أصابا عقله بالشلل، لماذا لا يفتحون النوافذ؟ تساءل مرّة أخرى، ليس في نفسه، بل همس بذلك. قرفص بجانب الطفل. إنّه يشبه أحمد، ابنه. سمع قرقرة آتية من معدة الصبي، يا للجوع الكافر (لعن الله عمر بنبوك فهو لا يحمل في جيبه أيّ شيء حتى ولو كان قطعة خبز من النخالة ليقدّمها له. لو أكل الطفل لصح، وخرج من هذا الإسطبل الذي يسمونه مستشفى) سمع رجلاً مستلقياً بجانب الطفل يهمس له:

– هذا ابني...

تطلع عمر، كان الرجل أيضاً ملفوفاً في عدّة أماكن من جسده، بأربطة بيضاء

تغير لونها إلى رمادي وأحمر، فقال له:

- الله يشفيه!

- قصف الإنكليز بيتنا، ماتت أمه وإخوته الثلاثة.

قال الرجل... فقال عمر وقد ضيق عينيه:

- لعن الله الإنكليز.

- بقينا يومين ننزف قبل أن يحملنا الجنود المتراجعون نحو بغداد. قلت لهم: خذوا روحي اقتلوني، دعوني أموت، ولتأكلني الكلاب الضالة، ولكن أنقذوا ابني!

- آه...

كان الألم يعتصر شيئاً داخل صدر عمر، كيف سيواسي الرجل؟ إلا أنه صمت، تابع الرجل همسه:

- لكن الجنود كانوا أولاد حلال، أنزلوا حمولة العربة وألقونا فيها، ثمّ أسرع السائق صاعداً باتّجاه الشمال.

فقال عمر وهو يمسح وجه الطفل بيده الضخمة الخشنة:

- كثّر الله خيرهم.

- وماذا تفعل أنت هنا؟

- إنّني أبحث عن ابن عمي صالح بنبوك، هل تعلم عنه أيّ شيء؟

- لا ... لا أعرفه، ابحث في الطابق العلوي، اصعد هذا الدرج (أشار إلى درج بجانب الحائط).

- حسناً. قال عمر، ونهض.

اقترب من الرجل الجالس، لم يتذكّره بعد، شاهد الرجل يرفع يده، ويحييه، من دون أن يغيّر ملامح وجهه الريفية القاسية، قال عمر بعد أن اقترب منه:

- مرحباً يا أخ!

- يا هلا...

- لم أعرفك، ولكن وجهك مألوف لدي.

قال عمر، فقال الرجل الذي كان عاري الصدر، وقد علّق يده اليمنى المكسورة برباط ملفوف حول رقبته، كما أنّ قدمه كانت مجبّرة أيضاً:

– أنت عمر بنبوك، حفار الآبار من حلب.

– نعم أنا، وأنت؟

– أنا جاسم من قرية النيرب، حفرت لي بئراً منذ حوالي سنتين.

تذكره عمره جيداً لعن الله ذاكرته اللعينة. كيف ينسى زبوناً مازال يدينه بمبلغ من المال، ولكن من يسأل عن الدين الآن؟ لن يطالبه بالقروش الباقية، قال جاسم:

– هل تبحث عن شيء؟

– إنني أبحث عن ابن عمي بنبوك، هل تعرفه؟

هز جاسم رأسه نفياً، ثم أشار إليه كي يصعد إلى الأعلى أيضاً، كاد عمر أن يستدير إلا أنه تذكر، لم يسأله عن سبب إصابته، فقال الرجل:

– قنبلة، كادت أن تطيح برأسي أيضاً، الله ستر. سوف يسرّحونني قريباً وهذا من حظي.

غمز الرجل بعينه، ثمّ ابتسم ابتسامة بلهاء ملعونة لا يفهم منها أدنى شيء. وقف عمر كالأبله يحاول تفسير الغمزة والبسمة. عندما حفر عمر بئراً له، كان الرجل يجلس بجانب البئر، ويثرثر. كان كثير الكلام، يتحدّث عن أيّ شيء وفي كل شيء، عن زوجته الأولى والثانية، عن الموسم وعن الجفاف، وأقسم حينها أن المجاعة قادمة، ولما غاب عمر تحت الأرض وهو يحفر، كان جاسم يستلقي على الأرض، ويبقي رأسه ممدوداً إلى الأمام ينظر إلى الأسفل، وكان يدخن باستمرار ويثرثر ويضايق الصبيين، اللذين كانا يعملان مع عمر في نقل الأتربة إلى الأعلى، وفي إحدى المرات وعندما كان منشرحاً في الحديث، سقط جاسم في البئر، بعدما أخذه الحماس وهو يشرح لعمر كيف هوجم من قبل قطاع الطرق أثناء عودته ليلاً من أحد مواخير حلب. ثمّ عندما انتهى حفر البئر، شرب جاسم من الماء البارد العذب، ثمّ راح يتباكى، ووعد عمر بأن يسدد له باقي الأجر في الموسم القادم.

انتبه عمر للأمر، اقترب من أذن جاسم، وسأله:

– هل فعلت ذلك بنفسك؟

ثمّ أشار إلى ساعد الرجل وقدمه، أومأ جاسم برأسه، وقال:

– أنا أنكح منهم.

ثم أشعل سيجارة وراح يحرّك يده السليمة ليبعثر الدخان، ويخفي عمله فالتدخين ممنوع رغم أنّه يلطف رائحة الأجساد القذرة.

راح عمر يصعد الدرج الخشبي بحرص شديد. كان الدرج يصدر زقزقة عند كل دوسة، كان هناك رجل غفا وهو جالس على إحدى الدرجات. كان يشخر. تجاوزه عمر وهو يحاول أن لا يوقظه، ولما أصبح في الأعلى شاهد ممراً عريضاً يؤدي إلى غرف مصفوفة إلى اليمين وإلى اليسار، وكان الممر مشغولاً بالأجساد الممددة ولكن بدرجة أخف من الأسفل. مرّ عمر بين الأجساد بسهولة وهو يتفحص الأوجه. أين هرب ابن العم؟ سأل في نفسه . نظر عبر أحد الأبواب. كانت الغرفة تعج بالأجساد الملفوفة والأرجل المجبرة المرفوعة إلى الأعلى بخطاف معلق إلى السقف؟ كانت أشعة الشمس قد وصلت إلى منتصف الغرفة ساقطة على الأجساد التي تزخ عرقاً، فيتبخر من جديد، ويغبق هواء الغرفة الساكن برائحة قوية نفّاذة. شاهد شخصاً يلبس قنبازاً، يتحرّك بين الجرحى المستلقين على المعاطف الممدودة على الأرضية العارية. ميّز عمر لون شعر الشخص، أصفر يميل إلى الأبيض.

استدار الشخص فجأة، كانت امرأة أجنبية . كانت ألمانية . ذات عيون دقيقة زرقاء مثل الخرز الذي كانت تعلقه النساء في بلده كي تبعد الحسد عنها. كان الوجه تشوبه بعض التجاعيد، فهي بين الأربعين والخمسين، لو نظر إليها عن قرب لعرف تماماً ما هو عمرها. تطلعت إليه المرأة البيضاء الوردية لحظة، ثمّ استمرت في عملها، كان الجنود والجرحى يتابعونها بأعينهم التعبة الغائرة. كانت توزع حبات الكينا على الجنود الذين كانوا يبلعونها وعيونهم مسددة نحوها لا تفارقها. كانوا يعبّرون بصمتهم وعيونهم عن امتنان وشهوة عارمة تجاهها.

مالت المرأة إلى الأمام، شاهد عمر جزءاً من فخذها الأبيض الذي بدأ يترهل. كان هناك بعض العروق الزرقاء النافرة الصاعدة من ساقيها إلى ما فوق الركبة. أحسّ بالدم يصعد إلى رأسه، ونشافاً في فمه، كانت جميلة جداً في صباها، . فكر عمر في نفسه . استدارة المرأة مرة أخرى، تطلعت في عينيه مباشرة، العيون حادة تعبر عن أنوثة عارمة، أما فمها فكان دقيقاً، تجعدت زاويتاه، إلا أنّه بقي نضراً وشهياً.

خجل عمر، أحسّ أنّها عرفت، عرفت أنه يستطيب النظر إلى فخذيها وإلى تقاطيع جسدها التي يرسمها الثوب العربي الذي ترتديه، فغادر مكانه.

مشى عمر إلى نهاية الممر، تطلع في الغرفة الأخيرة إلى اليسار، إنّه المطبخ، فقد خلا من الجرحى، وتكوّمت فيه الأواني البيضاء وقوارير حبوب الكينا، وصندوق كبير ملآن بمئات قطع القطن المشبعة بالدم البشري. ولج الغرفة المقابلة، كان الباب نصف مفتوح، رأى سريراً ومنضدة وضع عليها، كيفما كان، عشرات القوارير وأدوات الجراحة، وكيساً مليئاً بالقطن، واللفافات وغيرها، وقريباً من النافذة جلس رجلان، صامتان، حنيا ظهريهما وهما يتطلعان إلى شيء وضع أمامها، كان الأول . المقابل لعمر . يلبس صداراً أبيض، ويضع عوينات على أنفه، وله لحية أنيقة غزاها الشيب. يبدو أنه الحكيم. اقترب عمر. رفع العجوز صاحب اللحية رأسه وسأل عمر بالتركية:

– ماذا تريد؟

أجاب عمر بتركية مشوهة:

– أبحث عن شخص.

– لا يوجد هنا أشخاص. أخرج..!

هم عمر بالخروج، أمسك أكرة الباب، إلا أنّ الرجل الآخر استدار، وصاح:

– عمر؟ ... إنّه عمر!

كان صالح بلحمه ودمه، تعانق الرجلان، ثمّ قدّم صالح عمر إلى الطبيب، أجلساه بجانبهما. سأل صالح:

– أين كنت يا رجل؟ حسبتك عدت إلى المعسكر..

ثمّ تمتم ببعض الكلمات التي عبّر خلالها عن سعادته بلقاء عمر وهو يراقب رقعة الشطرنج، مدّ الطبيب يداً، وحرّك بيدقاً، فنسي صالح ابن عمه الجالس إلى جانبه.

كان صالح، عندما حضر إلى المستشفى، يعاني من صدمة نتجت عن انفجار قذيفة مدفع بجانبه، أثرت على جهازه العصبي، وقد تأكد الطبيب أنّ الرجل سرعان ما سيشفى، فترك لحاله مستلقياً على أرضية ممر الطابق الثاني. وفي اليوم الثاني أفاق، وراح يصيح طالباً طعاماً وماء، فأطعموه حساء السبانخ مع قطعة من خبز

الشعير والعدس، فأعاد الطعام القوة إلى جسده المصعوق. انتبه صالح إلى طنين أصم متواصل في أذنه اليسرى، وعلم أنّه فقدها، إلا أنّه شعر بسعادة تغمره لأنّه بقي حيّاً دون تشويه.

كان الطبيب التركي يعيش حياة رتيبة مضجرة في المستشفى، وكان يحب اللعب بالشطرنج، ولا تفوته مناسبة حضور أحد اللاعبين أبداً. وفي يوم الخميس، وهو اليوم الثاني لوصول صالح، جاء عدّة ضباط أتراك لملاعبة الطبيب. جلس الجميع في غرفة الطبيب. نشروا رقعة الشطرنج، وتحلّقوا حولها، كان أحد النقباء . واسمه جميل وكان فعلاً جميل الطلعة . ينازل الباقين ولا يلبث أن (يكش) الملك وهو يقهقه. كان يصرخ ويسخر منهم، ويقول وهو يمسد شاربه الناعم الجميل الذي كان يعلو فماً صغيراً وردياً، مثل فم أنثى في العشرين من عمرها:

– مين بعده... أريد لعّيبة!؟

فينسحب الخاسر، منكسر الخاطر، أحمر الوجه، خجلاً، يخفي حرجه ببسمة أو ضحكة بلهاء أو بنكتة بذيئة سمعها من الجنود.

كان صالح عندئذ مستلقياً بجانب باب الغرفة، كان يسمع ما يجري في الداخل وهو يتحرّق شوقاً لمشاهدة اللعبة. تعاطف مع المنكسرين والمنسحبين، وأعجب في نفس الوقت بهذا اللاعب الذي لا يراه، ولكن يميزه بصوته الحلقي المتحشرج، سمعه مرّة أخرى وهو يهزأ من الطبيب الكهل، ويلتقط الرهان من المنضدة، وكأنّ الطبيب كان يخص صالح، نهض بتثاقل ونقر على الباب، لم يجبه أحد، أدار أكرة الباب ثمّ دفعه ودخل بوجل. في هذه اللحظة كان النقيب يضحك بصوت عال لا يتناسب وحجم الغرفة.

– ماذا تريد؟

قال الطبيب، وقد تحول لون وجهه إلى أحمر قاتم، وكان يتميز غضباً. فقال صالح:

– عفواً يا سادة، سمعت وأنا مستلق في الخارج أصواتكم، وفهمت أنه يوجد هنا لاعب ممتاز وأنا أريد أن أنازله، إذا أمرت يا سيدي.

انفجر الحضور بالضحك، وتعالت قهقهات النقيب الجميل، وكاد أن ينقلب هو

وكرسيه إلى الخلف، ويسقط على الأرض، لولا أنّه تدارك، وأمسك بالمنضدة، شاهد صالح النقيب وهو يبتسم، فقال في نفسه . هذا الديك صاحب الريش المنفوش سوف أنتف ريشه . كاد الطبيب أن يرفع يده ليطرد صالح، إلا أنّ صالحاً سبقه وقال متضرعاً:

– أرجوكم، لعبة واحدة، مع هذا السيد، على رهان (وأخرج من حزامه كمية من القروش التي خبّأها منذ أن خرج من حلب)، إن ربح السيد الدق، أعطيته عشرة قروش، أما إن ربحت أنا فيعطيني خمسة فقط.

عاد الضحك من جديد، ولكن بشكل أخف من المرة الماضية. حكّ الطبيب رأسه، لعله يفكّر في الأمر، ماذا لو رفض؟ ... فرصة رائعة لا تفوت، أنت أيّها الطبيب المسكين المضحوك عليك، لماذا لا تقبل؟ سوف أثأر لك إن شاء الله...

نهض الطبيب، وكأنّه سمع ما قاله صالح في نفسه، من مكانه، وقال وهو يغمز بعينه للنقيب:

– تعال العب معه...

جلس صالح وراح يلعب، تحلّق الجميع حولهما، كانوا في البدء ينكتون ويغمزون. أخرج أحد الضباط وكان أصغرهم لسانه ببذاءة، هذه اللعبة إهانة لهم في آخر المطاف. ولكن، وبعد ربع ساعة، لم تعد إهانة ولا شيء، فقد راح النقيب جميل الطلعة يتعرق، وعوضاً عن أن يمسّد شاربه، راح ينتف منه بعض الشعرات. انتعش الطبيب، وأحسّ بالفعل أنّ هذه اللعبة تخصه هو بالذات، لأنّ اللاعب مريضه وفي مستشفاه، وعندما همس صالح بخوف شديد، وهو يتوقع أن يكيلوا له الصفعات والرفسات:

– كش... م... ملك ... يا صاحب ... السعادة.

صفّق الطبيب، وكان يبتسم من الأذن إلى الأذن، ثمّ التقط قروش الرهان وقدّمها لصالح، فضجت الغرفة، وانقسم الحضور، من مؤيد لصالح ومشجع للنقيب.

قال صالح: يا الله... أراد أن ينهض ليتوارى قبل أن يحدث ضرب بالأيدي، صاح النقيب آمراً:

– اجلس... اجلس.. العب دقاً آخر (ثمّ توجه إلى الآخرين)، كانت الافتتاحية

محيرة لي، ولعب هو بخبث، سأنتف الآن ريشه.

قال صالح في نفسه: أنا سأنتف ريشك أيّها الديك المغرور.

اقترح الطبيب فوراً: اسمع يا جميل، ضع عشرة قروش مثله تماماً هذا إن أردت أن تنافسه، وتلعب معه.

وابتدأ اللعب من جديد، وعند المساء، عندما نهضوا للمغادرة كان صالح قد ربح مئة وعشرين قرشاً، أخذ الطبيب نصفها بعد أن اعتبر نفسه شريكاً لصالح.

في المستشفى، عادت لصالح روحه، فقد انتقل ليعيش في غرفة الطبيب، وفرشوا له فرشة محشوة بالخرق بجانب النافذة، وقبل النوم، وبناء على مشورة الطبيب، نزل صالح إلى الطابق السفلي حيث اغتسل في حمام صغير لا يتسع لشخصين، ثمّ قدّم له بنطالاً وقميصاً من أغراضه الخاصة، وقام الطبيب بحلق وجه صالح بموسى أخرى لا يستعملها إلا أنّه أخطأ وجار على الطرف الأيمن من شاربه فأصبح أرق من الطرف الأيسر، فلعن الطبيب الموسى. إلا أنّ صالحاً عندما نظر في المرآة، أحسّ أن الطرف الأيسر أثقل من الطرف الأيمن، فضحك الطبيب وربت على كتف صالح، وهو يحذره:

– إياك أن تميل رأسك إلى اليسار، حاول أن تدفعه باستمرار إلى اليمين حتى ينصلح شاربك.

ثمّ مرّ اليوم التالي كلّه، وهما يلعبان، ولما دخل عمر في اليوم الرابع، كان قد مرّ عليه ستة أيام من دون أن يأكل أو ينام جيداً، فانتهز الصمت الذي لف غرفة الطبيب، والتهم قطعة الخبز الكبيرة التي كانت موضوعة على كرسي بجانب الحائط، ثمّ فرش فرشة صالح قرب سرير الطبيب وسرعان ما علا صوت شخيره.

قام الطبيب بتعيين صالح ممرضاً مؤقتاً في المستشفى، وأدرج اسمه في سجل المستخدمين، وأعطاه ورقة مختومة بذلك، تحسباً من أن يسوقوه مرّة أخرى إلى الجنوب، ومع أنّ صالحاً لا يفهم شيئاً في التمريض إلا أنّ الطبيب أعلمه أنّ عمله الأساسي في المستشفى هو لعب الشطرنج وحسب. وجاء يومياً كثير من الضباط للعب بعد أن علموا بوجود شخص عربي يدعى صالح يلعب بشكل ممتاز، ثمّ انضمّ عقيد جريح اسمه زهدي بيك إلى الطبيب وممرضه بعد أن شفي. إلا أنّه كان يسير

بمساعدة عكاز، فوضعوا له سريراً في غرفة الطبيب أيضاً التي كانت تعج بالضيوف وبفناجين القهوة، وأعقاب السجائر المسحوقة. وتمّ نقل الجرحى من الممر العلوي والدرج لتسهيل تنقل الضباط هواة الشطرنج، فضاقت الغرف بالأجساد وأصبح الطبيب لا يبالي كثيراً لانشغاله مع ضيوفه، حتّى إنّه راح يخرّج الجرحى بعد أن يشعروا بقليل من التّحسن. وكان كثير من الجرحى يهربون أيضاً من المستشفى عندما يستطيعون السير، وذلك بسبب نقص الأدوية والأطعمة التي كانت تصرف على الضيوف، الذين كانت تعلو أصواتهم وضحكاتهم وشتائمهم، حتّى إنهم لم يعودوا يسمون المكان مستشفى بل (ماخور الدكتور كمال).

استطاع عمر أن يحصل بمساعدة عمر على عمل في المستشفى، كان العمل بسيطاً. كان عليه أن ينظف المكان ويحرق الألبسة الملوثة وأن ينقل جثث الموتى إلى المقبرة القريبة ويدفنهم. ثم كان عليه أن يحمل الأطعمة إلى الداخل، وأن يسلم الأكياس الفارغة إلى عربة التموين وغيرها من الأعمال التي هي مقابل طعامه وشرابه وتواريه عن أعين فرق التجنيد العثمانية التي كانت تجوب بغداد وتبحث عن الهاربين وعن المجندين الشباب. شغل عمر غرفة المؤونة في القبو. كانت الغرفة باردة مظلمة لا تدخلها الشمس، تفوح منها رائحة العفونة والرطوبة وبراز الجرذان. كان يستيقظ في الخامسة صباحاً ويسرع في إنجاز الأعمال المستعجلة من تكنيس ومسح الأوساخ، ثمّ يقوم بحرق الفضلات والضمادات المستهلكة، وفي التاسعة تأتي عربة التموين. وقد تأتي في العاشرة أو عند الظهر، وفي بعض الأيام قد لا تأتي أبداً، لذلك كان عليه الذهاب إلى المركز في حي الرشيد ليجلب الخبز والحساء ذا الرائحة المقرفة والذي كان الجميع مجبرين على أكله وإلا ماتوا جوعاً، وعند الظهر كان ينزل إلى قبوه البارد الذي ألفه وألف حيواناته القميئة التي كانت تركض وتزقزق باستمرار. ويبدو أن هذه الحيوانات قد اعتادت على وجوده أيضاً، فهي لم تعد تخاف وتختبئ حينما كان يحضر، بل لم يعد يهمها ذلك أبداً، وفي كثير من الأحيان كانت تقترب منه، وهو مستلق على ثلاث فرشات وضع بعضها فوق بعض بعد أن وجدها في ركن من القبو. كانت بالية عبثت بها الجرذان، تفوح منها رائحة قذرة اعتاد عليها أيضاً بعد يومين أو ثلاثة.

إلى القبو لا ينزل أحد سواه، يقولون إنّ حية سوداء مستوطنة فيه. إلا أنّ عمر لم يحس بوجود الحية، ولو وجدت لصادقها هي أيضاً. وفي إحدى الليالي، قضمت الجرذان شرواله، فاستبدّ به الغضب، وأقسم على إهلاكها، فأخرج كل محتويات القبو إلى حديقة المستشفى وطرد الجرذان ودخن أوكارها ثم سدها بالطين والكلس، وغسل جدران القبو والأرضية وسدّ الثقوب، ونظّف سقفه من العناكب، وعرّض فرشاته الثلاثة إلى أشعة شمس تشرين الأول الحارة.

كان عمر يتهرّب دوماً من البواب والحارس العربي، فقد كانوا يطالبونه بالسبعين قرشاً إلا أنّه كان يعارض، فقد تغيّرت الظروف، وأصبح مستخدماً وعليهما أن يتوقفا عن مطالبته بالنقود وإلا شكاهم للطبيب، إلا أنّهما كان يصران على أخذ المبلغ، فكان عمر يوجه لهما شتيمة يحمرُّ لها الوجه، ويغيب عن الأنظار.

كانت الممرضة صاحبة القنباز العربي قد فقدت صوتها منذ زمن بعيد، أما سمعها فكان جيداً، وحينما كان يجتمعان في المطبخ كانت تلقي عليه نظرات سريعة غامضة غير مفهومة دون أن تكلّمه. وفي كثير من الأحيان كانت تقدّم له صحناً من الحساء الساخن، فيبتسم لها شاكراً، ويتربع في ركن المطبخ ليلتهم الحساء، أمّا هي فكانت تسرع لتكمل أعمالها. كان يراقب جسدها الذي ارتسم جيداً تحت القنباز، وعندما كانت تنحني لتلتقط شيئاً كانت تستدير بسرعة لتراه ينظر إلى ما تحت الثوب. كانت تكرر هذه الانحناءات كثيراً، وفي أحد الأيام، دخل عمر إلى المطبخ فوجد صحن الحساء في الركن المعهود، تربّع، وراح يأكل. نظر إلى السرير. فكانت الممرضة نائمة. كان الثوب مرفوعاً إلى الأعلى، كاشفاً ساقيها ومساحة كبيرة من فخذيها. كان جسدها قد ترهل إلى حد ما. أثاره لون بشرتها البيضاء وانفراج ساقيها. وفي جلوسه هذا لا يستطيع أن يرى آخر انفراج الفخذين عند التقائهما. مط رقبته قليلاً إلى الأعلى بعد أن مال بجذعه إلى اليسار، لم ير سوى الظلام. وماذا لو نهض واقترب منها؟ فكرة حسنة... استقام والتقط ثوباً آخراً لها. كان معلقاً على مسمار في الحائط. اقترب وهو يفرد الثوب بين يديه، ذريعة جيدة، إنه يريد أن يغطيها فنسمات تشرين الأول دافئة ولكن غدارة. اقترب أكثر، لم يعد يرى ظلاماً بل التقاءً أسمر يشوبه شعر كثيف. وهناك كان الجسد مفلوقاً مكوناً ساقية غامضة،

مظلمة، تغور إلى الأسفل. سال العرق من وجهه ورقبته وتندت يداه، ثمّ جفّ حلقه. وكأنه يغطي جثماناً، ألقى النظرة الأخيرة، ثمّ وضع الثوب برفق، وعاد إلى مكانه.

وهو يأكل، قارن الممرضة ببهية زوجته: الممرضة نحيلة ذات ساقين نحيلتين، بيضاء البشرة تميل إلى الوردي، عجيزتها صغيرة، وثدياها صغيران وكلّ شيء فيها صغير حتى فمها وأنفها وعينيها، شعرها أصفر ولأوّل مرة يرى امرأة صفراء الشعر هكذا، ولكن بهية سمراء شعرها أسود كالفحم. عيناها سوداوان، أما فمها وأنفها ليسا دقيقين ولكن وجهها لا يخلو من الحلاوة. عجيزتها أكبر، ذات وركين نافرين، وجسمها ممتلئ أكثر، عندما اعتاد أن يستلقي فوقها فقد كان يحس بالراحة والإثارة معاً. قال في نفسه: أنا أحب المرأة الممتلئة أكثر من النحيلة، بهية أفضل من هذه العجوز الشمطاء، ولكنه ندم لأنه غطّى فخذيها. كان عليه أن ينهض ليتفرج. أنهى طعامه، ومسح شفتيه وشاربه بظهر يده، ثمّ لف سيجارة، وراح يدخّن وهو ينظر إلى الجسد النائم ويتصور أنّها بهية. لو كانت بهية هي النائمة لقام وشقّها شقّاً (هكذا فكر في نفسه)، ولكن، هذه المرأة ليس ملكه. صحيح أنّها وديعة وطيبة القلب ولكنه لا يتصور كيف يمكن أن يضاجع امرأة غريبة. لن يلمس هذه المرأة (قرر في نفسه) ولكنه سيتطلّع إليها بين الحين والآخر، لا لشيء، سوى لأنّها تذكّره ببهية، هذه المرأة التي لم يعرف ولم يضاجع غيرها أبداً. تذكّر، عندما كان يعود إلى البيت مساء، من دون أن يكون قد عمل، أو كسب نقوداً، كانت بهية تحسّ بنزقه، تضع له العشاء، وتغسل له يديه ورأسه وقدميه، دون أن تتأفف من رائحة قدميه، ثمّ تدعه يأكل، كان يسألها:

– يا بهية، من أين كلّ هذا؟

فتجيبه وهي تقدم له صحناً آخر:

– من عند أهلي يا رجال.

وبعد أن تلم السفرة، كانت تقعد إلى جانبه، تداعبه، تدغدغه، وفي بعض الأحيان كانت تعضه في تلك المنطقة تحت أذنه، ثم تروح إلى الشرشف المعلق، الذي كان يفصل الغرفة إلى غرفتين، هناك كانت تخلع سروالها، بينما هو يراقبها، يعلم ما كانت تفعل. يعرف ما سيحدث بعد قليل حيث كانت تصيح هناك:

- عمروي، تعال لننام...!

كان ينهض وهو يحاول إخفاء حرجه، إخفاء توتره البادي أسفل بطنه، وعندما كان يستلقي بين ساقيها، كانت تقوم هي، بكل ما يلزم، بكل الحركات، والتأوهات، والتشنجات، وتلك الصيحات الخافتة العميقة، التي لا يعلم إن كانت تعبر عن ألم دفين أم سعادة تشلها، وتجعل لهاثها سريعاً وقصيراً؟

تحركت المرأة، استدارت إلى طرفها الأيمن، ثمّ قرفصت ساقيها، فأعطته ظهرها فارتسمت عجيزتها كإجاصة كبيرة، هائلة، وانحسر الثوب . الغطاء . عن فخذها، فبان هلال أبيض عجيب. أحس أنه يشتعل، وأنه يتصبب عرقاً، أحرق سبابة يده، فقذف عقب السيجارة التي كان يدخنها، ثمّ داسه بحذائه. وكأنّها قد استفاقت، استلقت على ظهرها، ثمّ راحت تمسح عرقها عن جبينها وخديها بيديها، رفست الثوب الآخر. كان زائداً، فهي تشعر بحر شديد، قيظ تشرين الأول الرطب الدبق، كانت عارية حتى نصفها العلوي، ولا تشعر بأيّة نسمة هواء معتدلة ترطّب جسدها، أما هو، فكان يبلع ريقه، من دون أن يحول عينيه عنها، كان يرى إلى عريها بعينين جاحظتين. ركّز بصره ليرى أوضح، شاهد شيئاً من شعر العانة، فأنزل يده التي كانت تمسّد شاربه، لم تفاجأ هي، استدارت لتريه أكثر، تأكدت من تحرك عضلات وجهه، إنّه يرى أفضل، أنظر أيّها الرجل المسكين، يا قاهر النساء الذي قهرته الحروب، رأته، وهي نصف مغمضة العينين، كيف أنزل يده الهائلة الخشنة السوداء إلى الأسفل، وراح يمسح على عضوه، بحركة متوترة، راجفة، وتشنجت عضلات وجهه، الذي احمرّ واغتسل بحبّات العرق التي راحت تنقط على صدره، وظهرت عروق رقبته، ثمّ، شهيقاً عميقاً، طويلاً، ومكتوماً، وتوقف يده عن الحركة، ثمّ أغمض عينيه بشدّة حتى ظهرت تجاعيد في طرفيها، وتغضن أنفه وجبهته ومطّ شفتيه، كأنّه كان يتألم، أصدر صوتاً خافتاً وهو مطبق الشفتين، ثمّ ارتخت يداه، جدعه، وبقي مغمض العينين برهة، ثمّ قام، خرج، وأغلق باب المطبخ، ثمّ نزل إلى الطابق السفلي.

* * *

(8)

بعد أن سقطت كوت العمارة في يد جيش حكومة الهند، وانسحب الأتراك منها، تحولت بغداد إلى خط دفاع أول، خط يجب الدفاع عنه والحؤول دون سقوط المدينة بأي ثمن كان. لذا، انهالت التعزيزات العسكرية من الشمال، ومن سورية، وأصبح تعداد الجيش الذي كان يقوده (نور الدين بيك) والذي كانت بغداد مقراً لقيادته، أكثر من خمسين ألف جندي، مزوداً بثلاث كتائب مدفعية ميدان ألمانية الصنع، يقودها ضباط ألمان أكفاء، تخلى عنهم جمال باشا بسهولة بعد أن ساوره القلق من جراء نجاحات الإنكليز المتكررة في جنوب العراق، ثم أعيد تنظيم الجنود المنسحبين من كوت العمارة وراحت فرق التجنيد تجوب بغداد بحثاً عن الهاربين الذين كانوا قد خلعوا بزاتهم العسكرية، واختبأوا في أحيائها الشمالية النائية، كما أطلق الرصاص على بعض الرجال الذين رفضوا العودة إلى الجيش.

كانت المدينة تعجّ بالجنود والدواب والمدافع الذين سكنوا الأزقة والبساتين وضفاف دجلة، وكان الجميع يتحرّكون بعصبية، والوجوم مسيطر على السحنات المتربة والعرقى، وكانت الأخبار والإشاعات تنتقل بين الجنود مثل البرق: لقد سقطت العزيزية بأيدي الإنكليز. الإنكليز يزحفون نحو بغداد... تاونستد سيحتلّ بغداد في غضون ثلاثة أيام. إنّهم يذبحون العرب. نور الدين بك يحزم أمتعته استعداداً للهرب.

ولكن نور الدين بك أصر على الصمود. لن يهرب، بل راح يجهز جيشه لمهاجمة الإنكليز. كان عليه أن يهاجم فوراً، وهم بعيدون عن بغداد، أن يخرج إليهم، قبل أن يصلوا إليه. ولكنه يحتاج إلى عدة أيام أخر، لا يريد أن يراهن، فالمراهنة خاسرة في آخر الأمر. إنّه يدرس المعركة القادمة، بل إنه يراها أمام عينيه، يتصورها، ويتصور كيف يهزم الإنكليز وينتقم لهزائم الجيش التركي العتيد.

وفي عصر أحد أيام منتصف شهر تشرين الأول، خرج عمر بنبوك من المستشفى، وسار في شوارع بغداد بعد أن زهقت روحه من غرفة القبو التي كان يسكنها، وكره فيه الرطوبة التي تسربت إلى عظامه، ورائحة اليود النافذة.

كان الخريف قد حلّ أخيراً، واعتدلت الحرارة، وراحت الرياح المتربة تهب بقوة

مثيرة الغبار وأوراق الشجر اليابسة. وهاج دجلة، تغير لونه، أصبح مصفراً، يشوبه لون طيني أحمر.

وامتقعت السماء أيضاً، وكأنه اختفى إلى الأبد اللون اللازوردي الجميل لسماء بغداد، وراحت الأتربة والرمال، تسافر في طبقات السماء العاصفة، ثم تنقصف نحو الأرض وعلى صفحة المياه المتموجة لدجلة الهائل. وهبت العواصف، بدورها على الجنود، ألوف المجندين الذين سحبوا من ديارهم دون أن يودعوا أولادهم، ولو بكلمة، أو نظرة، ودون أن يطبعوا قبلة، سريعة، خجلى، على خدود زوجاتهم المتغضنة من التعب والجوع، والمرض.

وعميت الأبصار، فخبّأ عمر وجهه وعينيه بكفّه، كانت الرياح تدفعه إلى الخلف. استدار، وراح يبصق الرمال التي دخلت فمه، ثمّ مسح عينيه بظهر كفيه، بينما كانت الرمال تنقصف عليه كالرصاص، لا تهدأ، تدور في دوامات هائلة، تتطاير أيضاً أوراق الأشجار اليابسة وأوراق النداءات التي كانت تلقيها الطائرات الإنكليزية على رؤوس (الشعب العربي البطل) دون أن تجد رأساً واحداً يقرؤها.

كان الجنود، مهلهلي الثياب، يروحون ويجيئون، وهم يحمون رؤوسهم وعيونهم بستراتهم، ينقلون سيقاناً هدّها التعب، ملؤوا شوارع بغداد، بغداد أصبحت ثكنة، أصبحت ساحة حرب حقيقية، لم يكن الإنكليز والهنود قد ظهروا بعد، بل أرسلوا رياحهم الملعونة هذه لتحارب أعصاب الجنود العرب والأتراك، لتكون نذيراً (ها نحن قادمون وما هذا إلا بداية والأفضل لكم، أيها الجنود أن تهربوا، أن تحتموا في الأزقة، وخلف الجدران، لا فائدة من محاربتنا، اذهبوا إلى زوجاتكم، اليوم رمال وغداً رصاص وقنابل).

توقف عمر، احتمى بجدار عالٍ لأحد المساجد، كان هناك، عدد لا بأس به من الجنود والمدنيين، يحتمون هم أيضاً من الرياح، وكان هناك عدّة بغال أيضاً. كان بعض الرجال مستلقين وآخرون يسندون ظهورهم على الجدار، وآخرون، قرفصوا وهم يدخنون، وقد احتضنوا بنادقهم الطويلة، ولفوا أجسادهم بالبطانيات الملفوفة.

كان هناك رجل عجوز في السبعين من عمره، يلبس قفطاناً مفتوحاً في الوسط، يضع على رأسه عمامة سوداء، مهيبة، وقد أطلق لحية بيضاء يشوبها سواد، يتكئ

على عكاز طويل، يصل إلى كتفيه، كان العجوز يتكلم بصوت عال والآخرون يسمعون:

– ... بغداد المجروحة، آه يا بغداد، كم من الناس زنوا بك؟ ... حتى هذا الدجلة يشقك إلى نصفين، دجلة... متغير الألوان أبداً، الأزرق المتلألئ، الذي غسل قدمي الرشيد، صاحب الحريم والقصور والسجون، دجلة ذو اللون الأصفر، لون الجرب، المترب الهائج، الممتنع الآن، كيف يمكن أن يصبح أحمر، بلون الدماء التي أهرقت فيه، ثمّ أسود، معتماً بلون غيوم الشتاء الواطئة السوداء، حينما قذفوا إليه بعشرات ألوف الأوراق التي سطرها أناس يسمون حكماء، والمعتصم الذي خان دجلة، وزنى ببغداد وهولاكو وتيمورلنك، وابن عثمان، قحاب التاريخ، أما آن لدجلة أن يسير بهدوء وأن يعود له لونه اللازوردي المعهود؟ ... وبغداد... ألم يحن لها الوقت لتنهض، وتغسل دم بكارتها المغتصبة، ثمّ تنام كالعاشقة تحتضن ابنها الأزلي؟ ...

تململ أحد الجنود ثمّ قاطع الشيخ العجوز:

– اصمت يا شيخ درويش. لن يلبث أن يأتي رجال الشرطة كي يعلّقوك من قدميك.

فقال رفيقه الجالس بجانبه وقد أعجبه حديث الشيخ:

– تابع أيها الشيخ، تكلم...

مسح الشيخ درويش لحيته وجمع بقبضته طرفي قفطانه الذي كان الريح يداعبه، فينكشف سرواله الداخلي الطويل، ذو اللون الأصفر. تطلع الشيخ طويلاً إلى الجندي الذي قاطعه ثم تابع بطريقته الخطابية:

– أيها الجنود... الرأفة ببغداد. دافعوا عنها. أبعدوا عنها الأذى، دعوها ترتاح وتغمض جفنيها... ولكن، بغداد لن ترتاح، لن يغمض لها جفن، الإنكليز أيضاً قادمون... إلى متى ستستباح عفتها؟!

– وماذا علينا أن نفعل؟ صاح جندي آخر تعلو القذارة وجهه ويديه.

استدار الشيخ درويش بحركة دورانية رتيبة وقال:

– ماذا عليكم أن تفعلوا؟ إنكم تهربون من أمام جيش الإنكليز، لم يعد لديكم نخوة. بلادنا تستباح، ألم تسمعوا أنهم يذبحون نساءنا. البارحة.. جاء إلي رجل، قادم

من الكوت، قال لي إن الإنكليز ذبحوا كل الجرحى الذين تركهم جيشنا هناك عند انسحابه، حدث ذلك في الليل، حفروا حفرة كبيرة، ثم راحوا يذبحون الرجال كالنعاج، ويلقونهم في الحفرة، حتى امتلأت.

هاج الجمهور وبدأ الجميع يثرثرون دفعة واحدة، كان هناك من لم يصدق الخبر، فراحوا ينعتون الشيخ بالكذب، ثم سمع عمر بعض الشتائم اللاذعة، وكان أحدهم يضحك بطريقة فاجرة.

زاد عدد المتجمهرين حول الشيخ درويش، كان الجميع يحسون متعة ما في الاستماع إليه ومخالفته آرائه، صاح أحد الجنود، وكان يقف في الصفوف الخلفية، بصوت عال:

– قل لنا يا شيخنا، من هم أفضل لنا، الإنكليز أم الأتراك؟

هدأ الحشد، وراحوا يترقبون جواب الشيخ، إلا أن الريح مازالت تصفر، ولعل الشيخ انتظر قليلاً، قبل أن يجيب، حتى يهدأ صفير الرياح، دق الأرض بعكازه وتطلع ملياً في الحشد ثم صاح:

– الإنكليز كفار، أما الأتراك، فهم يؤمنون بالله ورسوله، إلا أنهم...

تعالت الضحكات، قوطع الشيخ، فصمت وهو غاضب لأن الناس أساؤوا فهمه، سمع جندي آخر يصيح:

– وهل وظفك أحد لكي توزع الإيمان على الناس؟ الإنكليز كفار... أنت تقول هذا، وما هي فائدة إيمان الأتراك؟ نريد العودة إلى بيوتنا.

قوطع الجندي أيضاً:

– اسكت يا حقير، يا ابن الأبالسة!

– إنه يتكلم مضبوط.

– وأنت أيضاً حقير..

– اسمعوا أيها الجنود... اسمعوا. صاح أحدهم.

ولكن الجنود راحوا يتصايحون، ويهزون قبضاتهم وبنادقهم أمام أوجه بعضهم، ولم يحدث أن ضرب أحد.

صاح رجل بدين، يلبس ألبسة مدنية، بصوت عميق أسكت الناس:

- هدوءاً... استمعوا إلي، أرى أنكم دائماً تختلفون، أريد أن أسأل سؤالاً واحداً فقط: ماذا يريد الإنكليز أن يفعلوا في بلادنا. يبدو أنهم يريدون أن يصبحوا أسيادنا أيضاً نحن عبيد ونحتاج لأسياد، وهم تعتقدون أنكم تستطيعون أن تحرروا أنفسكم من الأتراك وأن تحكموا أنفسكم؟ أنتم لا تصلحون إلا أن تقادوا كالبهائم.

- اسكت ... أنت البهيمة الوحيدة فينا!

- إنكم بهائم لأنكم هنا.

- اخرس... عليك اللعنة، كان عليك أن تلعق أمك.

وراح الاثنان يتضاربان، ففرقوا بينهما، إلا أن البدين، عندما أبعدوه عن خصمه، تجاسر وبصق في وجهه، فوجهت له لكمة، لا يعلم مصدرها، فابتعد وهو يبصق دماً.

استمر الزعيق والصياح وإطلاق الشتائم حتى المغرب. هدأت الرياح. توقف صفيرها. كانت ألبسة الناس ولحاهم قد اصطبغت بلون الرمال، وعندما راح مؤذن الجامع يؤذن المغرب، كان الجنود قد انقسموا إلى قسمين ظاهرين، المسألة أصبحت واضحة، أما أن تؤيد الإنكليز وإما أن تقف مع الأتراك، وكانت المفاجأة عظيمة عندما تكلم الشيخ درويش مرة أخرى، قال:

- لم يفهمني أحد، ولا أحد يري أن يصبر حتى يفهم، أرجوكم، الإنكليز يريدون احتلالنا وليس تحريرنا، هذا مفهوم. إنهم في الهند منذ عشرات السنين، وها هم يجرون الهنود كالبغال إلى حروبهم القذرة. أما الآن، فانظروا ماذا حدث، لقد أجبروا أهالي البصرة والقبائل والبدو على الانخراط في جيشهم، وهؤلاء عرب أيضاً، وأنتم ستحاربون إخوانكم وهؤلاء البدو يذبحون إخوانهم الآن في الكوت، وحينما يصل جيش الإنكليز إلى بغداد سيجندونكم أيضاً... لهذا لن ننتهي، الأتراك يجندوننا.. وحينما يأتي الإنكليز ننتقل إلى صفوفهم، إلى متى يا أخوان؟ نحن لا نريد لا هذا ولا ذاك.

هدرت الأصوات من جديد وارتفعت القبضات، وصاح جندي قريب من الشيخ:

- اسمع أيها الشيخ العجوز الخرف. الإنكليز أشرف من لحية أبيك...

وصاح آخر:

- أسكتوه!

- انتفوا لحيته!

وراح الفريقان يكيلون للشيخ السباب ويهزون قبضاتهم في وجهه. إلا أن الشيخ وجد عدة أشخاص قلائل يؤيدونه، فالتفوا حوله، وراحوا يدفعون عنه الناس، صاح أحدهم وهو يلقم بندقيته:

- سأقتل كل من يمس شعرة منه.

أخرجوا الشيخ درويش من الحلقة، بعد أن فتحوا طريقاً لهم بين الناس، واستطاعوا أن يجلسوه بجانب عمر، الذي كان مقرفصاً سانداً ظهره إلى جدار المسجد. راقبه عمر بطرف عينه. كان الشيخ يلهث وقد استحال لون وجهه أصفر. استراح الشيخ، وراح يراقب الجنود الذين كانوا يتناقشون بصوت عالٍ. كانت الغلبة للطرف الذي يؤيد دخول الإنكليز، فقد كانوا أغلبية، هزّ الشيخ رأسه، وكأنه يتأسف، ثمّ نظر إلى يساره. كان عمر يراقبه بهدوء فقد كان يشبه أحد الشيوخ الجليلين في حارته بحلب، كان يحترمه، ويخافه، كان اسمه الشيخ خليل، كان يلبس قنبازاً ويضع على رأسه قبعة ملفوفة بشال أبيض مطرز. كان الشيخ يسير في الطرقات ويدعو الناس للصلاة، وعندما يقترب من مسجده، كان يطرق الأبواب بقوة، ويصيح: الصلاة... الصلاة، ويحدث ذلك غالباً عند الفجر، كان صوته، أعلى من صوت ناقوس الكنيسة، ولا يبرح الباب حتى يخرج الرجال، كلهم، وهو يعرفهم فرداً، فرداً، وبالاسم، كان يقول: (قوم يا منظوم... قوموا ياللي ما راح ادّوموا...) ولا يسلم من لسانه اللاذع من يهرب منه، فكان كثيراً من الأحيان يدخل إلى مخدع أحد الكسالى، ويلتقطه من فراش زوجته، التي كانت تنكمش، وتغطي نفسها باللحاف، وكأنها زانية ضبطت مع عشيقها.

سلّم الشيخ على عمر:

- السلام عليكم أيّها الأخ...

أجاب عمر بالمثل، وهزّ رأسه أيضاً، هذا الشيخ يتكلّم مثل عبد المهيمن. قال عمر في نفسه وهو مازال يرقبه. لماذا ينهرون هؤلاء الرجال الذين يرفضون الإنكليز والأتراك على السواء؟

يبدو أن الناس هنا يحبّون هؤلاء الذين قتلوا عبد المهيمن ووحيداً الأسدي،

ابتسم عمر للشيخ ابتسامة بلهاء متعبة، وقال وكأنه يواسيه:

– أنا معك أيها الشيخ. أنا أكره الأتراك لأنهم جرّوني إلى هنا، وأكره الإنكليز أيضاً. في الماضي لم أكن أكرههم، ولكنني لم أحبّهم أيضاً. كنت أفهم الأمور كما يفهمها هؤلاء البغال. كنت أنا أيضاً بغلاً جرباناً. كنا معسكرين في الخنادق ندافع عن الكوت، وهناك حدث قتال رهيب، دام طوال النهار، قتلوا عرباً كثيرين، قتلوا رفيقنا وحيد، وقتلوا رجلاً محترماً مثلك اسمه عبد المهيمن. كان يتكلّم مثلك تماماً. أخبرنا أنّ الإنكليز يريدون أن يمكثوا هنا أربعمئة سنة أخرى، مثلهم مثل الأتراك.

سكت عمر فجأة، لأول مرة يعبّر هكذا عن نفسه. استغرب الأمر، كان يحسب أنه تافه لا يفهم، لم يكن يفكر في هذه الأمور. أما الآن فقد اختلف الأمر، عليه أن يدافع عن الشيخ درويش، فقد التقيا. تطلع إليه. كان الشيخ قد استمع إليه بارتياح. فقد ارتخت عضلاته وغاب الشحوب عن وجهه، سأل الشيخ:

– ما اسمك؟

– عمر بنبوك، أنا من حلب.

– لقد حاربت كما قلت لي، هل تركت الجيش؟

– كلا أيها الشيخ المحترم. إنني هارب. إنني الآن مستخدم في أحد المستشفيات. أكنس، وأحضّر الطعام، وأحرق النفايات، وأملك وثيقة تثبت ذلك.

فقال الشيخ:

– هذا لا يكفي، إذا قبضوا عليك، فسيسوقونك إلى الخنادق مرة أخرى.

– إنني لا أخرج إلا قليلاً، هذه أول مرة أخرج، لأتفرّج على بغداد.

– وكيف رأيتها؟

– أظن أن بغداد ستكون أجمل حينما تنتهي الحروب.

– هذا صحيح . قال الشيخ . هل أنت متزوج؟

– نعم.

صمتا. كان أحد الجنود يشرح الوضع العسكري. كان الجميع يستمعون إليه، فهو يتكلّم بهدوء، ويدخن سيجارة تتوهج جمرتها من حين لآخر: سقطت مدينة العزيزية بأيدي الإنكليز بعد معركة صغيرة. يبدو أنّ جنودنا لا يريدون مقاتلة الإنكليز

هؤلاء، لماذا؟ لأن الإنكليز والهنود قد ضموا إليهم أعداداً كبيرة من العرب، والعربي لا يقاتل أخاه، وعندما أعطي الإيعاز بالانسحاب من العزيزية، هرب كثير من الجنود والتحقوا بجيش الإنكليز، إنهم الآن يأكلون أطيب الطعام ويدخنون سجائر معكرة.

قاطعه أجد الجنود المرحين:

– يقولون أن لدى الجيش الإنكليزي نساء كثيرات، وإنك إذا انضممت إليهم زوجوك من إحداهن.

ضحك الجنود وخبطوا على ظهره، تابع المتكلم حديثه:

– والآن... ماذا سيحدث؟... إن الإنكليز يتقدّمون نحو بغداد، لقد رأيت بنفسي جيوشهم الجرارة تتقدّم. تحتل القرية تلو الأخرى. لا توقفهم أيّة قوة. بغداد... ستسقط بأيديهم بسهولة، لديهم الاستطاعة لاحتلالها في ثلاثة أيام، وماذا علينا أن نفعل... نحن الجنود؟ يجب أن نزيّن بغداد، حان وقت الخلاص، والعودة إلى الأهل، وهل سنحاربهم؟

أجابه البعض:

– كلا...

– بل نعم..

– مجنون الذي يفكّر في محاربتهم، إنهم يعدّون بمئات الألوف، ولديهم بنادق جيدة ومدافع قوية، تنبش الأرض، وتقلبها رأساً على عقب. فكروا أيها الجنود... ألا تفرحكم العودة إلى الوطن؟! كان الجنود يصيحون: (نعم... نعم) عندما هجم عدة فرسان من الشرطة العثمانية على الجمع، وسُمعت طلقة، ثمّ تبعتها أخرى، وراح الجنود يركضون في جميع الجهات، هوى عقب بندقية على رأس رجل يرتدي ألبسة مدنية، فصاح من الألم، ثمّ تدحرج على الأرض، وداسته حوافر الخيل.

نهض عمر، ثم نهض الشيخ درويش بتثاقل، لو كان عمر بمفرده لاختفى في لحظات إلا أنه انتظر الشيخ، أعطاه يده ليتكئ عليها، إلا أن الشيخ همس:

– اهرب... اهرب!

فأجابه عمر وقد تهدّج صوته:

– كلا.. هيا بنا، حاول أن تسير!

مشيا بمحاذاة حائط المسجد باتّجاه الناحية المظلمة. ثمّ، ودون أن يشعر بهما أحد، دلفا إلى داخل المسجد، وغابا في القبلية.

في الثانية بعد منتصف الليل، وصل عمر إلى أمام مدخل المستشفى، وقف يتحادث مع الحارس. كان الحارس قد نسي، منذ زمن، موضوع السبعين قرشاً، فعمر كان قد هدده في طعامه، وقال له: إن لم تنس هذا الموضوع، جعلتك تشدّ حزام بطنك، ونجح الأسلوب ودلالة على حسن النية، راح عمر يخبئ رغيفاً كاملاً، من كلّ وجبة يحملها، ليقدمه ليلاً للحارس والبواب، زيادة على حصتهما، وبالمقابل، كان يحصل من البواب على حفنة من التتن الرديء أسبوعياً.

- إن قريبك يبحث عنك، قال الحارس.

- وماذا يريد؟

- إلى أين؟ ... هذا الملعون دبّر رأسه.

- لا أعلم، ولكنه سيرافق أحد الضباط الكبار.

فقال عمر: اللعنة.. ثم دلف إلى الداخل، مشى بين الأجساد، لاحظ نقطة حمراء، تصعد وتهبط في الظلام. في ذلك المكان المعهود قرب الحائط. كان جاسم يدخن، ذلك الرجل الذي أصاب قدمه وساعده كي يهرب من الجندية. لقد تسممت قدمه. أصيبت بالغرغرينا، اسودت، وقرروا قطعها من وسط الساق، ولهذا فهو ما فتئ يدخن باستمرار ينتظر الغد. كل يوم يقولون له غداً. الجميع مشغولون، وهو ليس المريض الوحيد في المستشفى، ولكنه ينتظر والانتظار صعب جداً. سمع عمر سعال جاسم وشتائمه القذرة. صعد الدرج، الذي راح يزقزق، ووصل إلى غرفة الطبيب، كان الظلام يلف كل شيء.

مشى داخل الغرفة، باتجاه النافذة، التي كانت تشع في الظلام، جلس بجانب فراش صالح وراح يلكزه.

- اصح!

- ماذا حدث؟

- قالوا لي إنك ستسافر غداً.

- هذا صحيح.

– إلى أين إن شاء الله؟ همس عمر.

– أنت تعرف، العقيد، قائم المقام، إنه ذو نفوذ كبير، استدعوه إلى الاستانة، وسيسافر غداً، طلب من الطبيب أخذي معه، ولكن الطبيب عارض في بادئ الأمر، بعد ذلك وافق، إنه لا يستطيع أن يعارض مثل هذا الشخص. قلت لك إنه ذو نفوذ كبير.

– ولماذا يأخذك معه؟ . ثم أجاب نفسه . لكي تلعب الشطرنج أليس كذلك؟

– يبدو ذلك، سأكون مرافقه.

صمت عمر لحظة، ثم عاد يهمس في أذن صالح:

– وماذا سيحدث لي؟

– الطبيب غاضب جداً، وقد خرج الليلة ليبيت في الخارج، عليك أن تتوقع كل شيء.

– اطلب من العقيد أن يأخذني أيضاً.

– قلت له إن لي ابن عم هنا، ولكنه لم يقترح أيّ شيء. عليك أن تكون في الخارج، أمام المدخل، عند الفجر، دعه يراك وسأتحدّث إليه مرّة أخرى.

فقال عمر: حسناً، ثم نهض وخرج.

في الممر، شاهد بصيصاً يصدر من المطبخ، طرق، ودخل، كان شبه ظلام يسربل الغرفة، وكانت هناك رائحة نفاذة لاحتراق الشحم الذي صنعت منه الشمعة، رغم أن النافذة الضيقة كانت مشرعة. تراقصت الشعلة، وارتسمت أشباح عديدة، راجفة، على الحيطان. كانت الممرضة الخرساء جالسة في سريرها تخيط شيئاً، تطلعت إليه، وابتسمت، ثم أشارت برأسها إلى صحن الحساء الذي اعتادت أن تصنعه بنفسها، كانت قد أضافت إلى السفرة قطعة خبر كبيرة وحبة بندورة. شكرها بالألمانية بصوت مسموع:

– ضانكشن.

لقد تعلم هذه الكلمة من الطبيب ومن الممرضين، ابتسمت له مرة أخرى، لفظه لهذه الكلمة، خشن، مما يدعوها إلى المرح، ورغم أنها تفهم أشياء كثيرة باللغة العربية والتركية، إلا أنه كان يحسب أنها لا تفهم.

تربع أمام الصحن، وطرد الصرصور الذي كان يعبث بقطعة الخبز، ثم شرع يأكل، كانت علاقتهما قد تطورت في الآونة الأخيرة، فقد راحت تعتني به، تغسل له بعض ألبسته، وترقع الممزق منها، وفي إحدى المرات، حلقت له رأسه ثم طردت منه القمل وأصبحت تبتسم له دائماً. أما هو فقد كان يشكرها بلغتها. كان يكثر من ذلك لعلمه أنها كانت تدير ظهرها، وتضحك من دون أن تصدر أيّ صوت ولكنه، منذ أن بدأت تعتني به، كفّ عن التلصص على جسدها وممارسة عادته، رغم أنها كانت تتمنى أن يتابع، وفي إحدى المرات وكانت تعلم أنه سيأتي إلى المطبخ، تعرت تماماً، ووقفت تشغل نفسها حتى يأتي، وعندما دخل ورأى إلى عريها، انسحب بهدوء، وأغلق الباب، ولم يعد إلا بعد ليلتين كاملتين. كان يذوب خجلاً.

رشف آخر ملعقة من الحساء، ثمّ مسح شفتيه بظاهر كفّه ونهض، قال (ضانكشن) ثمّ خرج، هبط السلم إلى قبوه، واستلقى في فراشه من دون أن يشغل أيّ ضوء. حاول أن ينام إلا أنّه لم يستطع. كان يفكر في أشياء كثيرة. هل سيسافر مع صالح غداً؟... على الأغلب لا، فالعقيد لم يقل شيئاً عندما أخبره صالح بأنّه له ابن عم معه، وماذا يعني ابن عم بالنسبة للعقيد؟ إنّه يريد لاعب شطرنج، أما الخدم فهم كثيرون. تذكر مثلاً كانوا يقولونه في حلب (آغا صير وخزمت كاريه كتير)، الأفضل له أن يبقى لكي يجد وسيلة للهرب إلى حلب، أما إذا ذهب إلى الأستانة فسيفقد الأمل في الهرب، وماذا لو طرده الطبيب بعد ذهاب صالح؟ أحسّ بانقباض يعصره، إلا أنّه وجد مخرجاً، إذا طرده الطبيب فسيذهب إلى الشيخ درويش. لقد دعاه. قال له أن يأتي كلّ يوم، إن استطاع، فالشيخ درويش رجل عاقل وطيب المعشر. سيختبئ عنده. أخبره أن بيته متسع، وزوجته ميتة منذ زمن بعيد، وهو يقيم حلقة تدريس في بيته، يأتون إليه من كلّ مكان ليدرسوا على يديه، وهو يكره الأتراك والإنكليز والحروب. حدّثه الشيخ درويش، عندما كنا سائرين إلى بيته، عن مصر، قال إنّ الإنكليز يقتلون الناس هناك، وينهبون الخيرات، مثل الأتراك عندنا، وقال إنّهم يفعلون ذلك بذكاء أكثر من الأتراك، يقولون إنّهم يدفعون الاحتلال التركي عن مصر، وإنّهم يجلبون الحضارة إلى البلاد المتخلفة.

أشعل سيجارة وراح يدخن. سمع صوت شخص يهبط السلم. أصاخ جيداً. كان

صوت حفيف ثياب، ثمّ صوت انجرار الباب الخشبي الثقيل. أشعل عود ثقاب، رفعه إلى الأعلى، وفجأة لمح شعر الممرضة الأصفر، قذف بعود الثقاب، الذي لسع سبابته. انغلق الباب بهدوء. لم يصدر سوى صريره الناعم. أصبحت الغرفة في ظلام دامس. لا يرى سوى ضوء سيجارته الذي راح يخفت. سحقها على الأرضية، أحس بالمرأة تجلس على الفراش إلى جانبه، ثم راحت يدها تتلمسه. ارتخى. هدأت نفسه من المفاجأة، وراح يشعر بلذة ملامسة يدها لجسده. مررت رؤوس أصابع يدها على وجهه، ثمّ استقرّت على شفتيه، قبّل أصابعها. شيء في داخله دفعه ليفعل، أراد أن يعبر عن رغبته في مشاركتها ما تريد. راحت اليد إلى خلف أذنيه، ثمّ نزلت إلى رقبته، وهناك راحت تداعبه، يا الله، كلّ النساء تحبّ هذه المنطقة، بهية، وهذه المخلوقة، ولكنّه لا يحبّ أن يدغدغه أحد هناك، بهية تحبّ أن تعض بلطف أسفل أذنه، وهذا، يثيره أكثر.

أحسّ بصدرها يلامس صدره، ويضغط عليه، ثمّ بأنفاسها المتسارعة الحارّة تهبّ على وجهه. راحت تقبّله، فقبّلها، وتنشقّ عطراً ثقيلاً من الورد كانت قد تطييت به. لفّ ساعديه حول جيدها الرفيق وضغطها إلى الأسفل، أراد أن يشعر، أكثر، بملمس ثدييها اللطيف على صدره، ثمّ راح يمرر كفيه على ظهرها، ويعدّ الريش النافرة. إنّها نحيلة جداً هذه المرأة. إنّها تختلف عن بهية، لحمها الغض شهي حتى الموت. أحسّ أن شهوته تخبو عندما يفكّر بزوجته، فطردها من ذهنه، ثمّ توقف عن عد ريش قفصها الصدري. عليه أن لا يفكر الآن، فهذه المخلوقة لا تحتاج إلى التفكير، بل إلى عضو منتصب. وكأنها أخذت إشارة منه، راحت يدها تسيل إلى الأسفل، واختفت تحت حزام البنطال، وهنا عرفت أنه لم يستعد بعد. تأوهت، حزن عليها. راح يقبلها بهوس، ثمّ عصر ثدييها الصغيرين كثديي البنات، وبهية تروح وتجيء في ذهنه، إلا أنّه كان يطردها فوراً، ووجد نفسه، مرّة أخرى، يتلمس قفصها الصدري، لعن نفسه، وأبعد يديه إلى إليتيها، هناك ارتاح، أحس بليونة زئبقية، فقلب المرأة على ظهرها، ورفع ثوبها، ثمّ ولجها مثل كلب مسعور.

بعد لحظات ارتخت عضلاتها، وتوقفت عن إطلاق أصواتها الحلقية القصيرة، لم تعضه، ولم تنهش جلد ظهره بأظافرها كما كانت تفعل بهية عندما تبلغ، ولكنها

استمرت في دفع عجيزتها إلى الأعلى في حركة متصاعدة حتى انفجر.

أشعل سراج الزيت وسيجارة، وراح يدخن، نامت المرأة، حاول أن لا يزعجها عندما كان يتحرّك. أرادها أن تنام، كي يراقبها أثناء نومها، فلاحظ أنه لم يكتشف سرها بعد، فلا يعرف أيّ شيء عن موطنها ولا عن تاريخها، كيف قدمت إلى هنا، ولماذا تركت بلادها؟ ولماذا تستويها العناية بجرحى الحروب؟ لو كان مكانها، لما ترك بلاده. انتبه إلى أنّها تقترب، بالفعل، من الخمسين، فقد بان الشحوب على وجهها وهي نائمة، كما أنّ التجاعيد راحت تظهر على عنقها، أما فخذاها فقد أخذا يترهلان، ولكنه كان يحس بعطف كبير نحوها، قد يكون بسبب رقتها الزائدة أو بسبب عطفها عليه هي الأخرى.

فتحت عينيها، فرأته يراقبها، ابتسمت له، وقبلته من زاوية فمه، ثمّ راحت ترسم بفمها كلمة (دانكشن) فهم عمر، فكرر الكلمة بصوت مسموع، وعلى طريقته، عانقته، ودفنت وجهها في رقبته، فغفا وأنفه يعبق برائحة عرقها الأنثوي اللذيذ.

عندما فتح عينيه، في اليوم التالي، وجد أن الشمس كانت قد أشرقت، فالطاقة الوحيدة للقبو، والتي تطل على حديقة المستشفى، كانت تعكس أشعة الشمس المنطرحة على أرضية الحديقة، انتفض. تذكر صالح الذي كان يجب أن ينتظره عند المدخل، ارتدى بنطاله العريض، وربط الحبل حول خصره، ثم ركض خارجاً. مرّ في البهو الأرض بين أجساد المرضى. لاحظ أنهم يحملون جاسم إلى غرفة (البتر والنشر) لقد قرروا أخيراً قطع ساقه من الركبة، إن بقي حياً، فسيعود قريباً إلى قريته، وعند باب المدخل اصطدم بالبواب ثم بالحارس. وقف أمام البوابة، لا يوجد أحد... سمع الحارس يسأله:

- هل تبحث عن ابن عمك؟ .. لقد سافر عند الفجر.
- لقد تأخرت في النوم، قال عمر وكأنه يدين نفسه.
- ترك لك كيسه.
- أين هو؟

أعطاه الكيس. كان كيس متاع صالح. التقطه، ومشى نحو الحديقة الخلفية، حيث يقوم بجمع الزبالة. جلس تحت نخلة شاهقة، واستند إلى جذعها. كان الطقس

قد اعتدل، وتحولت الرياح التي كانت تثير الغبار إلى نسمات خريفية عليلة. فتح الكيس، وراح يخرج بعض ألبسة صالح، وكيساً صغيراً من التتن وورقتين ملفوفتين، مكتوب عليها بالتركية وممهورتين بختم. أعاد عمر الأغراض إلى الكيس، ووضع الورقتين في جيبه، ثمّ راح يعمل بعد أن قرر أن يبتعد عن أنظار الطبيب.

في عصر اليوم التالي، ارتدى عمر سترة عتيقة تخص أحد الضباط، وكان قد تخلّى له عنها، ثمّ خرج. مشى في طريق الحسين الذي يؤدي إلى النهر، كانت السماء قد تلبدت بالغيوم، وإن حدث وهطل المطر، فإنّ مطر خريف بغداد، مديد وغزير، ولذلك فقد احتاط مع أنّ الحرارة ليست متدنية، ولكن يكون الطقس بارداً في الليل. سار وهو يتنشق عبير أشجار الليمون والنارنج، أما أشجار النخيل التي تداعبها نسمات آخر النهار، فقد أضفت على المدينة، جمالاً أخاذاً. راح يدندن أغنية حلبية عتيقة، وسار على طول ضفة النهر اليمنى، ثمّ انعطف إلى الشرق، ومشى وهو يحاول أن يتذكر العلامات التي تربها في ذهنه كي لا يضيع دار الشيخ درويش.

كانت المدينة تفرغ من الجنود وعرباتهم، فقد كانوا يلملمون أنفسهم وحوائجهم ويقفون في أرتال طويلة، ثم كانوا يجلسون على الطرقات الترابية وهم محافظون على الأرتال. وعندما كان يأتيهم الإيعاز الطويل، كانوا يقفون وهم يتململون، ثمّ يتحرّكون، وتتحرّك خلفهم العربات التي كانت تجرها البغال والثيران، وهي تطقطق وتهز وتصدر أزيزاً رتيباً. كانت مجموعات الجنود تتحرّك باتّجاه الجنوب، على طول ضفتي دجلة.

عثر على رتل من المدافع الضخمة التي تجرها مجموعة كبيرة من الثيران. كانت مدافع حديثة الصنع جميلة المنظر. كانت هي أيضاً تتجه إلى الجنوب. ويبدو أن معارك ضخمة سوف تنشب قريباً، فانقبض صدر عمر. تابع سيره، أقلقه جهله، ربما الشيخ درويش يعلم ما يحدث. والمهم أنه بعيد عن الأنظار، ولم يلتقِ بأحد من كتيبته، ولو حدث ذلك لوشوا به فوراً.

وصل إلى بستان مسيج بالأغصان اليابسة، عرف أنه قد وصل. دخل إلى البستان، ومشى على الدرب الترابي الذي شقّته الأقدام. وعلى بعد ثلاثين متراً، وقف

في فسحة الدار المبني من الطوب، كانت هناك امرأة تلبس عباءة سوداء طويلة، تضعها على رأسها وتصل إلى قدميها. تقدّمت إليه المرأة. كانت صبية لم تبلغ العشرين بعد. كانت تغطي وجهها أيضاً. سألته عما يريد، فأخبرها أنه قادم لزيارة الشيخ درويش، ولجت إلى الداخل، وبعد قليل سمحت له بالدخول، وقادته إلى غرفة عارية مليسة بالطين، فرشت أرضيتها ببساط جميل مصنوع من الخرق. كان الشيخ جالساً مع شخص آخر. سلّم عمر، وتربّع إلى جانبهما، رحّب به الشيخ الذي بدا في هيئة جميلة ووقوراً:

– كيف حالك يا أخ عمر؟

– الحمد لله يا سيدنا الشيخ.

– أراك أتيت لزيارتي.

– لقد وعدتك أن آتي، وأنا في حاجة ماسة إليك، سافر ابن عمي صالح مع أحد الضباط إلى الأستانة، والصحيح هو أن الضابط، عقيد في الجيش اسمه زهدي بيك، وقد قابل صالحاً في المستشفى أثناء لعب الشطرنج، وقد جعله مرافقاً له، رغم أنف الطبيب، لقد ترك لي صالح كيس أمتعته وهاتين الورقتين، هل تستطيع قراءتهما لي؟

أخذ الشيخ الورقتين، وراح يقرؤهما وهو يبعدهما عن وجهه، ويزم عينيه، فقال الشيخ بعد أن فرغ من قراءتهما:

– الورقة الأولى، مكتوب فيها أمر تسريح من الجيش بسبب إصابتك بمرض التيفوس أما الثانية فهي إذن سفر إلى مدينة حلب، يبدو أن ابن عمك صاحب حظوة عند ذلك العقيد.

انفرجت أسارير عمر، وبان عليه الابتهاج، لاحظ الشيخ ذلك فقال:

– يبدو انك سعيد...

– نعم يا سيدنا الشيخ، أريد العودة إلى الوطن.

– وهل اشتقت إلى أم الأولاد؟

تضرّج وجهه بالدم، حاول إخفاء حرجه، إلا أنّ الشيخ حذره:

– عليك الانتباه. إنّهم يجنّدون حتى أصحاب العاهات والمراهقين والشيوخ، قد

لا تقنعهم هذه الورقة كثيراً، خصوصاً وأنك تبدو في صحة جيدة.

– وبماذا تنصحني؟

فكّر الشيخ قليلاً، ثمّ قال:

– عليك الانتظار مدّة من الزمن، كي يحين ظرف أفضل، إنهم الآن في وضع صعب جداً، فأمامهم جيش قوي، وهم يريدون أن يوقفوه مهما كلفهم الأمر ألا ترى ما يحدث في بغداد؟

– نعم شاهدت، وكنت أريد أن أفهم ما يحصل منك بالذات، إنهم نازلون مع النهر جنوباً.

استلقى الشيخ، واتكأ على مخدّة من القش، كانت قدماه ووركه تؤلمه، جاءت الفتاة بوعاء ملآن تمراً، وقلة ينز منها الماء البارد.

قال الشيخ بعد أن عبّ شيئاً من الماء:

– إنهم يخرجون لملاقاة الإنكليز. لقد تغير الأمر عند حدود بغداد. في الماضي كانوا ينسحبون بعد أن يتركوا الأجانب يحاصرونهم. أما الآن، فهم يخرجون لملاقاتهم وعلى الأرجح سوف تحدث معارك هائلة في منتصف الطريق بين العزيزية وبغداد.

تذكر عمر المعارك عند كوت العمارة، فارتعد. حاول أن يتابع حديث الشيخ، إلا أن صورة الجندي الإنكليزي الذي أطلق عليه، كانت تشوش ذهنه. لم يستسغ القتل، رغم أنه اعتاد على مشاهدة الجرحى وعلى دفن الجنود الذين يموتون في المستشفى. لو كان في الخارج لبصق، فقد اختلجت معدته. شرب شيئاً من الماء، وعندما دخلت الفتاة مرة أخرى، لأمر ما، لمحها تراقبه خلسة، كانت فتاة هيفاء طويلة، ذات بشرة بيضاء وعينين سوداوين كالليل. راح يراقبها وهي تمدّ شرشفاً، ثمّ وهي تصفّ عليه الأطباق، تلاقت أعينهما عدّة مرات، وفي المرة الأخيرة، أسقطت صحناً، فأثار ضجيجاً، لاحظ الشيخ ذلك، فأمر الفتاة بالخروج.

جلسوا حول السفرة، وأكلوا بصمت. قدم شخصان آخران، كانا شابين ملتحيين عرف عمر أنهما من تلاميذ الشيخ. اعتذر عمر عن الصلاة، حين حانت صلاة المغرب، فخرج يتمشى في البستان، أشعل سيجارة، وقعد يدخن على مقعد مصنوع

من جذع شجرة. كانت شمس النهار قد خلّفت دفئاً وكسلاً في التربة. إلا أنّ النسمات التي كانت تهبّ من الغرب أخذت تهز الأغصان برفق، وتخشخش أوراق الأشجار. أخذ يفكر... هل يترك المستشفى غداً، ويسافر؟ أم أن عليه أن ينتظر مناسبة ما كما قال الشيخ؟ وماذا لو لم تأتِ هذه المناسبة؟

عرض عليه صالح عرضاً جيداً وعليه أن يستغله. سوف يحفر حفرة في حديقة المستشفى ويدفن بندقيته، ثمّ يهرب في الصباح، ولكن، ماذا لو أمسكوا به؟ ... طظ... سيعود ليحارب معهم، والإنكليز قادمون لا محالة، وسوف ينتقل إليهم، ولكنه لن يحارب إلى جانبهم.

أحس بعدم جدوى ذلك، عاد ووزن كلام الشيخ في عقله. سينتظر في المستشفى. هناك الممرضة ستقوم بالعناية به، قد تقنع الطبيب بعدم طرده، عندها سينتظر مجيء الإنكليز، وعندما يأتون سيسير وراءهم حتى يصل إلى حلب، ولكن متى سيصلون إلى حلب؟

احتار عمر، لم يستطع أن يجد قراراً، بصق وشتم، سحق عقب السيجارة بحذائه وسار وسط الأشجار، كانت هناك ثلاث نخلات خلف الدار، اقترب منهما، فشاهد الفتاة تحلب معزاه في ساحة الدار الخلفية. تطلع إليها. كان جسدها الجميل مطبوعاً بدقة تحت العباءة وهي مقرفصة إلى جانب المعزاة. اقترب منها، وقرفص إلى جانبها، تلبكت الفتاة، ولم تعد تحلبها جيداً، فراحت المعزاة تصرخ كالمهووسة.

قال لها عمر:

– إنني مشتاق لكأس من الحليب.

لم تجب الفتاة، بل أطرقت رأسها، فتابع عمر:

– ما اسمك؟

– فريدة.

إذن فهي تحكي، لقد سئم الخرساء.

فقال عمر:

– اسمي عمر.

– أعرف ذلك . سمعتهم ينادونك باسمك.

- هل أنت ابنة الشيخ؟

- خوش كلام... أنا حفيدته!

صمت عمر، تطلعت إليه المرأة مباشرة، أفلتت طرفي العباءة من بين أسنانها، كانت جميلة جداً، ذات فم صغير ودقيق، وعينين نجلاوين سوداوين، أما وجهها فقد استدار بحلاوة زائدة.

قال له وهي تنظر مباشرة في عينيه:

- تزوجني... اطلب من جدي أن يزوجني لك!

لم يستطع أن يقول شيئاً، حرك يديه وكأنه يريد أن يشرح شيئاً، ولكن، دون أن يفتر بشيء. نهضت الفتاة فوراً، التقطت وعاء الحليب ثم اتجهت نحو باب واطئ في جدار البيت، فقال بسرعة قبل أن تختفي:

- اسمعي، أنا متزوج وعندي ثلاثة أطفال.

استدارت إليه، ومالت بجذعها نحوه، ثمّ همست:

- هذا لا يهم، سأكون خادمتك، أرجوك أن تفعل ذلك. ثمّ اختفت خلف الباب.

نهض وعاد إلى مقعده المصنوع من جذع شجرة حور، أربكت ذهنه المفاجأة، لفّ سيجارة أخرى، وأشعلها ثمّ راح يدخن بمصات سريعة، أيّة فتاة هذه؟ ... ماذا بها؟ إنها رائعة الجمال، لم ير في حياته امرأة تضارعها جمالاً ولو كان يحلم، لما تجرأ وحلم بأقل منها جمالاً، فكيف بها. أراد أن يهرب من تشوش الذهن الذي أوقعته به، سحق السيجارة ودلف الغرفة، كان الشيخ وتلاميذه قد أنهوا الصلاة، فقعد بينهم. كان الشيخ يدرس على تلاميذه، كان الحديث سياسياً أكثر منه حول فقه الدين، كان حول الدولة والحكم الإسلامي وعدالة عمر بن الخطاب، وعن علي بن أبي طالب، أنهى الشيخ حديثه عند العشاء، وطلب من أحد تلاميذه واسمه محمود أن يقوم بتعليم عمر القراءة والكتابة، ثمّ استأذن عمر بالذهاب على أن يعود في الغد.

في إحدى ليالي تشرين الثاني، في السابع منه، وبينما كان عمر يهم بصعود الدرجات الخمس عند مدخل المستشفى، سمع دوياً، مكتوماً، بعيداً، آت من الجنوب. كانت الليلة هادئة، فالمطر توقف نهار الأمس، وكانت التربة لا زالت تفوح برائحتها الزكية، أما النسيم الشمالي الذي كان يهبّ بلطف، فقد تشبّع برائحة الصنوبر

والنارنج.

توقف عمر عند عتبة المدخل، وأصاخ السمع، بعد أن أشار للبواب والحارس أن يسمعا فقد اقتربت المعارك كثيراً من بغداد، وها هي أصوات انفجارات قنابل المدفعية بعيدة المدى تسمع بوضوح. جلسوا، الثلاثة، على إفريز العتبة وهم صامتون. لا أحد يعلم أدنى شيء عما يحصل. لقد قالوا إنّ الجيش التركي نزل إلى الجنوب لملاقاة البريطانيين الذين يقودون جيشاً كبيراً جداً من الهنود والعرب وغيرهم من الأمم المستعمرة، ولكن الجميع يقسمون بان الأتراك سوف يهربون، وإذا حدث، وهربوا، فإن المعارك ستجري في شوارع بغداد لا محالة. سئم الحارس الإصغاء، فخرق الصمت وقال وهو يخفي جزعه بزفرة طويلة:

– هذا لا يهمني، أعطني كيس تتنك!

أعطاه عمر كيسه. راح الحارس يلف سيجارة، أما البواب فقد راح يشخر.

– أين الحارس التركي؟

سأل عمر، فقال الحارس:

– إنه نائم، يخلق الذرائع ليختفي، تصور، إنني هنا منذ الصباح، وأنا لا أستطيع أن أتذمر، عندها سيسوقني إلى هناك، (وأشار بإبهامه ناحية الجنوب)، قز القرد! ...

فقال عمر هامساً:

– حان الوقت كي ينام طويلاً.

– كيف ذلك؟

– يبدو أنهم في أسوأ حال، وعلينا نحن أن نحزم أمتعتنا.

نهض عمر، فاستوقفه الحارس وسأله:

– كلامك خطير، قال لي أحد الجنود المرافقين للضابط العربي الذي جاء لاصطحاب الممرضين إلى الجنوب أنهم سيوقفون الإنكليز هذه المرة.

– هل قال ذلك؟

– نعم، قال الحارس.

– سنرى، قال عمر، ودلف إلى الداخل، أحس هناك بالدفء. كان البهو أقل

كثافة، وكان هناك تيار هواء ضعيف يكنس رائحة الأجساد واليود، وبأمر مباشر من نور الدين بيك قائد الجيوش التركية في بغداد، تمّ إخلاء الجرحى الذين تحسنت حالتهم كما أنّهم جاؤوا واصطحبوا ثلاثة ممرضين إلى الجنوب، حيث كان مستشفى ميدان قد أقيم في إحدى القرى التي تقع على بعد عشرين كيلومتراً جنوب بغداد، أما الطبيب، فقد بقي في المستشفى. كان الملل قد تسلّل إلى أعماقه من جديد، فها هي الليالي الصاخبة التي كان يقيمها مع أصدقائه الضابط قد راحت إلى الأبد. كان يشتم العقيد زهدي في نفسه لأنّه حرمه من صالح. هذا الاكتشاف العظيم الذي اكتشفه بنفسه، وليس هذا فقط بل إن الطبيب كان يدّعي أنّه صقل لعب صالح، وجعله أكثر عصرية، ولذلك، فهو يشعر بالزهو أيضاً كلّما نقم على زهدي بيك.

– دعهم يرون اكتشافك أيها الطبيب، إنّ الأستانة كلّها سوف تتحدّث عنك.

هكذا كان يقول له النقيب جميل الذي كان الضحية الأولى لصالح في المستشفى، والذي راح يداوم على زيارة الطبيب، للعب جولة أو اثنتين في الأمسيات التشرينية الجميلة. ولكنّ الطبيب لم يكن يقتنع تماماً بكلام النقيب، فقد قرّر أن يسعى لنقله إلى الأستانة، فهناك يستطيع أن يتصل بصالح، ليلعبا في قصور الأمراء، وفي نادي الضباط الهائل الذي لا تهدأ الحركة فيه ليلاً ونهاراً. كان يحس بشوق عظيم نحو الأستانة، هذه المدينة العصرية، التي تربى فيها، وكان يشتم بصوت عال بغداد، وزوابعها ورمالها، وهدوءها، وسكونها، ويشتم نفسه وكلّ من يتحدّث إليه، لذا، فقد تجنبه كلّ من يعمل في المستشفى، وعندما أخذوا الممرضين الثلاثة الماهرين، وقع الحمل كلّه على الممرضة الخرساء المسكينة، التي كانت تعمل بجد طوال النهار، وعندما كان يهبط المساء كانت تدلف إلى مطبخها، وتصنع حساءها، ثمّ تجلس وتطعم نفسها، ولا تنسى أن تترك صحن عمر ملآن، ثم كانت تستلقي وتنام، وعندما كان ينتصف الليل، كانت تستيقظ، وتغسل وجهها، ثم تقوم بجولة في غرف المستشفى وبهوه لتوزع على الجرحى حبات الكينا المرة. ثم كانت تعود لتجلس على سريرها، وتنتظر عودة عمر، وعندما كان يدخل المطبخ، كانت تحس بسعادة غامرة، وتشع عيناها برضى مجبول برغبة جنسية ناعمة. كانت تراقبه وهو يأكل، وهو يدفع الصحن الفارغ بعيداً عنه، وينهض وهو يمسح شفتيه وشاربه بظهر يده. كان يبتسم

لها وهو يشكرها ثم يخرج. إذن عليها أن تلحقه بعد ربع ساعة، إلى القبو، وهناك على فراشه كان يسحقها بجسده الثقيل دون أن تقاوم.

عندما دخل عمر البهو، اتّجه مباشرة نحو جاسم. كان الرجل سهراناً كعادته. اقترب عمر، وجلس إلى جانبه، اشتمّ عمر رائحة الدخان الكريهة الذي كان ينفثه. سأله عمر:

– ما هذا التتن الذي تشربه؟

– إن تتني راح ينفد، لذا، فأنا أسحق أوراق الأشجار اليابسة، وأخلطها، تصور جاسم بدون سيجارة يدخنها. سوف أجن. فقدت قدمي، ولا أريد أن أفقد عقلي. هل تسمع دوي انفجارات القنابل.

– نعم، قال عمر، فقال جاسم:

– يبدو أنهم قادمون، ماذا سنفعل؟ هل ستهرب مع الأتراك، أم أنك ستختبئ حتى يأتي الإنكليز؟

فسأله عمر:

– وماذا ستفعل أنت؟

– سيان عندي، إنني أملك أخيراً وثيقة تخوّلني العودة إلى الوطن، يكفي أن أجد عربة مسافرة إلى هناك، لقد حان موسم الفلاحة والبذار، ولا أريد أن يموت أهلي جوعاً هذه السنة. يقولون إن الناس بدأوا يجوعون في حلب، وإن رطل الطحين راح يساوي ليرة ذهبية، إنني أملك البذار، من (عم نوَّل)، لقد حفرت حفرة في الأرض وطمرته، قل لي: هل تستطيع أن تجد عربة مسافرة إلى الشمال؟

– لا أدري، هل برئت ساقك؟

– ليس بعد، ولكنني أستطيع السفر، فأنا أملك ثلاث ليرات، وأستطيع أن أدفع أجرة نقلي إلى حلب.

فقال عمر، وقد أخرج كيس تتنه، وقدّم له قبضة كبيرة من التتن، ثمّ راح يلفّ لنفسه سيجارة:

– إذن اشتر بغلاً، وانتظر حتى تشفى ساقك تماماً، ثم سافر!

صمت جاسم وراح ينفث دخان التتن النقي بلذة، في هذه الأثناء هبطت

الممرضة الدرج وراحت تدس في أفواه الناس المستلقين الحبوب البيضاء كالطباشير. كان عمر وجاسم يراقبانها. اقتربت من جاسم وأعطته حبّة فشاهدت وجه عمر على ضوء توهج السيجارة التي كان يمص نفساً منها. ابتسمت له، ثمّ استدارت، ومضت في عملها. رثى عمر لها. فهذه المرأة لا تستطيع شيئاً، عندما تقابله، سوى الابتسام، إلا أنّ عينيها كانتا تراقبانه كلّما استدارت، كانت تحسّ أنّه يراقبها أيضاً. راقب جسدها العظمي بينما كانت تركع أو تقرفص بجانب أحد المرضى، فراحت تحس بالحرج، كادت أن تدوس أحدهم، سوف تأتي إليه بعد قليل، وسيحيط هذا الجسد بيديه، هكذا فكّر عمر وهو يراقبها.

سمع جاسم يقول له هامساً:

– اسمع. إنني أشتهي هذه المرأة، لطالما راقبتها، جسدها مثل الخيارة.

تطلّع إليه عمر. أحسّ بشيء من الغيرة، فهي ملكه ولا يستطيع هذا الفلاح الحقير أن يأخذها منه، ولكنّه أعجب بتشبيهه جسدها بالخيارة، حقاً إنها لكذلك؟، ضحك عمر بصوت خافت، اهتز بطنه وصدره، سأله جاسم وقد افترَّ عن أسنان مسوسة:

– لماذا تضحك؟

– أضحك لأنّك بارع في وصف الناس، وماذا تسمي امرأة بدينة؟

– لا شيء، قلت إنّ جسدها مثل الخيارة، لأنّني أظنّ أنّها قد تتكسر إذا ما أخذتها بين يديك، على كلّ، فأنا أتمنّى أن أضاجعها مرّة واحدة حتى إن أخذت ثمن ذلك ليرة ذهبية.

فقال عمر:

– ولماذا لا تعرض عليها ليرتك الذهبية؟ قد ترضى بها.

– سأحاول غداً، عندما تأتي لتبديل أربطة الساق، سوف أريها أولاً الليرة، سأجعلها تشع أمام عينيها، فإن مدت يديها لتلتقطها، فسأضاجعها على الفور هنا.

بلع عمر ريقه، ثمّ نهض، إنّه يريد أن يخفي حنقه على جاسم، فهذا الشخص كريه ولعبته التي يريد أن يلعبها، تجعل عمر يتفتق. مشى بين الأجساد، ونزل مباشرة إلى غرفته. اندسّ في فراشه الممدود، وأغمض عينيه، إلاّ أنّه كان يحسّ

بانقباض شديد، وإن أتت فسيطلب منها أن تتركه وحيداً هذه الليلة، لماذا يغار عليها بهذا الشكل؟ إنّها ليست زوجته، ولا يستطيع أن يتحكّم بشهوات الناس. قد ينظرون إليها ويشتهونها، ثمّ يحدثونه عن ذلك، وهو لا يريد أن يصرخ في وجوههم وأن يعلمهم أنّها تخصه. لتذهب إلى الجحيم، هي وجاسم وهذا المكان المقرف... ثمّ راح يفكّر ببهية في حلب، ماذا تفعل بهية الآن؟ كيف تأكل وتشرب وتلبس؟ والأولاد؟ أكبرهم لم يبلغ بعد العاشرة من عمره، ولا يستطيع العمل لكسب طعامهم. لقد مضت ثلاثة أشهر، منذ أن خطفوه من بيته كالمجرمين ليسوقوه إلى الجندية، ثمّ إلى الحرب، ثمّ ليقبع هنا، في غرفة القبو كالجرذ... وماذا يعمل؟ إنّه يدفن الموتى والأعضاء المبتورة. سحقاً لهذه الحياة، لقد أصبحت لا تطاق.

سمع وقع أقدامها وهي تنزل الدرج، وتجتاز الممر الضيق، دفعت الباب، ودخلت كانت الغرفة مظلمة، إلا أنّها كانت تعرف طريقها، فاستلقت مباشرة إلى جانبه، راحت تقبّله بنهم، قبّلت فمه وعنقه، كان بارداً. رفعت ساعده، وأحاطت نفسها به، ثمّ فكّت قميصه، وراحت تقبّل صدره، وهي تصدر أصواتها الحلقية القصيرة. ودون أن يمانع، زحفت يدها إلى الأسفل، وراحت تفرك بطنه، وهي تلصق نفسها به، ولما رأت أنّه لم يحرك ساكناً، راحت تثير نفسها. عضت على شفتيها وهي تشهق، ثمّ همدت، استدار إلى جنبه، وبعد قليل راح يشخر.

في اليوم التالي، كانت عربات نقل الجرحى ترد إلى المستشفى تباعاً وهي مسرعة، تنقل الجرحى الذين أصيبوا في المعارك الدامية والدائرة عند السهل الممتد إلى الجنوب من بغداد. كانت العربات تحدث ضجيجاً، وكانت أصوات السائقين تعلو بالسباب والصراخ وهم يوقفون العربات، ويقفزون طالبين إفراغ عرباتهم كي ينطلقوا بها من جديد عائدين من حيث أتوا. كانت حمى المعارك تنتقل معهم إلى المدينة، وإلى المستشفى، وامتلأت الساحة أمام المستشفى بالعربات والبغال وببراز الحيوانات وقطع الأربطة المشبعة بالدم المتيبس. وفي حديقة المستشفى كان السائقون المستلقون تحت أشجار النخيل الباسقة يدخّنون السجائر ويثرثرون. كانوا يتحدّثون حول الحرب. أما كيف كانوا يناقشون أمور الحرب وعدد القتلى والجرحى، فهذا غير ممكن، فلا يمكن ذكر جميع أنواع الشتائم التي كانوا يطلقونها وفي النهاية كانوا

يهدؤون بعد أن تكون قد خدّرتهم أشعة الشمس ودخان السجائر.

عاد بهو المستشفى كما كان من قبل، فقد اكتظّ بالجرحى، وتركوا ممراً فارغاً يفضي إلى الغرف الأخرى التي لم تعد تتسع لجريح واحد آخر، وسمح الطبيب الذي عاد ليعمل بنشاط بوضع جرحى آخرين في الرواق العلوي، ووضع في غرفته الخاصة ضابطين جريحين أحدهما ألمانياً، وبعد أسبوع اضطروا لنصب خيمة في حديقة المستشفى لاستيعاب جميع الجرحى الذين كانوا يَفِدُون وهم يتألمون ويتأوهون. أصبح الوضع صعباً، فمنذ الصباح الباكر وحتى منتصف الليل، كان الطبيب والممرضون ومن ضمنهم الممرضة الألمانية الخرساء يعملون بلا كلل. أما عمر فقد أصبح مساعداً لابدّ منه لكلّ هؤلاء، وحتّى لسائقي عربات نقل الجرحى، إذ كان عليه أن يهرع إليهم، حال وصولهم، لمساعدتهم في حمل الجرحى. كان الجميع يصرخون في وجهه لأيّ سبب كان، وعندما كان يهرع مساء إلى قبوه، الذي شاركه فيه جاسم منذ أن بدأت قوافل الجرحى تَفِدُ إلى المستشفى، كان يستلقي في فراشه، ويغط فوراً في نوم عميق، وكان يحدث أن يتوفى أحد الجرحى فجأة في الليل، ولابدّ من دفنه فوراً، فيضطرون إلى إيقاظه ليقوم بهذا العمل الذي راح يقرف من القيام به.

وفي هذه الظروف، بدأ موسم الأمطار الغزيرة والمديدة التي لا تنتهي. كانت السماء، وكأنّها انشقت، تسكب أحواضها المائية في خيوط هائلة، هادئة، ورتيبة، وتحولت الطرقات إلى جداول موحلة، وراحت الرطوبة تتسرب عبر الأسقف المهلهلة والجدران، وتنبع من الأرضيات. لطّخ الوحل كلّ شيء. لطّخ العربات والبغال والسائقين والجرحى وأرضية المستشفى وأدواته المتنوعة، وأصبح الوحل مشكلة المستشفى الملحة، وعلى عمر بنبوك أن يحاربه، ولكن كيف يمكن القضاء على الوحل؟ فكلّ الجرحى كانوا ممرغين به، وحتى ينظف الوحل، كان عليه أن يقشط جلد العضو المصاب، وهذا، ما لم يكن عمر قد اعتاد على القيام به، خصوصاً تحت رقابة الطبيب وشتائمه البذيئة التي راح يطلقها بمناسبة وغير مناسبة، فهذا العدد الكبير من الجرحى، الذي هبط عليه فجأة، والجوّ الرطب الخانق، والوحول التي لا تنتهي والتي كانت تلوث الأجزاء المصابة، وفقدان الأدوية وعدد الجراحة، راحت تفقد الطبيب أعصابه، وفي إحدى المرات قذف بأدوات الجراحة التي كان يستعملها وهو

يجري عملية جراحية لأحدى الجرحى، ثمّ صعد إلى غرفته دون أن يكمل عمليته، وعندما صعدوا إليه وجدوه يغط في نوم عميق، ولم يستيقظ إلا في اليوم التالي، فمات ذلك الجريح.

والذي كان ناقصاً قد حدث. فقد اكتشفوا أن أحد الجرحى قد مات بسبب إصابة بالتيفوس، فنزل عمر إلى قبوه، بعد أن دفنه، وقد قرّر أن يهرب. جمع أغراضه في كيس متاع صالح، ثمّ ربط بندقيته على جسده، ولبس سترة الضابط العتيقة، ثمّ تفقد الوثيقتين اللتين يملكهما، وخرج بعد أن انتصف الليل، وبعد أن أعطى لجاسم رسالة، كتبها، كما يكتب الطفل واجبه، كي يوصلها إلى زوجته بهية الزيات حينما يرحل إلى حلب. سار باتّجاه الشرق، باتّجاه بستان الشيخ درويش، وقد قرّر أن لا يعود إلى المستشفى بعد الآن.

* * *

(9)

قبل أن يرحل عمر بيومين، كان أحد سائقي العربات قد طلب منه أن يجد له ركناً، لم يلطخ بالوحل بعد، كي ينام حتى الصباح. أنزله عمر إلى القبو وهناك، في أحد أركان القبو، فرش له إحدى فرشاته، وقدّمها له. كان الرجل يدعى سعدون، في الخمسين من عمره، أشيب، أطلق شاربيه ولحيته وشعر رأسه من دون أن يذهب إلى الحلاق مرة واحدة في حياته، وهو عراقي من قرى الفلوجة.

خلع الرجل ألبسته الخارجية الندية، ثم نشرها على حبلٍ نصبه في الرواق الضيق خارج الغرفة، ثمّ تربع على الفراش، وراح يلف عدداً كبيراً من السجائر. أسند ظهره إلى الحائط، وراح يدخّن الواحدة تلو الأخرى، وهو يتحدّث إلى عمر وجاسم:

– أولاد القحبة، أولاد العاهرة هؤلاء، لقد أجّرتهم عربتي، يجرها بغلان كما تعلم يا أخ، وأنقل عليها جثثاً تفوح منها روائح نتنة. عندما تكون العربة ملأى بجنودهم، أسد أنفي، لا أستطيع أن أتحمل. كيف يتحمّل الإنسان مثل ذلك؟ ... وهذا المطر.. لقد بدأ ينبت الفطر على كفلتي البغلتين. وأنا نفسي بدأت أحسّ أنّ الفطر راح ينبت في أحشائي. البارحة، وجدت ديداناً في قعر العربة. إنّها تفقس في الدم النتن. لقد نقلت أكثر من ثلاثين جريحاً حتى الآن. دفنت سبعة منهم على جانب الطريق، لقد نفقوا قبل أن يصلوا إلى مستشفاهم هذا. وهل تسمون هذا الإسطبل مستشفى؟ إسطبل بغلي في القرية أفضل منه. أتعجب كيف تعيشان هنا، لو كنت منكم لهربت.

قاطعه جاسم:

– ولكنك تنقل الجرحى.

– طبعاً . قال سعدون . إنني أكسب معيشتي من هذه الصنعة. ألم أقل لكم أنني أجّرت عربتي مع البغلين للجيش التركي...؟ ولكنّني سأتوقف. العربة ليست للإيجار الآن إنّهم لا يدفعون شيئاً. إنّهم أنذال، أولاد العاهرة... وكيف سأطعم البغلين؟ إنّهما ينحفان، والبغل العجوز سيموت، وإن مات، فسأطلق النار على أول جندي تركي أصادفه، إلا إذا دفعوا لي أجري، وثمن البغل.

أخذ جاسم منه إحدى سجائره، وأشعلها، ثمّ سأله:

– كام ثمن البغل؟

– يسوا ليرة ذهب عثمانلي.

– والعربة؟

– ثلاث ليرات، زين... لشو هالسؤال؟

ابتسم عمر، وقال لسعدون:

– تابع يا عم، تابع.

إلا أنّ جاسم عاد وسأله:

– وهل تأخذ أجراً على النقلة الواحدة، أم عن كلّ يوم؟

تطلع سعدون إلى الرجلين وهو لا يفهم سبباً لسؤاله. حسب بادئ الأمر أن جاسم يسخر منه، إلا أن طيبة قلبه جعلته يبتسم، ويجيب:

– طلبت منهم عشرة قروش في اليوم الواحد فوافقوا، ولكنهم لم يدفعوا لي ولا قرشاً حتى الآن. إنهم أولاد قحبة عتيقة، أنظر ماذا حدث؟ – جاؤوا إلى قريتنا، وطلبوا من جاري أن يؤجر لهم عربته، رفض جاري، قال لا . هل تعرف شنوه حصل؟ استولوا على العربة وعلى البغلين، وجنّدوا ابنه الكبير في الجيش ليقود العربة، ولما جاؤوا إليّ قلت لهم: أنا موافق، وكيف أقول لا؟

فقال جاسم:

– اسمع يا عم، لقد سرّحوني من الجيش، لأنّهم قطعوا لي ساقي، ثمّ أشار إلى ساقه المقطوعة، فقال سعدون:

– شايف، كان الله في عونك.

– عندك مانع أن أؤجر عربتك؟ سأسافر إلى حلب عندما يتوقف المطر.

صمت سعدون، راح يقلّب الموضوع في ذهنه. أشعل سيجارة أخرى، وتطلع في وجه عمر بنبوك، قال بعد أن تأتأ قليلاً:

– ما عندي مانع، ولكن حلب بعيدة. يلزمها سفر عشرة أيام، ألا يكفي إلى دير الزور؟

– يكفي، قال جاسم: كام تريد؟

– ليرتين ذهب.

– هذا كثير، أعطيك ليرة واحدة، ما عندي غيرها.

– لا يا أخ، قال سعدون، ادفع ليرتين، وراح تتونس وياي زين.

اتفقا على الأجر، على أن يسافرا بعد أسبوع. وكأنه عارف بأمور السماء، فقد أكّد سعدون لجاسم أنّ المطر سيتوقف بعد ستة أيام على الأكثر. ثمّ اتفقا على الترتيبات الأخرى، فسعدون سيحضر طعاماً وشراباً يكفيهما طوال الرحلة، كما أنّه سيحضر بندقية وطلقات لحماية نفسيهما من قطاع الطرق.

كان عمر قد غفا، كان تعباً فراح يشخر، إلا أنّه استفاق مع صوت سعدون وهو يشرح لجاسم ما كان يحدث في الجنوب بين الجيش التركي والجيش البريطاني.

– كنا عائدين، حوالي ثلاث عربات مملوءة بالجرحى. قالوا لنا أن نبتعد عن إحدى القرى الغاطسة في السهل العميق. قالوا إن الإنكليز قد يكونون أخذوها، وأنهم يختبئون في البيوت وفي الحوش الصغير الملاصق للقرية. اسم القرية هو المقَدَمْ، أو ما شابه ذلك لقد نسيت... في شبابي كنت أتذكّر كلّ أسماء الموتى المكتوبة على قبورهم في مقبرة قريتنا. المهم، انحرفنا، ورحنا نغذُّ السير صاعدين على طريق لم أسر عليها من قبل. بعد ساعة، ظهر القمر، وراح ينير لنا الطريق. كدنا نضيع والله يا أخ، وفجأة شاهدنا جيشاً كبيراً آتياً نحونا، يسير على نفس الطريق. جنود، وعربات وبغال وبنادق ومدافع، والله أعلم ماذا أيضاً. لم نستطع أن نختبئ، أين نختبئ؟ في أيامنا هذه لا تنشقُّ الأرض، فوقفنا ننتظر. قلنا، إن كانوا من الإنكليز فسوف يقتلوننا، وعمك سعدون صامد، أما الحوذي الذي يسوق العربة الثانية فقد بال في بنطاله، وفجأة سمعنا صياحاً، فلقد شاهدونا. بعد لحظات جاء فارسان، وراحا يتكلّمان معنا. كانوا من الأتراك، أيّ بالله من الأتراك. قالوا لنا أن نخرج عن الطريق حتى يمروا، وبلمح البصر خرجنا عن الطريق، ورحنا نراقبهم. كانوا يسلّمون علينا ونسلّم عليهم. المهم، كان جيشاً كبيراً، لم ينته إلا عند الفجر. بعد ذلك شاهدنا ثلاث سفن تسير بهدوء باتّجاه الإنكليز. توقفت السفن، وراحت تطلق النار من مدافع كبيرة مركّزة في داخلها، ثمّ راح الجيش الذي رأيناه، يقصف بالمدافع أيضاً. لم نكن نرى أين تنفجر القنابل، سألت بعض الجنود عن الإنكليز، قالوا إنّهم في سلمان باك.

عندما عدنا في المرّة الثانية، كان هناك جرحى كثيرون، الإنكليز أيضاً كانوا

يقصفون بالمدافع. قالوا إن طائرة إنكليزية جاءت وأسقطت عليهم قنابل كبيرة كل واحدة بحجم حصان، وكانت إحدى السفن التركية محطّمة ومحروقة، ولكنّهم أتوا. نرى أرتالاً من الجنود قادمة من ناحية بغداد. إنهم يعوضون خسائرهم ويزيدون عدد الآليات، كما أنهم يقطرون إلى هناك مدافع كبيرة، كبيرة جداً. لم أر في حياتي مثيلاً لها، يسير إلى جانبها أناس شقر إنّهم الألمان، وعندما كانوا يطلقون هذه المدافع كانت الأرض تهتز، كما لو أنّ عربتي كانت تهتز... والآن... كل شيء في هذه الحرب ممكن، لقد حان الوقت ليطرد الأتراك هؤلاء الذين أتوا محمّلين على السفن.

توقف سعدون، لم يعد يسمع سوى صوت تنفس جاسم الثقيل، أشعل سيجارة أخرى. كان القبو يسبح في غمامة من دخان السجائر، قام عمر، وفتح الباب ليبدّل هواء الغرفة. لم يحدث ما كان يتوقعه، فكلام هذا الحوذي قد غيّر صورة الموقف في ذهنه. عاد واستلقى، ثمّ أشعل سيجارة، رغم أنّه كان يشعر بمرارة في فمه، كان يريد أن يفكر قليلاً، فالظرف الأحسن لن يأتي، ولن يستطيع العودة إلى حلب، والسفر مع جاسم مغامرة كما قال الشيخ درويش. قد يقبضون عليه، عندها، سيسوقونه إلى الخنادق مباشرة، وفي إحدى المرات، قال له الشيخ بعد أن شاهده يتفحص الورقتين، قال له: يا عمر، من يستطيع أن يؤكد أنّ هاتين الورقتين غير مزيفتين؟ من هو العقيد زهدي في نظر جندي تركي غبي؟ عليك أن تذهب إلى قيادة منطقة بغداد ليشرحوا لك الورقتين!

عليهم اللعنة . قال عمر في نفسه . كلّ الأمور تسير بالعكس، ثمّ عاد إلى النوم.

في بيت الشيخ درويش، كانت الوجوه قد أصابها الوجوم، فقد تواردت أخبار المعارك الهائلة التي كانت تدور على الضفة اليمنى من نهر دجلة، عند سلمان باك، وكانت الأخبار تنتقل إلى البيت بنفس السرعة التي كانت تحصل فيها على الأرض.

لقد حصل ما كان غير متوقع، فقد حشد الأتراك أربع فرق مجهزة بشكل جيد تحت قيادة نور الدين بيك في مواجهة الإنكليز، الذين كانوا يزحفون إلى الشمال بفرقتين هدّهما التعب والسير السريع. لقد كان تاونستد، القائد الإنكليزي، يعتقد بأن الفرصة قد حانت لاحتلال بغداد بعد أن سقط في يده كل الجنوب، فغذّ السير

صاعداً على طريق البصرة بغداد، وكان يلاحق فلول الأتراك المنسحبين دون أن يسمح لهم بالتقاط أنفاسهم. وبهذا، حسب أنه يستطيع دخول بغداد بسهولة، ولكن بغداد، تبقى بغداد، على من يود فتحها أن يرجع أمامها مدّة من الزمن، وهذا ما حصل.

ضرب نور الدين بك جناح تاونستد الأيمن من جهة النهر بواسطة السفن، ثمّ قامت المدفعية بقصف جناحه الأيسر، وقام جنود المشاة التابعين للكتائب 106 و117 و93 التركية بحركة التفاف إلى اليسار، واستطاعوا عزل مئات من جنود تاونستد وإبادتهم. ثمّ أعادوا السيطرة على اثنتي عشرة قرية، كان الإنكليز قد احتلوها، فأصبح تاونستد محاصراً من جهة النهر ومن الغرب، وأصبح وضعه سيئاً.

حاولت السفن الإنكليزية الاقتراب وفكّ الحصار من جهة النهر، إلا أنّها لم تستطع، فابتعدت بعد أن فقدت سفينتين. ولما أصبح الوضع ميؤوساً منه، طلب تاونستد من قيادته السماح له بالانسحاب إلى كوت العمارة، وترك العزيزية للأتراك فالمدينة غير محصنة ومن الصعب الدفاع عنها في ظلّ تفوق الأتراك في النهر، وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني، وصلت الأوامر بالانسحاب، فراح الإنكليز ينسحبون تحت جنح الظلام.

إلا أنّ الشيخ كان يتصرف بشكل اعتيادي. لم يكن يظهر انزعاجه من هذه التطورات وعلى الرغم من نوبة الربو التي أصابته، وكعادته في مواسم الأمطار حيث ترتفع نسبة الرطوبة في الهواء، فقد كان نشيطاً. كان يستقبل تلاميذه ويتابع دروسه في علوم الدين والتاريخ. وكان السؤال الوحيد الذي كان يشغل الناس الذين كانوا يأتون إلى منزله هو: هل سيؤثر انتصار الأتراك في المعارك الدائرة الآن في سلمان باك على مستقبل العراق؟ إلا أنه لم يكن يجيب بصراحة، فقط، كان يقول: إن حدث هذا الانتصار، فهذا لن يكون شيئاً ذا أهمية بالنسبة لنا، أما كيف؟ فلا أحد يعلم. أعطوا عمر الغرفة الملاصقة لغرفة الشيخ، كانت غرفة صغيرة جداً. يبدو أنها كانت غرفة مؤونة، وقد أسعده أن يكون له غرفة هنا أيضاً فقد كان يلتجئ إليها حينما يريد وخصوصاً عند الظهيرة وفي المساء عندما كان الشيخ ينام. أما الأعمال التي كان يقوم بها عمر فقد كانت بسيطة، ولا تأخذ منه وقتاً طويلاً. فقد راح يحلب المعزاة،

ويجمع الحطب والأغصان اليابسة، وكان يقوم بأعمال البستنة، كما أعاد إصلاح سياج البستان، وصنع بوابة، ثبّتها على السياج، ثمّ كان يقوم على خدمة الضيوف وكلّ ما كان يطلبه الشيخ.

كان الشيخ يريده إلى جانبه دائماً حينما كان يستقبل أيّ شخص سواء كان من تلاميذه أو غيرهم، وكان يهتم بتعليم عمر القراءة والكتابة حينما يكونان بمفردهما، وما لبث أن أتقن القراءة، فراح الشيخ يطلب منه قراءة بعض النصوص التي كانت أكثر صعوبة من النصوص التعليمية العادية، ولم يمرّ وقت طويل حتى راح عمر يقرأ في تلك المجلدات التي كانت مصفوفة في غرفة الشيخ، والتي كان الشيخ يتحدّث عمّا هو مكتوب فيها بلهفة وحب كبيرين.

وقد تعرّف عمر جيداً على أتباع الشيخ وأصحابه، فبالإضافة إلى محمود الذي كان يمحو أمية عمر، كان يأتي باستمرار، وكل يوم تقريباً، ثلاثة رجال لم يبلغوا بعد الخامسة والثلاثين من عمرهم، كانوا من طلاب العلم ويقومون بكتابة كلّ كلمة يقولها الشيخ. كانوا لطيفي المعشر، مثل محمود، يضعون عمامات على رؤوسهم التي كانوا يحرصون على حلاقتها باستمرار. أما الآخرون فقد كانوا يأتون في أيام الجمعة والاثنين، أو في المناسبات البعيدة. وقد لاحظ عمر، أن كثيراً منهم كانوا يسافرون إلى مكان ما، وعندما كانوا يعودون، متعبين وملطخين بالأوحال، كانوا يتحدثون مع الشيخ عن أناس قابلوهم أثناء سفرهم، وحدثوهم عن أمور معينة، كانوا يركزون عليها، مثل الخلاص من الأتراك، وتوحيد القوى... وغيرها. وفي الغالب، كانوا يأتون برسائل من هؤلاء الناس، وكانت هذه الرسائل تترك أثراً معيناً على وجه الشيخ.

ومن هؤلاء الناس، الذين أسماهم عمر بالرحالة، كان شخصاً يدعى حسين، وحسين هذا هو ابن أخ الشيخ درويش. كان الرجل في الأربعين من عمره، أرمل، فقد زوجته منذ عدة سنوات بعد إصابتها بالكوليرا، وكان الحادث قد أثّر في نفسه كثيراً، فجعل طباعه حادة، سريع الغضب، عصبي المزاج، لا يضحك ولا يبتسم لأيما شيء، على نقيض عمّه. ومما زاد في انطوائيته، الأثر الذي تركه الجدري على وجهه، فقد كان محفوراً مثل خلية نحل.

كان حسين يشكّك في كلّ شيء. وعندما قابله عمر، كان ينظر إليه بطرف

عينيه ويراقبه، مما أشعر عمر أنه مراقب وغير مستساغ، فراح عمر يلتجئ إلى غرفته كلما وصل ابن أخ الشيخ، كي يتفادى مقابلته. وكان وهو قابع في غرفته الضيقة، يسمع صوت حسين العالي الوتيرة، وهو يصرخ على فريدة، كان يأمرها أن تفعل هذا وأن لا تفعل ذاك كان يشعر أنه في مملكته، وأن له حقاً معيناً على البيت وعلى فريدة بالذات.

إلا أن فريدة كانت تنصرف إلى أعمالها متأففة منه، وقد أحس عمر أنها كانت تكرهه. تكره ذات القريب الذي يتسلط عليها، دون أن يكون له الحق في ذلك. وعندما كانت تطول إقامة حسين، كان البيت يتكهرب باستمرار، فهو يمنعها من الظهور، حتى وهي متحجبة، أمام الرجال، وخصوصاً أمام عمر، كان هذا الشيء يغيظه جداً، ويفقده أعصابه، فيعلو صوته بالصراخ، وفي إحدى المرات خرج عمر من غرفته ونبّهه وهو يرتجف غضباً:

- اصمت يا هذا، العمى... لماذا تصرخ كالحمير؟!

فردّ عليه حسين، وقد احمرّت عيناه من جراء الإهانة التي وجهها له هذا الغريب:

- وما دخلك أنت أيّها الجرذ؟

- إنّك تزعجني ولا تتركني أقرأ.

تطلع حسين بسخرية إلى هذا (القارئ) وبصق، ثمّ مضى إلى الخارج.

وهكذا ساءت العلاقة بينهما. إلا أنّ الشيخ كان يهدئ خواطر الاثنين، وكان يحاول جمعهما معاً في غرفته، إلا أنّ حسين كان يشمئز من مجالسة عمر، ويسميه بالغريب. ويبدو أنّه كان يغار من عمر، يغار منه على فريدة. كان يحسّ أنّ فريدة تميل إلى عمر، وتكرهه، أو أنّها كانت تحتمي بعمر لأنّها تكرهه، وترفض الزواج به.

كان حسين قد أسمع الشيخ نواياه تجاه فريدة، فلم يردعه، ولكنه لم يوافق. فقد قال له إن فريدة مازالت صغيرة، وعليه هو أن يقنعها بالزواج منه، إلا أن طبعه الحاد، ومزاجه العصبي، قد حال دون إقناع فريدة، فتمادى في تصرفاته الخشنة معها، وعندما جاء عمر إلى البيت، زادت من عنادها، ورفضها له، ولهذا السبب

طلبت بجرأة من عمر أن يطلب يدها من جدها، حتى ولو كان متزوجاً ولديه أولاد، وفهم عمر ذلك منها، في أحد الأيام، عندما كان حسين مسافراً، قالت له وهي تعلف معزاتها في ساحة الدار الخلفية:

– تدري شنوه؟ ... أنا أكره حسين...

– وأنا أيضاً...

– صرنا اثنين، إنه يريد الزواج مني، طلب يدي من جدي، فسألني جدي إن كنت موافقة أم لا.

– وبماذا أجبت؟

– حلوة هادي... طبعاً رفضت، ولكن جدي لم يرغمني قال له روح أقنعها، فجاء إلي وقال لي: أريد أن أتزوجك، قلت له: أنا لا أريد، تعرف شنوه عمل؟... ضربني...

– ضربك؟ يا له من نذل.

قال عمر . فقالت الفتاة:

– ضربني بالعصا على ظهري، قال: سأتزوجك غصباً عنك، قلت له: سأذبح نفسي ولن أتزوجك.

عندما قالت سأذبح نفسي، أحسّت بقهر شديد في صدرها، فراحت تجهش بالبكاء، ثمّ راحت تشرق أنفها، وتمسح دموعها بطرف عباءتها. ماذا يستطيع أن يفعل عمر؟ فتاة جميلة جداً، تبكي أمامه لأنها لا تريد أن تتزوج من هذا القرد، فكر... ثم صمم على التكلم مع الشيخ، ولكن حسين هو ابن أخ الشيخ، وقد يعتقد الشيخ أن ابن الأخ أولى بها، وخصوصاً أنها بهذا الجمال، والزواج سترة في هذه الأيام. سمعها تقول بعد أن توقفت عن البكاء:

– إن طلبتني من جدي، فسيزوجني لك فوراً، فهو يكره حسين أيضاً، يكره أن يكون زوجاً لحفيدته.

لم يستسغ عمر فكرة الزواج منها. ماذا ستقول بهية؟ ذهب إلى الحرب، فأتى بامرأة... يا لك من محارب يا عمر.. وكأنّه كان يجيب على سؤال في نفسه، راح يهز رأسه سلباً، وفجأة جعرت الفتاة. رفست وعاء العلف، ثمّ غابت عبر الممر،

أحسّ بغصة في بلعومه، جلس على حجر، صُقِلَ ووضع هناك للجلوس عليه، ثم راح يلفّ سيجارة. قلّب الموضوع في ذهنه، إلا أنّه لم يجد حلاً معقولاً. إنّه يقيم هنا مؤقتاً، وقريباً سيترك البيت، ويعود إلى الوطن. وهناك تنتظره بهية وثلاثة أطفال، والله أعلم ماذا حلّ بهم. شتم نفسه: كان عليه أن يسافر بالعربة مع جاسم. كان عليه أن يغامر، إلا أنّه أبدى جبناً، ولعلّه لم يسافر بسببها، بسبب فريدة الجميلة ذات البشرة البيضاء الناعمة والعيون السود الواسعة كعيون الأميرات، وذات الجمال الذي لم ير مثله أبداً. كان يخاف كلّما فكّر أنّه يملك فرصة للهرب بمساعدة الورقتين اللتين تركهما له صالح. يخاف مم؟ ... بل كانت فريدة في أعماقه السحيقة رغم أنه لا يريد أن يقنع نفسه بذلك، والدليل هو أنه يرتاح إليها، يحسّ بسعادة عندما يكونان معاً، وعندما تنظر إليه بوَله، أو بتضرع.

يكفيه أن يشعر بعشق خفي، أمّا أن يتزوجها فلا، ولكنّه سيحميها من ذلك البغل. عليها بعد ذلك أن تتزوج من الرجل الذي تريده. من الرجل الذي تحبّه، مثل قصص ألف ليلة وليلة والتي كان يسمعها في مقاهي حلب.

أطفأ سيجارته بحذائه ثمّ دلف إلى الداخل، استأذن، ودخل غرفة الشيخ، كان يقرأ بصمت بينما كان صدره يصفر من جراء الربو. جلس إلى جانبه، وقال هامساً:

– إنّ حسين يضايق فريدة جداً، لقد رأيتها تبكي.

فقال الشيخ، وقد أغلق كتابه الضخم:

– إنه هكذا، فظ، إلا أنه يملك قلباً طيباً.

– ولكن هذا لا يجوز، إنّني أتكلّم لأنّني أعتبرها بمثابة أخت لي.

– أعرف . قال الشيخ . إنّه يريد أن يتزوجها، لقد ماتت زوجته، وتركت له خمسة أطفال يعيشون عند جدتهم لأمّهم، في تكريت، وهو يريد أن يتأهل من جديد، ويربي أولاده.

– ولكنّها غير موافقة.

– هذا صحيح، ولكنها ستوافق في النهاية، لقد أصبحت امرأة، وكلّ امرأة تتمنّى الزواج في سرها، وهي تحسب أنّ أميراً سينزل إليها من السماء. ستقتنع أخيراً أن السماء لا تمطر أمراءً.

صمت عمر. الأفضل له أن يصمت، وأن ينتظر حتى يفطس حسين، فهذا هو الحل الوحيد، في رأيه، لأزمة فريدة ما دام لا يريد أن يتقدّم، وأن ينافس حسين عليها، إلا أنّ حديثه مع الشيخ جعله يحسّ بعطف شديد نحو الفتاة.

وفي صباح العشرين من كانون الأوّل، وصل شخصان غريبان لم يرهما عمر من قبل، يبدو أنّهما من خارج العراق، من الحجاز مثلاً، استقبلهما الشيخ على باب الدار، ثمّ دخلوا، وتربعوا في حلقة، في غرفته، وكان أحد أتباع الشيخ قد تأهب ليسجل الأحاديث التي ستجري.

شربوا القهوة التي صنعتها فريدة، وقام عمر بتقديمها، وأخرج أحدهما كيسه وراح يلف سيجارة، ولكن الشيخ درويش طلب منه، بسبب الربو الذي كان يعاني منه، عدم إشعالها، فأذعن لذلك.

قال أكبرهما، وكانت تبدو عليه النعمة والوجاهة:

– هل نستطيع التكلم، أخيراً، أيّها الشيخ؟

– تفضل!

– أستطيع أن أقول إنّك تراقب الوضع الراهن باهتمام، وأنك قد كوّنت وجهة نظر حول ما يجري، ولكن لا مانع من عرض وجهة نظرنا...

تكلّم الرجل الحجازي طويلاً، كان متكلّماً، يحاول أن يقنع المستمع بوجهة نظره. كان عمر يراقب الشيخ الذي كان يستمع وهو صامت. لم يكن حتى يهز رأسه، بل كان ينظر في عيني محدثه الوسيمتين. أحسّ عمر، وهو يستمع، بجهله، كان عمر جاهلاً بأمور كثيرة، ولأوّل مرّة عرف أنّ الشيخ درويش يقود جمعية سريع هدفها تحرير البلاد العربية من الاستعمار التركي واسمها (جمعية قحطان)، وهذا الجمعية تدعو العرب للخروج من الجيوش المتحاربة، وترك السلاح. ويقوم أتباعها بالدعاية والتحريض بين صفوف الجيش التركي والإنكليزي على السواء. كما كان الشيخ يساهم في الدعاية بنفسه، إلا أنّ أتباعه نصحوه بعدم القيام بذلك بعد تلك الحادثة التي جرت قرب المسجد في بغداد. أمّا عمر الجمعية فهو محصور في العراق فقط.

ثمّ تكلّم الحجازي عن الحرب في أوروبا وعن نجاحات الألمان والأتراك

والنمساويين على الحدود الروسية وفي مضائق الدردنيل وفي الجبهة الغربية التي تسودها حروب المدافع.

تابع الحجازي قائلاً:

- إنّ موقفك من الحرب غير واضح، فنحن لا نستطيع أن نفسّر، كيف يمكن لجمعيتك أن تدعو لخروج كلّ القوى المتحاربة من البلاد العربية، فهذا الطرح غير مفهوم الآن. عليك أن تحدد، إمّا أن تكون مع الأتراك أو مع الحلفاء، إنّ عدم تحديد الموقف يجعلك في عزلة عن الجمعيات والقوى الأخرى.

سأل الشيخ، وهو يبتسم:

- وهل لديكم موقف آخر أنتم؟

فقال الحجازي بسرعة:

- نعم، نحن حددنا الأولويات. إنّ الشريف حسين يراسل بريطانيا، ويدعوها لدعم نشاطه ونشاط الجمعيات الأخرى التي نطلب إليها أن تتفهم الوضع الدقيق وتتحد معنا كي يتمّ تحرير البلدان العربية بأسرع وقت، فالعدو الرئيسي لنا الآن هم الأتراك، وعلينا أن نعقد حلفاً مع الحلفاء.

- وما هي طبيعة هذا الحلف؟

- سوف نؤازرهم في حربهم ضدّ دول المحور في بلداننا، أما هم، فعليهم أن يدعموا دعوتنا للتحرر من الأتراك وتكوين دولة العرب الحرة، التي سيقودها خليفة عربي.

انتابت الشيخ نوبة سعال قوية. مدّ يده، والتقط خرقة. بصق فيها، ثمّ انتظر قليلاً كي يعود لون وجهه الذي امتقع ثمّ قال:

- دولة عربية متحررة من جميع الجيوش الأجنبية لا يمكن أن تقوم إلا بنضال العرب أنفسهم. وعدم الاعتماد على أيّ قوة أجنبية مهما كانت. إنكم تراسلون بريطانيا التي تقوم الآن باحتلال العراق، فهل أنتم عارفون بما تفعلون؟ ثمّ، ما هي الضمانة في أن يقوم الإنكليز والإفرنسيون ومعهم الهنود والأستراليين بتنفيذ ما تتفقون معهم حوله؟ إنني أعتقد أن مطامع هذه الدول لا تقف عند أي حد، ولا يردعها أية مراسلة أو اتفاق، إنني أدعوكم، أدعو الشريف حسين والأمراء وجميع الجمعيات الأخرى إلى

نبذ فكرة عقد حلف مع الأوروبيين لطرد الأتراك والألمان، بل علينا جميعاً أن نتحد لطرد الحلفاء والمحور معاً من بلادنا. أنا أرى أنّ هذه الفكرة هي أكثر منطقية من أفكاركم، وهي ستحفظ لنا استقلالنا فيما بعد تحررنا من الأتراك، فيما إذا تمّ ما أدعو إليه.

شرب الشيخ ماءً ثمّ تابع:

– ثمّ إنّني أرى بوضوح حاجة الإنكليز إلينا، لقد استطاع نور الدين بيك حشر قواتهم في مدينة كوت العمارة بعد أن اضطر الإنكليز والهنود للانسحاب من أمامه في سلمان باك، وها هو نور الدين يحاصرهم في الكوت. أما تاونستد فإنّه يستغيث، يطلب النجدة، وممن؟ ... من العرب، ولأنّه مخلصنا من الاستعمار التركي، فعلينا أن نخلص مخلصنا.

ابتسم الشيخ، ضحك عمر بعد أن فهم النكتة، رفع الكاتب رأسه، وتمطّى فاصطكت أسنانه. ثمّ قهقه بدوره. إلا أنّ الحجازي ورفيقه لم يستسيغا النكتة التي أضافها الشيخ إلى كلامه بلا مبرر. ابتسما ببرود ليزيلا الحرج الذي وضعهما الشيخ قاب قوسيه، تململ الحجازي قليلاً، ثم قال:

– يبدو أن الشيخ عالم بأمور الحرب بشكل جيد. على كل حال، هل تمانع في أن نطلعك باستمرار على اتصالاتنا مع بريطانيا ومع إخواننا الآخرين؟

فردّ الشيخ باهتمام:

– لا مانع عندي، بل أرحب، أرجو أن تبلغ الشريف حسين تحياتي وآرائي التي لخصتها لك.

ثمّ اتفقا على أن يرسل الشيخ رسولاً من عنده إلى المدينة بدنة في الحجاز في شهر نيسان من العام القادم كي تستمر الاتصالات فيما بينهم، لعل الأمور التي ستحدث على الأرض أن تزيل الخلاف بين الشريف حسين والشيخ درويش، ثمّ انطلقا على جواديهما بعد أن ساعدهما عمر على امتطائهما.

* * *

(10)

بعد ستة أيام من السفر، وصلت قافلة العقيد زهدي بيك إلى مشارف حلب. كانت القافلة مؤلفة من عربة العقيد ذات المقعد الوثير، والتي كان يجرها أربعة خيول. وعربة أخرى للمتاع، مكشوفة يجرها بغلان، تمّ استبدالهما عدّة مرّات أثناء الرحلة، وخمسة فرسان ماهرين، كانوا يشكّلون مرافقة العميد الدائمة والقائمين على خدمته، أما صالح فقد أخذ مكانه، طوال الرحلة، في عربة متاع العقيد المكشوفة. لم يحدث لهم أيّ حادث يذكر، فدوريات الجندرمة التركية، كانت تجوب الطرقات باستمرار لقمع أيّة محاولة للسطو من قبل قطاع الطرق، أو الهاربين من الجيش، أو من قبل الجائعين الحفاة الذين آثروا السكن في البراري، وراحوا يقتاتون بما يحصلون عليه من القوافل.

عند مشارف حلب، وقرب قرية جبرين، كان صالح صامتاً، قابعاً فوق صناديق الأمتعة، يتطلّع إلى السّماء التي تلبّدت بغيوم الخريف. كان الطقس معتدلاً يميل إلى البرودة، وكانت بعض أشجار الحور الباسقة والمصفوفة في خطّ مستقيم طويل تميل مع الريح الشمالية المنعشة، وتخشخش أوراقها مثل زغاريد نساء حلب الطويلة بلا نهاية.

وعند سهل النيرب، مرّوا ببساتين الفستق، ووصلت إلى أنفه رائحة زيتي للأشجار التي قطفت ثمارها قبل أن تنضج، ووقف أحد الفلاحين، وقد كتّف يديه على صدره، وعوج وركه، يرى بلا مبالاة، إلى القافلة وإلى ذاك الرجل صاحب البزة العسكرية الأنيقة الذي ملّ القعود، وهو ينتظر بنفاد صبر الوصول إلى المدينة.

أمر العقيد الحوذي بالتوقف. نزل من العربة مستعيناً بعكازه، وبيد الحوذي الذي هرول لمساعدته، ثمّ ابتعد خمس خطوات عن العربة، فكّ العقيد أزرار بنطاله، وراح يبول. استدار صالح باتّجاه صوت الرش. لقد وصلت إليه رائحة النشادر النفاذ والحامضة. تجعّد أنف صالح، وعقد حاجبيه. إنّ هذا العقيد يتصرّف بلا حياء، فمنذ خروجهم من بغداد، وحتّى الآن، بال مئات المرات هكذا، طويلاً حتى آخر نقطة، وفي الآخر، كان يخرج الهواء من أمعائه بصوت عال، يسمعه كلّ أعضاء القافلة،

حتى آخر رجل، وهم في العادة يتوقعون ذلك، وصالح يتوقع خروج الهواء. هذه المرة أيضاً، وفجأة، صدر الصوت المزعج الكريه، وبدا على العقيد الارتياح، فأخذ نفساً عميقاً، ثمّ زفر بصوت كالصفير، وهو يمرّر يده على كرشه الصغير المدور، والذي يراه جزءاً من الوجاهة التي يمتلكها.

انكبّ العقيد فوق مقعده، وسارت العربة. سار الآخرون وراءها. كان الفلاح مازال يرقب الموكب، وكان قد سمع صوت ضراط العقيد أيضاً. شاهد صالح كيف جمع في فمه بلغماً كبيراً، ثمّ قذفه كالرصاصة. ولما رفع صالح يده بالتحية، مدّ له الفلاح لسانه بوقاحة، ثمّ استدار، ومشى.

انعطفت القافلة صوب الجنوب، ثمّ راحت تصعد تلة الصفا، وفي الأعلى، شاهدوا القلعة، خفق قلب صالح بشدّة، وتيقن أنّ المدينة لم تتغيّر بعد، لا القلعة تغيّرت، ولا البيوت الواطئة المتناثرة حولها، ولا البساتين التي تعرّت أشجارها بفعل الخريف. لم يتغيّر شيء، اللهم، إلا ألوف الناس الغرباء الذين كانوا يسكنون في خيم صنعت، وخيطت من خرق قذرة، ودعمت بأغصان الأشجار.

كان الغرباء، ومعظمهم من النساء والأطفال والشيوخ، يقفون، ناظرين إلى العربات والخيول، وهم يتكلّمون لغة غير مفهومة، صاح أحد الأطفال بالتركية:

– أكمك أكمك!

سمعه صالح. التقط رغيفاً من الخبز، وقذفه إليه، وعندما سقط على الأرض انهالت عليه الأيدي، الجميع يريدون الرغيف، وحدث عراك، فانتشله أحد الصبيان وهرب راكضاً، فلحقه الآخرون.

بعد قليل، التمّ حول عرب صالح عشرات النساء والأطفال. كانوا يرتدون أسمالاً قذرة تفوح منها روائح العفن والبول والتفسخ. كانوا شبه عراة، نحاف، قذري الرؤوس والأيدي. أمّا عيون كثير من الأطفال فقد كانت مصابة بالرمد، مغطاة بقيح متجمّد، وكان الجميع يصيحون ويتوسلون وأيديهم ممدودة إلى صالح:

– خبز، نريد خبزاً.

وقبل أن يفكّر كيف يخرج من هذه الورطة، أسرع المرافقون على جيادهم، وراحوا يسوطون الناس بسياطهم على رؤوسهم، وأجسادهم النحيلة، فسقط أحد

الأطفال وهو يحاول الهرب مع الآخرين، حاول أن ينهض من جديد، إلا أنّ أحد الخيول، والذي حاول صاحبه أن يوقفه في نفس اللحظة ولم يستطع، داس بحافره على ظهر الطفل، فسمع صالح صوت العظام وهي تتكسر. تلاشت صيحة الطفل فجأة، ثمّ راح الدم ينفر من خاصرة الطفل الرقيقة، ركضت إحدى النساء، وركعت إلى جانب ولدها، ثمّ راحت تولول، وهي تشدّ شعرها، وتلطم وجهها.

انبرى أحد المرافقين، وصاح وهو يهز سوطه في وجه الناس:

– أرمن حقير، أرمن كافر، بيس ملّت.

ثمّ بصق، ومسح شاربه وهو يسير خبباً.

ابتعدت القافلة عن الناس الذين تجمهروا حول الطفل وأمه المولولة. إنهم من الأرمن، يا لهم من مساكين . فكّر صالح . شاهدهم في شمال العراق، وفي دير الزور. كيف وصلوا إلى هنا يا ترى؟ أخرج كيس التبغ، وراح يلفّ سيجارة بورقة من كتاب تركي، كان يحس بتأنيب الضمير، فلو أنّه لم يقذف رغيف الخبز في المرة الأولى، لما حدث وقتل الطفل. راح يدخّن، لعلّه يزيل ذلك الاحتقان الذي راح يحسّ به في رأسه. كانت أصابعه ترتجف، وهي تحمل السيجارة الغليظة، فضاعت بهجة الوصول إلى الوطن.

وصلت القافلة إلى فندق بارون في الجهة الشمالية الغربية من البلد. كان هناك كثير من الجنود الأتراك، يحملون بنادقهم، ويسيرون متمهلين، يحيطون بالفندق. كانوا يلقون التحية على العقيد باحترام. نزل العقيد، وراح يعرج على أرضية الشارع المرصوفة بالأحجار. تمطّى قليلاً، ثمّ اعتدل بعد أن فكّر أنّ الوقت غير مناسب، فقد وصل إلى حلب، وسينام الليلة في الفندق. إلا أنّ أوّل شيء كان يريد القيام به هنا، هو الذهاب إلى الحمّام، وساعة قيلولة، ثمّ عليه أن يبحث عن امرأة، سيرسل أحد مرافقيه ليبحث له عن واحدة جميلة. استدار قليلاً، فوجد صالحاً واقفاً إلى جانبه، نفخ العقيد صدره، وتقصّد أن يجعّد رقبته بحركة استعراضية، ثمّ وضع يده بهدوء على ظهر صالح، وقال:

– أم م... أنت تريد الذهاب إلى أهلك.. أليس كذلك؟ حسناً، سنمكث في حلب ليلة أو ليلتين... سنرى ... سنرى... قد تطول إقامتنا، وقد تقصر، هذا حسب الجوّ،

اذهب الآن إلى أهلك. عليك أن تأتي إليّ كلّ يوم صباحاً ومساءً، قد أحتاج إليك، والآن ... سيوصلك نيازي كي يتعرّف على بيتك!

بعد أن تمّ إنزال متاع العقيد من العربة، جلس صالح بجانب نيازي الحوذي، وانطلقا عائدين، ثمّ انعطفا إلى اليمين باتّجاه باب جنان، وباب إنطاكية. وصلت العربة إلى (جلة معروف) وصعدت قليلاً، ثمّ توقفت عند زقاق ضيق، وهناك نزل صالح، وسار في الزقاق، وبعد أن عبر ثلاث أبواب واطئة، كان خشبها قد أصيب بالتسوس منذ زمن بعيد، توقف عند الباب الرابع وقلبه يخفق بين ضلوعه، كأنّ مطرقة ثقيلة راحت تنهال على صدره.

لم يكن صالح قد بلغ الثالثة والثلاثين بعد حينما قبض عليه ستة عناصر من الأتراك في الصيف الماضي ضمن الحملة العامة التي قامت بها السلطات العسكرية التركة لتجنيد أكبر عدد من الشباب والرجال العرب، وذلك لرفد الجيوش التركية المحاربة بالعناصر البشرية وإنشاء جيوش احتياطية جديدة، بعد أن قام الحلفاء بفتح جبهات أخرى مع الأتراك. وعندما قدموا، وطرقوا الباب بتلك الطريقة التي تشعرك بالهلع، كان صالح جالساً في باحة الدار المكشوفة يتعشى، هو وزوجته وابنه حسن، خبزاً يابساً ودبس التمر الرائب. وحسن، هو ابنه الوحيد الذي بقي له بعد أن ماتت ابنته الصغرى ذات التسعة أشهر قبل ذلك بسنة. موت الطفلة أحرق قلب زوجته فكرية، كانت تبكي باستمرار، وكانت تعلم، وهذا ما زاد في بكائها أن (بذرة) زوجها ضعيفة، ولن تستطيع أن تلد له أطفالاً آخرين، فبعد خمس عشرة سنة زواجاً، لم تحمل منه سوى مرتين. ويبدو أن ضعف التناسل عند صالح موروث عن والده، الذي عاش مع أمّه خمسين سنة ولم يرزق إلا بصبي واحد هو صالح نفسه وكان قد ولد في ليلة القدر، حينها، كان أبوه الشيخ حسن، وهو الرجل التقي، معتكفاً في الجامع يصلي، ويقرأ القرآن، وعندما جاؤوا وأخبروه بذلك استقبل الخبر السعيد ببرود شديد، حتى إن الناس حسبوه قد انهبل، حينما راح يصرخ على الأولاد كي يخرجوا من المسجد. وعندما كبر صالح تزوج من فكرية، اليتيمة، والتي كانت تعيش عند بيت جدها، حيث تعلمت أصول تدبير المنزل بشكل رائع. مكث معها ست سنوات دون أن تحبل، رغم كلّ العقاقير والبخور والأحجبة التي راحت تحملها معها دائماً،

والتي أعطتها إياها إحدى الغجريات اللواتي كن يترددن عليها لعلمهن أنها تريد أن تلد لصالح ولداً يحمل اسمه واسم أبيه.

دفع صالح الباب، ودخل، اجتاز المدخل الطويل الواطئ، فأصبح في فسحة الدار الصغيرة. وضع كيسه الذي حشاه بالخبز واللحم المقدد وغيره على الأرضي. كانت الفسحة متربة، وبدا عليها الإهمال، وكأن الدار قد هجرت منذ زمن بعيد، وكان هناك بعض أوراق النباتات اليابسة.

نادى على فكرية بصوت عادي كأنه يخاطب أحداً:

- أم حسن أين أنت؟

إلا أنّه لم يسمع رداً. صعد ثلاث درجات، ودخل إلى إحدى الغرفتين، كان يشغل الغرفة نفسها مع أسرته، أما الغرفة الأخرى فقد كانت مؤجرة إلى أسرة مؤلفة من امرأة ورجل وستة أطفال صغار مشاكسين. رأى فراشاً في زاوية الغرفة. اقترب منه. عرف أنّ زوجته هي النائمة. تطلّع من الأعلى ليتأكد من دون أن يكشف اللحاف المصنوع من القطن والذي كانت المرأة قد شدّته إلى ما فوق رأسها. كانت فكرية، كان شعرا ملتصقاً برأسها من شدة التعرق. أما وجهها فقد كان مصفراً كالليمون، وكان هناك خيوط زرقاء تحت جفنيها وعلى شفتيها المتيبستين. رفع الغطاء على رأسها وكتفيها، وراح يراقبها، يا إلهي... ماذا حدث؟ كانت قد نحفت، حتى أن عظام كتفيها قد برزت من شدّة النحول، وتضاءل صدرها ونفرت عروق زرقاء عن رقبتها النحيلة، مدّ يده وراح يهزها، استفاقت بعد قليل، تطلعت إلى صالح بعينين غائرتين صفراوين، لم تصدق أنّ صالحاً قد قدم، وهو مقرفص إلى جانبها، تمتمت شيئاً غير مفهوم، فعرف أنّها تحسب نفسها في حلم، ولكن عندما لمس أصابعها الباردة، شعرت بدفء يده، فاستيقظ ذهنها على الفور، تمتمت بهدوء:

- صالح...؟ متى جئت؟

- منذ لحظة، ماذا حدث؟

- اذهب، اتركني. أنا مريضة بمرض معدٍ!

- ما هو؟

- التيفوس...

– منذ متى؟

– منذ عشرة أيام.

بلع ريقه، فسمع بوضوح صوت حركة جوزة حلقه، مدّ يده، وراح يمسح على شعرها وجبينها ومن انتفاض جسدها علم أنها كانت تبكي، تبكي حالتها، وهل كان من الضروري أن يأتي ويراها هكذا؟ إلا أنها أحسّت براحة تتسرب إلى ذهنها، الحمد لله أنها شاهدته قبل أن تموت، قال:

– أين حسن؟

– أخذته امرأة ابن عمك عمر إلى بيتها، أنا طلبت منها أن تفعل، خوفاً عليه من العدوى.

– وهل يأتي أحد ليراك... أقصد ليعتني بك؟

– من سيأتي؟ . أنا يتيمة. غصّت الكلمات في حلقها، الجميع يخافون من العدوى.

تطلّع في أرجاء الغرفة العارية، كان كل شيء قذراً ومقلوباً، وعند العتبة، كان هناك وعاء مملوء بالبول، كانت فكرية تستخدمه، كانت رائحة النشادر اللاذعة تنتشر منه.

أحس بغضب مفاجئ، ثمّ بعطف شديد نحو زوجته تطلّع إليها، كان كل شيء يغلي فيه، كان يريد أن يقول شيئاً، أن يسبّ، أن يشتم، أو أن يحطم شيئاً، ولكن... ماذا يفيد ذلك؟ فالمرأة مريضة منذ عشرة أيام، والمرض قد استوطن جسدها، ولا مناص، قد تموت. لاحظ أن عينيها تتحركان بسرعة، وكأنها تريد أن تقول أو أن تفعل شيئاً. أن تنهض لتستقبله، أن تنهض من الماضي. أن تأخذه بين يديها وأن تقوده إلى حضنها، يا الله... من اخترع الحروب؟ لماذا يتقاتلون؟ حينما يتقاتل الرجال تفسد كلّ الأشياء فالأطفال يموتون، والنساء يمرضن من الجوع والإرهاق، وتموت المدينة وهي غارقة في ظلامها، هل هناك من يستطيع إيقاف الحرب؟ . هكذا كان يفكّر وهو ينظر إلى هيكل امرأته العظمي.

قام صالح، واعتنى بزوجته، ساعدها في تبديل ألبستها الرطبة، التي كانت تفوح منها رائحة العرق والقذارة، مسح جسدها ورأسها بخرقة كان يبلها بالماء المعطر بماء

الزهر، ثمّ أعطاها عدّة حبوب من الكينا، كان قد جلبها معه من مستشفى بغداد، وبلع بعضاً منها هو أيضاً وذلك للوقاية، ثمّ قام، وسلق قطعة لحم بحجم الكف وساعدها في شرب المرق. كان يشجّعها وهو يساعدها، كان يقول لها إنها ستشفى، وأنها ستعود كما كانت إلا أنها كانت تنظر إليه بعينيها الجاحظتين غير مصدقة ما يقوله، كانت تحسّ بأن أملها في العيش ضعيف. قالت له وهي ترى إليه كيف ينظف أرضية الغرفة: لقد أصبحت أشبه بخرقة، إن رؤوس أصابعي تتلبد، وأنا أشعر بوهن كبير في جسمي، فإن متّ، وصيتي لك، أن لا تترك حسناً وحيداً، وترحل من جديد.

عندما حلّ المساء، تركها نائمة، وذهب إلى فندق بارون. حاول هناك أن يقابل العقيد. أن يقول له إن زوجته مريضة وهي في حاجة إلى عناية، وإنه يرجوه أن يتركه معها حتى تشفى، وأنه سيلحق به إلى الأستانة بمفرده، إلا أن العقيد لم يكن موجوداً، كان في زيارة لقائد موقع حلب. تحدّث إلى أحد المرافقين، أخبره بمشكلته، بمرض فكرية. كان لا يعرف كيف يتصرف، فأخبره المرافق أن عليه أن يستشر أحد الأطباء. بحث عن طبيب، أشار عليه أحدهم أن يذهب إلى (بحسيتا)، فهناك يعيش أحد الأطباء اليهود، فأسرع إلى هناك، وكان الظلام قد حلّ أخيراً، لم تعد البلدية تشعل مصابيح الكاز في الشوارع منذ زمن بعيد، كانت توفر الوقود، فوصل إلى هناك بصعوبة، وبصعوبة أيضاً تعرّف إلى بيت الطبيب.

خرجت امرأة عجوز وهي ممسكة بشمعة مشتعلة. رفعت الشمعة إلى مستوى وجه صالح، وسألته ماذا يريد وهي شبه مغمضة العينين. أخبرها أنه يحتاج للطبيب. لماذا. لأن زوجته مريضة، طلبت إليه أن يخرج، وينتظر في الخارج، فالطبيب غير موجود.

أذّن العشاء، جاءه صوت الأذان من مئذنة جامع قريب، وهو جالس على الطريق مسنداً ظهره إلى جدار بيت الطبيب. كان المؤذن يصيح وكأنه قد أصيب بالهلع، وقبل أن ينتهي الأذان تحشرج الصوت، وأصيب ببحة. ابتسم صالح ساخراً، إلا أن ضميره ردعه فوراً. تطلع إلى السماء المظلمة، وراح يبتهل. كان يريد من الله أن يشفي له أم حسن، فلا أحد يستطيع شفاءها سوى الله، لقد تعذبت في طفولتها، فبعد أن تيتمت، وأخذها جدّها وهي في السادسة من عمرها، راحت امرأة جدها

تستخدمها كخادمة لها في بيتها، أما الجد فلم يكن يبالي. كان كثير الأسفار، قلّما قعد أسبوعاً كاملاً في حلب، وعندما أصبحت في الرابعة عشر، استدرجها ابن الجيران إلى قبو المؤونة واغتصبها، فكتمت الأمر عن الجميع، وراحت تبكي كل مساء، عندما كانت تأوي إلى فراشها، كانت تبكي بصمت، دون أن تدع أحداً يعرف ما بها، كانت العملية قد آلمتها كثيراً، ونزفت حينها كثيراً من الدماء، حتى حسبت أنها ستموت لا محالة، ولكن بعد أن توقف النزيف، وراح الألم، أصبحت تتمنّى الموت لنفسها.

وعندما جاء الشيخ حسن، أبو صالح . وخطبها لابنه، ارتعدت هلعاً. كانت تعرف الشاب، كان يعجبها، كان قوي الشكيمة، يفور بأساً، ومع ذلك، فقد كان عطوفاً. تمّ العرس بسرعة. كانت الجدة تريد التخلص منها بأسرع ما أمكن، إلا أن العروس كانت تحسب أن نهايتها قد أزفت، فبعد ساعات سيكتشف صالح الأمر، و... سيذبحها، حتى أن جدها وامرأته سيقومان بمساعدته في ذبحها أيضاً. أما هي فعليها أن تستسلم للذبح كالشاة، فقد أذنبت، وتلطخ وجهها بالعار، وستنقل هذا العار إلى الجميع.

حينها... نهض صالح من فوقها، أدار لها ظهره، استلقى على جنبه، أما هي فقد راحت ترتعد كأن مرضاً قد أصابها. كانت تنتفض، كلما أتى بحركة، أو أشعل سيجارة، وبقيا كذلك حتى الصباح. كان يقلِّب الأمر في ذهنه، رأى أن يسألها بهدوءٍ، دون أن يرعبها، لعلّها لن تكذب عليه، وتقول الحقيقة:

استدار، نظر إلى وجهها المصفر، وسألها:

– من فعل ذلك؟

تمتمت قليلاً... هل تكذب؟ إلا أنّ عينيه أمرتاها بقول الحقيقة، فقالت:

– إنه مسعود... ابن الكلب، ابن جار جدي، أرسلتني امرأة جدي إليهم في طلب ضرس ملح. كان ذلك منذ عامين. أقنعني أن أهله في الداخل، وعندما دخلت أغلق الباب، وقادني إلى القبو، حيث يخبئون الملح، هناك هجم علي كالوحش...

وأجهشت بالبكاء، بكاء غزيرٍ ومرٍّ، كان صدرها يصعد، ويهبط كأنه سينخلع عن باقي جسدها، ثم انطبقت حنجرتها ولم تعد تستطيع التنفس، فراحت تشهق

بصوت لعين مازال صالح يتذكره حتى الآن، فقام مسرعاً وغسل وجهها بالماء، ثم راح يستحضر لها الهواء بقنبازه، حتى هدأت.

في الصباح، ركب صالح حماره، ورحل إلى الطرف الآخر من المدينة. دخل أحد المساجد، وجلس إلى جانب الإمام. طلب إليه أن يسمعه على انفراد. ولما أصبحا وحيدين قال له صالح:

– يا سيدنا الشيخ، ماذا تشير علي أن أفعل، لقد تزوجت البارحة، وعندما دخلت على عروسي كذا وكذا وكذا حدث معي، إن أنت أشرت علي أن أذبحها... فسأذبحها فوراً، وإن أشرت علي أن أطلقها... فسأطلقها فوراً، قل لي أرجوك، ريّح بالي!...

صمت الشيخ، خلع عمامته، وراح يحك صلعته، وفي النهاية قال وهو يزن كلماته:

– اسمع يا ولد... أنت طيب القلب. ادفن الموضوع في بئر عميق. ارجع فوراً إلى عروستك فهي بريئة ومظلومة. ارفع الظلم عنها بأن تبهج حياتها. أعد لها روحها، فستكون جارية لك طول عمرك، ولكن إياك أن تنسى مسعود هذا...

قبّل يد الشيخ، وعاد إلى البيت. قرر أن يأخذ بكلام هذا الشيخ الجليل. نادى على زوجته، وانفرد بها في غرفته، وهناك قبّل وجهها المذعور، ثمّ خرج ليشارك أهله في الصباحية.

بعد سنة، وجدوا مسعوداً جثة هامدة متروكة في (أرض العجّور) وقد شُجّ رأسه بحجر كبير. لم يكن صالح قد فعل ذلك، بل قطاع الطرق، ومنذ ذلك الوقت، نسي الموضوع، أو تناساه، وانشغل فكره بلعب الضامة والشطرنج. أما هي فقد صبرت عليه حتى أنها كانت تغفر له كلّ إهماله للبيت حينما كان ينشغل في اللعب.

أشعل سيجارة أخرى. كان القمر قد أطلّ من خلف أكشاك البيوت الخشبية، فأضاء الزقاق الضيق، وانعكس على بلاطه المصقول. سمع صوت طفل يبكي بكاء متواصلاً ومراً، وجاءه صوت الأم العصابي القلق. كانت تدلّل الطفل ثم تشتمه: طيز أمك يا ابن الكلب...!

ثمّ سمع صوت امرأة عجوز يأتي من العمق، لعلّها الجارة المريضة المستلقية

في فراشها:

- أطعميه عوضاً عن أن تشتميه...!

- وماذا أطعمه؟ هل أشوي لحمي؟ ما عندي شيء، ثمّ أردفت الأم بعد قليل:

- طظ في هيك حياة، لو يموت، وأخلص منه.

انقبض صدر صالح. أحسّ بحنق شديد، فالأمور في حلب أسوأ كثيراً مما كانت عليه. لم يكره المرأة التي دعت بالموت على طفلها. لو كان عندها طعام لأطعمته، هكذا كان يفكّر في نفسه.

مرّ رجل، وهو يسحب حذاءه على بلاط الشارع، تطلّع الرجل ملياً بالرجل الجالس في العتمة، ثمّ راح يتمتم: الله لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم...

بصق صالح بصوت مرتفع، فغذ الرجل خطاه، وغاب في المنعطف.

بعد دقائق وصل الطبيب. كان يركب بغلاً يزفر استمرار. ترجَّل وهمّ بقرع الباب فعرف صالح أنه الطبيب. قام واقترب منه، إلا أنّ الطبيب توجس، وجفل.

- ماذا تريد؟ قال الطبيب بصوت متهدج.

- امرأتي مصابة بالتيفوس.

- ابحث عن غيري، فأنا متعب جداً.

- انتظرتك ساعتين، فلا تخجلني، لديّ نقود!

لم يجب الطبيب، كان يفكر، إلا أنه استقرّ على رأي:

- منذ متى وهي مصابة؟

- منذ عشرة أيام.

- عشرة أيام؟ ... لعن الله التيفوس. قال الطبيب بيهودية ظاهرة. صفّر بفمه وقال:

- اذهب. اشتر ليموناً، لا حاجة لذهابي، فالأمل ضعيف، أطعمها ليموناً فقط، وسأعطيك بعض حبّات الكينا، مقابل عشرة قروش.

عندما وصل إلى البيت، كانت امرأته في غيبوبة. أشعل السراج، ثمّ قعد ينتظر حتى تفيق. كان يردد في ذهنه كلمات الطبيب: الأمل ضعيف... هل ستموت؟ زفر

طويلاً كي يريح صدره ويبعد عن ذهنه فكرة موت امرأته. أشعل سيجارة، إلا أنه أطفأها على الفور، كانت معدته خاوية، فقام والتهم قطعة اللحم المسلوقة. كان يسمع صوت فكيه بوضوح شديد وهي تتحرك لتطحن قطع اللحم. وفي خيمة الصمت الرهيبة التي لفت البيت والطريق في الخارج والكون كله، كان يميز أصوات جسده المتنوعة، ابتداء من اصطكاك أسنانه وحتى حركة معدته التي لا تهدأ. عبّ ماء. ثم استلقى.

بعد منتصف الليل، سمع زوجته تئن. نهض، واقترب منها. كان جسدها المصفر يزخ حبات العرق. لاحظ ازرقاقاً شفافاً تحت بشرتها، أما شفتيها فقد تحولتا إلى كتلة زرقاء جافة، قال لنفسه بصوت مسموع:

– إنها تموت!

إلا أنّها استفاقت. فتحت عينين غائرتين كابيتين، أطّرهما لون الموت الأزرق. ابتسمت له، إلا أنها تألمت من جراء انشقاق لحم الشفتين. أرادت أن تقول شيئاً إلا أنّه أسكتها. راح يدس قطع الليمون في فمها. في بادئ الأمر، راحت تهز رأسها سلباً، إلا أنّها سايرته فيما بعد، وراحت تمضغ الليمون وهي مضيِّقة عينيها، ثمّ أعطاها حبتي كينا فبلعتهما بصعوبة، سمعها تقول له:

– لا تقلق، سأعيش، أشعر بتحسن، هل تعشيت؟

– نعم.

أمسكت زنده براحة يدها، جذبت يده، قربتها من فمها، وقبّلت ظاهرها. أحسّ بخشونة شفتيها على بشرته، لعلّها تحسّنت، هكذا فكّر، ثمّ أمرها أن تنام، نهض، واستلقى في فراشه، وما لبث أن غفا، وعندما أفاق كان نور الصباح الزاهي يعم الغرفة، وأتاه صوت فرخ حمام يناجي أنثاه بصبر ظاهر.

جلس على فراشه، وفرك عينيه. كان قد نسي زوجته أم حسن، وحلم أثناء نومه بالعقيد زهيد وبالسفر إلى الأستانة. تطلّع إلى فراشها، كانت فاغرة فمها كأنها تخاطب ربها، صاح: أم حسن... فكرية... ثم قرفص إلى جانبها، وراح يبكي بصوت عالٍ، مثل طفل الأمس.

ماتت أم حسن، زوجة صالح بنبوك اليتيمة، والتي توقفت عن الشعور بالذل

حينما تزوجها.

حفر لها قبراً في التل، ثمّ أحضر امرأتين وقامتا بغسلها بالماء البارد ولفها بشرشفها الذي كان يفوح برائحة العرق والبول. وضع الجثة في تابوت خشبي مهترئ، فحمله أربعة أشخاص متطوعين إلى المقبرة، حيث دفنوها ثمّ وضعوا على القبر شاهداً كي لا يضيع القبر.

عاد المشيعون القلة. كانوا صالح بنبوك وبهية زوجة ابن عمه عمر بنبوك وأمّها أم ربيع ورجل عجوز جاوز الثمانين من عمره، يسير متكئاً على عكاز وقد علا صوته بالآيات القرآنية. كان جاراً لصالح واسمه الحاج أحمد لبنية. مشى الجميع وهم صامتون ما عدا الحاج أحمد كان يسير في الخلف وهو يتمتم. لعن الله الموت، والحروب وجميع الأمراض بجميع أشكالها، من التيفوس وحتى الكوليرا والسل! ماذا حدث لحلب؟ هذه المدينة الوادعة؟ . كان صالح يفكّر وهو يتعرق لقد تحولت إلى مدينة نتنة... ويبدو أنّ المدينة قد اعتادت المصائب، ولم تعد ترتدي اللون الأسود على كلّ ميت، فهذا الأمر أصبح عادياً، وفي نفس الحي الذي يسكن فيه صالح، استقبل الناس خبر موت أم حسن بطقطقة باللسان وهز الرأس أسفاً وحسب. وما هو الشيء الجديد في هذا؟ ألم يمت شبان في ريعان الشباب؟ ذهبوا إلى الحرب ولم يعودوا؟ ... أو أنهم أصيبوا بالطاعون...

- اتفوه...

بصق صالح بحنق، ومسح عرقه الخريفي قبل أن يبرد.

خلفه، كانت المرأتان تغذان السير، وهما تخبان بملحفتيهما السوداوين. أم ربيع امرأة نحيفة طويلة متجعدة الوجه، إلا أنها تتميز جمالاً حتى من خلال خمارها الأسود السميك. أما بهية ابنتها، فلم تكن تشبهها، كما هو الحال مع ربيع، بل كانت تشبه المرحوم أباها، وهي أقصر من أمها، ولكنها ممتلئة قليلاً. كانت تتحرق شوقاً للوصول إلى البيت كي تسأل صالح عن زوجها عمر، فصالح لم يترك لها المجال لتسأله عندما قدم، وأخبرهم بموت زوجته.

عند باب الفرج، أركبهما حنطوراً يجرّه حصان وله مظلّة سوداء لامعة. نقد الحوذي أجره، وقال:

- إلى سوق الصغير، ثمّ انطلق ماشياً نحو فندق بارون بعد أن وعدهما بالمجيء إليهما بعد أن يفرغ من العقيد زهدي.

في الفندق، قابل صالح العقيد الذي كان جالساً في البهو السفلي مع عدد من الضباط الأتراك والألمان والعرب.

- ... ماذا حدث؟ ... بادره العقيد.

- ماتت زوجتي يا حضرة العقيد، دفناها منذ ساعة، كانت مريضة بالتيفوس.

- البقية في حياتك . قال العقيد لصالح بحياد تام، ثمّ استدار نحو الضباط المسترخين وقال: هذا هو لاعب الشطرنج الشهير الذي حدّثتكم عنه.

تطلّع صالح نحو الضباط، وهل هذا وقته؟ . سأل في نفسه . ابتسم له بعضهم لاسيما الضباط العرب الذين وجدوا في صالح معدناً قومياً. انتفض الضابط الألماني، وكان طويلاً، جميلاً، ذا جبهة عالية وشعر أشقر، ثمّ قال بلغة تركية هزيلة:

- سوف نرى الآن، أيها العقيد زهدي، عندما نلعب.

وانخرط الجميع في نقاش حول اللعب ومن يلعب مع من، أما صالح فقد بقي واقفاً كالأبله يراقبهم، لقد وصلت إلى مناخيره روائح البارفانات النادرة والتي يشتمها لأوّل مرّة. أحسّ بغثيان خفيف في معدته، وبثقل في الرأس. إنهم جادون على ما يبدو... ولكنه سيعتذر، فالعقيد سيفهمه فوراً. كيف يمكن لهؤلاء السادة المتمدنين أن لا يقدروا وضعه. أحسّ بيد بيضاء ناصعة ومشعرة تلتف حول كتفه، وصوت يقول:

- الدور الأول لي أنا... بعد ذلك سأتركه لكم.

واستقرّ الجميع على ذلك، فقد كان صاحب الأمر ضابط تركي كبير. أمير الاي.

جلبوا رقعة الشطرنج، وأجلسوا صالحاً أمامها، ثمّ أجروا القرعة. الأحجار البيض للأمير الاي.

تطلّع صالح بالعقيد، الجالس إلى جانبه وهو يعبث بعكازه، إلا أنّ العقيد غمزه بعينه، مال بجذعه نحو العقيد، وهمس:

- ألا يمكن تأجيل ذلك إلى الغد؟ أنا في وضع غير مريح، ذهني مشوش...

- خذ راحتك والعب... إياك أن تخسر! هكذا أمر العقيد.

– ولكنني سأخسر.

امتقع وجه العقيد زهدي. دقّ العكاز بالأرض الحجرية، مما لفت انتباه الضباط الآخرين.

وجد صالح أن لا فائدة ترجى من العقيد، فهو لن يعفيه من اللعب. المهم بالنسبة له أن يتفاخر، وينفش ريشه أمام زملائه. أما زوجة صالح فإلى الجحيم. أحسّ بكره شديد نحوه. سوف أريك أيها الملعوب فيك

قدّم له أحدهم سيجارة. أشعلوها له. كانت معطرة وثخينة، وملفوفة بالآلة. تجرّأ وطلب قهوة مثلما قدّموا للكولونيل . أمير الاي، صاحب اليدين البيضاوين السمينتين، والذي كان ينتظر صالحاً كي يتهيأ. رشف صالح من قهوته، وتطلّع إلى الجمهور الكبير الذي كان ملتفاً بصمت، حول اللعبة. عبّ نفساً آخر من سيجارته، فابتعدت صورة زوجته الزرقاء عن ذهنه، فالقهوة ودخان السيجارة المعطر، عدّلا مزاجه، إلا أنه حقد على هؤلاء الضباط، قليلي الذوق، سميكي الدم. انتظر أيها الأمير ألاي... سوف أخسر أمامك نكاية بالعقيد زهدي، سأجعله ينكح نفسه..

وبدون أن يأخذ إشارة، ابتدأ الكولونيل اللعب بعد أن زهقت روحه من هذا الخراء صاحب المزاج المعتل.

كانت افتتاحية الكولونيل موفقة، كانت (الدفاع الصقلي) إلا أن صالحاً عرف كيف سيكون اللعب بعد ذلك. كان يعرف كيف يحبط الخطة، ويعرف أيضاً الخطأ المميت الذي يمكن، إن وقع فيه، أن يجعل الكولونيل يقول: كش ملك. أخذ الكولونيل يهاجم بسرعة وبعد دقائق كانت البيادق السوداء قد تراصت كالتتين، وفي ذهن صالح أن يضرب بيادقه في الوسط وفي جناح الوزير. ولكن، وفي إحدى اللحظات، ترك الكولونيل ينقل وزيره نقلة طويلة، وهدد ملك صالح.

ضجّ البهو، بصيحات الضباط، وبقهقهات الكولونيل . أمير ألاي . فقد خسر صالح بعد عشر دقائق.

ألقى نظرة سريعة، بطرف عينه، على العقيد، كان متجهماً يبتسم ابتسامة صفراء، وينقر بأصابعه على أكره العكاز. وقف صالح، فنهض العقيد، وفجأة، راح يهوي بعكازه على صالح بقوة والزبد يتطاير من فمه، وهو يشتم بالتركية.

أجلس العقيد، مرة أخرى، على مقعده. أما صالح فقد وجد نفسه مدفوعاً إلى خارج الفندق والدم يسيل من رأسه على وجهه، وينقط على سترته. أحس بملوحة في فمه. بصق. كان الدم يسيل أيضاً من جدار الفم. سمع الحوذي نيازي يهمس في أذنه:

– اهرب الآن، غور من وجهه، وإلا قتلك، الصباح رباح!

انعطف نحو بستان كل آب، خلف الفندق مباشرة، ثمّ أسرع باتّجاه برج الساعة. لماذا فعلت ذلك يا ابن القحبة؟ . خاطب نفسه . الآن سيجعلك تجوع مثل كلب أجرب... وإن أراد أن يرحمك، فسيرسلك إلى الجبهة من جديد، إلا أنّه أطلق شتيمة بذيئة نحو فرج أم العقيد زهدي وقال في نفسه: طظ... فليفعل ما شاء، لقد أغظته، وجعلته ينكمش ويصفر كالكلب. إنهم يضحكون عليه الآن. كان عليه أن يحترم موت أم حسن..

عبر طريق باب جنان. تطلع إليه بعض الفلاحين الجالسين على التراب وهم يمسكون سجائرهم بأصابع غليظة صفراء. كانت سترته قد تبلّلت بالدم النازف بغزارة، فغذ السير نحو بيته.

عند (جلة معروف)، اشترى قليلاً من البن من أحد الباعة، إلا أن البائع عرض عليه المساعدة، غسل له منطقة الجرح بالماء، ثمّ وضع البن على الجرح، وربط الرأس بخرقة من قنباز حريري عتيق.

عند العصر، كان جالساً في بيت أم ربيع، يداعب ابنه حسن الذي كان ملتصقاً به، ذهنه مشوش، ما العمل؟ لقد مرّ على بيته، غسل الدم المتخثر عن بشرته، وبدّل ألبسته. وجد أنّ المرحومة قد احتفظت بثيابه مدعوكة إلا أنّها كانت نظيفة.. أغلق باب الدار، ثمّ قفله بمفتاح ضخم بطول شبر كامل.

في بادئ الأمر، قرّر أن يهرب، ولكن إلى أين؟ فقد ولد في المدينة، ولا يعرف أحداً في الريف، وكان قد سمع أنّ الهاربين من الجيش يلتجؤون إلى جبل الزاوية، فهذا الجبل منيع، ولا يستطيع الجندي التركي أن يصعده دون خوف، وقد أصبح ملاذاً لكثيرين من الرجال، خصوصاً وأن الغذاء متوفر، والعمل أيضاً. لم يكن يعرف كيف الوصول إلى هناك. أبعد الفكرة عن ذهنه. سوف يبقى في حلب. سيختبئ في

أحد البيوت. مثلاً... بيت أم ربيع. مستحيل، فهنا امرأتان تحتجبان عنه، فهو غريب عنهن، ماذا سيقول الناس؟ سينكشف أمره بسرعة، لعن الله العثمانلي...!

تطلع إلى أم ربيع، حتى أنها لم تسأله عن رباط الرأس ذاك. علمت بحدسها أنه يواجه مشاكل، ومن لا يوجه مشاكل هذه الأيام؟ من يعش يبق رأسه مشغولاً.

تلمّس رأسه. كان يوجعه، دخلت بهية. لاحظها تتطلع إليه بزاوية عينيها. التقطت شيئاً، ثمّ تكلمت مع حسن الذي كان يتوسد فخذ أبيه وهو يدندن. أمرته أن يترك أباه، ويذهب ليلعب مع أولادها، إلا أنه رفض. إنه مرتاح لرائحة بيتهم الذي علقت بملابس أبيه. سألت بهية صالحاً:

– هل أنت جائع يا أبا حسن؟ الطعام جاهز.

قال نعم، إنه جائع.

أحضرت بهية السفرة. فول بزيت فقط، مع قطعة من الخبز الأسود اليابس. التموا حول السفرة، أما العجوز فقد اعتذرت، بقيت هناك تسبّح وهي تهتز. كانت تراقب صالحاً، تنتظر أن يتكلّم، أما بهية فقد جلست أمامه، تطعم الولد، وقد لفت رأسها وبدت محتشمة. راقبها صالح. كانت تطرق عينيها في الصحن كلما التقت أعينهما. كانت شعلة متوهجة، لم تنس أن تضع الكحل الأسود على عينيها، فبدتا كبيرتين كعيني مهاة. إنها لعوب هذه المرأة، . هكذا فكّر في نفسه . تبدو كذلك، لم تكن هكذا من قبل، حينما قدمت إلى (القشلة) لتوديع زوجها. كانت مصعوقة حينذاك، شاحبة، متوترة. لاحظ حركات ردفيها عندما كانت تمشي حافية لجلب شيء ما. لم تكن حقيقية. كانت تمثل، إلا أنّها كانت تستطلع تعابير وجهه بشكل دائم.

لم يكن مرتاحاً لمكوثه مع المرأتين، شبع. أشعل سيجارة، وراح ينفث دخانها في جوّ الغرفة الذي كان يعبق برائحة أنثوية مميزة، مصمص ما بين أسنانه، ثمّ قال موجهاً كلامه لأم ربيع:

– دائمة يا حاجة.

– هنا وعوافية يا ابني، لم تأكل جيداً.

– عندما يعود عمر وربيع إن شاء الله.

– ماذا حدث؟ لقد سافرتما سوية أنت وعمر، لماذا لم يرجع؟

لاحظ انتباه بهية القلق، وكأنها وجهت أذنيها نحوه كالقطط راحت تستمتع وهي تنظر إليه بين الفينة والأخرى، حدّث المرأتين عن حياتهما في العراق، وعن معارك كوت العمارة وعن أصابته، ولما سمعتا عن حياتهما في المستشفى، ابتسمت بهية، ثم أخبرها عن الورقتين اللتين تركهما له حينما سافر، وقال:

– سيأتي قريباً، لقد كتبهما العقيد زهدي بخط يده، وهو ذو كلمة مسموعة هناك.

وبشيء من القلق سألت بهية:

– إذن، قد يأتي في أية لحظة...

قال صالح:

– صادفنا، أثناء سفرنا، دوريات كثيرة للدرك، وهي تدقق في الوثائق وتلتقط الهاربين، فإن أصابه الحظ فسيصل هذا الأسبوع.

ترك خبر وصول عمر القريب، أثراً حسناً على وجه حماته، إلا أن تصرفات بهية المتوترة القلقة، أثارت حفيظة صالح. لم تستطع تفسير هذا الشيء، إلا أنه عزا ذلك إلى قوة إرادة تستطيع كبت الفرح حين اللزوم، ولكن الأمر كان يسير بشكل مغاير.

فبعد سفر عمر بنبوك، الذي التقطته دوريات الجيش، ذات الحبال في الطرقات، (كانت الدوريات تقطع الشوارع بواسطة الحبال، ثم تبدأ بالتقاط الرجال وترسلهم إلى التجنيد الإجباري) بقيت المرأتان وحيدتين في بيت عمر بنبوك، إلا أنهما قرّرتا أن تتركا ذلك البيت، وتوفرا أجاره والعودة للعيش في بيت أم ربيع، فبيتها أكبر، وهو ملك حجري.

عاشت المرأتان وأطفال عمر الثلاثة مدّة من الزمن، وهم يأكلون ما كان مخزناً في القبو حتى فرغ. عند ذلك قرّرت أم ربيع العودة إلى العمل في معمل التبغ الذي كان يستخدم النساء فلم تستطع، فالوضع في ذلك الوقت، كان يسير من سيء إلى أسوأ، فقد كثرت البطالة، وارتفعت أسعار المواد بشكل جنوني نتيجة سياسة الأتراك الاقتصادية: (كلّ شيء للحرب). وضربت المجاعة البلد في حين كان معظم الرجال إمّا مسافرين إلى الحرب أو مختبئين متوارين عن أنظار كتائب التجنيد العثمانية.

وخلال شهر واحد، عانوا من الجوع. أمّا المعارف والأقرباء، فلم يكونوا أفضل منهم، فقد خيّمت المصيبة على الكثيرين، وكلّ من وجد في بيته رغيفاً من الخبز، خبّأه عن أعين الناس الجائعين المتطفلين. وراحت صرخات الأطفال الجائعين تخترق صمت الليالي السوداء، ولكي لا يموتوا من الجوع، راحت بهية تبحث عن الخبز في مزبلة الجيش التركي قرب (ثكنة بانقوسا) كما كان يفعل الكثيرون.

وفي إحدى المرات، دخلت إلى البيت، وهي سعيدة. أخبرت أمها، أن أحد البيكاوات قد استخدمها في المشغل الذي يملكه. كان عبارة عن ثلاثة أنوال يدوية يعمل عليها ثلاثة رجال مسنين، أمّا الأجراء فهم من النساء والأطفال.

كانت بهية تعمل في المشغل، اثنتي عشرة ساعة في اليوم. كانت تغيب النهار كلّه، أمّا أمّها، فقد قعدت مع الأطفال. إلا أنه لم يمض أسبوع آخر حتى بدأت بهية تحضر شلل الغزل، وكان على أمّها أن تقوم بلفها على بكرات المكوك، وقد زاد بذلك دخلهم إلى ثلاثة مجيديات في الأسبوع.

لم تكن أمّ ربيع، بسبب انشغالها، تخرج من البيت، فلم تسمع تلك الأقاويل التي بدأ الناس بتداولها عن أنّ البيك يستخدم بهية في أمر آخر، إلا أنّ أمّها كانت تلاحظ كيف كانت ابنتها تتجمّل قبل خروجها صباحاً من البيت، وكيف أنّها كانت تعود نشطة في المساء على غير عادتها.

وكلّ ما في الأمر، أنّ البيك، الذي كان يملك عدة مشاغل أخرى، قد استدعى بهية وأخبرها أنّه لن يحتاج إليها بعد الآن. كان ذلك بعد عدّة أيام من بدئها العمل لديه. احتارت المرأة لقراره هذا، فالعمل يحميهم من الجوع. توسلت إليه. أخبرته أنها تطعم أمّها وثلاثة أطفال، إلا أنّ البيك كان يراوغ. فقد لاحظ أنّها على شيء من الجمال، ومكتملة الأنوثة، وكان يسيل لعابه كلّما نظر إلى ردفيها الجميلين اللذين يصعدان ويهبطان بتناغم شهي كلّما خطت في المشغل. كان يقضي الساعات في المشغل وهو يراقبها. يراقب صدرها العارم وجسمها اللدن والمكتنز. لم يعد يذهب إلى المشاغل الأخرى إلا قليلاً. كان يقضي الساعات وهو يفكّر بالطريقة التي تمكّنه من استدراجها إلى أحد بيوته المفروشة.

كان البيك في الخامسة والخمسين، أسمر البشرة، مكتنز الوجه، وأصلع الرأس

ذا فم صغير كالنساء، كان يلبس قنبازاً حلبياً من الجوخ، ويتمنطق بحزام جلدي، ويرتدي (ساكوي) طويلاً يصل إلى ما تحت الركبتين، ويضع طربوشاً أحمر نظيفاً على رأسه. ومشكلة البيك الوحيدة أنّه كان شهوانياً يحبّ النساء، وكان قد تزوج ثلاث مرّات، وطلق مرّتين فاكتفى أخيراً بزوجة واحدة بلهاء، تدير له منزله، وتربي أطفاله وتغمض عينيها عن غزواته.

استمع البيك إلى بهية، وهو يراقب صدرها المفتوح، كانت خصيتاه تنتفخان بعد امتلائهما بالإفرازات. قال لها: حسناً، لقد أوجعت لي قلبي. سأتركك في العمل، ولكن ليس هنا.

فقالت: أين إذن؟

– في مشغل آخر، ستقومين بنفس العمل، لفّ الشلل على البكر.

في اليوم التالي، أخذها إلى (المشغل الآخر) كان عبارة عن غرفتين وباحة، مفروشين كبيت للسكن، إلا أنّ دولاباً لتعليق الشلل، كان متروكاً في إحدى الزوايا. بدأت العمل. كان يساعدها صبي صغير يحضر لها الشلل، ويأخذ البكرات إلى مشغل الأنوال. تركها تعمل يوماً أو يومين، ثمّ حضر البيك إليها، جلس أمامها. راح يراقبها وهي تعمل بصمت، وتمضغ علك الجمل بطريقة سافرة، جعلت خصيته تتضخمان من جديد، قال بعد أن خلع طربوشه:

– أين زوجك يا بهية؟

– في الحرب يا بيك، أخذوه منذ شهرين تقريباً، ولا نعرف عنه أيّ شيء. يقولون إنّه يحارب في العراق.

– وهل أنت مبسوطة الآن؟ عليك أن تعملي بهمة ونشاط، وسأجعلك سعيدة أكثر. سوف أزيد جمعيتك إن سمعت كلمة..

تطلّعت المرأة إليه، توردت وجنتاها، إلا أنّها استمرّت في مضغ علكتها لتخفي خفقان صدرها.

طلب منها أن تأتيه بكوب ماء. راقبها وهي تنهض. إنها أجمل من زوجاته كلّهن. شرب الماء وهو جالس. وضع الكوب على الأرض، ثمّ أمسك يدها من زندها وجذبها إلى الأسفل. قال بتودد: اجلسي بجانبي... إلا أنّها حاولت أن تفلت يدها من

قبضته فأمرها: اجلسي...!

طاوعت. التصق بها، وقال:

– لن تجوعوا بعد الآن، سأعطيك كلّ شيء!

ثم راح يقبّلها وهو يعصر ثدييها. قاومت قليلاً. لم تستطع أن تفلت نفسها. حاولت أن تدق صدره بقبضتها، أن تبعد رقبتها التي كان ينهشها، إلا أنّه أدخل يده من الأسفل وراح يعصرها هناك.

تأوهت وقالت: آه... يا عمر.

وكأن صاعقة ضربتها من بين فخذيها حتى رأسها. ذلك المكان هو موطن ضعفها. فأفرجت ساقيها لفحولته، للجوع والقهر، للحرمان الجنسي الذي أقضّ مضجعها وهي تحلم بزوجها، الذي يحارب بعيداً عنها، ببندقية أشبه ما تكون بعضوه المدلل.

بعد ذلك، أصبح الأمر عادة، كان يأتي كلّ يوم، مرّة، مرّتين، وفي بعض الأيام ثلاث مرّات. كان عليها أن تشبع نهمه الذي لا ينتهي. أن تشبع شبقه وسطوته وفحولته. تركت الدولاب، لم يعد يرسل لها شلل الحرير، إلا لتشغل بها أمّها في البيت. أصبح هو العمل، هو الدولاب، أصبحت هي الحرير الذي يجب أن يستقر، أن يلتفّ على مكوكه.

سأل صالح عن ربيع، كان يعلم أنّهم أخذوه إلى بلاد الإفرنج، هل توجد أخبار عنه، فقالت أم ربيع، وقد تهدج صوتها لذكر ولدها:

– جاء رفيق له اسمه أيمن، سافرا معاً، إلا أنّ أيمن استطاع الهرب. أخبرنا أن ربيعاً قد مات. قال إنّ الإنكليز قتلوه في معركة حدثت في بلاد بعيدة نسيت اسمها. كدتُ أموت من البكاء والقهر. ابني الوحيد يموت في بلاد بعيدة... ربيع الذي كان يعمل ويعيلنا. كان يرغب في ابنة صاحب المدار الذي كان يعمل فيه. كان أميناً، فقرّر صاحب الدار أن يشاركه فيه ويزوجه ابنته (عيشة).

راحت تبكي بمرارة. كان يعرف ربيعاً، شاب ذو طلعة جميلة، شهم، إن ضربته على الحائط فإنّه سيعود سالماً، يا الله... لماذا كلّ هذه المصائب؟ هل خلقت الكون معوجاً؟

سمعها تسأله بعد أن هدأت، ومسحت دموعها:

– ماذا ستفعل أنت يا ابني؟ إياك أن تعود إلى هؤلاء الأتراك.

– لن أعود يا حاجة. قبل أن تموت فكرية، كنت أفكر بالذهاب مع العقيد زهدي إلى الأستانة. كنت منقاداً إليه، ولكنني أعرف الآن أنهم هم الذين قتلوا كل هؤلاء الناس. قتلوا ربيعاً وفكرية ووحيد الأسدي وغيرهم. هم الذين جلبوا المصائب والأمراض والمجاعة. أما ذلك الإنسان التافه الذي يركض وراء متعته دون أن يأبه لنا، ذلك العقيد الأعرج صاحب الوجه القميء الذي أودّ لو أخنقه بيديّ هاتين، فهو مستلق الآن في الفيء في حديقة فندقه يشرب القهوة. بينما نحن، علينا أن ندفن زوجاتنا وأولادنا، وأن نتغرب في البلاد البعيدة حيث نحترق في الصيف القائظ ونتجمّد في الشتاءات الباردة القارصة، من أجله ومن أجل أمثاله.

صمت لحظة. أحسّ أنّ صوته راح يتهدّج، ويتقطّع. تطلّع إلى بهية. كانت تبحلق فيه. تستمع إلى قهر هذا الرجل الصامد. تابع يقول:

– لن أبيت في بيتي. فهم يعرفونه. سيأتون حتماً للبحث عني. سأبحث عن مكان آخر حتّى يسافر العقيد المشؤوم.

فقالت أم ربيع:

– اسمع يا بني. ابقَ معنا. ستنام في القبو. إنّنا نعمل. أنا وبهية، ونكسب نقوداً. لن تحتاج للخروج في هذه الأيام. أمّا بهية فهي تذهب إلى العمل من الصباح وحتى المساء. وهي ستحضر الطعام كعادتها. ثمّ إنّنا سنتونس بك. وأنت تعمل ما معنى أن تبقى امرأتان في بيت فارغ من الرجال. مع هؤلاء الأطفال كنا سنموت من الجوع لولا العمل الذي وجدته بهية.

سأل بهية عن عملها: راحت تشرح له وهي تتفحصه. كانت تريد أن تعلم فيما إذا كان يصدّقها أم لا. كان يصدّقها بالفعل. امرأة تعمل في مشغل، فالكثير من النساء يعملن نفس الشيء خصوصاً في غياب الرجال. وهو يعلم هذه الصنعة جيداً، فهو عامل نول آلي في معمل صائم الدهر. في الماضي كان أجيراً عادياً في مشغل الحاج سامي. ثمّ علموه كيف يقف خلف النول اليدوي الذي كان ينسج الحرير. عمل ست سنوات كمعلم نول، وعندما تمّ تركيب النول الآلي الذي يعمل على البخار،

والذي اشتراه الحاج من الألمان، انتقل صالح للعمل عليه. هكذا قرّر الحاج في ذلك الوقت كان معجباً بصالح وبمهارته، إلا أنّ الشيء الوحيد الذي كان يقلق الحاج، هو غياب صالح عن العمل في بعض الأحيان ولفترات قد تطول. السبب كان الشطرنج. كان يتحين أيّة مناسبة للسفر إلى الشيخ داوود ليلعب معه. والشيخ داوود مهووس آخر. فكّر صالح: سأذهب إليه حين يأتي عمر، أمّا الآن فسأبيت عند المرأتين. سأنتظر حتّى تهدأ العاصفة التي ثارت في الفندق.

عاش صالح في البيت. كانت بهية تخرج، فيبقى مع أم ربيع والأولاد. وكي يقتل الوقت، راح يقوم بعمل العجوز على الدولاب. وكان في أحيان أخرى يجمع الأولاد، ويحكي لهم حكايات يختلقها عن وحوش الغابة وعن الحرب. إلا أنه، بعد مضي أسبوع، راح يخرج إلى الحارة، ويجلس في قهوة أبو سلمو في ساحة باب الحديد. كانت القهوة قد تأخرت كثيراً بسبب شح المواد. كانوا يقدّمون قهوة البن والحمص المشوي المطحون غير المحلاة. كان يشرب يومياً عدّة كؤوس من هذه القهوة المقرفة ذات طعم الحمص المحروق المر، ويستمع إلى أحاديث الشيوخ والرجال العاطلين الذين لا عمل لهم سوى الجلوس في المقهى وتدخين السجائر، وهم يثرثرون نصف نائمين. أما في الأماسي، عندما كان يهطل المطر، وتفوح الأرض برائحة زكية، فقد كان رواد المقهى يجلسون ملتفين حول لمبة الكاز، وهم يدخّنون ويتناقلون أخبار الحرب والمجاعة.

هناك، تعرّف صالح على الأستاذ خلوق، أستاذ الحساب القادم من إيطاليا وهو خلوق بالفعل. متكلّم. له وجهات نظر تختلف عن الآخرين. وقد انجذب صالح إليه من الجلسة الأولى. كما تعرّف على (أبو علي) وهو عامل يعمل في تقطيع الجبل لاستحضار حجارة البناء. وكان هناك عدّة رجال ممن يعملون في مهن مختلفة من نجارة وبيع الخضار وغيرها، وعامل آخر يعمل في نفس مشغل الحاج سامي الذي عمل فيه صالح لمدة اثنتي عشرة سنة وكان اسمه عبد الفتاح.

أمّا الوجهاء، والذين كانوا يجلسون، عادة، منعزلين عن الآخرين، إلا أنّهم كانوا يختلطون معهم في المساء، فقد كان أبرزهم الحاج صالح خوري متعهد تقديم الخبز للجيش التركي. وقد كان رجلاً جميلاً أبيض البشرة طويل القامة، يلبس قنبازاً حريرياً

أبيض مخططاً، ويضع على رأسه عمامة بيضاء وهو متزنر بزنّار عجمي، له ساعة تتدلّى سلسلتها الفضية عند بطنه حيث تستقر في زناره. هذا الرجل، كان شبعاً وقوياً، وقد سُمي بالزعيم وكانت الزعامة متناسبة مع شكله وجبروته، حيث كان يحيط به دائماً أولاده وأخوته وأصدقائه، كلّهم يخدمونه، وينتظرون إشارته، إلا أنه كان هادئاً وودوداً، تلك سياسة تعلّمها من ذوي السلطات.

كان الوحيد الذي يجلس على مقعد من القش اللين الطري، وذي ساعدين. كان يمدّ ساقيه، ويريحهما على كرسي قصير، وهو يدخّن نرجيلته، ويشرب قهوته المرة التي كانوا يجيئون بها خصيصاً من البيت. كان يتلمّس شنبيه الطويلين الأنيقين باستمرار وهذه عادة كسبها منذ أن كان مراهقاً في قديم الزمان.

كانت المناقشات محصورة بين الزعيم والأستاذ خلوق، أما الآخرون فقد اكتفوا بتأييد هذا أو ذاك، وبالثناء على الحاج صالح أو الأستاذ، كل حسب موقعه، وكل حسب مصلحته.

كان الزعيم يؤيد الأتراك ضدّ الحلفاء (المهم أنهم من ديننا) هكذا كان يحتمي عندما كان الأستاذ يحرجه في النقاش، ولكن الأستاذ كان يوجه سهامه على الفور ويقول:

- بل لأنك متعهد لديهم.

وفي ظلّ هذه المناقشات الحامية، والتي كانت تطول حتى منتصف الليل، نما الحقد والكراهية بين الشخصيتين وغاب إلى اللانهاية ذلك الودّ الذي أظهره الزعيم للأستاذ في بادئ الأمر، عندما تقبله في مجلسه كأستاذ قادم من أوروبا يمكن أن يزيد من وجاهته خصوصاً وأنه لا يترك شيخاً جليلاً أو أستاذاً أو طبيباً إلا ويعتبرهم من أصدقائه، ويفتخر بذكرهم أثناء أحاديثه.

أمّا صالح بنبوك، فقد اعتبر نفسه من أتباع الأستاذ خلوق، فقد أقنعته دعايات الأستاذ بأنّ (البلد ترزح تحت وطأة المجاعة بسبب وجود الأتراك فيها، ليس لأنهم مسلمون مثلنا بل لأنّهم استعمار، وهذا الاستعمار دام قروناً عديدة ويجب الآن أن ينتهي. خصوصاً وأنهم تمادوا في استعباد شعبنا وقتله وسوقه كالخراف إلى المجزرة الرهيبة التي اشتركوا فيها، ألا وهي الحرب العالمية). وعندما سأل الأستاذ في إحدى

الأمسيات الزعيم عن السبب في وجود هذا العدد الكبير من الفقراء والجائعين... قال الزعيم:

– لماذا يا ترى؟

– النظام الاستبدادي الذي أقامه الأتراك في بلادنا، يعتمد على نهب خيراتنا وخبزنا كي يسمنوا هم على حساب فقرائنا، اسمع أيها الزعيم. أريد أن أقول لك ما قرأته في جريدة إيطالية، عندما أطاحوا بالسلطان الدموي عبد الحميد، استولوا على جميع أملاكه، وحده كان يملك 1175 ضيعة في سورية، هل تعلم ماذا يعني هذا؟!

تعالى الصفير من الجالسين، لقد فوجئوا بالرقم، ولكن صالح بنبوك وأصدقاءه صدقوه، تابع الأستاذ يقول:

– هل يعني أنه كان يملك ثلث أراضي سورية الزراعية وما عليها من زرع وبيوت ومواشي وبشر...

فقال الزعيم وهو يمسح شاربيه:

– هذا ليس كثيراً، المهم أن الثلثين الباقيين يملكهما الشعب السوري.

فأجاب الأستاذ على الفور، وكأنّه كان يهمّ بالوقوف على قدميه:

– بل الإقطاعيين أمثاله هم الذين يملكون الثلثين الباقيين. الإقطاعيون أمثال جمال باشا والضباط الأتراك الآخرين وأصدقائهم الإقطاعيين العرب من العوائل ذات الأسماء الكبيرة. ماذا بقي لهذا الشعب الذي تتحدّث عنه؟ لم يبقَ له سوى الذل والموت جوعاً. إنك لا ترى على ما يبدو، كيف يجوع الناس؟ لأنك واحد مثلهم، غني ومتعهد.

كان صالح يفكّر في كلام الأستاذ المقنع، عندما يكون عائداً إلى البيت، من القهوة، تحت جنح الظلام، وعندما كان يستلقي في حجرة القبو، بعد أن يكون قد فرغ من التفكير بزوجته فلأول مرّة يسمع كلمات من صنف: الطبقات، طبقة الفقراء، طبقة الأغنياء، تحالف طبقة الأغنياء مع الاستعمار العثماني لنهب البلد... وغيرها. ثم تحدّث مرّة مع أم ربيع فقال: هذا الأستاذ... بدعة، الله يحميه..

وعندما كان يذهب بعد الظهر إلى المقهى. كان يبحث عن الأستاذ، قبل أن يقوم بطلب قهوته التي كان يشربها على مضض. وكان الأستاذ عندما يأتي، يجلس

فوراً على طاولة صالح. فقد كان صالح يستمع إليه باهتمام ويؤيد كلامه. وكان يستوضح مراراً عن كثير من المفاهيم والأخبار التي قالها الأستاذ في الليلة الماضية، ولم يستطع صالح أن يستوعبها بشكل جيد، حتى أنه قال للأستاذ في إحدى المرات:

– اسمع أيها الأستاذ المحترم، لا تخف من الزعيم. إن حدث شيء فنحن على استعداد.

فنظر الأستاذ في عيني صالح باستغراب وود.

وفي إحدى المرات، أوصل صالح الأستاذ حتى بيته. كان الأستاذ يتحدث عن علي بن أبي طالب، فقال:

– هل تعلم ما هو معنى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما اغتنى غني إلا بفقير فقير.

فقال صالح:

– أعلم يا أستاذ، هذا كلام بليغ وينطبق على أحوالنا في هذه الأيام.

– بسبب اغتناء الزعيم وإضرابه، يموت ألوف الناس من الجوع.

سارا وهما صامتان، في الظلام الدامس الذي سربل الطريق إلى حارة الريش التي كان يعيش فيها الأستاذ، والتي لا تبعد عن سوق الصغير إلا مئتي خطوة. كانت تشاهد من بعيد شعلة سيجارة صالح. أحسّ بالحب نحو الأستاذ. قرّر أن يحدّثه عن حياته. أخبره كيف أخذوه إلى الحرب، وكيف أصيب بصدمة من جراء انفجار قنبلة بقربه، وكيف عاد مع العقيد زهدي، وماتت زوجته من جراء مرض التيفوس الذي نهشها حتى العظم، ثم قال:

– إنهم مسؤولون عن موت زوجتي فكرية، ومع ذلك فهم يلاحقونني، ولكنني سأهرب منهم إلى الأبد، هل أستطيع أن أثق بك بعد أن قلت لك حقيقتي؟

توقف الأستاذ، واستدار نحو صوت أنفاسه المتلاحقة، نتيجة التدخين المستمر، وضع يده على ساعد صالح وقال:

– إذن فنحن أصدقاء، بل إخوة إن شاء الله. أنا أيضاً يلاحقونني. لقد فسد علي الزعيم لدى السلطات، هكذا أشعر، إنه يهددني بنظراته.

فقال صالح:

– إذن عليك أن تتوقف عن المجيء إلى القهوة.

– سوف أفعل، لن أسلم نفسي بسهولة.

وصلا إلى البيت. دعاه الأستاذ للدخول وشرب الشاي، لم يكن صالح قد شرب الشاي من قبل. أدخله إلى غرفة شمالية باردة. أشعل لمبة كاز، فأنارت الغرفة التي تكومت على أرضيتها مجموعة كبيرة من الكتب والكراريس. خرج الأستاذ لتحضير الماء الساخن اللازم لصنع الشاي في المطبخ. تجول صالح في الغرفة. راح يقلب الكتب المجلدة بأغلفة سميكة. كانت مكتوبة بلغة أجنبية، وبحدس عرف أنها الإيطالية. كانت هناك عدة كتب مفتوحة عند صفحات معينة ومقلوبة كي لا تنطبق. أمسك كتاباً بدون غلاف. كان باللغة العربية، قرأ في الصفحة الثانية (طبائع الاستبداد للأستاذ عبد الرحمن الكواكبي)، آهه... هذا ابن بلدنا، حدّث صالح نفسه، فتح الكتاب، ثمّ جلس بجانب اللمبة، وقرأ فقرة كاملة، كانت عن الدعوة للتحرر من الاستعمار العثماني وإقامة الدولة العربية المستقلة.

دخل الأستاذ حاملاً صينية نحاسية، جلس إلى جانب صالح، وراح يسكب الشاي في طاستين نحاسيتين.

– انتظر حتى تبرد، وبعد قليل قال الأستاذ: أرى أنك تتسلى.

– إنني أفحص عدّة الشغل الخاصة بك.

ضحكا، سلّك الأستاذ صوته كعادته باستمرار، وقال:

– وأنت ماذا تعمل؟

– إنني عامل نسيج في معمل الحاج سامي صائم الدهر، إلا أنني عاطل الآن. سمعت من عبد الفتاح، الذي يجلس معنا على القهوة، أن الحاج على وشك أن يغلق معمله. لا يوجد عمل، ثم إنني أخاف الذهاب إلى هناك فتكتشفني الجندرمة. مكان عملي مسجل في دفاترهم.

– إذن... فأنت عامل نسيج.

– نعم... وماذا في ذلك؟

– بالعكس، هذا يجعلني أرتاح إليك أكثر، فعمال النسيج يتمتعون بوعي جيد.

– إنني أسمع هذا الكلام لأول مرة، بل قل إننا أكثر الناس جوعاً، فنصف

الأنوال توقفت منذ سنة وحتى الآن. الجميع يبحثون عن عمل، ولا من مجيب.

راحا يرشفان الشاي من الطاسات الحارة. استمتع صالح بطعم الشاي، فقال:

– لقد سئمت قهوة أبو سلمو، لا أعلم ماذا يضع فيها، لها مرارة الخشب المحروق. شايك هذا أفضل.

أجال عينيه في الغرفة، تطلع إلى أكوام الكتب والكراريس:

– وهل قرأت كل هذه الكتب؟

– ليس كلها... بعضها فقط.

– إنني أحسدك لأنك تقرأ باللغة الإفرنجية، كم سنة مكثت في إيطاليا؟

– ثلاث عشرة سنة كاملة، مات خلالها أبي وأمي وشقيقتي، وتزوج الباقون، وبقيت وحدي. أشار بيديه الاثنتين وقال: كما ترى...

تمتم صالح:

– الله يرحمهم، تعيش أنت.

التقط مجلداً وفتحه، كانت تتصدر الصفحة الأولى، صورة شيخ مهيب ذي لحية طويلة وعريضة مثل الكف وعينين نفاذتين، سأل:

– ومن هذا الشيخ؟

– إنه ماركس.

– لم أسمع به من قبل، وهل كتب هذا الكتاب؟

فأجاب الأستاذ وهو يلتقط عدة مجلدات متشابهة:

– وهذا... وهذا... كتب كل هذه الكتب. بالأحرى، إنهم كتاب واحد، اسمه رأس المال.

– وما معنى: رأس المال؟

– إنه الأرض والمواشي التي يملكها الإقطاعي، أو المعمل والآلات التي تعمل عليها أنت. وهي النقود التي يشتري بها الحاج سامي الغزل ويبيعه بعد ذلك نسيج الحرير كي يربح.

ثم راح الأستاذ يشرح لصالح الذي كان ينصت وهو يدخن، كيف خرج ماركس على العالم وهو يشرح نفسه فكرة علي بن أبي طالب، وهذه المجلدات مكرسة كلها

لهذا الشرح، ثمّ قال إنّ ماركس هو أبو العمال والفقراء والجائعين، وإنّ أتباعه يسمون (كومونيستو) وقد قاموا في إيطاليا، ضدّ الأغنياء، قبل عدّة سنوات، وتسلّحوا في مواجهتهم.

في اليوم التالي، وصل رجل يسير على عكازتين. كان جاسم، صاحب القدم المقطوعة. قرع الباب، وسأل عن بهية. نهض صالح، الذي كان مستلقياً في فراشه في حجرة القبو وهو يقرأ في كتاب الكواكبي، واقترب من الباب. تعارفا على الفور، فأدخله صالح، وأجلسه على كرسي خشبي، بينما عاد هو، وجلس في فراشه. راح جاسم يعطس، فقد تندّى من المطر الذي كان يهطل في الخارج. سلّمه الرسالة بعد أن مسح وجهه بباطن سترته.

كانت الرسالة مكتوبة بخطّ عمر الذي لا يُقْرأ:

امرأتي بهية:

كنت في المستشفى، كان معي صالح، ولكن صالح أخذه العقيد، بعد أن أعطاني ورقة تسريح من الجيش لكي أرجع إلى حلب، بل أنا خائف، الورقة بدها ختم الجيش في بغداد، أنا هلّقْ تركت المستشفى، رحت إلى الشيخ درويش، وهو رجّال محترم له هيبة.

شلون الأولاد، هل مرّ صالح لعندكم؟ مع السلامة، عمر بنبوك.

ملاحظة: أنا كتبت الرسالة بخط إيدي.

بعد ساعة خرج جاسم، بعد أن استراح، ودخّن سبع سجائر دون انقطاع. كان عليه أن يسرع بالذهاب إلى سوق المدينة لشراء جلال للحمار. أخبر صالح أم ربيع بمحتوى الرسالة، فتجهّم وجهها. كانت تنتظره. كانت تريد أن يأتي عمر ليلمّ ابنتها، فالمرأة تفهم المرأة، إلا أنّ أمّ ربيع كانت تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وتبعد عن ذهنها أية خاطرة سيئة بحق ابنتها، فهي التي ربتها، وهي تعرفها كما تعرف أصابع يديها، إلا أن هناك شيئاً مبهماً تحس به الأم في قهر شعورها العميق دون أن تخرجه وتبوح به حتى إلى ابنتها. كان الذي يعزز إحساسها ذاك، عودة النضارة إلى وجه ابنتها، بعد أن نحفت، واصفرت وظهرت بعض التجاعيد الخفيفة تحت جفنيها، ولاحظت على ابنتها خفة الروح، والضحكات الماكرة. كانت كثيراً ما تسمعها تدندن

أغاني الحب لعبدو الحمولي.

عبست أم ربيع، وعادت تدير الدولاب الذي كانت تعمل عليه.

وفي المساء، عندما عادت بهية من العمل، وسمعت خبر الرسالة. جلست على الأرض، وصفقت يداً بيد، ثم صَفَنَتْ، وقد رسمت على وجهها ملامح من يسمع خبراً سيئاً. إلا أنها شعرت براحة تحتلّ كيانها، وبأنّ ثقلاً عظيماً قد انهار عن صدرها. دون أن تظهر ذلك، لعلمها أن أمّها تراقبها. إلا أنّ الأم انخدعت مرة أخرى. كانت بهية تمثل بشكل رائع. كانت تعلم أنّ الصبي الذي عينه البيك، لجلب الشغل إليها، قد حكى. فكلّ الظواهر تسير اللعاب للثرثرة. امرأة شغالة، ينقلها المعلم إلى بيت بمفردها. وهذا البيت يحتوي على سرير مفروش، بل قل غرفة نوم كاملة وحمّام ومطبخ. وأكثر من ذلك، فقد شاهد البيك، عدّة مرّات، وحيداً معها. قال عامل النول العجوز الذي وصلت إلى أذنيه هذه الثرثرة:

– ما اجتمع رجل وامرأة على انفراد إلا وكان الشيطان ثالثهما...

وقال هذا الكلام شخص آخر، سمع الإشاعة، فنقلها إلى آخر.

– يا للبهدلة، زوجة عمر بنبوك، حفّار الآبار النظيف الذي تركها، وذهب إلى الحرب، وابنة الحاج علي الزيات الرجل التقي الذي مات، ودفن في الأرض المقدسة، قد زلت قدمها. باعت نفسها للبيكاوات أصحاب الثروات. وهل وصل الخبر إلى الحاجة أم ربيع؟

– لا أدري، ولكن سرعان ما سيعود زوجها. سيذبحها ولابد.

– إلا إذا قتل في الحرب، وقتها سيأخذها البيك زوجة ثانية له.

– يبدو أنك ساذج، بل سيطردها عندما يشبع منها. نهايتها في (المنزول). قهقه المتكلم بسفالة، ثمّ تأتأ:

– كم أتمنّى أن يحدث ذلك هلّق، فسأذهب إليها، وأعطيها ضعف ما تريد، سأشقها نصفين...

وحدث في أحد الأيام، أن كان صالح جالساً عند حلاق الحارة أبو فهمي، المقابل لجامع سوق الصغير. كان يمضي الوقت، حتى يحين موعده مع الأستاذ الذي كان يدرس بعد الظهر في مدرسة السلطانية. دخل رجل معروف لصالح،

وجلس إلى جانبه. تمعّن صالح في وجه القادم، وهو يستمع إلى أبي فهمي الذي كان يروي القصص كشلال لا ينتهي. استدار الرجل نحو صالح، فعرفه على الفور، إنه فتحي كريم، صانع الأقفال عرفه فتحي أيضاً.

- كيف حالك يا فتحي؟

- الحمد لله، كيف حالك أنت يا أبو حسن؟

- لا شيء يبل القلب، أنا قاعد بدون عمل.

- مثلي تماماً، يمر الشهر دون أن أركّب قفلاً واحداً، على قول المتل (إذا كان الإمام ضراط، المقتدي شو بدو يساوي).

ضحك الجميع. مرت لحظات، ثم سأل فتحي كريم:

- ماذا يفعل ابن عمك عمر؟

- لا يزال في الحرب، في جبهة بغداد.

- الله يجيبه بالسلامة.

قال ذلك، ثم نهض، وأمسك بيد صالح، وخرج به إلى الطريق.

- ماذا إذن؟ سأل صالح.

- أريد أن أحدّثك على انفراد، موضوع مهم.

تأتأ قليلاً. كان يريد مدخلاً لحديثه. جمع قوته، وقال:

- هل سمعت شيئاً؟ إشاعة ما؟

- عن أيّ موضوع؟

- عن بيت ابن عمك عمر... عن امرأته...

- لا... لم أسمع أيّ شيء.

- أنا صديق، وأريد مصلحتك، لذا فأنا سأتكلّم. لعلّك تجد حلاً. زوجة ابن عمك تعمل عند البيك في المشغل.

- أعلم ذلك... قال صالح وقد امتقع لونه.

- يقولون... إنه ... يتصرف بها كيفما يشاء.

- ماذا تقول؟ قال صالح بحدة وهو يعاني من خفقان قلب شديد.

- الله وكيلك، هكذا يقولون، يبقى الأمر مجرد إشاعة، قد تكون المرأة بريئة،

فهي على كل حال، ابنة رجل تقي ومعروف، الله يرحمه.

قال فتحي ذلك، ثمّ سلّم، وانصرف دون أن يعود ويدخل إلى دكان الحلاق كي يقص شعره.

وهكذا فعل صالح أيضاً، سار باتّجاه البيت ورأسه مطرق، كانت تتقاذفه آلاف الأسئلة التي تبقى لديه دون أجوبة. كان يشعر بأنّ المرأة قد تغيّرت عمّا مضى. أحس بغريزة الرجل أنّ بهية تعيش حياتها وترتوي. أما تلك اللفتات والغندرة التي تقوم بها، وطريقتها الأنثوية جداً بمضغ العلك، وتورد وجهها واكتمال أنوثتها... كل هذه الأشياء جعلته يحسّ بأنها، هذه السافلة، تقوم بعمل ما.

ماذا يفعل؟ .. فكّر.

هل يحكي ما سمعه لأمّها؟ هل يذبحها؟ هل يمنعها من الخروج؟ وإن جاء عمر أخيراً... هل يخبره بكلّ شيء؟ ضجّت الأسئلة في رأسه، فعاد وأحسّ بذلك الطنين في أذنه الصماء، وبألم في رأسه من جهة الجبهة.

عندما وصل إلى باب الدار، تراجع. قرر أن يتروى. أن لا يخبر أحداً قبل أن يقلّب الأمر جيداً في ذهنه. ما ذنب العجوز، ما ذنب الأولاد؟ الأفضل... هكذا فكر وهو يسير باتّجاه حارة الريش أن يتكلّم معها بالذات. أن يسمعها. في الماضي، لم يذبح فكرية زوجته، بل استمع إليها، وجعلها تحسّ أنّه نسي الأمر إلى الأبد، فكانت أفضل امرأة عرفها في حياته، وسمع عنها. أحبّته ورعته لأنّه حفظ سرها. على المرء أن يحفظ سرّ المرأة. أن لا يكشفها أمام الناس، أمّا الذئاب، بل عليه أن يبقي ذلك الستار الذي تحبّ المرأة أن تقبع خلفه. عندها لن تتحول إلى لبوة، ولن تصير إلى ذئبة جائعة سطا أحدهم على مملكتها. بل ستصبح حمامة. ستعود إلى جوهرها الجميل البريء. هكذا علّمته الحياة مع أم أحسن، وعليه أن يفعل نفس الشيء مع هذه الكنة التي ولدت ثلاثة أطفال، ثمّ استقرّت بين أحضان رجل غني بينما زوجها غائب.

استقرّ في غرفة الأستاذ، التي جعلها مستودعاً لكتبه ودفاتره. كان الأستاذ قد وصل منذ دقائق، وتناول غداءه، بيضتين وقطعة من المخلل، كان الأستاذ يحضّر الشاي وهو يتكلّم بسرعة عن يومه الذي قضاه في المدرسة، كان يتكلّم عن الأساتذة

الآخرين والطلاب الذين لا يفوتون مناسبة إلا ويعبّرون عن رغبتهم في التحرر من الاستعمار التركي:

– الجميع، في المدرسة، هائجون. جمال باشا يريد محاكمة الوطنيين من (العربية الفتاة) و(حزب المركزية). لقد أرسلهم إلى عالية في الجبل. بالأمس اعتقلوا مدرساً آخر، ما هذا؟ إلى متى سيستمر هذا الأمر؟ أتعجب كيف لا يخرج الناس إلى الطرقات ليواجهوا بصدورهم، طلقات الأتراك...؟ إنهم يعولون على الإنكليز والإفرنسيين. يعتقدون أنّ الخلاص لن يأتي، إلا على أيديهم، والآن، إنهم يتكلّمون عن وساطة الشريف حسين وابنه الأمير فيصل، من أجل منع جمال باشا من إعدام الوطنيين، إلا أنّ جمال باشا مصّرْ، عل تعلم ما هي آخر أخبار جبهة العراق؟

– ما هي؟ قال صالح وهو شارد الذهن.

– لقد انتقم الأتراك من الإنكليز، انتقموا لفشل حملة القناة، إنهم يحاصرون ألوف الإنكليز في كوت العمارة، حيث كنت أنت، أتعجب كيف استفاقوا أخيراً، ولكنني أعتقد أنها الصحوة قبل الموت. لا يمكن للأتراك أن يصمدوا على جميع الجبهات، وأمام من؟ أمام الأوروبيين الاستعماريين، الذين يجنّدون بلدان الدنيا جميعاً لمحاربة تركيا وألمانيا. أنت لم ترَ الأوروبي بعد، إنّه نظامي ومسلح حتى الأسنان أمّا الجيش التركي فأنت تعرفه بشكل جيد. مهلهل، ويعتمد على جنود جائعين ليس لهم في هذه الحرب لا ناقة ولا جمل، هذا عدا الأسلحة المهترئة، في اعتقادي، حان وقت دفن هذه الإمبراطورية السخيفة، ما رأيك أنت؟ ... ما بك يا أخي؟

استفاق ذهن صالح، كان يفكّر في بهية، قرّر أن يسأل الأستاذ عن طريقة يفاتح بها المرأة عن مخازيها. قال له بتأتأة ظاهرة:

– فكري مشغول. قرّرت أن آخذ برأيك في مشكلة عويصة صادفتني. أنت تعلم أن ابن عمي عمر، لا يزال في العراق. لقد حدثتك عنه، وأنا الآن أسكن عند أم زوجته، حماته. إلا أن زوجته تتصرف بشكل سافل. إنها تعمل عند أحد البيكاوات، في مشغل لنسيج الحرير، وقد وصل إلى سمعي أنها تزني معه، تخون زوجها، أنا أعلم أنها كانت تفعل ذلك من أجل إطعام أطفالها، إلا أنها، في النهاية، زانية.

قررا أن يقوم صالح بسؤالها، لعلّ الأمر غير صحيح، ومع ذلك، كان صالح

متأكداً بأنّ المرأة تخون زوجها. وعندما سأل نفسه عن البرهان، لم يتمكن من الإجابة. فقط، كان حسّه دليله إلى إدانة المرأة.

في المساء، جلس في فراشه في غرفة القبو، وراح ينتظر مجيئها لإحضار شيء من أجل الطبخ. كانوا، في العادة يخزنون الأشياء والمؤونة في القبو، ومازالوا مع أن المؤونة، أصبحت تقتصر على البصل والخبز الجاف والزيت. سمع قرقعة أدوات الطبخ في المطبخ، فثار قلبه، وراح يدق بسرعة، فبعد قليل ستأتي. في الماضي كان يتحاشى الجلوس في القبو، حتى تنتهي من طبخها ويتناولون العشاء. كان يجلس مع أم ربيع في غرفتها أو يلاعب الأطفال حتى ينسيهم الجوع.

نزلت بهية الدرجات الثلاث إلى القبو. شاهدها على ضوء سراج الزيت وهي تراقبه بحذر بعد أن فوجئت بوجوده. استدارت، وراحت تبحث بين الأشياء، عما تريد وهي تلقي تحية خجلى:

– يسعد مساك يا أبو حسن.

مسّى عليها هو أيضاً، ثمّ راح يراقب خلجات جسدها الجميل اللدن وهي تتحرّك. في الصيف يبدو أجمل، هكذا فكّر. ثمّ تصورها عارية ويد البيك مرتاحة على ردفيها. وصلت إلى خياشيمه رائحة عطر السوسن الجميل الذي كانت قد مسحت به عنقها وما بين فخذيها في مشغل البيك ابن الورد.

همس من الخلف، فجفلت المرأة:

– اقتربي، أريد أن أفهم منك موضوعاً. اقتربي حتى لا يسمعنا أحد...!

وبمغناطسية، اقتربت بهية، وجلست القرفصاء بجانبه. كانت تدفع وجهها قريباً من وجهه وهي تنظر مباشرة في عينيه. استمرت في مضغ العلك ذي الرائحة النفاذة، ثمّ ابتسمت بسفالة. شاهدت بوضوح انفعاله، وأحسّت بخفقان قلبه. كأنه هو المذنب، كان يجاهد في أن يبدو قاسياً ولكن بلا جدوى، فحسبت أنه يريد شيئاً ممنوعاً.

قال بعد أن بلّل شفتيه:

– يتحدّث الناس عنك، يقولون إن البيك ابن الورد، الذي تعملين عنده ... أقول... إنهم يقولون، إنه يستغلّ وجودك عنده. أخبريني الحقيقة.. لن أحكي لأحد، لن تعلم أمّك بأيّ شيء...!

فكرت المرأة قليلاً، توقفت أنفاسها لحظة، وتوقفت هي عن مضغ العلك، وبحركة حاقدة متقنة بصقت العلك وكمية من البصاق حتى حفرة تجميع الماء عند الدرجات، فوصل الرذاذ إلى وجهه.

– لا عمل لهؤلاء الناس سوى علك الإشاعات والثرثرة. إنهم أولاد قحبة مفعول فيهم. ماذا يريدون مني؟ أن أقبع في هذا البيت وأموت أنا وأولادي وأمّي من الجوع. كنت أعلم أنهم سيثرثرون، فلتنشق فروج أمهاتهم.

وبأنثوية خاطئة، راحت تبكي بصوت خافت. شرقت أنفها، ومسحت دموعها بظاهر كفيها، تطلعت إليه بتحد، وقالت:

– ماذا تريد الآن؟

– لن تذهبي إلى العمل بعد الآن...

– وكيف سنأكل؟

– سأعمل أنا، غداً سأذهب إلى معمل الحاج سامي، يجب أن تتوقف هذه الأقاويل.

أطرقت بصمت لدقيقة. كأنها اعترفت بكلّ شيء. فكّرت... لطيف أمر هذا الرجل. كان يجاهد كالمرأة. لو كان غيره لذبحها دون أن ينتظر السماح من أمّها. إنه ابن عم زوجها. يستطيع أن يفعل ذلك. إنه شرف عائلة بيت بنبوك.

سألته:

– كيف اشرح الأمر لأمّي؟

– أخبريها أنّ البيك لم يعد بحاجة إليك، قولي إنّه صرفك، وعندما يأتي عمر سأتدبر أمره.

بقيت صامتة ومحتارة، أرادت أن تقول شيئاً، إلا أنها، آثرت الصمت. إذن فليعلم أنها كانت تنام مع ابن الورد، فهو لن يخبر أحداً، وسيتدبر أمر عمر إن عرف شيئاً.

قالت: يا الله، ثمّ استقامت، ظلّت واقفة لبرهة وهي تتطلّع إليه. عادت وقرفصت إلى جانبه من جديد، إلا أنها التصقت به هذه المرة، همست في أذنه الصماء: أنا ممنونة. إلا أنه لم يسمع جيداً، بل كان يشعر بملمس جسد المرأة، جسد الأنثى الذي

حرمه إلى الأبد بموت فكرية. هذا الجسد الذي طالما حلم أثناء يقظته باحتوائه وعصره بين يديه، وذلك حينما كان عائداً إلى حلب. وضعت يدها على يده المستقرة على ركبته، ثمّ مطّت رأسها إلى الأمام، ولمستها بشفتيها. جذب يده كأنّ تياراً قد مسّه. هذه المرأة لن تتوقف عن ألاعيبها. لن تكبت اشتهاءها للرجل. لقد عودها البيك، علّمها، زرع فيها الغلمة. ليت عمر يعود، ويضب امرأته.

عندما أرسلوا إليه ابنه حسن ليدعوه للعشاء، اعتذر. قال إنّ رأسه يوجعه، أطفأ السراج، وبقي مستلقياً في فراشه. كان يكره نفسه. لأول مرّة في حياته، كان يشعر بعدم جدوى فحولته. كان عليه أن يكون أكثر قساوة معها. كان عليه أن يهينها. أن يحتقرها وربّما أن يصفعها. إلا أنه جبن. ضعف أمامها. وفي بعض الأحيان على الرجل أن يكون بلا رحمة مع النساء، وبلا قلب.

ولكن، ماذا فعلت، فيما مضى، مع زوجتك، عندما علمتَ أنها فقدت بكارتها مع شخص آخر؟ هل ضربتها، هل مارست رجولتك؟

على العكس، إذن... لماذا تكره نفسك؟

تقلّب في فراشه، كيف تجرؤ على إغوائه هذه الملعونة السافلة؟ لقد استطاعت أن تحرّك فيه الشهوة نحو جسد المرأة، إلا أنّها لن تستطيع أن تغويه من أجلها هي. لن تتمكن من ذلك، عليه أن يقتل في نفسه حبّ المرأة، فلا وقت لذلك. عليه أن يعمل، وأن ينسى.

استيقظ عند الفجر. بحث عن شيء يأكله فلم يجد. كانت هناك بقايا من مزيج الخبز الجاف والبصل والزيت الذي طبخته بهية في الليلة الماضية، (طبيخ الخبز).. أحس بالغثيان. كان يشتهي شيئاً حلواً. شرب كوباً من الماء، وراح يمضغ قطعة خبز جافة، ولما فرغ، أشعل أول سيجارة. وصل إلى أسماعه صوت مؤذن يتغنّى بقصائد محمدية. أعجبه صوت المؤذن الآتي من بعيد، كأنه كان يتغنّى بحبيبته، فشعر بالوحدة تجتاح أعماقه. كانت الحياة تسير ببساطة في الماضي، أما الآن، فالعبث يلف كل شيء. لا معنى لكل هذا الذي يجري، الحرب والجوع، وموت فكرية، وطفلته ذات التسعة أشهر، وهناك الاختباء عن أعين الجندرمة وخيانة بهية..

تمخّط بواسطة إصبعيه، ثمّ مسحهما بسرواله، ونهض. حان موعد ذهابه إلى

معمل الحاج سامي.

(11)

حل شباط لعام 1916 ببرده القارس. وهبّت على حلب رياح شمالية باردة وجافة جعلت الناس يأوون إلى بيوتهم مبكرين، بعد أن كانوا قد تسكعوا في الطرقات طوال النهار بحثاً عن عمل. عند المغرب، كان الشيخ حسن، وهو مؤذن جامع سوق الصغير فعلاً، يؤذن بصوت خافت عطله البرد. كان صوته يتحشرج عدة مرات، وعندما ينتهي من الأذان، كان الشيخ يختمه بسعادة، ثمّ يهرع إلى القبلية ليؤمن اثنين أو ثلاثة مصلين لا أكثر، ثمّ يقوم، هو والمصلون، الذين كانوا لا يرغبون مثله بالخروج من المسجد، بالتدثر بعباءات من الفرو، انتظاراً لصلاة العشاء، وهم يثرثرون حول غضب الله الذي أصاب الناس بسبب فسقهم وفجورهم.

وعلى امتداد سوق الصغير، من باب الحديد وحتى اقيول، كانت الخانات الفارغة والبيوت المغلقة تستقبل الظلام بكآبة. فحتى القطط وحمام البيوت ذات اللون البني والرمادي كانت تقبع في زوايا الغرف التي أشعل أصحابها بعض أغصان الزيتون في أوعية خاصة، ذات قوائم، تسمى (الشّقف).

في مثل هذا الوقت من كلّ يوم، اعتاد صالح بنبوك أن يعود إلى بيت أم ربيع راكباً حماراً اشتراه بمبلغ لا يتجاوز العشرة قروش، وبدأ بواسطته عملاً وهو توزيع الحطب والفحم غالي الثمن إلى البيوت والمقاهي والحمامات.

كان صالح يخرج صباحاً إلى خارج المدينة ويقوم بجمع الأغصان اليابسة، وشراء الفحم من الفلاحين الذين كانوا يقطعون أشجار الزيتون والصنوبر ويحرقونها في تلال مردومة بالتراب حتى تتحول ببطء إلى الفحم. إلا أن هذا العمل كان أيضاً، معرضاً للمصادرة من قبل الأتراك الذين كانوا بحاجة ماسة للوقود لتسيير قطاراتهم إلى حماه وحمص ورياق أو بالاتجاه الآخر إلى الأستانة.

لقد قام الأتراك بقطع الآلاف من أشجار الزيتون والصنوبر والأكاسيا، وحتى الحور، وأصبحت بساتين الباشا وحمو والعويجة والزهرة والمسلمية والوضيحي جرداء قاحلة، وأصبح الطلب على الفحم كالطلب على الخبز، إلا أنه كان غالي الثمن، لا يحرقه إلا الأغنياء.

الأستاذ خلوق هو الذي نصح صالح بأن يقوم بهذا العمل، كان ذلك في نفس اليوم الذي ذهب به إلى معمل الحاج سامي.

فحينما ذهب صالح إلى المعمل، لم يستطع حتى أن يرى الحاج سامي، كان ريّس العمال موجوداً. أخبره أن المعمل يخسر ومن غير الممكن توظيف أيّ عامل آخر. قال له:

هذا الزمن قاس على الجميع، اذهب وابحث لك عن عمل آخر. عاد صالح وهو يشتم حظه، والحاج سامي. ولم يرجع إلى البيت، حتى لا يلتقي بأعين بهية الشامتة. ذهب إلى مقهى أبي سلمو وطلب قهوته، ثم راح يشربها كعادته، وهو يتقزز. كان عليه أن ينتظر عودة الأستاذ من المدرسة. لقد وجد فيه متحدثاً جيداً، ولاعب شطرنج سيء. ولكن هذا لا يهم. رغم أن صالح يكره اللعب البطيء الذي (يطالع الروح) حتى أنه كان يخطئ عن عمد، كي يشجع الأستاذ على اللعب.

في المقهى، راح صالح يمضي الوقت، وهو يرقب الزعيم، الذي كان يلفّ نفسه بعباءة من صوف الغنم، وكان كعادته يشرب نفساً وهو يستمع إلى ثرثرة أصحابه.

تذكر صالح قول الأستاذ عن الزعيم: أكلو من السلطان وضراطو على الحيطان، فابتسم.

في الموعد المحدد دفع إلى أجير المقهى ببرعود وسار باتجاه حارة الريش. هناك، وجد الأستاذ برفقة اثنين من زملائه. كان الأستاذ يتحدث عن شيء اسمه (كومونة باريس) وعن ثورة ستقوم في كل الدنيا تقلبها رأساً على عقب. الفقراء سوف يثورون. هكذا تنبأ ذلك الشيخ صاحب الصورة في الكتاب الطلياني، ماركس.

– الفقراء لا يفهمون معنى الثورات، إنهم حثالة بدون عقل. إنك يا أستاذ، تقول طلاسم الأفضل لك أن تنتسب معنا إلى حزب اللامركزية، إنه يناسب المثقفين.

هكذا قال أحد زملاء الأستاذ بصوت رفيع كصوت صبي، فأجاب الأستاذ خلوق:

– حزبكم لا يرضيني، فأنتم تدعون، كما قلتم، لدخول الحكومة والبرلمان العثمانيين وتسعون للاستقلال الذاتي ضمن الإمبراطورية العثمانية، فهذا غير كافٍ. لا خلاص لنا إلا بخروج الأتراك من بلادنا، وعلينا نحن أن نحكم أنفسنا بأنفسنا،

اذهب، وقل لرئيسكم رفيق العظم، بأنّ استقلالنا ليس بالضرورة عن طريق وضعنا تحت وصاية الدولة الإفرنسية.

وعندما خرج زميلا الأستاذ، سأل صالح عن معنى (كومونة باريس) فقال الأستاذ:

– ثار العمال والفقراء في مدينة باريس عام 1871، وطردوا الرأسماليين ثمّ أقاموا حكومة عمالية دامت سبعين يوماً.

– وما الفائدة؟ سأل صالح.

– ما الفائدة؟ لقد جعلوا الغذاء والكساء مشاعاً لجميع الناس. هذا هو الطريق الصحيح للقضاء على الجوع. أن تأخذ من الغني وتعطيه للفقير، هذا هو الطريق الوحيد.

ثم تلا على صالح قول عمر بن الخطاب: ما جمع مال من حلال قط.

وفي غسق ذلك اليوم، عندما كان صالح عائداً إلى بيته وهو راكب حماره، كان يقلب في ذهنه أقوال الأستاذ، هذه الأقوال والأسماء والتعابير الغريبة، التي جاء بها لأول مرة. إلا أن الشيء الذي أعجبه كثيراً في الأستاذ هو حبه للفقراء، رغم أنه ليس منهم فلأول مرة يسمع صالح كلاماً فيه ثقة بالفقراء، ثمّ تردد في ذهنه صوت الأستاذ وهو يخاطبه:

– يا صالح... لا تكن غبياً... الخلاص بيد الفقراء، أما الأغنياء فهم على استعداد لبيع البلد إلى مشترٍ آخر.

الغني سيبقى غنياً، أما الفقير فسيزداد فقره.

إذا ما قام كلّ فقير وقتل غنياً، فستنتهي المشكلة بلمح البصر.

إياك أن تثق برجل غني. هل تستطيع أن تثق بإحداهن؟

اسمع يا صالح. هناك مثل يقول: ليست القحبة من تأخذ نقودك، وترفع لك ساقيها بل القحبة هي التي تأخذ نقودك، ثمّ تمتنع عن رفع ساقيها. إنهم ينهبوننا عندما نعمل، ثمّ علينا أن نموت جوعاً...!

وفكّر صالح وهو يلكز حماره بكعب حذائه، هذا الأستاذ بذيء مثل الأميين إلا أن كلامه جوهر. وصل إلى باب الدار، أدخل الحمار. أبقاه في الدهليز، ثمّ أنزل

الجلال. قرب منه وعاء فيه بعض كسرات الخبز الجاف، ودخل إلى المرحاض.

كان يعاني من إسهال قوي، فقد أصيب هذا الشتاء الديزانتريا. ذهب إلى اليهودي في حي بحسيتا، فأعطاه كمية من الحبوب ومنه من أكل البرغل وشرب القهوة. ابتسم صالح وطمأنه، فمنذ زمن طويل لم يأكل البرغل، أما القهوة فقد رحّب بفكرة الامتناع عن شربها، وخصوصاً القهوة غير المحلاة التي كان يشربها من وقت لآخر في مقهى أبي سلمو.

نظّف نفسه بالماء، ثمّ غسل وجهه ويديه. كان الماء شديد البرودة، فدرجة الحرارة أدنى من الصفر. وعند الصباح، كان الماء يتجمّد في الأوعية وعلى قادوس البئر. تذكّر وهو ينزل إلى قبوه، ويبدّل ألبسته سنة الثلج العظيم، فقبل ست سنوات، استمرّ هطول الثلج أربعين يوماً، وكان حسن لم يبلغ الثانية بعد، إلا أنّه أصيب بالتهاب رئوي لازمه حتى الخامسة من عمره. كان منظر الثلج رائعاً، ولكن سرعان ما أصبح الثلج عقبة أمام الناس من أجل تحصيل الرزق. فقد تجمّدت الأرض، وتلفت المزارع، وانعزلت المدينة عن المدن الأخرى، فتوقف القطار عن السير وبدأ الناس يتسولون الأطعمة والفحم بعضهم من بعض، وهم يبتهلون إلى السماء كي تنزل المطر، فبهطول المطر سترتفع درجة الحرارة، وسيذوب الثلج.

ارتدى بنطالاً وقنبازاً من الصوف، ثمّ وضع طاقية من اللباد، وهم يترنم بأبيات من اسق العطاش لا تلائم هذا الزمهرير:

املأ لي الكاسات   يا ساقي الأجواد
وانعش من قد مات   ظمآن الأكباد

في مثل هذا الوقت اعتادت بهية أن تقوم بتسخين طعام العشاء. سمع صالح صوت خطوها، فقعد وتدثر باللحاف، ثمّ أشعل سيجارة بانتظار أن يدعى، لقد أمّن بعمله هذا الفحم والحطب للبيت. كما أنه استطاع بالقروش القليلة، التي راح يكسبها، أن يقوم بواجبه في تقديم الطعام اللازم له وللمرأتين وللأطفال الأربعة. كان يحسّ أنه رجل البيت بالفعل، وهذا ما كان يسعده.

بالقرب من الشقف، تربعوا، وراحوا يمضغون مقلي القرع الشتوي الذي اشتراه من أحد الفلاحين. كان الأطفال يتبارون في الأكل، وقد جعلوا جوّ المرح يخيّم على

الكبار. كانت بهية تضحك وهي تطعم الأطفال، وكانت تلقي نظرات سريعة وهادئة نحو صالح. خيل إليه أنها كانت تسأله: هل أنت مبسوط مني؟ ها أنذا أفعل ما تريد.. كانت سعيدة لأنّ أمّها لم تدرِ بالذي جرى بينها وبين ابن الورد. لم يخبرها بذلك، كما وعد بهية، وعندما أرسل البيك صبياً يسأل عن سبب انقطاع بهية عن العمل، طردته، قالت له: قل لابن الورد أن يغرب عن وجهي، وأن لا يرسل أحد بعد الآن. إلا أن البيك الجائع لجسد بهية الشهي، أرسل الصبي مرّة أخرى. قال لها الصبي إن البيك يريد أن يراها ليدفع لها حسابها، فكرت كثيراً، ثم قالت للصبي: قل له إنني سآتي غداً إلى المشغل.

وفي المساء، هبطت إلى القبو، ثمّ قرفصت بجانب صالح، وأخبرته بموضوع الصبي، دلته على المشغل. نهضت وقبل أن تصعد الدرجات الثلاثة إلى الخارج، استدارت نحو صالح، وسألته وهي تنظر في عينيه نظرة، احمرّ لها وجهه: هل تريد شيئاً مني؟ فقال: لا، وهو عابس.

وفي اليوم التالي، وبعد أن باع صالح حمله الأول، أبقى عصا من غصن شجرة جوز، ثمّ ذهب إلى المشغل. فتح له البيك بنفسه، فهذا المشغل بقي دون عمال. ضربه بالعصا على رأسه وظهره ومؤخرته، ثمّ بصق في وجهه، وقال له وهو يكشر عن أسنانه:

– شوف، في المرة القادمة سأحضر سكيناً، أقسم بربي إنني سأخصيك، إذا لم تبتعد عن كنتنا بهية...!

بعد أنّ انفضّ العشاء، نام الأطفال، لعبوا قليلاً على فراشهم الذي قامت بهية بفرشه على الأرضية، ثمّ استلقوا ملتصقين، كأنهم كتلة واحدة، وعلى ضوء السراج الزيتي، بقي صالح يتحدّث مع الحاجة أم ربيع. كان خبر موت ابنها قد ترك أثراً على وجهها. أثراً ظاهراً يحسّه كلّ من عرفها. فهو ابنها الوحيد المدلل. وبسبب كبريائها الشديد كانت تبكيه في الليل فقط، عندما كانت تستلقي، هي وبهية في فراش واحد. كانت بهية تحتضن خصر أمّها المنتفض وتقبّلها ثم تقول لها: نامي يا أمّي، كفى بكاءً! ... إلا أنّ الأمّ كانت تقول:

– إنني أبكي شاباً مات قبل أن يمدّ يده إلى الحياة، إنّني أبكي أجمل وأقوى

شاب في الحي. فتقول بهية، وهي تمسح الدموع عن عيني أمّها:

– أعلم ذلك يا أمّي، أعلم ذلك، فكلّ الناس قد فجعوا بعزيز كما فجعنا نحن.

وتنام الأم، وتبقى بهية تطارد النوم حتى منتصف الليل، لقد جاء دورها، إلا أنها كانت تفضّل أن تتنهد دون أن يسمعها أحد، حتى ولو كانت أمّها. كانت تعلم أن أمّها، حين تغفو، تغطّ في نوم عميق، فتروح بهية تتقلب في الفراش بحريّة. إنها لم تفقد عمر بعد، إلا أنها أخطأت. أخطأت في حقّه. فلم يكن الجوع وحده هو الذي أرسلها إلى البيك ابن الورد، كانت تعلم ذلك في دخيلة نفسها. إلا أنها أتت. سمعت كلامه. كان يكفي أن يغويها قليلاً، حتى تستلقي على ظهرها وتمد له يديها.

بحثت بهية في نفسها، سألتها هل الخطيئة مزروعة فيها، هل تسري في عروقها مع دمها الحار القاني؟ وعندما سمعت أعماقها تردد أن نعم، تمردت، قالت إن هذا ليس خطيئة، فهي امرأة في آخر الأمر. امرأة ذات إحساس وقلب وبشرة ونبض حي، امرأة أرادت أن تعيش، منذ الصغر، إلا أن القدر، قدر الجميع الذي أوقع الناس في هذه المهالك التي لا تنتهي، عارضها، وقف في طريقها، أخذ منها زوجها، فَحْلَها، الذي كانت تحبّه وتدلله. حتى أنها كانت تغسل قدميه، تطعمه بيديها. وعندما كان يشبع ويرتاح، كان يأتي دورها، لتشرب كأسها حتى الثمالة، لتمتص رحيق الحياة، ولتشارك الرجل، رجلها، في قوته وجبروته. إلا أنّ هذا القدر اللعين، أخذه منها. هي التي تنبض بالحياة وتفيض بها، هي التي امتلأت حتى فاضت كما يفيض الماء في الوعاء... فما العمل؟ في الليل بعد أن تنام أمها، كانت تمدّ يدها إلى نفسها، وتمارس عادتها التي تركتها عندما تزوجت، والتي تركتها أيضاً عندما راحت تعمل عند البيك ابن الورد، بأصابعها، كانت تبرد جحيمها الملتهب، الذي يقض مضجعها، والذي يجعل كلّ ذرة من بشرتها وعاء لألوف الإحساسات المتوفِّزة. وفي ذروتها كانت تتصلب عضلات فكيها، وتتشد أعصاب جسدها كلّها، وينتصب الزغب النامي على ساعديها وساقيها، فتعض على إصبعها حتى لا تصدر آهة لا لزوم لها في سكون ليل الشتاء الطويل والصامت.

آه يا صالح بنبوك، ودين النبي إنّك أحمق... آه يا صاحب الشطرنج، يا الأبله يا الأبرد من طيز السقا.

بعد آذان العشاء تماماً، اعتاد صالح أن يخرج من البيت كي يمضي السهرة عند الأستاذ خلوق. هناك، كانا يلعبان الشطرنج وهما يتحدثان في أمور البلد والسياسة. كان يأتي شخص آخر أو اثنين لتمضية السهرة معهما. عندها، كانا يتركان الشطرنج، وتتحول السهرة إلى اجتماع سياسي مناهض للأتراك. فكلّ أصدقاء الأستاذ يلتقون معه في هذه النقطة. أمّا كيف سيتم الاستقلال، فقد كان غير واضح للجميع. كانت الأحاديث تجري همساً. فالرعب الذي نشره جمال باشا في البلاد، جعل الناس تتحسب لكلّ شيء. وشاع أنّ الحيطان لها آذان تسمع، وأنّ يد جمال باشا طويلة. وكانت الأحاديث تبدأ عادة بسرد أسماء المعتقلين الجدد الذين زجّ بهم السفاح في السجون. وقدّر أحد ضيوف الأستاذ خلوق، وكان معلّماً جميل الطلعة، أنيقاً، يرتدي باستمرار طقماً أوروبياً وقميصاً بياقة مع ربطة عنق، يدعونه أبا النور، إن عدد المعتقلين قد تجاوز الألف، وكانوا جميعهم من المثقفين والدارسين، وليس هذا فحسب بل إنّ رجال جمال باشا ينكلون بالمساجين، ويقتلون منهم العشرات أثناء التعذيب. أمّا زعماء الحركة الوطنية فإنّهم ينتظرون محاكمتهم. وعلى الأغلب سيلاقون حكم الإعدام، رغم جميع الوساطات الدولية التي راحت تصل من الشرق والغرب للعفو عن هؤلاء الزعماء والإبقاء على حياتهم وعدم إرسالهم إلى المشانق كما حدث بعدد لا بأس به من الزعماء في آب من العام الماضي.

وقال أبو النور:

– لقد قبضوا على عبد الغني العريسي. قبضوا عليه في كمين. كان هارباً من الأتراك منذ صيف العام الماضي. اختبأ في الصحراء. الجميع كانوا يظنّون أنه كان في باريس إلا أن جمال باشا كان يتابع أخباره ويتجسس عليه، حتى تلقفه. إنه في "عاليه" الآن، مع عبد الحميد الزهراوي وعبد الوهاب الإنكليزي والآخرين. سيبدأون بمحاكمتهم سريعاً. لقد رفض جمال باشا ومن قبله أنور باشا وساطة الأمير فيصل... الوضع سيء، سيء جداً.

وتابع أبو النور بعد أن حشا غليونه بتبغ محلي ثقيل، وأشعله:

– كلّ الأحزاب والجمعيات مشتتة، والناس خائفة، فالزعماء سيشنقون، وإذا تمّ ذلك فل يكون هناك حركة وطنية ضدّ العثمانيين. أنا متشائم جداً.. هذا بالإضافة

إلى الوضع السيئ على جبهات القتال، فالألمان يحرزون الانتصارات على الجبهة الروسية، كما فشلت حملة الدردنيل التي قام بها الإنكليز والإفرنسيون، ويقولون إن جيشاً إنكليزياً كاملاً سيستسلم للأتراك في العراق.

صمت لحظة وهو يعبّ دخان غليونه، نفثه ببطء، وهو يتلذذ بطعمه. قال بعد أن تطلّع بكلّ من صالح والأستاذ خلوق:

– يجب أن تنتبه يا أستاذ خلوق عليك أن تختبئ! يبدو أنهم يراقبونك، كما أنهم يراقبونني. سأهرب إلى حارم، عند جدي. هناك الوضع أهدأ، والغذاء متوفر.

فقال الأستاذ خلوق بثقة:

– لن أترك بيتي...!

فقال أبو النور: أنت حر. ثمّ نهض، ودّع الأستاذ، وصافح صالحاً، وخرج، وعندما استقرا على معقديهما من جديد سأل صالح:

– لماذا ترفض مغادرة بيتك؟

– أين سأذهب؟ لست مضطراً للذهاب إلى بيت عمي وأنا هارب عن أعين الأتراك، فهو سيشمت بي. ثمّ إنني لا أطيق زوجته، إنها عجوز، شمطاء.

– وعمتك؟

– ميتة.

– رحمها الله.

سمع الأستاذ يقول: أتعيش. فتابع:

– عندي فكرة. يمكنك الاختباء في بيتي عند جلة معروف. سأفهم أولاً فيما إذا كان الأتراك قد توقفوا عن المجيء للبحث عني، ثمّ ننقل كتبك على حماري. سنحتاج إلى عدّة مشاوير حتى ننقلها كلّها.

– لا ... أفضل أن نترك الكتب في بيت أم ربيع، فليس من الحكمة أن نتواجد، أنا والكتب في مكان واحد.

– حسناً. إنها فكرة جيدة، لاسيما وأنّ بيتها قريب من هنا، ولن نحتاج للمرور عبر باب الفرج.

عاد صالح إلى البيت بعد منتصف الليل. كانت السماء مظلمة ومتلبدة، فمل

يستطع السير في الطرقات الضيقة إلا بالحدس، وتلمس الحيطان. كان يحمل معه بلطة، فالخروج في هذا الوقت أصبح غير مستحب. كانت ريح الزمهرير تصفر، وسمع كلباً جائعاً ينبح عواء مديداً ومؤلماً، وحسب أنه يسمع صوت خطوات آتية من الخلف، فجفل لحظة، وعندما وصل إلى البيت تنفّس الصعداء.

قبل ظهر اليوم التالي، أخذ معه ابنه حسن، أركبه على الحمار وسار هو. كانت لديه مهمة، عليه أن يساعد الأستاذ خلوق، ولهذا السبب لن يعمل اليوم. وصلا إلى باب إنطاكية. أنزل الصبي، وقال له:

- أنت تعرف الحاج أحمد لبنية؟ اذهب إلى بيته، وأخبره أنني هنا، وأريد أن أتكلّم معه.

ركض حسن. كان فرحاً لأنه سيتمكّن من إلقاء نظرة على باب زقاق بيتهم. كان الحنين إلى أمه المرحومة يشده إلى النظر في كل شيء تركته خلفها. في هذا البيت ولدته أمه وكبر، وقد يرى صدفة بعض أولاد الحارة الذين لعب معهم بلعبة التوش.

رحّب صالح بالحاج أحمد لبنية، الذي جاء يحجل على عكازه، وقال له:

- كيف الحال يا حاج؟

- الله يستر، لم يمرّ على حلب أيام سود كهذه، والشر مازال لقدام، الناس تموت كالجراد. ماذا جرى لك يا أبا حسن؟

- إنني بخير، أسكن عند أم ربيع، حماة عمر ابن عمي، أريد أن أسألك.

- ماذا؟ ... ولكن ليس هنا، بل في بيتي.

فقال صالح وهو يمسد على رأس حماره:

- ليس الآن، الله يخليك، هل بحث عني الأتراك؟

فقال الحاج أحمد وهو يلفظ السين، بشين:

- كثيراً يا أبو حسن. جاؤوا في اليوم التالي لموت أم حسن، وكانوا كالمجانين حطّموا الدفوف التي بسمرتها على الباب، ودخلوا. مكثوا عدّة أيام، ثمّ رحلوا، إلا أنهم كانوا يأتون كلّ يوم تقريباً، ويسألون عنك، دام ذلك عشرة أيام، ثمّ راحوا، ولم يأتوا. بِحَفَضْ قندرتي..

– وماذا يرتدون؟

– الله أعلم، نسيت يا أبا حسن، ولكن سائق العربة الذي كان يأتي معهم دائماً، هو الذي كان يدلهم على البيت.

– إنه نيازي...

– لا أعلم إن كان اسمه نيازي أم لا. بعد ذلك أعدت الدفوف إلى مكانها ولازال الباب على حاله حتى الآن.

– أشكرك يا حاج، الله يطول عمرك. سيأتي أحد أقربائي للعيش في بيتي، وإن كان المكان آمناً، فسآتي أنا أيضاً.

– تعال، وتوكل على الله، عمى في عيونهم!

في ذات الليلة، تمّ نقل الكتب إلى بيت أم ربيع، حيث وضعت في الحاصل الفارغ. وفي الصباح انتقل الأستاذ إلى مكان إقامته الجديد. وقام بتنظيفه من الغبار والعناكب وأوراق الشجر اليابسة والمتعفنة ومن زرق الحمام. وبعد أسبوع، عرف من صالح، الذي سمع ذلك في الحارة، أنّ الشرطة العثمانية علمت بأمر هرب الأستاذ، فأرسلت دزينة من الفرسان فكسّرت الباب، ثمّ حطّمت الأثاث والنوافذ، ونبشت الفرشة الوحيدة التي كانت ممدودة على السرير الخشبي ثمّ بال العريف أول الذي كان يقود المفرزة على أرض الدار، وخرجوا.

وفي السابع عشر من شباط، وبقرار مباشر من أحمد جمال باشا، ألقي القبض على معظم مدرسي المدرسة السلطانية، وأرسلوا إلى سجن دير الزور، كما أغلقت المدرسة نهائياً (نظراً لتزايد أعمال الشغب التي يقوم بها الطلبة بتشجيع من المعلمين) حسب القرار الموقع من جنابه العالي.

إلا أنّ مظاهرة، ضمّت عدداً غير قليل من الطلبة، الذين تجمهروا خارج أبواب المدرسة، نظمت في اليوم التالي، وراحت تصدح الأصوات مطالبة بإعادة فتح أبواب الصفوف وإلا فإنّ الطلبة لن يغادروا مكانهم إلا إلى السجن. ثمّ راحوا ينشدون الأناشيد المعادية للحكم التركي، والداعية للتحرر منه، وتكوين أمة العرب ودولتهم، ثمّ وقف أحد الطلبة على سياج المدرسة، وراح ينشد شعراً ذاع صيته، إن الزعماء كانوا ينشدونه عندما كانوا يسيرون باتّجاه المشانق:

نحن أبناء الألى   شادوا مجداً وعلا

نسل قحطان الأبي   جد كل العرب

صفّق الجميع، ثمّ راحوا يرددون الشعر مرّة ثانية وثالثة. تطلّع صالح بنبوك إلى الأستاذ خلوق الواقف بجانبه بعينين طافحتين بالدمع، فمعزه الأستاذ مشجعاً وهو ينشد فراح صالح ينشد أيضاً، وقد أحسّ بقشعريرة تسري في كيانه، وبشعر ذقنه النامي ينتصب.

ارتفع جذع طالب آخر، كان يجلس على كتفي طالب بدين، صاح ووجهه يصطبغ بلون أحمر قان:

ما دام عثمان باشا حاجز على القوت

فقراء رعاياه بدها اتموت

مادام حاكم حلب الباشا عثمان

ترك الفقير يموت جوعان...

إلا أنّ صاحب الوجه الأحمر سقط عن كتفي زميله قبل أن يكمل قصيدته، فصدحت بعض الضحكات وعلا صفير من الناحية الأخرى، لكنّ الأستاذ خلوق، جذب صالح وهمس في أذنه: احملني على كتفيك!

تلقّف صالح الجسد النحيل، وبعد ثانية كان الأستاذ يستريح على كتفي صالح وهو يمسك شعره بقبضته حتى لا يقع. سمعت أصوات بعض الطلبة:

– هذا هو معلم الحساب.

– عفارم أيها المعلم...

– هات ما عندك يا أستاذ.

انتظر قليلاً حتى هدأت الأصوات المستغربة لوجوده، ثمّ صاح صوته الناعم:

– أيها الطلاب الكرام، كفى ذلاً، كفى هواناً، لن نتحرّر بالكلام الطنان، علينا أن نستبدل الكلام بالسلاح، علينا أن نقاتل السيد التركي وكلّ الأسياد الآخرين الشبعانين الذين يجيدون الكلام في السياسة، بينما يموت الفقراء في الخنادق، ويموت الأهالي من الجوع في البلاد...

تعالى الصفير والتصفيق، رفع أحد الطلبة قبضته، وصاح:

- الموت للباشا.

وقال آخر:

- تابع أيها الأستاذ.

- اتركوه يتحدّث يا شباب.

فتابع الأستاذ خلوق يقول:

- هل نسينا شعراءنا:

كنتم فيما مضى
مهجة الأزمان
فلماذا اليوم نرضى
حالة الهوان

عاد الصفير والتصفيق، وسمع الأستاذ صوت الطالب ذو الوجه الأحمر يصيح:

- رائع يا أستاذ رائع.

فرفع الأستاذ يديه ليسكت الحشد، ثمّ صاح بأعلى صوته:

سأبرز مع إخوتي للجهات   فنأخذ بالثأر ممن ظلم

وإذا بالحشد يكمل من بعده بصوت واحد ورائع:

إذا انكسر السيف في راحتي   فقد بقيت في الضلوع الهمم

وسمعوا أصواتاً مذعورة:

- الجندرمة... الجندرمة...!

كان حوالي مائتين من رجال الجندرمة الأتراك والعرب يحيطون بالحشد من الجهتين. نشر الجنود الحبال كي لا يهرب أحد، وراحوا يكيلون الضربات بالعصي على رؤوس الطلبة. اختلطت أصوات صفير العصي الهاوية مع الصراخ والعويل والشتائم، ثمّ استطاع الحشد المتماسك، مثل كتلة واحدة، أن يفتح ثغرة بعد أن قذفوا عدّة جنود على الأرض وداسوهم بأرجلهم، ثمّ ركضوا باتّجاه المقبرة القريبة من المدرسة. وجد صالح نفسه مدفوعاً باتّجاه المقبرة، وهناك راح يبحث بين الوجوه عن الأستاذ. لقد اختفى. راح يصرخ بأعلى صوته:

– أستاذ... يا أستاذ.

سمع صوت إطلاق النار، فانبطح على الأرض. كان الطلاب يلقون الحجارة من المقبرة على الجنود، الذين راحوا يلقّمون بنادقهم الطويلة، المشرعة الحراب، وهم يقفون بمحاذاة سياج المدرسة وخلف جذوع الأشجار.

جمع صالح بعض الأحجار، وراح يقذفها باتّجاههم. كانت الأحجار تصطدم بسياج المدرسة فتصدر صوتاً قوياً، وترتد متحطمة. كان قوي البنية، ليس مثل الطلاب أصحاب السواعد الهزيلة. شاهد الجنود، وهم يدخلون الطلبة الذين قبضوا عليهم إلى حرم المدرسة، إلا أنّه لم يميّز الأستاذ خلوق بينهم. التقط حجراً بحجم الكف، وقذفه باتّجاه جندي قريب، فسمع صوت ارتطام الحجر بصدر الجندي، الذي صرخ، ثمّ سقط على الأرض يتلوى. استدار صالح، وركض مبتعداً عن ساحة المعركة، وصوت إطلاق النار يلعلع من الخلف.

دخل إلى البيت. توقع أن يجد الأستاذ في انتظاره، إلا أنّ الغرفة كانت فارغة وباردة. جلس على الأريكة، وجمع رأسه بين كفيه، فلم يطق القعود. نهض، وراح يسير في الغرفة حتى أحسّ بدوار، فخرج إلى صحن الدار يستنشق الهواء البارد. أحسّ هناك أنّ الحوش أصبحت ضيقة أيضاً، فخرج إلى الزقاق، ووقف أمام الباب ينظر إلى المارين حينما ينعطفون لعلّ الأستاذ يأتي. لعن نفسه. كان عليه أن يحمي الأستاذ، فهو أهم منه على كلّ حال، فهو معلّم ومثقف وقادم من أوروبا. ماذا تساوي أنت يا صالح؟ أنت طليق بينما هو... الله أعلم؟ استعاذ بالله من وسواس الشيطان... هل يمكن أن يكونوا قد قبضوا عليه؟

عاد، ودخل إلى الغرفة، كانت هناك ثلاثة كتب مقلوبة عند صفحات وصل إليها الأستاذ ولم يقرأها بعد. التقط الكتب، كان أحدها باللغة العربية. قرأ العنوان المطبوع على الغلاف الورقي الأصفر: (الدين والعلم والمال) رواية فرح انطون. قلّب الغلاف، وقرأ التصدير: (فليحذر العالم من يوم يصير فيه الضعفاء أقوياء والأقوياء ضعفاء).. يا له من كلام، متى يحدث هذا الشيء؟ هل هذا يعني الثورة التي حدّثه عنها الأستاذ؟

كان الأستاذ قد قال له: اسمع يا صالح (هكذا كان يبدأ دائماً) سوف يأتي ذات

يوم يقوم فيه المضطهدون، في كلّ أنحاء الدنيا بثورة عارمة، ثورة شاملة، تنهي الظلم والحروب والأمراض.

أعاد الكتاب إلى مكانه، ثمّ استلقى على الأريكة. شبك يديه تحت رأسه، وراح يتطلّع إلى السقف. فكّر كيف يمكنه أن يسأل عن الأستاذ. ماذا يفعلون به الآن؟ هل يضربونه؟ لقد ذكروا أمامه أنّ زعماء الحركة الوطنية يسوقونهم إلى المشانق. إنهم يسكتون كلّ من يفتح فاه، وماذا لو قاموا بإعدام الأستاذ؟ أحسّ بضربات قلبه السريعة، لم يكن عليهما أن يخرجا اليوم. في الصباح، قال له الأستاذ: هيا يا صالح لنرى ما يحدث في السلطانية، لابدّ أنّ الدنيا قائمة قاعدة هناك... وخرجوا ... لو لم يستمع للأستاذ...

أحسّ بشيء صلب تحت ظهره، نهض، وكشف غطاء فرشة الأريكة. وجد كراساً صغيراً كان الأستاذ يسجل فيه خواطره ومذكراته، خاطرة رقم /1/... رقم /2/... وهكذا، قرأ في الخاطرة رقم /9/: (... بدأت أشعر بالميل نحو جمعية الفتاة العربية، إنهم من المثقفين الجيدين، تأثروا بالديمقراطية الأوروبية، فمعظمهم درسوا هناك، مثلي، وتأثروا بالجوّ السياسي الأوروبي، وبالثورة البرجوازية الفرنسية، إلاّ أنّهم يختلفون عنا بتفكيرهم البرجوازي، إنهم ضدّ الإقطاع بالمفهوم الأوروبي، أما عن البرجوازية الصناعية والتجارية فهم يتنبؤون لها بمستقبل زاهر في بلادنا، ويرفضون التعاون مع الاشتراكيين الديمقراطيين، قلت لهم البارحة: إننا أمام عدو واحد...)

قلّب الصفحة، الخاطرة رقم /11/ قرأ الخط الواضح الجميل: (اليوم، تحدث صالح بشكل منطقي أكثر، قال: إن الحروب تسير وفق مصالح الدول الاستعمارية، وفق مصالح الأغنياء، أما الفقراء، فلا مصلحة لهم في الحروب).

ابتسم صالح، أحسّ أن الأستاذ راض عنه. بالفعل، كان قد قال ذلك عن قناعة. اكتشفه بنفسه، لماذا يجنّد ابن الفقير فقط، ولماذا يهرب بعد ذلك؟ لأنّ ابن الفقير هو وقود هذا "القمّيل"، بينما الذي يستحم بهذا الماء الدافئ الجميل، هو ابن الغني بالذات.

أذّن أذان العشاء، ولم يحضر الأستاذ بعد. تأكد صالح بأنّ الأستاذ قد وقع بين أيديهم. ارتدى حذاءه ومعطفه، ثمّ علف الحمار، وخرج. سار على قدميه. كان

يحتاج لهذا الترويض. مرّ أمام باب المدرسة. كلّ شيء كان على ما يرام، ما عدا عدد كبير من الأحجار المتناثرة في الطريق أمام المدخل. اقترب من المدخل، وراح يتطلّع إلى الداخل عبر قضبان الباب الحديدية. شاهد بصيص نور في غرفة الحارس، فصرخ له. خرج له الحارس، وكان عربياً مسناً، ثمّ اقترب من صالح:

– ماذا تريد؟ سأل الحارس.

– أبحث عن شقيق لي، قال بعضهم إنّه حدث فوضى هنا هذا الصباح.

تفرّس الحارس في وجه صالح، ثمّ مجّ من سيجارته الغليظة، وقال:

– هل شقيقك طالب عندنا؟

– اي بالله.

– قبضوا على خمسين طالباً، من أين لي أن أعرف فيما إذا كان شقيقك بينهم؟

تلبك صالح. كيف سيشرح الأمر دون إثارة انتباه الحارس؟ قال له:

– اسمع... يقولون إنّه كان معهم أحد الأساتذة.

– أساتذة...؟ ... هذا لا يكفي.. اذهب. أنا لا أعلم.

فسأله صالح على عجل قبل أن يستدير:

– وهل قبضوا على أحد الأساتذة؟

– اي نعم... معلم الحساب، خلوق أفندي...

فقال، وقد تأكدت مخاوفه:

– إذن قبضوا على شقيقي...

– اشو؟

– لا شيء.

مشى صالح باتّجاه سوق الصغير، لم يعد يرغب في العودة إلى البيت في (جلة معروف)، سوف ينام الليلة في بيت أم ربيع، وغداً سيذهب لأخذ الحمار، مرّ من أمام مزار السهروردي قرب البريد. كان هناك عدد من الشحاذين يدخلون إلى المزار كي يبيتوا في الدفء. دخل بوابة القصب، فخرج إلى حي الجديدة، وفي ساحة التنانير مرّ على بيت يطلّ بابه على زقاق ضيق جداً. إلى هذا البيت قدم صالح مع الأستاذ مرّة، حينها استقبلهم رجل مسن ومثقف، شائب الشعر واللحية، يرتدي

طربوشاً أحمر نظيفاً. كان الرجل المسن أرملاً. ماتت زوجته الفرنسية منذ زمن بعيد، وهو يعيش مع ابنته الجميلة، البيضاء، صاحبة الشعر الأصفر، والتي جلست معهم دون أن تتحجب. كانت تتحدّث هي أيضاً في السياسة. كانت الفتاة تنظر إلى الأستاذ بطريقة تدعو إلى الشعور بأنّها كانت تحبّه، أو ربّما كانت خطيبته.

عاد أدراجه، ودخل الزقاق الضيق. كانت العتمة تسربل الزقاق كلّه، إلا أنّ بصيصاً من نور كان يرى من النافذة قرب الباب. طرق الباب بالسقاطة، وانتظر. بعد لحظات سمع صوت حفيف ثوب نسائي خلف الباب. سأل صوت رفيع:

– من...؟

– هل الخواجة موجود؟

الخواجة؟ ولماذا الخواجة؟ – هكذا قال في نفسه بامتعاض، لأول مرة يستعمل هذه الكلمة، كان عليه أن يسأل عن الأفندي، فقد كان نسي اسم الرجل المسن.

بعد دقيقة، فتح الباب. أطل الرجل المسن الوقور، بلحيته الصغيرة التي تدلّت تحت ذقنه وبشاربه المربع. كان الرجل يحمل صندوقاً من زجاج، وضعت في داخله شمعة بيضاء مشتعلة. رفع الصندوق، وأنار وجه صالح. لم يعرفه في البداية، إلا أنّه همس:

– آه... أنت؟ ... أدخل؟

تراجع الرجل، وأفسح الطريق لصالح. فتح له الباب الذي يفضي إلى الغرفة ذات النافذة المطلة على الزقاق. دخل صالح، وجلس على أحد المقاعد المصفوفة بدقة والمغطاة بملايات مزهرة. وضع الرجل المسن صندوق الشمعة على طرابيزة متوضعة في منتصف الغرفة، ثمّ جلس إلى جانب صالح. أنارت الشمعة الصبية التي كانت جالسة في الطرف المقابل له، وراحت تطرّز بالإبرة قماشاً شدّ إلى إطار خشبي دائري. أحسّ صالح بالدفء، فقد كانت الغرفة مدفأة بشكل جيد.

– أهلاً وسهلاً يا ... سيد.

استهلّ الرجل، فقال صالح:

– أهلاً بكم يا محترم... أنا صالح بنبوك، هل عرفتني؟ أنا صديق الأستاذ خلوق.

تركت الفتاة إبرتها، لمت قماشها، وتركته على المقعد المجاور. الآن تذكرت أن هذا الصالح قد جاء لعندهم مرة مع خلوق. كان يبدو عليه الخجل حينها، إلا أنهم تركوه يرشف الشاي الذي صنعته بيدها، وراحوا يتحدّثون حول أمور البلد.

أخرج الأب غليوناً أجنبياً، وراح يحشوه، قال:

– كيف حال خلوق أفندي؟

مسح صالح العرق الذي تفصد على جبهته. استغرب كيف يمكن أن يتعرق في شباط وهو الذي لم يشعر بالدفء طيلة هذا الشتاء:

– أيها السيد المحترم... إنني أحمل خبراً سيئاً، لقد قبضوا على خلوق أفندي. صرخت الفتاة بعد أن شهقت:

– يا إلهي... مستحيل.. (بالفرنسية).

– ماذا؟ ... سأل صالح . فقالت الفتاة بعد أن عضّت على شفتها السفلى الناعمة:

– لا شيء، يا لهم من مجرمين.

قال الرجل، وقد بدا عليه التأثر رغم ما كان بيديه من ضبط النفس:

– وكيف حدث ذلك؟

– بالأمس، سمع أن جمال باشا قد أغلق مدرسة السلطانية، بعد أن قبض على أساتذتها. فتنبأ بقيام مظاهرة أو أعمال أخرى من هذا النوع. طلب من اليوم مرافقته، وهكذا كان. هناك وجدنا الطلبة، وقد تظاهروا أمام باب المدرسة، وهم يهتفون، وينشدون الأغاني. بعد ساعة، جاءت الجندرمة وراحوا يضربون الناس، فهرب من هرب... وأنا منهم، كنت أحسب أنه يركض خلفي، فلما وصلنا إلى المقبرة بحثت عنه، وهناك شاهدت الترك يدخلون الطلبة الذين قبضوا عليهم إلى باحة المدرسة، سألت عنه حارس المدرسة، هذا المساء، فأكّد لي أنهم قبضوا عليه فعلاً، لقد سمّاه لي.

صمت الجميع، كان وجه الصبية قد اصفرّ. أخرج صالح كيس تبغه، وراح يلفّ سيجارة، ثمّ أشعلها. راح ينفث دخانها الثقيل في جوّ الغرفة المعطر.

كانت الغرفة متوسطة الحجم، إلا أنها كانت مرتبة. فقد أثبتت الصبية الحلوة

وجودها من خلال النظافة والترتيب. كانت هناك ستائر مزهرة فوق فتحتي النافذة والباب، أما بلاط الأرضية الحجري فقد كان يلمع.

تحدث الأب مع ابنته باللغة الفرنسية، ثمّ استدار إلى صالح، وقال:

– معذرة يا ابني، لقد صنعت جيداً حين أتيت لإخباري هذا الخبر السيئ... إذن أنت الذي خبّأ خلوق أفندي في بيته، أليس كذلك؟

– نعم أيّها المحترم.

– هل أستطيع أن أعتمد عليك في أمر مهم؟

– طبعاً أيها المحترم.

ودّعهما، وخرج. في الزقاق كانت العتمة شديدة، أمّا عندما وصل إلى ساحة التنانير فقد استطاع أن يرى طريقه بفعل شعاع القمر المختبئ خلف الغيوم الكثيفة، والتي كانت تنذر بهطول الثلج. لقد حسب أنه أخطأ عندما طرق الباب ليخبر أصحاب هذا البيت الظرفاء خبر إلقاء القبض على الأستاذ خلوق، إلا أنّه الآن راح يحسّ أنّه ساعد الأستاذ خلوق قد استطاعته، وأنه بالفعل، كسب ثقة أصدقائه خصوصاً، عندما طلب إليه عبد الجليل الشلاح (وهذا كان اسم الرجل) أن يذهب إلى شخص أرمني اسمه أرتين، هاجر إلى حلب من قرية كسب، عندما حدثت قلاقل للأرمن هناك، وهو اختصاصي في تخطيط الأراضي، يسكن في محلة الحميدية، كي يسلّمه رسالة مكتوبة باللغة الفرنسية.

مشى بحذر حتّى وصل إلى قسطل المشط. وعند أحد المنعطفات سمع صوت صرخة لم تكتمل. اقترب من المنعطف وهو يحاول أن لا يخرج أيّ صوت. كان هناك صوت لرجل يقاوم، وقد كمّ فمه. سجد صالح، وراح يبحث عن حجر، فقد نسي أن يحمل بلطته، في هذه الأثناء سمع صوت رجل يهمس لشخص آخر:

– اذبحه... اذبحه، وخلصنا منه!

حاول صالح أن يميز في الظلام المكان الذي يصدر منه الصوت، ولكن دون نتيجة فالظلام كان شديداً في الأزقة الضيقة. لمس بيده حجراً بحجم شمندرة كبيرة. التقطع وهو يستمع إلى الهمس القادم من أعماق الظلام:

– قلت لك اذبحه.

- لا يوجد معي سكين...

- خذ... ضع قدمك على صدره!.

إمّا لأنّه كان مرعوباً، أو لكي يرعب الآخرين، صرخ صالح بأعلى صوته صرخة مدوية في الزقاق الضيق، ثمّ هجم على مكان الأصوات، وقد استعدّ لأن يهوي الحجر على أيّ رأس يصادفه. وفجأة اصطدم بجسد شخص يحاول الهرب. سقط صالح بفعل الاصطدام الذي أطاح بالشخص الآخر إلى الأرض أيضاً. عاد ونهض، وقذف بنفسه إلى مكان سقوط الآخر، فأمسك بخناق رجل، كاد أن يهوي بالحجر على رأسه مباشرة إلا أن الآخر توسل:

- اتركني الله يخليك، لم أفعل شيئاً..!

- من ستذبح يا كلب؟

- لا أحد... لا أحد.

جلس صالح فوق صدر الرجل، وأشعل عود ثقاب. قرّبه من وجهه. كان شعر الرجل منفوشاً ولحيته نامية، وتعلو القذارة وجهه. أبعد عود الثقاب إلى الأمام، فشاهد شاباً في الخامسة عشر، جاحظ العينين، جالساً على الأرض، غير مصدق، إنه أنقذ في آخر لحظة. سأله صالح قبل أن يطفئ عود الثقاب:

- ماذا جرى يا ولد؟

فقال الشاب وهو يتأتئ:

- أرادا أن يسرقاني، ولكنني لا أملك شيئاً. قلت لهما إنني لا أملك شيئاً. نبشّاني فلم يجدا شيئاً. طلبا مني أن أخلع معطفي وحذائي فخلعت، كما ترى، هه... لقد وجدت أغراضي. ها هي..

فسأل صالح، وقد شدّ أكثر على عنق الرجل المسطح تحته:

- ما دمت سرقت معطفه وحذاءه، لماذا تريد أن تذبحه؟

- ومن قال إنني كنت سأذبحه... كنت أهدده ليخرج نقوده... إننا جائعان، وهو ابن ذوات.

فقال الشاب وقد ارتدى معطفه ونهض بعد أن اطمأنت نفسه:

- كذاب... طلب من أن أخلع سروالي وأسجد أمامه، ولكنني رحت أصيح،

فأعطى للقذر الآخر سكينه ليذبحني.

فسأل صالح الشاب:

– وأين بيتك؟

– في الجديدة.

– اركض إذن!

– الله يخليك يا عم... ثم ركض مبتعداً.

نهض صالح وأنهض الرجل.

– هيا سر أمامي!

فسأل الرجل بلطف:

– ماذا تريد أن تفعل بي؟

– سأسلمك للجندرمة.

وفجأة أفلت نفسه من قبضة صالح، وركض، إلا أنّ صالحاً بادره وهوى بالحجر إلى الأمام، فسمع صوت اللطمة على ظهر الرجل، الذي صرخ بألم وتدحرج على الأرض، شاهده يتلوى وهو يكز على أسنانه، بصق عليه، ومشى مبتعداً.

في الطريق، أحس بسائل دافئ يسيل من أنفه، فخمّن أنه ينزف، لقد أصابه الرجل في وجهه عندما اصطدم به في الظلام. أسرع الخطا، فكر بهذه المدينة التي لم تعد تطاق. في الماضي كانوا يعودون من السهرة قبيل الفجر، فيسيرون وهم مطمئنون. لا أحد يهددهم بالذبح، أو حتى أنهم كانوا يتركون الأبواب مشرعة في فصل الصيف، وينامون. أما الآن، فقد تغيرت الأحوال.

عندما وصل إلى بيت أم ربيع، وجد الباب مقفلاً من الداخل بالدرباس. قرع الباب، بعد لحظات، جاءه صوت بهية تسأل عن الطارق. منذ أسبوع لم ينم عندهم. كان يأتي في النهار فقط لتزويدهم بالحطب والغذاء. رفعت الشمعة إلى وجهه وسألته:

– ماذا حدث؟ أنت تنزف.

– قال لا شيء، وتوجه إلى المطبخ. غسل الدم عن وجهه، وهي واقفة إلى جانبه تضيء له المكان، لاحظت كيف أصبح أنفه أضخم، وتلون باللون الأزرق.

توقف النزيف بفعل الماء البارد، بعد أن تمخط قطعة دم متخثرة بحجم بذرة الفاصولياء. صعد صالح معها إلى غرفتهم، وشرح لها ولأم ربيع أحداث هذا اليوم، وأخيراً الشجار مع المجرم الذي كان يهمُّ هو وأحد رفاقه بذبح صبي في الخامسة عشرة من عمره.

تنهدت أم ربيع وهي تريد أن تطرد ثقلاً قبع على صدرها. ها هو الرجل الوحيد الباقي لديهم يتدخل في السياسة. لو أنها تستطيع أن تنصحه بالابتعاد عن هذه المسائل.. لقد أعاده الله سالماً من الحرب، إلا أنه لا يرى قيمة هذا الشيء. مات ابنها ربيع. ذهب إلى الحرب ولم يعد مثل صالح، وصهرها؟ الله أعلم أين هو! قد يعود... وربما لا يعود. أما صهراها الآخران فقد طرداها من بيتيهما، بحجة المجاعة وشح الغذاء والبطالة لم يقولا لها اذهبي، بل فهمت ذلك بنفسها من الهمس العصبي في الليل الدامس عندما كانوا يتكورون في فرشهم، الابنة والصهر والأحفاد وهي في غرفة واحدة، وعندما كانت تلف بقجتها إيذاناً بالرحيل إلى بيت بهية، كان الصهر يقول: إلى أين يا حماتي... بكير لسه...؟

أما الآن، فالابنة عندها، في بيتها، والصهر غائب، صاحب الهمس الليلي غائب، وها هو ابن عمه، هذا الرجل الهادئ، الذي راح يسافر ليجمع الحطب ويتاجر به من أجلهم، ها هو الآن، يعبث بالسياسة. ماذا تفيد هذه السياسة؟ ... إنها تؤدي إلى المشنقة فحسب. وماذا لو أمسكوا به؟ فعليها حينئذ هي وابنتها وهؤلاء الأطفال أن يعيشوا بدون رجل يحميهم في هذه المدينة التي أصبحت غابة. غابة وحوش فعلاً. عند الفجر، خرج. أحضر الحمار من بيته، وذهب إلى الوضيحي، وقبل الظهر كان قد باع حمل الخطب بعد أن رشا حارساً بعدد من الحطبات. اشترى خبزاً مسروقاً من الجيش وبعض العدس. سلّمهم لبهية التي فتحت له الباب. كان زنداها عاريين، فظهرا له بلحمهما الأبيض البض، راعت بهية أن تفتح الباب على مصراعه، وتمهّلت وهي تأخذ الأشياء من صالح. نظر إلى وجهها. كانت بدون غطاء الرأس، شعرها الأسود الفاحم يلائم عينيها. ولأول مرّة يراها سافرة هكذا. كانت تبتسم له بخبث وهي تمضغ العلكة. سألته بغنج:

– هل ستأتي للعشاء؟

عبس وقال: سأرى.

فقالت بعد أن بلعت ريقها المعطر برائحة العلك:

- بأمان الله يا أبو حسن...

جرّ حماره بعيداً، ثمّ ركبه واتّجه نحو الحميدية. هناك استدلّ من أحد المارة على بيت أرتين. كان البيت عبارة عن غرفتين مبنيتين من الحجر الغشيم والطين. طرق الباب، وسأل عن صاحب البيت، فأطلّ رجل في الخمسين. صحيح البنية، أسمر البشرة، يرتدي بنطالاً وسترة عتيقة من الصوف، وتفوح منه رائحة البصل.

عندما علم أرتين بموضوع الرسالة، دعا صالحاً للدخول. جلسا على كنبة مصنوعة من الخشب، وراح صاحب البيت يقرأ الرسالة. هز رأسه عدّة مرّات، ثمّ نهض، وأحضر ورقة وقلماً، وشرع يكتب الجواب.

تفحص صالح البيت وهو جالس ينتظر. فبالإضافة إلى الكنبة، التي كان أرتين ينام عليها ليلاً، كان هناك طاولة صنعت من الخشب المحلي، ووضع عليها بعض الكتب الأجنبية بطريقة مرتبة. وكانت الجدران عارية إلا من مشجب لتعليق الألبسة. أما النافذة فقد كانت صغيرة لا تكفي لإنارة الغرفة.

كانت الغرفة باردة جداً. تكتّف صالح اتقاءً للبرد، وهو ينظر في وجه أرتين، الذي كان قد انتهى من كتابة جوابه للتوّ، فأعطاه لصالح، ثمّ تكلّم بعربية مكسرة جداً:

- إنني أراك لأوّل مرّة، ما اسمك؟

- صالح..

- ماذا تعمل يا صالح؟ هل تعمل شيئاً؟

- قبل الحرب، كنت عامل نسيج، أما الآن فأنا حطاب.

- م. م. م.... هذا جيد، أنا عامل، هل تعلم ماذا يعني الأول من أيار؟

- لا يا سيد أرتين... لا أعرف.

- سوف تعرف فيما بعد. أما الآن، فهل تشرب معي كاس عرق؟

ضحك صالح، وقال:

- في الحقيقة... أنا لم أذقه منذ سنين طويلة، أخاف أن أسكر.

فقال أرتين: لا خوف عليك، كأس صغير فقط، ثم نهض. أحضر قنينة سوداء وكأسين صغيرين من الزجاج. صب مقدار إصبعين في كلّ كأس. وقال: هيا. نحن نقول في صحتك، ثمّ شرب. شرب صالح، وكأنّه يتذوقه. كان حاد الطعم، ويشبه اليانسون وبصعوبة أكمل الكأس، ثمّ نفخ. قال صالح:

– هذا جميل، ولكن يكفي!

فقال أرتين:

– أنت حر، ولكن، ربّما ستعود إليّ بعد يومين أو ثلاثة. قد يرسلك إليّ الأستاذ عبد الجليل مرّة أخرى، وقد نسافر معاً إلى بيروت. إن لم يكن عندك مانع طبعاً...

فقال صالح: لا... ليس عندي مانع. ثمّ ودّعه، وخرج. ركب حماره، وانطلق وهو يلكزه بعصا. وعندما ابتعد عن البيت، كان يحسّ بحرارة تسري في معدته، وتنتشر في جميع أنحاء جسده.

* * *

بسبب إلقاء القبض على الأستاذ خلوق، من قبل الأتراك، حدث شرخ عميق في تنظيم الحلقة التي كان يقودها الأستاذ عبد الجليل الشلاح. فالأستاذ خلوق، كان من أنشط أعضاء هذه الحلقة الذين كانوا لا يتجاوزون العشرة في أحسن الأوقات. واضطر عبد الجليل إلى تعيين مهندس المساحة أرتين في نفس العمل الذي كان يقوم به خلوق أفندي عندما كان طليقاً، مستعيناً بصالح كمراسل نشيط ودؤوب خصوصاً وأنه كان يملك حماراً يستعين به.

وبسبب الضغط والملاحقة اللتين تعرضت لهما مجمل الحركة التحررية العربية من قبل أجهزة السلطة التركية وخاصة من قبل أحمد جمال باشا شخصياً، اضطر الأستاذ عبد الجليل، هو أيضاً، إلى تجميد نشاط حلقته، خصوصاً، وأنّ شخصين آخرين لهما علاقة بها، قد ألقي القبض عليهما أيضاً، وهرب ثالث إلى مصر، وأصبحت الحلقة تقتصر على خمسة أو ستة أشخاص منعزلين لا يجتمعون أبداً، بل كانوا يكتفون بقراءة الرسائل التي كان يخطّها كلٌّ من عبد الجليل وأرتين.

كان الأستاذ عبد الجليل الشلاح يثقف أعضاء حلقته بالمعلومات التي كان

يستقيها من خلال المراسلة التي كان يجريها مع تنظيمات أخرى مشابهة تعمل في بيروت وفلسطين ولهذا السبب اعتاد السفر إلى بيروت كل أربعة أو خمسة أشهر أو كان يقوم بإرسال من ينوب عنه. إلا أنه عندما تمّ إلقاء القبض على خلوق أفندي، والذي كان مساعد عبد الجليل الرئيسي، اضطر هذه المرة إلى إرسال أرتين وصالح، حيث اتصلا هناك بالمحامي المعروف خليل عوض، فدعاهما فوراً إلى بيت ريفي يقع في الجبل، حيث جلسوا حول طاولة من خشب الجوز المصقول. قام أرتين بتسليمه رسالة مكتوبة باللغة الإفرنسية، ثمّ شرح له الأوضاع في حلب وخاصة الملاحقة الشديدة لدعاة التحرر من قبل الأتراك، ثمّ قدّم له شرحاً موجزاً عن وضع الحلقة.

بالمقابل، قام المحامي بكتبة رسالة جوابية ليقوم أرتين بتسليمها إلى الأستاذ عبد الجليل، ثمّ فصّل لهما الأوضاع على جبهات القتال، فقال:

– إن الأتراك يستعدون لمهاجمة القناة مرّة أخرى، لقد وصلتنا أخبار تفيد بأن الأتراك قد حشدوا ما يقارب المئة والخمسين ألفاً من الجنود في فلسطين وسيناء تدعمها فصائل عديدة من القوات الألمانية والنمساوية الرفيعة التدريب والمسلحة جيداً بالمدافع بعيدة المدى، وفي المقابل فإنّ الإنكليز والهنود والأستراليين والنيوزيلانديين قد احتاطوا لهذا الأمر، وقاموا بحشود هائلة في سيناء وفي الطرف الغربي للقناة وأنهم راحوا يمدون سكك الحديد داخل صحراء سيناء للاستفادة منها من أجل تعزيز قواتهم فيما إذا حدثت معارك هناك.

أما في العراق فلازال الوضع على حاله. إن تاونستد وقواته محاصرون في مدينة الكوت والأتراك، يشددون قبضتهم حول المدينة.

أما في الداخل فالوضع مأساوي، فجمال باشا، يتمادى في طغيانه. وقد أصدر منذ أيام حكم محكمة عالية بإعدام عدد كبير من الزعماء ورجال الحركة القومية، وهو ينتظر اللحظة المناسبة لتنفيذ الحكم. ونحن هنا، نعتقد بأنّه سينفذ الحكم كما فعل في السنة الماضية لأنّه يبغي تخويف الناس، وخلق وضع ميئوس منه بالنسبة للحركة التحررية. وقد نجح في ذلك في الماضي.

على الجبهة الغربية، الوضع متجمّد في ما يسمى بحرب الخنادق، والوضع

سيء جداً على الجبهة الروسية فالألمان يدخلون إلى العمق الروسي، أما في داخل البلدان الأوروبية، فقد بدأ ينمو شيء جديد.

– ما هو يا أستاذ؟ سأل أرتين:

– إن حركة الاشتراكيين الديمقراطيين تتعاظم ضدّ الحرب وضدّ القياصرة. إن ليبكنخت يدعو الناس في شوارع برلين للقيام بالانتفاضة الطبقية. إن هذه الحرب تعني القضاء على النظام الاستبدادي الذي أشعل الحرب وقهر الناس. فالناس بدأت تتذمر. فمن جهة يموت آلاف الجنود في ساحات الحرب ومن جهة أخرى هناك المجاعة التي ضربت المدن في الداخل.

– والآن يا أستاذ... ما العمل؟ سأل صالح.

– علينا أن ننتظر ... فالطبخة لابد أن تستوي... أجاب الأستاذ عوض وهو يغمز بعينه ثم نهض. طلب منهما أن يناما الليلة في البيت الريفي ذاته، والسفر في الصباح الباكر.

وفي صباح اليوم التالي، عاد كل منهما إلى حلب في عربة منفصلة.

كان آذار قد جلب الدفء إلى المدينة فقلّ الطلب على الحطب. وراح صالح يفكر في إيجاد عمل آخر، فالأسرة التي يعيلها لا بأس بها. ولكي يعيشوا عليه أن يكسب أربعة قروش يومياً. وإذا استمرّ الوضع على حاله، فإنهم سيجوعون بحلول الصيف لا محالة. أعلن ذلك أمام الحاجة أم ربيع. سألها ما العمل؟ وبعد تفكير طويل قالت له بسذاجة:

– اذهب يا بني إلى معمل البيك ابن الورد. لعلّه يحتاج لمعلم حرفة.

احتار كيف يتهرب، كيف يجد كذبة تقنعها أن لا جدوى. نظر إلى بهية التي كانت تطعم الأطفال، كانت تبتسم وقد اصطبغت وجنتاها بلون وردي. قال موجهاً كلامه لأم ربيع:

– لقد أفلس البيك ابن الورد. أغلق معمله.

شهقت أم ربيع وهمست: يا له من مسكين. كان طيب القلب.

مسكين؟ ... فكر صالح . لو كنت تعلمين ما كان يجري في رؤوس هؤلاء الناس يا أم ربيع لكنت تمنيت أن تقطعيهم أرباً.

نزل صالح إلى القبو بعد أن طمأن أم ربيع بأنه سيجد عملاً لا محالة، استلقى على فراشه، وأسند رأسه على كفيه. تذكر الشيخ داود الصيرفي الذي كان يلعب معه الشطرنج قبل الحرب. إنه يملك مدار لطحن القمح على نهر قويق في شمال حلب، وهؤلاء الناس لا يفلسون أبداً. سيجد له عملاً في المدار ولابد. سيذهب إلى هناك يوم الجمعة القادم ويتحدّث معه. وبينما هو مستلق، غفا. كان الطقس قد اعتدل منذ يومين، وأصبحت أشعة الشمس دافئة وجميلة. في حلب لا يأتي الحر فجأة. يبدأ الربيع والجوّ بارد وبعد شهر تقريباً تبدأ الحرارة في الارتفاع. وما إن يحل أيار حتى تصير أشعة الشمس غير محتملة. يقولون إن آذار حار جداً في الحجاز. إذن كيف هي الحرارة هناك في شهر آب؟ في حلب تصبح غير محتملة في آب. أربعون درجة في الظل. والهواء اللعين لا يهب، وتتصبب عرقاً طوال النهار... وفي الليل أيضاً. في أحد أيام آب، عاد ابن عمه عمر من العمل بعد أن قام بحفر بئر لأحد الفلاحين. وفي الطريق أغمي عليه. أنقذه الصبي الذي كان يعمل معه في ترحيل الأتربة. نشر عقاله على غصن، فأمن لعمر المستلقي ظلاً، ثم ركض، وأحضر من أحد البيوت سطلاً مليئاً بماء الآبار البارد، و(دلقه) عليه. والمعروف أن زوج أم ربيع مات أثناء الحج في الأرض المقدسة. كان قد أصيب بضربة شمس. إلا أن هناك كثيراً من الناس يفضلون فصل الصيف على فصل الشتاء. أما هو فإنه يفضل فصل الشتاء. استيقظ على حركة ما حدثت إلى جانبه. كان الظلام شديداً، إلا أن بصيصاً من نور القمر كان يتسلل من طاقة القبو. أحس بزفير دافئ لإنسان مستلق إلى جانبه. في البدء حسب ابنه حسن. إلا أن وجه ذاك الإنسان كان قريباً جداً من وجه صالح حتى أنه اشتم رائحة علك الجمل النفاذة. إنها بهية هذا هو شعرها الأسود الفاحم، الذي يتموج على رقبتها وكتفيها. وميّز في العتمة عينيها. رأى إلى بياض عينيها الناصع. وفجأة... مدت المرأة يدها. فكّت حبل السروال . حررت خصره. ثم أرسلت يدها إلى الداخل.

تجمّد صالح، جعلته تمثالاً من الصوان. تمثالاً لآلهة، ترى كيف يتعبدونها، إلا أنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً. ترى كيف يقدّمون لها القرابين، إلا أنها لا تهتم.

وبحركة بارعة من يدها، تفتحت له السماء وأزاهير الدنيا كلها. شهق، فوضعت

يدها الأخرى على فمه. إنه ليس حلماً، بل جريمة، انغلقت السماء، وانفتحت جهنم في نفسه. أيتها الكلبة القذرة. أيتها الآفة النتنة. يا حيواناً في شكل إنسان. لقد جعلته يخون أحب الناس إليه. جلس على الفراش. ثم استقام على ركبتيه. كانت عيناها تشعان في الظلام. رفع يده وصفعها مرة وثانية... وثالثة، وهي صامتة. تتلقّى الصفعات دون أن تهمس، أمسكها من يدها، ورفعها بقوها. طقت يدها في يده، همس وهو يكز على أسنانه:

– اذهبي يا كلبة، لا تريني وجهك!

– حسناً، أنا ذاهبة، ولكنك كنت موافق.

– أنت لست سوى قحبة بلهاء. حرام عليك عمر.

– لا تتكلم هكذا. ما دمت تتمنّى فلم لا؟ لماذا تمثِّل؟ نعم... أنا امرأة متزوجة. لا يهم من هو زوجي بالنسبة لك. إلا أنني أحبّ الرجال. لا أستطيع العيش بدونهم. هل كان عليّ أن أحجز على زوجي في السقيفة؟ أن لا أدعه يرحل إلى الحرب؟ وهل سيعود؟ أم أنه كان عليّ أن أتزوج أكثر من عمر واحد... أنتم، أيها الرجال، لا تستطيعون شيئاً سوى حبس النساء. لقد منعتني من الذهاب إلى ابن الورد. فلم لا تكون أنت؟ أنا امرأة... أعرف أكثر منك. فأنت تشتهيني، فأنا أرى في عينيك ما لا تراه أنت في المرآة. والذي حدث منذ قليل هو كل ما تتمنّاه في داخلك. في سرك. اسمع... (قالت همساً وقد أصابتها رجفة في جسدها)... اذهب من هذا البيت. غادره. نحن لسنا في حاجة إليك ولكن عندي رجاءً واحداً، أترك حسن معنا.

خرجت. وبهدوء سارقي البيوت، دلفت إلى غرفتها. لفّ صالح سيجارة وقعد على الفراش يدخنها، وهو ينشر صفيتها على الأرض. حقاً إنها على صواب... عليه أن يترك هذا البيت.

لم ينم. انتظر طلوع الفجر. نهض، وجمع أشياءه في خرج الحمار، وقبل أن يخرج سمع صوت أم ربيع تنزل إلى ساحة الدار. صبّح عليها. أخبرها أنه لسبب ما لن يبيت في بيتها بعد الآن. وطلب منها أن يرسلوا إليه ابنه حسن كلّ أسبوع كي يرسل لهم بعض النقود. تمتمت بدعاء إلى الله، ثمّ لعنت السياسة. مشت نحو المرحاض وهي تهمس: لا حول ولا قوة إلا بالله....

كان على موعد مع أرتين، عند الظهر، فخرج إلى الوضيحي، وأتى بنقلة حطب، باعها لحمام برهم باشا في الجديدة. قبض الثمن من أبو إلياس. ثمّ نزع ثيابه ونزل إلى بيت النار. هناك شعر بمتعة الماء الحار، ونسي ما حصل في الليلة الماضية، إلا أنه كان يشعر بوحدة مؤلمة. خصوصاً وأنّ الحمام كانت شبه فارغة من الناس. وهناك وجد حلاً مناسباً، ماذا لو تزوج من جديد؟ سيأتي بامرأة فقيرة تهتم به وبابنه. سيطعمها، ويكسيها. ألف من يتمنّى أن يعطيه ابنته. فالزواج سترة في هذه الأيام، ويمكن أن تلد له أطفالاً آخرين، فهو يحبّ الأطفال. كم كان يحلو له أن يداعب أطفال عمر، إنهم أصغر من ابنه. خصوصاً ذلك الملعون حمودة ابن الثلاث سنوات، أصغرهم. كان يمدّ رأسه خلال باب القبو، ويصيح:

عمو صالح... أنت عكروت... ثمّ يهرب متضاحكاً.

سمع صالح نفسه يضحك بصوت عالٍ، وهو ينتهي من حمّامه، أخذ الميزر ولف أسفله به، وخرج. في صالة الحمام الخارجية، كان الهواء أنظف وأبرد، فأحسّ بالانتعاش، كان مسروراً لأنه تخلّص من القمل. أرتين هو الذي دهنه بمحلول ذي رائحة كريهة، وأعطاه قليلاً منه لينقع ألبسته به.

جلس على المصطبة الخشبية، وقام عجوز أعور بتنشيفه، لفّه بالمناشف النظيفة. إلى جانبه كان أبو إلياس جالساً أمام صندوقه. بادره أبو إلياس:

– نعيماً يا أبا حسن.

– الله ينعم عليك يا أبا إلياس. حمّامك ممتازة ولكنها خالية، أين الناس؟

– الشغل واقف. اترك الدنيا في حالها يا رجل. الله يعين البشر. اللي مولاقي يأكل ما راح يجي يتغسل.

فقال صالح، وقد أحسّ أنه أصاب الهدف:

– قريباً ستنفرج على الناس إن شاء الله.

فسأله أبو إلياس:

– وكيف ذلك؟

– كلّ شدّة وبعدها فرج.

– سنرى. قال أبو إلياس، ثمّ راح يسجّل حساباته في كراس من الورق الأصفر.

ارتدى صالح ألبسته، وسرّح شعره بمشط خشبي استعاره من أبو إلياس. اقترب منه، ودفع له برغوداً كبيراً، فأعاده صاحب الحمّام، وقال:

– على حسابنا هذه المرة يا أبو حسن... قل لي. كام نقلة حطب تنقل يومياً إلى حلب؟

– مرتين أو ثلاثة. لماذا؟

– إئت بها إليّ. سأشتري منك كلّ ما تنقله.

فسأل صالح:

– وفي الصيف؟

– وفي الصيف أيضاً.

ربط الحمار أمام بيت أرتين، ودخل. جلس على الكنبة الخشبية بعد أن ألقى السلام على زوجة أرتين، التي كانت متربعة في منتصف الغرفة وهي تفرم البصل. استدارت إليه لترد التّحية، فشاهد الدموع تنهمر من عينيها كالسيل. عرف أن رائحة البصل هي السبب.

كانت زوجة أرتين امرأة بدينة جداً، وفي الأربعين من عمرها. إلا أنها كانت فائقة الذكاء وذات شخصية قوية. حتى أن زوجها كان يهابها، ويحسب لها ألف حساب، وفي طريقهم إلى بيروت حكى له أرتين كيف أنها أرغمته على الزواج منها. فقد قابلته في الطريق وهو عائد من عمله، وكان منهكاً. فأوقفت بغلته وقالت له:

– بارون أرتين... تعال هذا المساء وقابل أبي، فهو يريدك في شأن ما.

وفي المساء حلق ذقنه بالموس، وركب وصعد إلى بيتهم. كان بيتهم هو أعلى بيت موجود في كسب، وهو يطلّ على كامل القرية وعلى الجبال الساحلية نزولاً إلى البحر. استقبله والدها بالترحاب، فقد كان لطيفاً يحبّه كل رجال ونساء القرية، حتى الأتراك منهم. أجلسه في غرفته وبعد قليل سأله: ماذا تريد يا سيد أرتين؟ فأجابه أرتين باستغراب: كيف ماذا أريد؟ ابنتك طلبت مني أن آتي لأراك، قالت إنك تريدني في شأن ما... فاستغرب الأب أيضاً، فصرخ عليها، وسألها: لماذا طلبت من أرتين المجيء. وبكل جرأة جلست معهم، وقالت:

– يا والدي، إن أرتين يريد أن يخطبني منك إلا أنه يشعر بالخجل.

أراد أرتين أن ينفي إلا أنه سكت. نهض الأب وعانقه، يا للمفاجأة... تطلع إليها فغمزته بعينها وهي تضحك. وفي يوم الأحد التالي ذهبوا إلى الكنيسة وعقدوا قرانهما.

– أين أرتين يا سانتوس؟

سألها صالح. فأجابته بلغة عربية ركيكة جداً:

– سيأتي حالاً. انتظره، سأنتهي فوراً، وأعمل لك القهوة.

خلع حذاءه ومدّ رجليه على الأريكة. كان يرتدي أحد بناطيل أرتين. هو أعطاه إياه بعد أن تمزق سروال صالح تماماً.

انتهت المرأة من فرم البصل، فنهضت. قرقعت في الداخل بأدوات المطبخ، ثمّ عادت وهي تحمل كأساً من القهوة. نسي أن يقول لها إنّه لم يعد يشرب القهوة، إلا أنّه شكرها والتقط الكأس. جلست هي أيضاً على الكنبة التي أصدرت أزيزاً بسبب ثقلها سألته:

– كيف هي أحوال البلد؟

– سيئة. قال ذلك وهو يلف سيجارة. ناولها إياها، وأشعلها لها. نفثت الدخان عدّة مرات، ثمّ قالت:

– هل أخبرك أرتين؟...

– بماذا؟

– سيخبرك هو بنفسه. لقد قرّرنا أن نهرب من حلب.

أبقى سيجارته غير مشعولة وهو ينظر إلى سانتوس:

– ولماذا؟

– قال لنا أحد الجيران إن رجال الدرك الأتراك سألوا عن أرتين. لقد أصبحنا على يقين أنهم يعرفون عنه شيئاً. أحدهم ضعف وحكى.

أشعل سيجارته، ثمّ سألها:

– من أحدهم؟... من الحلقة مثلاً؟ خلوق أفندي أو الآخرين اللذين قبض عليهما؟

– أنا لا أقول خلوق أفندي. قد يكون أحد الاثنين. ثمّ ... هناك خبر سيء

آخر يقولون إن الأتراك سيعيدون جميع الأرمن الذين هجّروا إلى الصحراء وهربوا إلى حلب، سيعيدونهم إلى دير الزور من جديد، وقد تحدث مذابح هنا أيضاً على غرار مذابح 24 آب من العام الماضي. إن المسألة الأرمنية تزعجهم. وكذلك قررنا أنا وأرتين أن نهرب إلى بيروت. هناك الوضع تجاه الأرمن أفضل من هنا. فهي مدينة كبيرة ونستطيع أن نختبئ فيها بسهولة.

أخذت مجة من سيجارتها، ثم أطفأتها، وتابعت:

– في الأمس. ذهب أرتين إلى ... الأستاذ شلاح. أخبره بالأمر. ليس عنده مانع. دخل أرتين. كان يلهث من التعب. جلس مكان زوجته التي أسرعت إلى المطبخ لتحضير الغداء.

علم صالح من أرتين أنهما سيسافران غداً مساء في عربة البوسطة، وبناء على طلب الأستاذ عبد الجليل الشلاح سلّمه أرتين مصنفين يحتويان على بعض الرسائل والخطب والمقالات وبعض الكتب باللغة العربية، ثمّ تناولوا طعام الغداء معاً، ودّعهما وخرج.

عندما عاد إلى بيته في باب إنطاكية، أحسّ أن الحياة تدير له ظهرها. لماذا؟ وكأنهم يستجيبون لأمر ما، فالجميع ينسحبون من حياته. زوجته وخلوق أفندي، أرتين وزوجته سانتوس، وحيد الأسدي وعبد المهيمن. ابن عمه عمر وكثير من أصدقائه في الحي وفي معمل الحاج سامي، الذين سافروا إلى الحرب ولم يعودوا بعد، أو أنهم هربوا إلى جبل الأربعين وجبال أمينو وباريشا.

ماذا حدث؟؟ هل كتب عليه أن يعيش وحيداً؟ أم أن ناموس هذا العصير يقضي بأن تتشتت الجماعات وأن على الإنسان أن يعيش هارباً خائفاً ووحيداً.

هذا البعبع الرهيب. متى ينهزم؟ ومن يهزمه؟ من يستطيع؟ لماذا لا يقاومونه بالسلاح؟ هذا الخطأ في تكوين العالم، الذي جعل الظلام أشد ظلاماً، بينما بقي النور بعيداً. بقي الصباح بعيد المنال... كم يشتاق إلى أيام الصحبة والأصدقاء والمرح، إلى السرور وأغاني القدود اللطيفة في ليالي حلب الشفافة.

وقبل أن يغفو تذكر ما قاله خلوق أفندي وهو يشرح خططه وأحلامه عندما كان يزوره في بيته في حارة الريش:

– اسمع يا صالح! هل تستطيع أن تحلم بعالم من دون ظلم وحروب وجوع ومرض وجهل وغيره. هل يمكنك أن تتصور عالماً هادئاً وجميلاً بحيث أنك تستطيب العيش فيه، تسوده الحرية والإخاء والمساواة؟

وعندما سأله صالح عن هذه (الخزعبلات)، قال الأستاذ المحبوب:

– هذا هو العالم غير المقسم إلى طبقات، حيث الجميع يعملون، ويأكلون، ويمرحون، وينامون قريري العين من دون هموم الغد والمرض ومن دون الخوف من سحبهم إلى حرب ليس لهم فيها مصلحة. هذا اليوم سيأتي، فأما بعد قيام الدنيا وقعودها، أو بعد قيام المصالحة التاريخية بين الأغنياء والفقراء.

نام صالح. وفي المساء ارتدى ثيابه، وركب حماره بعد أن وضع البلطة في خرج الحمار. شدّ رسن حماره باتّجاه إحدى حارات الكلاسة، حيث كان الأستاذ عبد الجليل الشلاح مختبئاً مع ابنته زينب.

* * *

(12)

ما إن تصعّد الوضع على جبهة سالونيك بسبب أعمال الدفاع النشيطة التي قام بها جيش مدحت باشا، حتى هدأ من جديد. فالخسائر كانت فادحة في كلا الطرفين. ولم يتمكّن أيّ طرف، سواء كانوا الأتراك أم الإنكليز، من إحراز أيّ اختراق لخطوط الطرف الآخر بل إنّ شعوراً قد تمخّض عن القتال الأخير، يفيد بأنّ تمجيد الأعمال العسكرية على هذه الجبهة مفيد للجميع وخصوصاً للأتراك الذين كانوا يتعرّضون لضغوطات هائلة على جبهات فلسطين والعراق.

إلا أنّ المعارك قد أفادت الألمان إلى حدّ كبير، حيث أنّ الإنكليز والفرنسيين قد توقفوا عن نقل وحداتهم من جبهة المضائق (غاليبولي) باتّجاه الجبهة الغربية، وراحوا يحولونها إلى جبهة سالونيك حيث واصلوا تدعيم هذه الجبهة بالرجال والعتاد لفترة قصيرة اعتقاداً منهم بأنّ مدحت باشا لابدّ مصر على طرد الحلفاء من الأراضي اليونانية. إلا أنّ برقية مشفرة وصلت من أحد جواسيس الإنكليز المتواجدين في الأستانة أفادت أنّ مدحت باشا قد ارتجل هذه المعارك نتيجة لنصائح ضابطه الألمان وذلك لتحويل اهتمام الحلفاء عن الجبهة الغربية، وأنّ الألمان يرجون من ذلك هجوماً واسعاً باتّجاه الأراضي الفرنسية بعد أن يكونوا قد حطموا خطوط دفاع الحلفاء في الغرف.

وهكذا، راحت المعارك تخف تدريجياً حتى توقفت في أوائل نيسان عام 1916، فعاد الهدوء يسود السهل الممتد من البحر حتى مرتفعات سالونيك، بعد أن كساه الربيع حلّة خضراء، وراحت الشمس تشع بكسل ناشرة دفأها على الجنود القابعين في الخنادق التي دمرت معظمها نتيجة المعارك الأخيرة.

وفي إحدى الأمسيات الربيعية، اقترب ديتريش، كبير الضباط الألمان من مدحت باشا الذي كان جالساً وحيداً، في سقيفة البيت الذي يشغله. احتلّ كرسياً ذا مسندين، وهمس في أذن مدحت باشا:

– مدحت باشا... يسرّني أن أنقل إليكم بارتياح الأركان العامة الألمانية لأعمالكم الجليلة التي قمتم بها ضدّ الحلفاء. إنكم تمتازون بشجاعة فائقة وبذكاء

خارق.

– أشكرك يا ديتريش.

تابع ديتريش:

– وأريد أن أخبركم أن الحكومة الألمانية قد خصتكم بهدية متواضعة قوامها خمسة آلاف ليرة ذهبية وضعت في حسابكم في البنك.

– هذا غير ضروري يا ديتريش، إنني أقوم بواجبي تجاه الإمبراطور.

– هذا ليس شيئاً، إننا فقط نعبر عن تقديرنا العالي لأعمالكم المجيدة في هذه الحرب.

شربا القهوة، ثمّ انصرف الألماني. فرك مدحت باشا يديه وهو يبتسم. خمسة آلاف ليرة ذهبية. لقد عوضوه عن كل هذا الشقاء. هؤلاء الألمان يحسنون التصرف. ليسوا كالآخرين. فكّر... الحكومة التركية تكتفي بمنحه راتبه فقط. هذا الراتب الضئيل المصاب بالسل. فضيعته تعود عليه بأضعاف أضعاف مرتّبه، ومع ذلك فقد تركها لوكلائه ونسائه وجاء إلى هنا، ليقود جيشاً في حرب أصابه الملل منها، وليقبع هنا، في هذا البيت القذر وبين هؤلاء الناس البلهاء.

أحس بارتياح في معدته، وغاب الألم عن شرجه. فكّر وهو يرشف ما تبقى في عقب الفنجان من قهوة.. لو كان أكثر حرية لطرد الإنكليز إلى البحر. إلا أنّ الألمان لا يريدون الإنكليز في البحر. إنهم يريدونهم هنا... في البر... ولكن دون الجلوس على أقفيتهم والتمتع بهذا الطقس الجميل.

استاء مدحت باشا. إنه ليس حراً. أحمد جمال باشا أكثر حرية منه. لو كان في وضع مماثل لكان قد تلقّى من الأركان العامة الألمانية راتباً ثابتاً. خمسة آلاف ليرة ذهبية شهرياً... تصور يا مدحت...

ربّت على كرشه ثم عدّل مكان خصيتيه بيده. سوف يسافر غداً في إجازة. لقد أبرق لأنور باشا. طلب منه الموافقة على ذهابه إلى القرية لمدّة خمسة عشر يوماً. وافق أنور... ولماذا لا يوافق؟ هذا الملعون الذي يقود الدولة وهو مستلق بين فخذي زوجته. أما هو فقد كتب عليه أن يهجر زوجاته أشهراً كاملة. لقد مضى عليه أكثر من أربعة أشهر ولم يرهن وخصوصاً عليّة. هذه الصبية الحلوة التي عرفت، أكثر من

غيرها، كيف تسعده. ولا واحدة، في هذه الدنيا، يمكن أن توازيها، ولا حتى هذه الشيطانة التي اسمها فروساكي. صحيح أنها شعلة ملتهبة تسير على قدمين، إلا أنها تمتنع. لقد فضلت عليه جندياً من جيشه، هكذا وصل إلى سمعه، إنها تعاشر جندياً اسمه ربيع الزيات. ذلك البطل الذي أصدر فرماناً، في أحد الأيام، بترفيعه إلى عريف أول، ثم إلى رقيب أول. هذا الصبي لا بأس به.

فلتحتفظ به، ما دامت امرأة بلهاء، يطير عقلها لمجرد أن يقوم أحد الصبيان بعمل ما. أما الباشا، الذي يقود كل الجيش ويتحكّم بمصائر كل جنوده، فهذا في رأيها لا يساوي شيئاً... أحسّ بالغيرة تنهشه. إلا أن كبرياءه أبت عليه أن يغار من جندي يستطيع الآن، أن يضعه أمام الحائط، ويثقب جسده بمئة رصاصة.

إلا أن فكرة خطرت له فجأة، جعلته يصيح على الحاجب الذي كان جالساً في الظلام ينتظر أية إشارة كي ينتفض، أمره بإحضار اليوزباشي سليمان.

راقبه مدحت باشا وهو يتسربل في الظلام. سوف يأخذ ذاك البطل معه. إنها فرصة ليتمعنه جيداً، ثم أن فكرة حرمان تلك الأرملة من عشيقها قد استهوته.

حضر النقيب سليمان راكضاً. ظلّ واقفاً، إلا أنّ الباشا دعاه للجلوس، ثمّ سأله:

– من سيرافقني في الغد؟

– الملازم مصطفى يا باشا... سيكون معه خمسة عشر عنصراً. لقد رافقكم في المرة الماضية وكنتم مرتاحين معه.

فقال الباشا وهو سئم:

– اتركني من هذا المخنث... ألا يوجد غيره؟ لم أكن مرتاحاً معه...

– أمرك يا باشا.

قال اليوزباشي سليمان وهو يفكر في البديل. سمع مدحت باشا يسأله:

– ماذا يفعل ذاك الصبي الذي رفعناه إلى رقيب أول؟

– ربيع الزيات؟

– نعم.

– إنه يقود سرية الملازم مصطفى. لقد أصبتم يا باشا، إنه شاب جيد ولكنه يا باشا... عربي. حسم مدحت باشا النقاش، وهو يكش بيده ذبابة وقفت على أنفه:

– فليذهب معي!

نهض سليمان. أسرع إلى مأواه، ثم أرسل حاجبه يستدعي ربيع الزيات.

كان ربيع جالساً مع بعض الجنود في مكان عريض من الخندق. كانوا يستمعون إلى صبحي الذي كان يشدو أغنيته بصوت الهادئ الرخيم. كانت الكلمات تخرج لينة، ممدودة مجبولة بالحنين، فتهتز لها رؤوس الجنود الذين استكانوا وراحوا يدخنون بصمت وهم يهرشون لحاهم الكثة.

طرقت باب الجنا، قالت من الطارق

فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق

تبسمت لاح لي في ثغرها بارق

رجعت حيران في بحر دمعي غارق

يا حادي العيس أزجر بالمطايا زجر

وقف على منزل الأحباب قبل الفجر

وصيح في حيهم يا من يريد الأجر

ينهض يصلي على ميت قتيل الهجر

اقترب الحاجب، وهمس في أذن ربيع، الذي نهض، وتسلّق منحدر الخندق الترابي، وابتعد. في غرفة اليوزباشي سليمان تلقّى الأمر بالاستعداد للسفر مع مدحت باشا، الذي يغادر عند الفجر إلى ضيعته.

كان ربيع، الذي استطاع أن يحضر أسيراً إنكليزياً جريحاً، قد لفت انتباه الضباط إليه. فبعد أن رُقّع إلى رتبة عريف أول قام بقيادة نفس الفرقة التي كان يحارب فيها بعد مقتل العريف الجركسي الذي كان يقودها. كانت المعارك تجري بعنف، ومما زاد في وحشيتها وصول التعزيزيات إلى الطرفين. فقد قام الألمان بتوريد أحدث المدافع إلى جيش مدحت باشا أمّا الإنكليز فقد كانت أسلحتهم حديثة ودقيقة التصويب، مما أدّى إلى إنزال أفدح الخسائر في الجانبين.

لم يرق لعيوش وجماعته أن يرقّع ربيع وأن يقوم بقيادة الفرقة. كان ذلك في بادئ الأمر. كانوا يريدون من ربيع أن ينخرط معهم في حزب اللامركزية. وكانوا قد كتموا عنه خطتهم للهرب من الجيش، حتى يظهر تعاطفه مع حركتهم. إلا أنه عندما

(كسبه الأتراك) كما قال عبد الكريم ارتأوا أن لا يفاتحوه بأي شيء. فربيع أصبح، منذ الآن، رجل الأتراك الذي أصبح بطلاً وهذا ما كان الضباط يرمون إليه، ويدعون لجعل ربيع أمثولة، خصوصاً في وقت المعارك الطاحنة حيث بدأ الجنود يتذمرون.

ولكن، بعد أن أصبح ربيع قائداً لفرقتهم، تحسّنت ظروف الفرقة. فقد أصبح الطعام أكثر من السابق ولو بقليل. ووزّعت عليهم أحذية جديدة عوضاً عن تلك التي بليت كما أنهم استبدلوا البنادق القديمة ببنادق ألمانية حديثة. كان ربيع يتجاسر، ويطلب تزويد فرقته بأيّ شيء قد يسكت انتقادات جنوده، ويجعله قائداً مسموع الكلمة وذا هيبة.

وفي أوائل شباط وبينما كانت فرقة ربيع منبطحة في الأرض المحايدة، بعد قيامهم بالخروج من خنادقهم لمهاجمة الإنكليز، سقطت قنبلة مدفع وسط رجال الفرقة، فانقذف رجلان يطيران في الهواء، ليسقطا بعدئذ على الأرض جثتين هامدتين، وقد ثقبت سترتاهما كالمصفاة. كانا جاسم ابن خالة عيوش ومحمود.

كان المصاب أليماً بالنسبة لعيوش وعبد الكريم. تمّ نقل الجثتين تحت القصف. قام ربيع الزيات ومحفوظ بذلك. وعندما تمّ دفنهما وقع عيوش مغشياً عليه. ثمّ راح يهذي بما معناه أن ربيع كان السبب في موتهما. فهو الذي قاد الفرقة إلى ذلك المكان الذي كان الإنكليز يركزون القصف عليه بمدافعهم. فقد رأى ربيع حينها، أنهم عبر هذا المكان سيصلون إلى الخنادق العدوة أسرع من الآخرين. كان عيوش قد نصحه:

– انظر يا ربيع، بحماسك هذا سوف تقضي علينا كلنا. لماذا لا تحارب كالآخرين؟

إلا أن ربيعاً صاح في وجهه:

– إياك أن تعلّمني كيف أعمل. لم يستطع، حتى الآن، جندي واحد من الوصول إلى خنادق الإنكليز، سأكون أنا الأول سواء جئت معي أم لا. هل هذا مفهوم؟

مكثت الفرقة تلك الليلة، وهي واجمة. كان عيوش قد استفاق وراح يبكي بصوت يقطع القلب، فقد قتل رفيق عمره وقريبه. كان ينظر في الظلام إلى ربيع. راح يحقد

عليه. كيف يمكن لهذا الرجل أن يفعل بهم ذلك؟ إلا أن ربيعاً آثر أن يغيب الليلة فرحل إلى أرملته.

بعد أيام، لاحظ ربيع أن إنكليزياً يلبس بدلة جندي عادي، كان يحضر كل ليلة إلى الخنادق حيث يمكث ساعة وهو يتفحص خطوط الأتراك بواسطة المنظار. ألا يمكن أن يكون ضابطاً؟ وصمم على عمل شيء. إنه رجل الفرص، وهذه فرصة لا تعوض. فهذا الإنكليزي دقيق جداً، كالساعة. إنه يحضر عند مغيب الشمس، بعدما يتوقف القتال، ويرحل بعد حلول الظلام.

اقترب ربيع من عيوش وقرفص إلى جانبه. همس في أذنه:

– كفى يا عيوش كفى. سأنتقم لمقتل ابن خالتك ورفيقه. إنهم إخوتي أيضاً. سأقدم لك ضابطاً إنكليزياً لتشرّحه.

أدار عيوش رأسه إلى الجهة الأخرى وبمشقة فتح فاه:

– اتركني يا ربيع. لقد أصبحت متوحشاً. إنكشارياً فعلاً.. لو تعلم بما كان جاسم يحلم... كان يريد العودة إلى البيت حياً. إلا أنه كان خائفاً.. كان يقول لي إنه سيموت على يدك. وهذا ما كان. إنك قاس كالعفاريت.

اصطنع ربيع ضحكة بلهاء. ها هم يدينونه. هل هم في حرب أم في نزهة؟ سيطلب نقلة إلى فرقة أخرى، لا يكون الجنود فيها من أصدقائه. عندها ... سيفعل العجائب. ولكن ما العمل الآن؟ فعيوش رجل طيب القلب وقد آذاه. على كل سينسى الحادث عما قريب.

قعد ربيع مع محفوظ، واتفقا على الخطة. غداً، وعند آخر هجوم سوف يقتربان مع اثنين آخرين حتى آخر حفرة صنعتها قنبلة مدفع. سيمكثون فيها قليلاً. وعندما يأتي الإيعاز بالانسحاب، سينسحب الآخرون. أما ربيع فسيبقى جاثماً في الحفرة، حتى مغيب الشمس وحضور الضابط الإنكليزي صاحب المنظار. عندها سيزحف إلى حيث يقف الضابط لأخذه.

وفي اليوم التالي نجحت الخطة. وعندما حل الظلام شرع ربيع يزحف من الجهة اليمنى للضابط الذي كان ينظر بالمنظار إلى الجهة اليسرى. أصبح على بعد متر واحد منه. عندها، أنزل الضابط المنظار، وراح ينظر مباشرة إلى ربيع. وكأنه لم

يصدق عينيه، جعل يتابع النظر من دون أن يقوم بأية حركة، ومن دون أيّ صوت أنزل ربيع الهراوة الثقيلة على رأسه والتقطه من تحت إبطه. ندّت عن الضابط آهة. انتظر ربيع لحظة فلم يسمع أي شيء غير عادي عندها رفعه بيد واحدة وراح يشدّه راجعاً إلى الوراء. كان المنظار يصدر صوتاً مزعجاً. قال ربيع هامساً بينما كان يدسّ المنظار تحت سترته: ما فائدة المنظار في الليل أيها الأحمق؟ إلى ماذا كنت ترنو؟

ولم يكد ربيع يصل إلى مكان فرقته ساحباً جسد الإنكليزي حتى ظهر القمر من خلف كتل الغيوم السوداء. استقبله الجنود بالضحكات والصفير. صبوا على رأس الأسير سطلاً من الماء البارد، فشهق الرجل، وفتح عينيه، وعندما فهم أنه وقع أسيراً انكمش على نفسه، وراح يدير عينيه في وجوه هؤلاء الرجال الذين بدوا له كالوحوش. راح يرتجف بفعل الماء الذي سكب عليه. التقطه ربيع من شعر رأسه، وجرّه إلى حيث كان يجلس عيوش. اركعه أمامه وقال له:

– هيا ... اذبحه. خذ بثأرك!

ومد له سكينه الذي كان بطول شبرين.

شخّص عيوش إلى الرجل وهو مذعور، غير مصدق ما يجري. وفجأة أصيب عبد الكريم الذي كان جالساً إلى جانبه بغثيان قوي، وراح يتقيأ.

– ما بك؟ هل أصابك شيء؟ صاح محفوظ في عيوش.

كرر ربيع:

– قلت لك اذبحه. إنه لك. خذ بثأرك... إنه ضابط وليس جندياً!

– لن أذبحه... أغرب عن وجهي. يا لك من سفاح حقير...

قال عيوش وقد نهض على قدميه. كان وجهه مصفراً وشفتاه ترتجفان. إلا أن ربيعاً اقترب منه وقبّله في فمه. خبط على ظهره وقال:

– صافي يا لبن؟...

– اتركني الآن من فضلك..!

قال عيوش، فانفجر الجنود بالضحك، وراحوا يطلقون التعليقات. قال صبحي الإسكندروني:

– مادام عيوش لا يريد أن يذبحه. فأنا أقترح أن نبقيه على قيد الحياة. سأطعمه من حصتي. اتركوه لي. سأجعله جاريتي في الليل.

– إن مؤخرتك أجمل من مؤخرته... قال بطيخة.

– هكذا إذن. لقد جعلتك الحرب خبيراً بالمؤخرات أيها الأخرق. تأتأ صبحي.

فقال محفوظ بأعلى صوته وهو ينتفض:

– يقولون إنهم أسروا، مرة، إنكليزياً، وراحوا يستخدمونه. إلا أن تبادلاً للأسرى قد جرى، فرفض أخونا العودة إلى جيشه.

– وأنت هل ستعود إلى أدنه عندما تنتهي الحرب؟ لعلك ستبقى في الجيش...

– سأعود إلى أمك بالتأكيد.

– يا لك من أحمق.

– اصمتوا يا رجال . صاح ربيع . سوف نرى ما سيفعله مدحت باشا بالأسير .

ثم التقطه من ياقة سترته. رفعه إلى الأعلى، وجعله يصعد خارج الخندق.

بعد قيام عدة ضباط باستجواب الأسير ، تبين أنه ضابط برتبة كابتن ويعمل في هيئة أركان الفرقة الإنكليزية. قام ديتريش أيضاً باستجوابه وإرسال المعلومات التي حاز عليها إلى برلين مباشرة. وعندما فرغوا منه أرسلوه إلى الأستانة حيث سبقته إلى هناك برقية مدحت باشا إلى القيادة العامة، يخبرهم بالأسير (ذو أعلى رتبة من بين جميع الأسرى الذين تم التقاطهم على جبهة سالونيك حتى الآن).

تم ترقية ربيع الزيات إلى رتبة رقيب أول. صدر فرمان بذلك، وعلقوا على صدره وساماً حديدياً مدوراً، ثم قاموا بتسليمه قيادة السرية الثانية، كمعاون للملازم مصطفى الملقب (بالست صفية) والتي كانت تضمُّ أكثر من ستين عنصراً، ثمّ أعطوه حصاناً بني اللون ذا ذنب قصير أسود ومسدساً من نوع قره داغ. ولكي تكتمل مكافأة قائد الجيش له أعطوه مهجعاً، هو نفس المهجع الذي كان يشغله الملازم مصطفى من قبل، والذي نقل إلى غرفة مبنية من جذوع الأشجار في طرف الغابة. وعينوا له حاجباً انتقاه بنفسه ألا وهو محفوظ. كما أنّ مدحت باشا استقبل بطل الحرب وهنّأه على شجاعته وحسن قيادته لجماعته ووعده بإجازة لمدّة شهر يقضيها عند أهله في حلب في الربيع القادم.

وصلت قافلة مدحت باشا إلى الأستانة بعد منتصف الليل. كان ربيع وشيرزاد الكردي يسيران في المقدمة. ثمّ كانت عربة الباشا التي كان يشدّها حصانان. أما في المؤخرة فكان يخبُّ بقية الجنود. كان ربيع وشيرزاد قد تصالحا، وتوطدت علاقة صادقة فيما بينهما، فشيرزاد عسكري حتى العظم وذو بأس. أما عندما كانت تتوقف المعارك، في الأمسيات، ويسقط الرجال نائمين كلّ كيفما كان، كان شيرزاد يجلس على حافة الخندق، ويغني أغنياته الكردية العذبة. كان ربيع يحسب، وهو مستلق في مهجعه، أن شيرزاد كان يبكي وهو يشدو، إلا أنه لم يكن يبكي أبداً وهو يغني، رغم كلّ ذلك الحنين الذي كان مصبوباً في أبياته. فالبكاء يبقى للأمهات البعيدات وللصبايا العاشقات اللواتي ودّعن فرسانهن إلى الحرب. أما عندما كانت القافلة تدوس أحجار الأستانة فقد غنّى شيرزاد أغنية مرحة. لم يفهم ربيع ولا كلمة منها، إلا أنّه راح يصفر اللحن البسيط الذي كان يتكرّر باستمرار، مشاركاً شيرزاد انبساطه.

نام الجنود على مقاعد محطة حيدر باشا، أمّا مدحت باشا فقد استضافه ناظر المحطة. فتح له غرفة مفروشة بشكل حسن مهيّأة للضباط المسافرين. وفي الصباح الباكر استقلوا القطار المسافر بمحاذاة البحر والذي كان ينقل الذخائر الواصلة من ألمانيا. وعند الظهر، نزلوا في محطة صغيرة تبعد عدّة كيلومترات عن بورسا. استقل مدحت باشا فرساً مرقطة، وانطلقوا خبباً باتّجاه الغرب مسافة عشرين كيلومتراً ليصلوا إلى ضيعة امتدت في السهل، وانتشرت بيوتها حول قصر من طابقين بني بالحجر المنحوت.

ترجّلوا في باحة القصر. كانت أشجار اللوز والدراق والكرز تحيط بالباحة، وهناك كان كثير من الخدم وعدد كبير من النساء في استقبال مدحت باشا. قبّل الجميع يده الممدودة، ثمّ تبعوه وهو يصعد الدرج ويغيب خلف الباب العريض.

كانت مظاهر الأبهة منتشرة حول القصر وداخله. فقد بانت خلال النوافذ الستائر الحريرية ذات الدانتيلا ومقاعد اللويسيز المزخرفة. وكانت أفاريز الأدراج والبلاكين محفورة على هيئة مزهريات ذات أعناق طويلة. أما باحة القصر فقد قطّعت إلى ممرات فُرشت بالبحص البحري، وامتدت الأحواض فيما بينها، حيث زرعت نبتات ورد النسرين وزهر السماعة والياسمين البحري ونبتة الختمية الرقيقة.

شغل ربيع الزيات غرفة في مبنى الخدم، واحتلّ الجنود الإسطبل بعد أن فرشوا أرضيته بالقش.

عُيّنت ورديات الحرس والخدمة وخدمة الأحصنة في الإسطبل. هز ربيع قبضته في وجه الجنود، وهددهم بأنه سيقوم بجلد كلّ من يتلكأ في تنفيذ ما أمر به، وعيّن شيرزاد معاوناً مباشراً له.

سارت الحياة في القصر بشكل عادي، اللهم ما عدا ظهور هؤلاء الرجال الذين يرتدون بذات عسكرية قذرة والذين كانوا يجتازون ممرات باحة القصر وغابته الصغيرة المثمرة من وإلى الإسطبل. كان مدحت باشا، بعد أن مكث يومين داخل القصر ولم يظهر خارجه، أبداً، قد بدأ تفقده لأحوال القصر والقرية. كان يخرج قبل الظهر، يستقلّ عربته، ويصطحب معه ربيعاً وجندياً آخر، ثمّ يأمر الحوذي بالذهاب إلى هذا المكان أو ذاك. أمّا بعد العصر فكان يستقبل الوكلاء والمحاسبين والتّجار والجيران وبعض الباشوات والأغوات الذين كانوا يحضرون للسلام عليه. كلّ شيء كان طبيعياً ومدعاة للارتياح. فالمحصول جيد جداً والأسعار عالية، وتبقى الأرباح في النهاية، ممتازة.

إلا أنّ المنغصات لا تترك مدحت باشا أبداً. إنها تلاحقه مثل ظلّه. لقد أحسّ بفراسته، التي لا تخطئ، أن هناك أمراً ما قد تمّ إخفاؤه. كلّ من في القصر يريد أن يقول شيئاً، ولكنهم لا يفصحون عن أيّ شيء. حاول أن يستدرج عليّة، زوجته الصغرى المحبوبة، إلا أنّها رفضت أن تبوح بما كانت عيناها الجميلتان تحاولان أن تخفيا... حسناً فليكتموا ما في قلوبهم قدر ما يستطيعون، إلا أن ألسنتهم ستبوح به بعد لأي.

وفي اليوم الخامس، نهض من تحت علية. كان ذلك في المساء. اغتسل وقد أحسّ بنشوة عارمة. نشوة القذف في رحم علية الصغيرة والبريئة. ارتدى ثيابه الكاملة وجلس في الشرفة الخلفية. راح يملأ رئتيه بهواء ريف بلاده النيي. كان الهواء يهبُّ من الجهة الشمالية الغربية، من جهة بحر مرمرة، وقد تشبّع برطوبة البحر المالحة. بعد قليل، من المفروض أن يأتي قائم مقام المنطقة ليلعبا بالنرد. هذه اللعبة حبيبة إلى قلبه وخصوصاً مع السيد قائم المقام الذي يلعبها بدهاء شديد.

دخلت الصالون زوجته الكبرى، زوجته الأولى، نازلي هانم. لقد أصبحت في الخمسين، تجعدت بشرتها واسودت أسنانها. رحم الله شبابك يا نازلي. لقد أصبحت حيزبونا... شاخت مبكراً. ولدت له أطفالاً كثيرين. ربّتهم حتى أصبحوا شباباً. أصبحوا ضباطاً، وأصبحوا ذوي مكانة، والآن تقاعدت. عندما تزوج امرأته الثانية، ألفت، أبت أن تجادل أو تبكي أو تشتكي لأولادها، بل تصرّفت كسيدة القصر بلا منازع. كعهدها أبداً.

إلا أنّ ألفت، تلك الصبية اللعوب التي لم تلد لمدحت باشا أبداً. العاقر. صاحبة اللسان السليط. راحت تناطح نازلي. أصبحت منافستها على سيادة القصر. إلا أن نازلي غلبتها. منعتها من أن ترفع رأسها في هذا البيت. ومنذ ذلك الوقت أغلقت ألفت على نفسها باب غرفتها. انعزلت عن حياة القصر، والويل لمن يخطئ معها، فإن لسانها يعود حالاً إلى أمجاده السابقة. أما الخدم فقد كانوا يحسبون لها ألف حساب، ويحاولون جاهدين الابتعاد عن أنظارها. خصوصاً، عندما قام مدحت باشا بالزواج من امرأته الثالثة علية. ذلك الزواج الذي ضربها في الصميم، وأصاب كبرياءها، وأنهى إلى الأبد، أي نفوذ لها في القصر.

مسّت عليه نازلي، وجلست إلى جانبه. فاحت منها رائحة عطر البنفسج الخفيف. كانت تلفّ على كتفيها شالاً من الصوف الأبيض.

– أراك تجلس وحيداً. أريد أن أتحدّث معك في موضوع هام.

قالت نازلي بصوتها الأجش الذي ثخّنته السنون.

– خير إن شاء الله. قال مدحت.

– في غيابك حدث أمر كنا لا نريده أن يحصل. كما أننا لا نرغب بتاتاً في إزعاجك. إلا أنّني أرى من واجبي أن أطلعك عليه.

تطلّع مدحت باشا في وجهها أخيراً، لقد صدق حدسه إذن. قال بهدوء، وكأنّه لا يستعجل سماع ما كان يبحث عنه:

– هيا إذن... أخبريني!

بسملت نازلي، ثمّ قالت:

– لقد عابت ألفت.

– ما معنى أنها (عابت)؟

– علمنا أنّها كانت تعاشر ذاك الوكيل الذي اسمه ناجي.

اصطبغ وجه مدحت باشا بلون أحمر قاتم. إلا أنّ نور المصباح الكهربائي الباهت القادم من الصالون لم يبين ذلك بشكل واضح. بل أحسّت به نازلي. راح يتحرّك باستمرار على كرسيه. أما أصابعه فلم تعد هادئة على المسندين. أحسّ بقلبه ينتفض بين ضلوعه. فقال:

– هيا... هيا... قولي التفاصيل!

– كنا نحسب أنّها في غرفتها، إلا أنّها كانت تخرج عصراً. وعندما كنا نلتقي بها أثناء عودتها كانت تبرّر غيابها بحجة أنّ روحها قد زهقت، وأنّها خرجت للنزهة. وفي إحدى المرات شاهدها الخادم أحمد، وهي خارجة من بيت الفلاح سعيد . وهذا البيت أصبح مهجوراً بعد مقتل صاحبه في الحرب . وبعد ذلك خرج الوكيل ناجي من نفس البيت، وذهب في وجهة أخرى. أخبرني خادمنا أحمد بذلك، فكتمت الموضوع عنها، إلا أنني ذهبت إلى هناك في أحد الأيام بعدما تأكّدت أنّ ألفت قد خرجت من جديد. اختبأت، ورحت أنتظر، وقبيل المغرب خرجت ألفت، كانت هي بعينها. لا مجال هنا للخطأ، وبعد دقائق خرج ناجي أيضاً.

قال وهو يرتجف:

– ماذا فعلت بعد ذلك؟

– منعت ألفت من الخروج بحجج مختلفة، أما الوكيل ناجي فقد سجنته في المستودع حينما علمنا أنك قادم. ماذا ستفعل يا باشا؟

قال وهو يصطنع الهدوء:

– لن أفعل شيئاً. ربما سأرسله إلى الجبهة، أما ألفت، فسأطلقها فوراً.

ثمّ سألها، وهو يتفرّس فيها:

– وهل يعلم بذلك أحد غيرك؟

– أخبرت علية هانم بالأمر، واتفقنا على أن أفاتحك أنا بالذات وليس هي. أمّا الآخرون فأنا لا أعلم عنهم شيئاً. قد يكون خادمنا أحمد قد حكى شيئاً.

– سأقطع لسانه هذا الثرثار.

قالت وهي تهمُّ بالخروج:

– تصرف بحكمة يا باشا!

– اذهبي أنت الآن!

– ألن تنزل للعشاء؟ آه... ها هو قائم المقام قد حضر.

كان قائم مقام المنطقة القصير والسمين وصاحب الرأس الأصلع، يجتاز الصالون باتّجاه الفرندة. رحّب به مدحت باشا، ثمّ اعتذر منه. قال له، إنّ عليه أن يخرج في أمر طارئ. تركه في الفرندة، ونزل. وقف مدحت باشا في باحة القصر، ثمّ أرسل أحد الخدم ليحضر ربيعاً الزيات، الذي اقترب راكضاً. ماذا جرى لمدحت باشا؟ هذا ليس من عادته. كان يقول في نفسه وهو يزرر سترته.

– أمرك مدحت باشا، ماذا حدث؟

– تعال معي.

امتطيا حصانين، وراحا يهمزان باتّجاه البوابة. خرجا من القصر، وانطلقا على الطريق الترابية، فانعطفا إلى اليسار، وهما يثيران زوبعة من الغبار. كان الدرب الترابي يقود إلى مبنى كبير ذي سطح مائل صفّت عليه ألواح الكيراميك الأحمر. ترجّل ربيع قرب باب المستودع قبل أن يتوقف حصانه، وهرع لمساعدة مدحت باشا.

فتح لهما حارس المستودع الباب الواسع، ثمّ صرفه مدحت باشا إلى بيته. وعلى ضوء مصباح الكيروسين شاهد رجلاً في الثلاثين متوسط القامة، نحيفاً، أشعث الشعر، وذا شاربين ناعمين جميلين.

كان الرجل يلتصق مذعوراً بجدار المستودع، وقد تجعّدت ثيابه التي كانت أنيقة يوماً من الأيام.

– اخلع ثيابك!

أمره مدحت باشا.

– يا باشا... أرجوك أن تسمعني، هناك خطأ....

أشار الباشا على ربيع، فصرخ وهو يوجه فوهة المسدس باتّجاه رأس الوكيل:

– افعل كما يقول لك مدحت باشا، وإلا حطمت رأسك!

راح الرجل يخلع ثيابه. كان وجهه قد استحال إلى ما يشبه ليمونة صفراء

متعفنة فقد تجعّدت جبهته وأنفه الناعم. راحت شفتاه ترتجفان وقد ازرقتا. كان صعباً عليه أن يتحكم بيديه، فكاد أن يقع على أرض المستودع.

وقف وسفله عار. تطلع ربيع إلى بياض ساقيه وفخذيه الأمردين، أما العضو والخصيتان فكان شعر العانة الأسود يحيط بها كالهلال. وبإيعاز من مدحت باشا قام ربيع ربط الجزء العلوي من العضوي والخصيتين بخيط ثخين من القنب، ثمّ قدّم الطرف الآخر من الخيط لمدحت باشا.

– يا باشا أنا مظلوم... اخبرني ماذا فعلت أرجوك!

قال الرجل وهو يبكي ويداه ممدودتان باتّجاه الباشا.

– أنت تعلم جيداً أيها الكلب... ألم ترَ غيري لتلعب لعبتك معه؟

– ماذا فعلت يا باشا؟... هي التي أمرتني بذلك. هدّدتني أنها ستطلب منك أن تطردني من العمل إن لم أذعن لها.

شدّ الباشا الخيط، فصرخ الرجل. وقف ربيع خلفه وعقد يدي الرجل خلف ظهره. استمرّ الباشا في شدّ الخيط بهدوء. إلا أنّه بعد ذلك، شد الخيط بقوة جعلت الوكيل يصرخ بألم شديد وقد جحظت عيناه، ثمّ أغمي عليه. سقط عند قدمي ربيع الذي شاهد الدم ينفر من ذلك الجزء. مسح الباشا يديه وقد رسم ابتسامة صفراء على شفتيه. جمع في فمه بلغماً ثم بصق على الرجل.

قال لربيع الذي كان يحاول أن يحافظ على توازنه:

– خذه إلى خارج القرية. اقتله، ثمّ ادفنه. لا أريد أن يعلم أحد بهذا الأمر. عد إليّ فأنا أنتظرك في القصر!

حمل ربيع جسد الوكيل. وضعه على كفل الحصان، ثمّ ركب، وشدّ الرسن إلى خارج القرية. هل يطلق الرصاص عليه؟ لقد شارك في تشويه الرجل عن طيب خاطر، أذعن للباشا، إلا أنّ الحدث أثار قرفه. لو كان الباشا قد قتله لما تأثر هكذا. أما قتل الرجل الآن، فقد أصبح ضرورة بعد أن تشوهت فحولته. ماذا فعل يا ترى؟ هل هذا العقاب على جريمة جنسية ما؟ اقترفها الوكيل بحق شرف مدحت باشا؟ إياك أن تمسّ شرف رجل قوي مثل هذا الباشا. لقد صدق محفوظ عندما وصفه بالقاسي. إلا أنّ هذه القسوة تصبح ضرورية ليكون الرجل في مركز مدحت باشا. في جبروته

وعزة نفسه. إذن... لماذا لم يكتفِ بقتله؟ لماذا عذّبه على هذا النحو؟ لو كان ربيع مكانه لاكتفى بقتله والسلام...

أطلق على رأسه مباشرة، ثم دفن الجثة في التربة السوداء الطرية. ركب وعاد. آه يا فروساكي... ماذا تفعلين الآن؟ ذاك الرجل الذي اغتصبك وقتل زوجك لمجرد أنه دافع عن شرفه... ها هو قد مسّ شرفه على يد وكيل حقير يقوم بوزن أكياس الغلال. لو كنت هنا لتشاهديه وهو يخصي الرجل بطريقة لم يفكر بها أحد. إنها إنذار. طريقة بشعة جعل ربيع مشاركاً وشاهداً عليها.

إلا أن ربيعاً لم يخطر بباله حتى أن مدحت باشا قام بذلك انتقاماً منه أيضاً لأنه استطاع أن يكون عشيقاً للأرملة فروساكي. أراد أن يخصي، بعمله ذاك، ربيعاً أيضاً.

وفي نفس الليلة، حفر ربيع حفرة عميقة في غابة القصر، ودفن كيساً وضعت فيه أشلاء إنسانة ذبحت، وقطّعت في حمّام القصر.

وفي اليوم التالي، استقبل مدحت باشا القائم مقام الأصلع من جديد، ولعب معه لعبة النرد المفضلة لديه. كان صوت تدحرج الزهر العظمي يأتي من الجهة الخلفية للقصر. وكان صوت مدحت باشا الجهوري وضحكاته تسمع جيداً. لقد نسي الحادث، وهو معتاد على أن ينسى فوراً كلّ ما يمت بأمور القتل والذبح بصلة. ففي الأخير يبقى هذا الشيء من اختصاصه الذي كرّس له حياته كلّها. أليس هو ضابطاً؟ ألا يعطي لجنوده إيعازاً بالهجوم على العدو كي يقتلوا بعضهم بعضاً؟ ... ولكن الأمر يتعلّق بزوجته هذه المرّة. هذا لا يهم... فالصراع من أجل الشرف واحد دائماً. قذف حجر الزهر، فربح الجولة. أغلق القائم مقام الطاولة وهو يضحك ليخفي خسارته.

راحا يتحدّثان في أمور الحرب. لقد استطاعت القوات الألمانية التقدم في منطقة قلعة فردان التاريخية، وخسائر الإفرنسيين لا تحصى. قال مدحت باشا:

– إن فولكنهاين ذكي جداً. إنّه ثعلب. لقد ارتأى بهجومه، على هذه المنطقة، إذلال فرنسا. إن تلك القلعة رمز لمجد فرنسا، وإذا انهارت، فستصاب الأمة بهزيمة معنوية تؤدي أخيراً إلى هزيمة كاملة في الحرب. إن هذا سيؤدي إلى إضعاف إنكلترا

التي هي عدونا الأساسي.

فقال القائم مقام وهو ينظف أذنه بأصابعه:

– ألم تسمع كيف هرع الروس لنجدة فرنسا...؟ لقد راح جيش الجنرال بروزيلوف يهاجم البروسيين في غاليسيا. وصلتنا أخبار تقول إنّه استطاع أن يطرد البروسيين من مواقع عديدة وأنّ خسائرهم كانت جسيمة. اعتقد أن ذلك سوف يدفع (فولكنهاين) لأن يخفف الضغط على بيتان في فردان، وأن يدفع بتعزيزات مهمة إلى البروسيين.

فقال مدحت باشا:

– هذا صحيح. ولكن الشيء الذي يحيّرني هو كيف يمكن للجيش الروسي المحطم أن يفعل ذلك.

– بروزيلوف داهية أيضاً. لقد غيّر تكتيكه، وهاجم الجانب الأضعف من التحالف الألماني البروسي. لم يستمع للقيصر هذه المرّة.

قدّمت إليهما فنجاني القهوة المذهبة. راحا يرشفان منها بصمت حتى خرج الخادم فقال مدحت باشا:

– أظنّ أنّ ذلك ليس سوى نزهة قصيرة، زوبعة قصيرة الأمد ولابدّ أن تنتهي على غير ما يشتهي بروزيلوف.

وضع القائم مقام فنجانه على المنضدة، وقال بعد أن تذكّر شيئاً:

– آه... هل علمت بما قام به أحمد باشا في سورية؟

– لا أعلم شيئاً جديداً.

– معلوماتي طازجة. كنت في الأستانة الأسبوع الماضي، عندما وصلت برقية من دمشق. لقد شُنق الوطنيين العرب. نُفِّذ فيهم حكم الإعدام الذي أصدرته محكمة عالية.

بصق مدحت باشا بحنق. أحمد جمال مرّة أخرى... ماذا يفعل هذا الأحمق؟

– إنّه يدمر الإمبراطورية العثمانية. يجب إيقاف هذا الرجل عند حدّه... قال مدحت.

صمت القائم مقام لحظة. قرّر أن يصب ماءه في طاحون مدحت باشا. إنّه

يعلم كلّ شيء عن الكراهية التي تأصلت بين الرجلين فقال:

– لقد جعل العرب في خانة أخرى عندما تم تعيين وزير البحرية (يقصد جمال باشا) والياً على سورية. كان الهدف هو إبقاء العرب موالين لتركيا في هذه الظروف. أما الآن فقد نشأ أعداء لنا بين صفوفنا.

رشف شيئاً من قهوته، ثمّ قال:

لقد استفاد جمال باشا من استسلام تاونستد في كوت العمارة في 29 نيسان. أراد أن ينهي إلى الأبد آمال العرب في الخروج من الإمبراطورية بمساعدة الإنكليز الذين كما أعتقد، انتهت حملتهم باستسلام تاونستد.

– ما هي أخبار الاستسلام؟

– 13000 أسير من بينهم تاونستد وخمسة آلاف إنكليزي. أما الباقون فهم من العرب والهنود والاستراليين وغيرهم. إنهم في طريقهم إلى الأستانة. ولندن مستاءة جداً، ويجري الحديث هناك عن تقصير جرى في جبهة العراق.

فقال مدحت باشا، وهو يغمز:

– قل لصاحبك أحمد جمال أن يذهب إلى نور الدين بك ليتعلّم كيف يحارب.

– على فكرة... يقولون إنّ أحمد جمال باشا يرجع الانتصار إلى تعزيزاته التي أرسلها من سورية لنور الدين بك.

– يا له من أحمق مغرور . قال مدحت باشا، وقد انتفخت غدته الدرقية . نحن الذين أشغلنا الإنكليز في سالونيك ثلاثة أشهر. تصور ماذا كان يمكن أن يحصل لو أنّ الإنكليز أرسلوا تعزيزاتهم إلى العراق من غاليبولي وسالونيك.

ودّع القائم مقام، ثمّ راح يزرع الفرندة وهو حانق. بصق بعنف عبر الإفريز. كان القمر ينشر شعاعه الفضي على رؤوس الأشجار. شاهد شخصاً باللباس العسكري يسير بين الأشجار. كان ربيع الزيات. عرفه عندما سقط شعاع القمر على وجهه. هذا الرجل يقوم بالخدمة بشكل جيد. إنّه يتفقّد كلّ مكان. ثمّ إنّه يسمع كلمة، وينفّذ فوراً. والأهم أنّه لا يثرثر ولا يسأل. إلا أنّ ربيعاً كان يثرثر، ويسأل في ذهنه. كان يريد أن يعرف من هي صاحبة الجثة التي وضعت في الكيس، وقام هو بدفنه. اقترب من مكان الدفن، وكأن ظاهر التربة على حاله.

عاد إلى غرفته. خلع حذاءه العسكري، واستلقى على السرير. لقد صادف اليوم جميع الخادمات والعاملات في القصر ولم يفتح أحد فاه. ولم يشتك أحد من فقدان إحدى النساء. سمع طرقاً على الباب. نهض، وفتح الباب. كانت نازلي هانم إنّه يعرفها، فالجميع يعرفونها في هذا القصر.

دخلت نازلي، ثمّ أغلقت خلفها الباب. جلست على الكرسي الوحيد، وأمرته بحركة من يدها أن يجلس على السرير. قالت له وهي تبحلق فيه:

- قال حارس المستودع إنك كنت مع الباشا عندما جاء وصرفه إلى بيته.

- هذا صحيح.

- أين هو الوكيل؟ ماذا فعل به مدحت باشا؟

- اسألي مدحت باشا من فضلك، لقد أمرني أن لا أتكلم.

زاورت بعينيها، وقالت له بحزم:

- بل ستتكلم، أنا نازلي هانم، وأنا أسألك.

- حسناً، ولكن مدحت باشا قد يقص لساني إن عرف ذلك.

- لن يعرف، ولذلك جئت أسألك أنت.

مسّد على لحيته وشاربه كمن لا حول له ولا قوة له. مدّ ساقيه على السرير بوقاحة، فاشتمت نازلي هانم رائحة لفافات القدمين القذرة. قال ربيع وهو ينظر إلى السقف:

- لقد قام مدحت باشا بإعطاب فحولته بيده، ثمّ أمرني بقتله..

- وقمت بقتله أليس كذلك؟

قاطعته نازلي هانم، ثمّ استدركت:

- وأين دفنته؟

- الله أعلم... جرى ذلك في الليل.

صمتت لحظة، وهي تتطلع في وجهه. قالت:

- و... ألفت هانم؟

- ماذا عنها؟

- أين دفنتها؟

إذن ألفت هانم... زوجته الثانية. يا لك من رجل أيّها الوكيل المرحوم. الآن توضح الأمر. كفاك عيشاً. لقد استفدت من هذه الحياة بشكل جيد. سمع نازلي هانم تعيد سؤالها، فقال:

– لم أكن أعلم جثة من كان يحوي الكيس. صعدت إليه. كان ينتظرني في البهو السفلي. أمرني أن أتبعه. قادني إلى الحمّام. هناك... كان كل شيء ملطخاً بالدماء. حملت الكيس، ودفنته في غابة القصر.

– أين بالضبط؟

– قرب السياج تحت شجرة صفصاف.

نهضت نازلي هانم. أمسكت أكرة الباب، ثمّ استدارت إليه. كان قد نهض ليودعها. قالت له وهي تشدّ على الأحرف:

– استغفر الله العظيم يا ربي. ولو أنك جندي تنفذ أوامر معلمك. إلا أنك نذل وحقير. كان عليك أن تهدئه، وتمنعه.

– ولماذا لم تمنعيه من ذبح ألفت هانم؟

لم تجب. زاورته من جديد، ثمّ خرجت، وصفقت الباب خلفها.

وفي اليوم السابق لرحيل مدحت باشا وجنده إلى سالونيك، دخل القائم مقام وتربع على مقعده ذي المساند في الفرندة الخلفية. تحدّث مع مدحت باشا حول أمور القرية، ثمّ تطرّق إلى موضوع اختفاء الوكيل. قال:

– هكذا يقولون. وقد وصلت إلى أسماعنا أخبار تفيد أن ناجي وألفت هانم قد قتلا. هل هذا صحيح يا باشا؟

وضع الباشا رجلاً على رجل بصعوبة، واستمرّ في سحب الهواء من نرجيلته. كان ينظر إلى فقاعات الماء وهي تبقبق.

– وماذا ترى أنت؟

فقال القائم مقام وهو يبتسم ابتسامة تنم عن تواطؤ:

– إنني أرى أنّ الوكيل ناجي قد رحل إلى مكان مجهول، بعد أن اختلس بعض الأموال. سوف نرسل برقية بحث عنه. أرجو أن ترسلوا إلى سراي بورصة من يستطيع أن يفيدنا في تحديد أوصافه. أما السيدة ألفت هانم، فقد توفيت بشكل طبيعي

ومن جراء مرض عضال كانت تعاني منه منذ أشهر. قد يكون السل، ويمكنكم أن تحصلوا على شهادة الوفاة متى أردتم، ممهورة بختم الطبيب.

تطلّع مدحت باشا في القائم مقام، وراح يهز رأسه ببطء:

– أشكرك.

فجراً، غادر مدحت باشا القصر. ودّعه الجميع مثلما استقبلوه. بكت علية وسالت دموعها على خديها. أما نازلي فقد وقفت متجهمة تراقب الرتل الذي بدأ يغيب في الأفق.

كانت الغيوم قد تجمعت، وراحت السماء تنذر بعاصفة من عواصف أواخر الربيع. هبّت النسمات، ثمّ اشتدت، وراحت الأشجار تميل على طرفها وهي تصدر حفيفاً متواصلاً. أما شجر الحزين فقد تطايرت أغصانه الرقيقة كالبيارق وهي تتلاطم ببعضها وتصدر صوتاً كالجرس، وراح المطر يهطل بغزارة على الأرض التي كساها العشب.

نظر ربيع إلى السماء وقال: اللعنة. وفي غرفة ناظر المحطة كان الماء ينقط من ثياب مدحت باشا. وما لبثوا أن استقلوا القطار البطيء، فاستطاع أن يبدل ألبسته في قمرة الدرجة الأولى.

كان ربيع قد استقلّ عربة الدرجة الأولى بناء على طلب مدحت باشا. خلع بدوره ثيابه الخارجية، ونشرها فلم يكن يملك بدلاً. إلا أن مدحت باشا استدعاه فاضطر إلى إعادة ارتدائها، وهي مبلّلة.

– اجلس. قال مدحت باشا، وطلب من حاجبه المذعور أن يصنع الشاي.

جلس ربيع إلى جانب النافذة أمام مدحت باشا. كان الباشا يعطس بقوة، ويتمخط في منديل. شربا الشاي الحار مع الليمون. أخرج مدحت باشا بعض القطع النقدية، وقدّمها إلى ربيع.

– خذ...

– ما هذا؟

– عشرون ليرة ذهبية... عثمانلي.

– ليس هناك ضرورة يا مدحت باشا.

– بل هناك ضرورة. لقد قمت بخدمتي بشكل جيد. عليك أن تتمتع بحياتك. ثمّ إن أهلك في سورية قد يكونون في حاجة إلى النقود.

وضع ربيع القطع الذهبية في جيبه. إنها المرة الأولى في حياته التي يلمس فيها الذهب. في الماضي، عرف لون الذهب من عائشة ابنة أبي حديدة. كانت تضع إسوارة في يدها. كان يشع، إلا أنه لم يفكّر يوماً أنه يمكن أن يلمس مثل هذا العدد من القطع الذهبية. على كلّ، لقد أراد مدحت باشا مكافأته على ما قام به أثناء قتل الوكيل، ودفن أشلاء ألفت هانم، بل قل شراءه، وشراء صمته، وجعله إلى الأبد عكازاً له. يقولون في حلب (أطعم التم تستحي العين). هكذا كان يفكر ربيع، وهو يراقب مدحت باشا الذي كان يعطس.

قال الباشا:

– في الأستانة سأكتب لك مأذونية لمدة شهر. اذهب إلى أهلك... هل أنت متزوج؟

– كلا يا سعادة الباشا.

– هذا أفضل، النساء غدارات. عليك أن تراقبهن باستمرار.

راح يتطلّع من النافذة الضيقة للقمرة. كان المطر قد توقف، وراحت الشمس تشع بسعادة. تابع مدحت باشا:

– يقولون إنك تعاشر تلك الأرملة...

صمت. فوجئ ربيع بمعرفة الباشا لذلك. ماذا يريد هذه المرة؟

– أيّة أرملة يا باشا؟

– اليونانية... لقد نسيت اسمها.

– هل تقصد الأرملة فروساكي؟

– نعم. إنك تعاشرها أليس كذلك؟

– ماذا أقول يا باشا؟ نعم... إنني أعاشرها، لن أكذب على سعادتكم.

اصطنع مدحت باشا ابتسامة وهو يضيق عينيه:

– إذن... هل تحبّها؟

– إنها امرأة جيدة وجميلة.

- إنها تكرهني أليس كذلك؟

- نعم... لقد قتلت زوجها... هي قالت ذلك.

صمت مدحت باشا، إنها تمقته. هو يعرف ذلك. لو لم يقتل زوجها، لكانت الآن عشيقته. في بادئ الأمر رفضت مضاجعته. قاومت. إلا أنها في النهاية تجاوبت معه. تمتعت. جعلت تدفع وركيها إلى الأعلى لتحصل على اللذة مضاعفة. إلا أنّ زوجها أفسد عليه كلّ شيء. عند المرأة... هناك فارق بين الإخلاص للزوج وبقائه على قيد الحياة.

تطلع في ربيع الذي أحسّ بالحرج. هذا الشاب الجميل والقوي يستطيع أن يرضي فروساكي. إلا أنّها تحتاج إلى رجل كامل. وليس إلى صبي (مشطوط) لا يقدّر قيمة المرأة. المرأة كنز وخاصة إن كانت مثل الأرملة فروساكي. إن ذاك الكنز يحتاج إلى من يأخذه ويهدره وفي نفس الوقت يحافظ عليه من الآخرين. لقد تسرعت يا مدحت باشا حينما قتلت زوجها أمام عينيها. لقد تحولت إلى لبوة، إلى أنثى الدب، التي فقدت أطفالها أمام عينيها. ولكن... لماذا نبتت الغيرة في أحشائه الآن؟ هل عليه أن ينافس هذا الصبي على تلك المرأة؟

وصل القطار إلى محطة حيدر باشا. استقلّ مدحت باشا عربته، وتوجّه إلى مبنى الأركان العامة. رافقه ربيع وشيرزاد والحاجب. بقي هناك حتى الليل. كانوا يناقشون معه وضع الجيش التركي في اليونان. كانوا مرتاحين جداً، فقد أعطت المعارك الأخيرة التي جرت في كلّ من سالونيك وكوت العمارة وعلى الجبهة الغربية في منطقة قلعة فردان، أعطت نتائج مرضية. كان الفريق برونزوار باشا رئيس الأركان ومحمود كامل مستشار وزارة الحربية يظهران معنويات ممتازة. كانا يتضاحكان لأقل نكتة كان يطلقها مدحت باشا. أما مصطفى كمال باشا والذي كان حاضراً في الاجتماع فقد كان جالساً باتزان يتابع الأحاديث، ويدلي بدلوه فيها.

تحدّث برونزوار باشا إلى مدحت قائلاً:

- لقد وصلتنا معلومات أكيدة حول نوايا الحلفاء في سالونيك. ليس لديهم الرغبة في متابعة هجومهم نحو الشمال. (كان يشير بعصا الماريشالية على الخريطة الممدودة أمامهم) فهنا، أقصد أمامهمن تقع سلسلة جبال سالونيك العالية. واجتيازها

صعب للغاية. ونحن في بادئ الأمر أصابتنا الحيرة بسبب نزولهم من البحر على الشاطئ. وها هم يقعون في الفخ، في المعتقل الاختياري. إن فرقتكم يا مدحت باشا، بالإضافة إلى الفرق الثلاث البلغارية التي تدافع عن سفح الجبال تقوم بعمل ممتاز. إلا أننا بدأنا نفكّر بانسحاب الأتراك من هناك وإبقاء عدّة سرايا فقط لمجرد التواجد وعدم الإيحاء للبلغار بأننا نتركهم وحيدين.

تطلّع مدحت باشا في الأوجه. تطلع في مصطفى كمال بطل مضائق الدردنيل ماذا يخطط هؤلاء. هل هذا بداية لإقالته من القيادة ووضعه في المؤخرة؟ فقال والشك يساوره:

– أنا لا أرى أي داعٍ للانسحاب، بل على العكس. أعطوني فرقة أخرى وسأطردهم من الساحل. سأنظف سالونيك منهم.

ردّ مستشار الحربية وهو يشعل سيجارة معطرة:

– لقد علمنا بأنك كنت سعيداً لأنّ خمسمائة ألف جندي من الحلفاء محتجزين في الشريط الساحلي عند سالونيك. فلماذا تغيّر موقفك؟

فقال مدحت باشا:

– رأيي لم يتغير. بل أنا الذي لفت انتباه القيادة إلى ذلك. ولكن، خروجنا قد يغري حلفاء الانتينيت بالقيام بأعمال عسكرية نشيطة.

فقال برونزوار باشا بلغته الركيكة:

– إنهم يعلمون يا مدحت باشا مدى قوتنا هناك. صحيح أنهم يخافون من قيامنا بتعزيز هذه الجبهة، إلا أن الجيش الذي يقف أمامهم، هو الجيش البلغاري، وهو الذي، برأينا، عليه أن يمنع الحلفاء من اجتياز سالونيك إلى البحر الأسود والاتّصال مع روسيا، وبرلين تؤكد لنا أنّ البلغار يستطيعون القيام بذلك. أما الأتراك فعندهم مهام أخرى.

– ما هي؟ سأل مدحت باشا.

– اسمحوا لي. طلب مصطفى كمال الكلام. لم يكن مدحت باشا قد قابله سوى مرة أو مرتين إلا أنّه لم يسبق أن جلس معه في اجتماع من هذا النوع. كان الرجل أنيقاً ومهذباً. طويلاً ونحيفاً جداً. تحرّكت حنجرته الظاهرة عندما راح يتكلم:

– أنت تعلم ما حدث في كوت العمارة. أليس كذلك؟

– صحيح.

– إذن. فقد استطاعت قوات نور الدين بيك التابعة للجيش السادس أن تحاصر القوات الإنكليزية هناك، فرضت عليهم الاستسلام، لقد استسلم ثلاثة عشر ألفاً من القوات التابعة للإنكليز. إلا أنّ لندن مازالت تملك ستمائة ألف جندي آخر في جنوب العراق. إنّ فيضان دجلة، ونفاد المواد الغذائية والذخائر قد حالت دون كسر الطوق من قبل الإنكليز وخروجهم من الحصار. نحن نعتقد أنهم لن يسكتوا على هذه الإهانة. ثمّ هناك الخطأ الذي قام به أحمد جمال باشا بإعدام بعض الوجوه المحبوبة من قبل العرب. أنا أعتبر ذلك خطأ. فإنكلترا تستفيد من هذا العمل، ولديها قوات ضخمة في مصر وعلى القناة بالذات، وسيناء فارغة كلياً من قواتنا، بعد فشل حملة القناة التي قام بها الجيش الرابع بقيادة أحمد جمال. إنّ الخطر الفادح على الإمبراطورية يأتي من الجنوب، من فلسطين ومن العراق.

صمت. كان مدحت باشا يمسح يده العرقى بمنديل. أما محمود كمال باشا فقد كان يشعل سيجارة أخرى. تابع مصطفى كمال باشا، ذاك الرجل الذي أشاعوا كثيراً عن ذكائه الخارق. حقاً إنه كذلك. أما عيناه فلم تكن تدل إلا على الحزم. هكذا فكر مدحت باشا في نفسه وهو يصغي إليه عندما تابع:

– إن الإنكليز ينسحبون نهائياً من المضائق أما في سالونيك فهم في حاجة إلى الهدوء. وقواتنا على جبهة القفقاس ستبقى كما هي... إذن... علينا أن نسحب قواتنا الأساسية من الدردنيل وسالونيك وإعادة تشكيلها ضمن قوام الجيش السابع الذي عليه أن يعسكر قرب حلب. هذا المكان . استراتيجياً . جيد، والجيش السابع الاحتياطي سوف يتمكّن هناك، من دعم أيّ من الجبهتين، العراقية والفلسطينية في حال قيام الإنكليز بالهجوم الواسع على إحداهما أو كليهما معاً. هل هذا مقنع يا مدحت باشا؟

– مقنع جداً يا مصطفى باشا... ولكن ماذا عن دوري في هذا التشكيل؟

انتبر برونزوار باشا قائلاً:

– لقد صدر فرمان شاهنشا هي بتشكيل هذا الجيش بقيادة مصطفى كمال

باشا. ونحن بصدد ذلك التشكيل. لقد اقترحنا اسمك لقيادة إحدى فرقه.

– أنا موافق. عندي سؤال: ما علاقة أحمد جمال باشا بالجيش الاحتياطي السابع؟

– لا علاقة له البتة. إنّنا تابعون للقيادة العامة كما هو بالنسبة لجمال باشا.

قال مصطفى باشا، ثمّ نهضوا، وتصافحوا. شربوا نخب الجيش السابع. وخرج مدحت باشا بعد أن تأكّد أنّ تشكيل الجيش النهائي لن يتمّ إلا في الخريف القادم. وأنّ عليه أن يعود إلى الأركان العامة في الأول من شهر تموز ليقوم بأعمال تشكيل قيادة فرقته وأركانها وكتائبها. وعند مدخل هيئة الأركان كانت تنتظره سيارة ألمانية الصنع. ترك الحوذي يقود العربة فارغة، واستقلّ سيارته التي انحشر في مقعدها الخلفي بصعوبة.

* * *

(13)

كانت محطة "حيدر باشا" تعج بالجنود. مئات الجنود الذين امتلأت بهم صالات المحطة وممراتها. كانوا واقفين يثرثرون وهم يدخنون ويبصقون بصوت عال، أو مستلقين وقد أوسدوا رؤوسهم على أكياسهم الخاكية القذرة.

كان الوقت عصراً، والطقس جميل ككل أيام حزيران، وإذا حدث ولم يهطل المطر فإنّ الطقس يكون عادة مشمساً، وتهبُّ نسائم لطيفة منعشة. وتهتز الأشجار المزهرة ذات الوريقات التي نبتت مع الربيع في نيسان. وتصل إلى أنوف الجنود، . التي اعتادت رائحة الأجساد القذرة وروائح البارود والبراز وروث الخيل ورائحة الخنادق الرطبة والديدان المتفسخة . عطر زهر التفاح والبنفسج والمشمش والسوس.

كانوا يصيحون. يشتمون. يقسمون بالمقدسات وغير المقدسات.

دخل الرقيب أول ربيع الزيات صالة الانتظار. بحث بعينيه عن مكان يجلس فيه، إلا أن الجنود كانوا قد احتلوا جميع المقاعد الخشبية المسوّدة من كثرة الاستعمال. ولكنه غيّر رأيه، فالمكان يعج بالناس، والهواء فاسد. وإن وجد مكاناً فلن يصبر على المكوث، فقد كان دوي الصراع يتردد في القاعة ذات السقف العالي، بشكل مؤذ.

تراجع عن الباب، ومشى في الرواق، حتى خرج إلى الهواء الطلق. راح يمشي بجوار القطار الواقف وهو ينفث دخانه من كلّ أجزائه. كان هناك من يمنع الدخول إلى العربات، فلم يحن بعد موعد انطلاق القطار المسافر إلى حلب عن طريق أنقرة وإسكندرونة.

كان الجنود يتطلّعون، وهم يغمزون بأعينهم، إلى ذاك الرقيب الذي تجعّدت ثيابه، والذي كان يحمل حقيبة جلدية صغيرة اشتراها من الأستانة، ووضع فيها كلّ أغراضه. إلا أنّ ذاك الرقيب الأول كان يبدو بكلّ جبروته، فجسده الهائل وجمال وجهه الأخاذ، وعمرته المصنوعة من فرو الضأن، والتي اشتراها أيضاً من الأستانة، وأخيراً، شارة الرقيب أول التي كان قد ثبّتها على ذراع سترته، كلّ ذلك كان يبعث في نفوس الجنود الاحترام والغيرة والنظرات المريبة. سار على طول المحطة، حتى آخر

عربة، ثمّ عاد. نهض أحد الجنود من على أحد المقاعد، ودعا ربيعاً الزيات للجلوس مكانه. شكره وجلس، إلا أنّ الجنود الآخرين توقفوا عن الكلام وغرقوا في الصمت. جعلوا يراقبونه خلسة. كان وجهه غريباً على الجنود. لأول مرة يقابلونه، فهو ليس من كتيبتهم المسافرة إلى فلسطين، إلى نابلس، حيث يجب أن تلتحق بإحدى فرق الجيش الرابع.

كان ربيع قد استلم إجازته وجواز المرور العسكري من مدحت باشا بالذات، في نفس تلك الليلة التي ذهب فيها إلى الأركان العامة. هناك حصل له على جواز المرور. وفي اليوم التالي سافر القائد مع حرسه إلى سالونيك، أما ربيع فقد راح يمضي الوقت في الأسواق، ويتسكع على شاطئ البحر.

كانت الأستانة قد أدهشته، فهذه المدينة العظيمة بمبانيها الضخمة وقصورها وثكناتها وأسواقها قد سلبت لب هذا الفتى. إن حلب لا تساوي شيئاً بالمقارنة مع الأستانة. كان في الماضي يخمّن أن حلب هي أمُّ المدن، بقلعتها وجامعها الأموي وأسواقها المسقوفة. إلا أنّها ليست أكثر من حي من أحياء الأستانة. كيف يمكن أن لا تعرف ذلك من قبل يا ربيع؟ هنا التاريخ والحضارة والعظمة. من يشاهد الأستانة يشعر فوراً أنّ حضارتها لن تزول، وأنها ستكسب الحرب لا محالة.

سمع الجندي الجالس إلى جانبه يسأله:

– ماذا حدث أيها الرقيب الأول؟ لماذا لا تجلس في غرفة الضباط؟

كان الجندي في العقد الثالث من عمره. أسمر البشرة ذو شعر أسود فاحم متجعد. كانت لحيته نابتة وشارباه مفتولين، إلا أنّ شقّاً ملتحماً يشوه حاجبه الأيسر.

– ماذا قلت؟ ... غرفة الضباط؟.... هذا لا يهم فأنا لست تابعاً لفرقتكم.

– من أجل مقامك أيها السيد...

فقال ربيع مقاطعاً وهو يخفي جهله وندمه.

– حسناً... حسناً... من أين أنتم قادمون؟

– إننا إحدى كتائب القفقاس. لقد جرى ترميم الكتيبة، وأعطي لها الأمر بالسفر إلى نابلس. أنا لم أكن هناك، إلا أنّهم يقولون إنّ الكتيبة فقدت نصف عناصرها في قتال الروس.

– وأين خدمت أنت؟ سأل ربيع.

– في إحدى أورطات تحصيل الغلال إلى (المنزل). كنا نساعد المتعهدين على جمع الحبوب والمواشي، إلا أنّهم اتهموني بسرقة بقرة. تصوّر يا سيد أن يسرق جندي بقرة! إنهم أرذال أنذال. يستطيعون أن يلصقوا بك تهمة في ليلة واحدة. وعندما يطلع الفجر، ترى نفسك في الجبهة.

كان الجنود يستمعون إلى زميلهم وهم صامتون. أخرج الجندي كيساً للتبغ وقدّمه لربيع الذي سأله وقد شرع يلفّ لنفسه سيجارة:

– وأين أخفيت البقرة؟

– حتى أنت أيها السيد الرقيب أول؟!

ضحك الجنود. أشعل ربيع سيجارته وهو ينتفض ضاحكاً. تابع الجندي يقول:

– كنت أخدم في منطقة سمون. بينما بيتي في إحدى قرى بحيرة باي شهر، فهل يبدو علي أنني سحبت البقرة ألفي كيلومتر إلى بيتي؟

فانبرى أحد الجنود وقال بصوت عال وهو يلغث:

– بكم بعتها أيها المحتال؟

– هذا كذب!

فقال آخر، وكان في الأربعين من عمره:

– يقولون إنك بادلتها ببندقية جديدة. انظروا، إنه يملك بندقية حديثة، بينما بندقيتي عتيقة ومهترئة. لم تعد تطلق الرصاص منذ زمن بعيد.

سكت الجندي وأطرق حرداً، إلا أنّ رفاقه تابعوا تلفيق القصص عنه. راقبه ربيع وهو يدخن، وينفث دخان سيجارته بطريقة صبيانية. هؤلاء أصحاب جمع الغلال لا بأس بهم. إنهم يعيشون في بحبوحة، بينما الجنود الآخرون يتعاركون من أجل رغيف خبز، وها هو البرهان... نظر ربيع إلى حذاء الجندي صاحب البندقية العتيقة. كان الجلد منفصلاً من الأمام عن النعل، وكأن حيواناً صغيراً قد فتح فاه، وظهرت من الشق لفافات القدم القذرة. أما جاره فقد كان حذاؤه جديداً. أراد أن يداعبه كي يمضي الوقت، فأسكتهم، ثمّ قال:

– اسمعوا أيها الجنود. ما الفرق بين حذاء جندي يخدم في كتائب تحصيل

الغلال وحذاء جندي يحارب في الجبهة.

تعالت الضحكات الداعرة. وقف جندي تحصيل الغلال السابق وقال محاولاً أن يعلو صوته على أصوات الآخرين:

– عفواً أيها الرقيب الأول فأنا لن أوجه كلامي إليك. ولكنني أريد أن أقول لهؤلاء: يا أولاد الكلب، لو لم يكن هناك من يجمع الحبوب والماشية والخرفان، من أين ستأكلون يا جنود الإمبراطورية؟ فالفلاحون يخفون الحبوب في حواصل محفورة في الأرض، ثمّ يردمونها بالتراب. ولكننا نحن، أصحاب النظر الثاقب، استطعنا أن نجبر الفلاحين على حفر الأرض وإخراج الحنطة والعدس لنطعمكم خبزاً وعصيدة. آ....؟ قولوا لي لو لم نكن نحن، ماذا كنتم ستأكلون... خراء؟ ...

فأجابه الجندي الذي كان يلغث:

– عليك اللعنة، يبدو أنك لم تكن تقصّر. إنك محتال، ولذلك طردوك. أنت قلت إنهم اتهموك بسرقة بقرة، ولكن... كم بقرة سرقت حتى لا تطعمنا خراء؟ ... آ..؟

– سوف أقول لكم...!

قال، فسكت الجميع، وتوقفت سهسكة كان يطلقها جندي صبي لم يبلغ العشرين بعد. تابع الجندي وهو يهمس:

– أعدتها إلى صاحبها. ودين محمد، إنني لا أكذب هذه المرة!

فقال ربيع:

– وماذا قدم لك لقاء ذلك؟

– وماذا يملك ذاك الفلاح، سوى البقرة، حتى يعطيني؟

– قل لنا بلا لف ولا دوران . قال أحد الجنود.

– أنت أقسمت بدين محمد أنك لن تكذب. هيا قل...!

قال آخر، فأطرق جندي التحصيل السابق وتضرج وجهه. إذن... فالموضوع يتعلق بامرأة ما، حدث ربيع نفسه، فانبرى قائلاً وهو ينظر إلى وجهه:

– هل أعارك زوجته أم ابنته؟

إلا أن الجندي جفل عندما انفجر الجنود ضاحكين، وسقط أحدهم عن المقعد

الخشبي الطويل بفعل الضحك. التقط كيس متاعه وبندقيته وابتعد، لقد تفوه أكثر مما ينبغي. لم ينطلق القطار إلا عند الفجر. كانوا يعطون الإيعازات بالبوق، أما أصحاب الرتب الواطئة فقد كانوا يصرخون بأعلى أصواتهم في وجوه الجنود الذين كانوا يتراكضون، ويتزاحمون، ويتصايحون أمام أبواب عربات النقل الخشبية منذ أن انتصف الليل. وما إن كانت إحدى العربات تمتلئ، حتى كانت تسمع أصوات الاستنكار والشتائم:

– لا يوجد مكان لفتاة فكيف لك أنت...

– وهل تحسب نفسك في قصر يلدز؟ أفسح مجالاً... أفسح مجالاً...!

– لا تأكل خراء... انظر، لقد وضعوني بين اثنين بدينين كالبغال!

– من هو البغل أيها البرص؟

– أنا... لا تزعل.

– اف... ما هذه الرائحة. ألا يكفي رائحة الأقدام؟

– إن صنع القاطرة البخارية، هو حدث فريد لعصرنا. ولكن تكديس الجنود بهذا الشكل في عربة خصصت لنقل الخرفان والجحاش، هو عمل مغرق في التخلف.

– وماذا تعمل أنت؟

– إنني مدرس.

إلا أن ربيعاً الذي تعرف على مكانه في إحدى مقصورات الدرجة الثالثة، وكان فيها سبعة من الرقباء والعرفاء، نزل إلى الممر من جديد، وراح يدخن سيجارة ويتمشى ببطء. اقترب من بعض الجنود الواقفين، كانوا ينتظرون كي يجدوا لهم مكاناً في القطار. كان هناك جندي يبدو في الخمسين من عمره، رث الثياب، كان قد فقد حذاءه العسكري فاستبدله بحذاء نسائي فبقي شبه حافٍ. كان بدون طاقية وبدون سلاح، جزّ شعر رأسه فبانت جمجمته من تحت جلدة رأسه. لم يكن غريباً على ربيع، وجه هذا الرجل ذي التجاعيد الحادة. اقترب منه. سأله بالعربية:

– هل أنت من حلب؟

– نعم. قال الرجل وكأنه وجد منقذاً.

– ما اسمك؟

– وحيد الأسدي.

– أنا أعرفك ولكنني لا أعلم من أين.

قال ربيع فقال الرجل بوهن وقد التمعت عيناه:

– قل لي يا سيدي ما اسمك لأرى؟!

– أنا ربيع الزيات، من سوق الصغير.

– أنت ربيع نسيب عمر بنبوك! يا الله... كم كبرت يا ربيع. الله يرحم أبوك. انظر. انظر إلي... لقد أصبحت خرقة بالية.

راحت دمعتان تسيلان، بشكل متعرج، على بشرة خديه الخشنة والمشعرة.

– هيا معي!

قال ربيع، وسار باتجاه عربته. لحقه وحيد الأسدي. كان يعرج على ساقه اليمنى بشدة. كانت أقصر من الساق اليسرى. وعند عربة الدرجة الثالثة تحدث ربيع إلى العريف الذي كان يحرس باب العربة، فترك العجوز المنهك يصعد إليها.

أجلسه في الممر الضيق على الأرضية بجانب باب المقصورة، ثم أخذ مكانه على المقعد الخشبي قريباً منه. كان الآخرون قد غطّوا في نوم عميق، وراحت بعض أصوات الشخير الناعم والتنفس الثقيل تسمع. قدّم له قطعة خبز مع شيء من لحم الشاورما. فراح وحيد يقضمها بنهم وهو ينظر إلى ربيع كما ينظر كلب جائع إلى رجل غريب يطعمه.

– قل لي كيف وصلت إلى هنا.

بلع وحيد لقمته الضخمة التي كان يمضغها بصعوبة، فسمع ربيع صوت حنجرته وهي تتحرك وكأنها تكاد تتفتق.

– بعد أن جندنا الأتراك التقينا في قشلة بانقوسا. أنا وصهرك عمر بنبوك وابن عمه صالح، أنت تعرفه أليس كذلك؟ ... حسناً... سفّرونا إلى العراق، وهناك عند أطراف مدينة اسمها الكوت، وضعونا في الخنادق. بعد عدة أيام، حدث قتال رهيب. كان الإنكليز يهاجمون لاحتلال المدينة، وكنت مع أولاد البنبوك في خندق واحد. راحت القنابل تنهال علينا كالمطر. قتل من قتل، ألا أنني فتحت عيني لأجد نفسي في مستشفى الإنكليز. لم يدم الأمر، كما خيّل إلي، سوى لحظة، بين انفجار القنبلة

الهائل إلى جانبي وصعود عمود رهيب من النار والدخان الأسود، وبين رؤيتي لنفسي في مستشفى الأجانب. كيف لم يشاهدوني؟ ... أقصد عمر وصالحاً والآخرين. ولكن كيف سيميزونني، فالقنابل كانت تمطر الجنود تحت التراب، وتقذف بآخرين إلى مسافة عشرين ذراعاً. قالوا لي إن جثث مئات الجنود العرب والأتراك كانت مرمية على التراب، وكأن الهواء الأسود قد أصابها. سألت عن عمر وصالح. ومن يعلم عنهما شيئاً؟ ... الله وحده يعلم، فقد كانوا قد دفنوا الجثث. قالوا إنهم ألقوا الجثث في الخنادق وطمروها.

توقف وحيد وقضم لقمة أخرى، راح فكاه يطقان، عندما يمضغ. إن طقم أسنانه الذي انتشله من فم أحد الموتى، لم يكن على مقاس لثته، مما أدى إلى تقيحها. كان يعقد ما بين حاجبيه من الألم، وكانت أسنانه العلوية تسقط عندما كان يفتح فمه فيعيد رفعها إلى الأعلى بإصبعيه.

سأله ربيع وهو يتأمله:

– وهل فعلاً مات عمر؟

– ومن أين لي أن أعلم؟ . تابع وحيد . كانت ساقي مكسورة في مكانين. وكنت مجروحاً في رأسي وكتفي ويدي.

أفرد أصابع يده اليسرى في وجه ربيع. كانت ثلاثة فقط. الإبهام والسبابة والوسطى أما الإصبعان الباقيان فقد كانا مقطوعين من المفصل السفلي. كان المشهد قبيحاً. كيف عاش هذا الإنسان؟

– بعد أن شفيت . تابع وحيد . وضعوني في الخدمة، في المطبخ . كنت أساعد الطباخين. كنت سعيداً جداً، فالأكل متوفر، وهذا ما جعلني أعيش. ولكن... ليتني مت، ليتني لم أبق على قيد الحياة. اللعنة على الزوجة والأولاد وهمومهم. وهل سأطعمهم إن عدت إليهم، فأنا نصف رجل الآن، فليأكلوا من لحمي حتى أنتهي.

بلع آخر لقمة. مسح فمه بظاهر يده، ثم أعاد تثبيت أسنانه، وقال:

– كنا نلحق الجنود شمالاً. ولكن... حدث العكس هذه المرة. لقد انكسر الجيش الإنكليزي في إحدى المعارك في منطقة اسمها (سلمان باك) وعاد أدراجه إلى نفس المدينة القديمة... الكوت. وهناك وقع الجيش الإنكليزي في الحصار. وكنت لسوء

الحظ معهم. استمر الحصار أكثر من أربعة أشهر، وكاد الغذاء أن ينفد، بل قد نفد في مطلع الربيع، وراح الجنود يصرخون طالبين الطعام. ثم جاءت جائحة. قالوا إنها حمّى الخنادق. كان الرجل منهم يسخن حتى الموت. يجف جلده، ويتحول لونه إلى الأزرق، فاضطروا للاستسلام. وكنت أنا أيضاً مع الأسرى.

أرسلونا إلى الأستانة. كانوا يضربوننا ويجوعوننا. قالوا لي: كيف يمكن أن تحارب مع الكفار أيها الحشرة. كيف يمكن أن تحارب المسلمين؟ لكنني لم أحارب. أقسمت لهم أنني كنت أسيراً لديهم. إلا أنهم لم يقتنعوا إلا في النهاية، فأرسلوني إلى إحدى الثكنات. أعادوني إلى الجيش. لم يكن ينقصهم إلا واحد مثلي. لم يتركوني أذهب إلى بيتي. لعن الله...

إلا أنه صمت. لم يرد أن يتورط... فهناك كثير من الأتراك. قد يسمعه أحد فيحدث ما لا يحمد عقباه.

مسح البلل عن عينيه. وشرق أنفه:

– أعطوني بندقية عتيقة صدئة، بدون رصاصات. قلت لهم أعطوني حذاء بدل هذه البندقية ما حاجتي إليها؟ أما قدماي فقد تقرحتا. إلا أنهم رفضوا. لم يكن لديهم أحذية عليك أن تقتل إنكليزياً وتأخذ حذاءه. حسناً... ذهبت وطلبت من أحدهم (فشكة) وضعتها في المحراق وكبست الزناد بعد أن وضعت الفوهة في فمي. إلا أن ابنة الحرام لم تنفجر. هذا هو حظي. حتى الموت يهرب مني.

صمت وحيد الأسدي، فصمت الليل كله. لم يعد هناك أثر للآخرين، فأصبح الليل ثقيلاً لا يحتمل. سمع صوت عويل طائر النورس، ثمّ صوت تكسر موجة على صخور الشاطئ القريب، فزفر ربيع زفرة طويلة، خرجت من أعماقه السحيقة. لم يعد يريد أن يسمع أو يقول شيئاً. فالقدر ثقيل الخطوات يخبط على الرؤوس، ويسحقها. فتساءل في نفسه: هل مات عمر زوج بهية؟ وصالح ذلك الرجل اللطيف المشهور؟ ماذا تفعل أمّي الآن؟ وبهية؟ اسمع يا أيها الرجل المحطم. أنا لم أحب الحرب ولن أحبّها في يوم من الأيام، بالرغم من أنني أصبحت بطلاً فيها، ولمست الذهب لأول مرة في حياتي خلالها. إلا أن صانعة المصائب هذه لابد أن تنتهي.

صفّر القطار طويلاً. فشقّ الصمت الذي كان يلف الدنيا كلّها. ثمّ راحت

صفارات عمال المحطة وصيحاتهم تسمع من جديد. كان الفجر قد بدأ ينبلج حينما تحرّك القطار، فراح خشب العربة يئن أثناء الحركة. وسمع صوت انسحاق حديد العجلات على حديد السكة المتواصل بدون انقطاع. تململ النائمون بانزعاج. وعبقت المقصورة بروائح العرق المتيبس على الأجساد ولفافات الأقدام القذرة. ثمّ راح القطار ينساب في السهول بحذر هارباً من الشفق . في حين كان الفلاحون يخرجون من أكواخهم الحقيرة مدعوكي السحنات من جراء النوم الخشن. تطلع ربيع عبر النافذة. كانت الأرض تدعو فلاحيها للحصاد. تدعوهم كي يجردوها بمناجلهم. لقد نضجت الحبوب منذ زمن. والأرض جاهزة كي تعطي محصولها أخيراً. كي تطعم هذه الأفواه الجائعة. ولكن... محصولك يا أيتها الأرض الطيبة، سوف يسافر بالقطارات، وعلى عربات تجرّها ثيران عنيدة مفتولة القرون، إلى كلّ الجهات، ليعطي القوة إلى هؤلاء الذين يقتلون بعضهم بعضاً بقسوة وعنف لا مثيل لهما، دون رحمة ودون طعمة.

بعد أن خرج القطار من الأستانة، راح يتمهّل في المحطات الأخرى. كان يتوقف ساعات طوالاً في انتظار قطار آخر قادم من الجهة المقابلة. أو كان ينتظر تحميله بالفحم الحجري والحطب والأغصان اليابسة التي كانت تقطع من الأشجار وخاصة أشجار الزيتون.

كان وحيد الأسدي يقوم على خدمة ربيع وباقي صف الضباط الذين ملؤوا العربة كلها. وما إن يتوقف القطار في إحدى المحطات، حتى كان يهرع، وهو يعرج بشدة، نازلاً إلى المحطة كي يملأ أوعية الماء المصنوعة من قماش الخيم السميك. أو ليبتاع شيئاً يؤكل. فالرحلة طالت، ولم يكن مطبخ الكتيبة يوزع سوى الخبز والبطاطا المسلوقة أو شيئاً من الزيتون الحامض.

وفي فجر اليوم الخامس، انتفض وحيد الأسدي، الذي كان نائماً بجانب باب المرحاض، حينما سمع مناوباً يصيح: ميدان اكبس... ميدان اكبس. أسرع إلى ربيع الذي كان شخيره عالياً وهزّه.

– م... م... م ماذا حدث؟

– وصلنا إلى ميدان اكبس.

فقال ربيع وهو لا يعي بعد:

– وماذا في ذلك؟

– حلب يا سيدي ربيع حلب.. عليك أن تجهز نفسك. ستصل بعد ساعة.

تطلع ربيع عبر النافذة. كان الفجر في بداياته. نهض، وفتح النافذة في الرواق فأحس ببرودة ناعمة تلامس بشرته المتهيجة. ملأ رئتيه بالهواء النقي المنعش، ثمّ زفره.. إذن... هذه هي بلادك يا ربيع. المناظر المألوفة، والنسيم المنعش ورائحة الأرض كلّ ذلك جعل القلب يخفق، وكلّ ذلك يذكر بالبيت والأم الحنون. بعد ساعة سيرتمي في حضنها، كما في الطفولة، ولن يقوم حتى يشبع من رائحتها المحببة إلى النفس.

نظر إلى وحيد الذي كان يحدّق في الأفق دون أن يرى شيئاً. كم هو صعب عليه أن يمرّ في حلب وأن لا يلتقي بأهله. كم هو حزين هذا البني آدم الذي شوَّهت الحرب جسده وقتلت نفسه. عليه أن يساعده. هنا... والآن، همس إلى وحيد الذي قرّب أذنه كي يسمع جيداً:

– اسمع... عليك أن تهرب. سوف أساعدك. هل تريد ذلك؟ ... تأوه وحيد وهو يلصق شفتين في أذن ربيع:

– أوه يا سيد ربيع. إن روحي تتوق إلى الهرب. ليتني أهرب. ساعدني أرجوك، وإلا فإنني لست في حال يمكنني من الهرب بمفردي.

– هنا إذن أحمل حقيبتي وسننزل سوية هنا...

نزلا من العربة، وسارا بين سكك الحديد حيث كان حجر الدولوميت الأسود المكسر مفروشاً. كان هناك عدد من الضباط يتكئون على حراف نوافذ العربات المفتوحة وهم يتثاءبون. طالعهم أحد العرفاء، كان يقف إلى جانب غرفة ناظر المحطة ينتظر عامل التلغراف. قال العريف وقد أسند ظهره إلى الجدار، وهو يدخّن سيجارة الصباح الأولى:

– ماذا أيها السيد الرقيب؟ إلى أين إن شاء الله...

– بطاقتي إلى حلب، إلا أنني فضّلت النزول هنا لزيارة أقاربي الذين يسكنون قريباً جداً من هذا المكان... هل يوجد مانع؟

قال ربيع... فقال العريف وهو يسحق سيجارته بحذائه:

- جواز المرور من فضلك.

أبرز جواز المرور. تطلع العريف في الورقة ملياً ثم أعادها.

سارا بعيداً عن القطار. كانت هناك عدة بيوت من الحجر والطين لازالت غاطسة في عتمة الفجر المغبشة. كان وحيد يعرج وقلبه يكاد أن ينفلق. بدأ يتمتم بكلمات غير مفهومة وهو يبتسم. كان وجهه قد استحال إلى أصفر باهت. كم هو سهل الهرب من الجيش؟ طبعاً بوجود ضابط (كبير) مثل ربيع الزيات هذا... لقد انشغلوا بأوراقه أما وحيد فقد (عرج) بأعجوبة.

استأجروا عربة تجرها بغلة هرمة. وفي الثالثة بعد الظهر وصلت العربة إلى بستان الباشا.

- أين تسكن يا وحيد؟

سأل ربيع وهو يصيح بسبب ضجيج العربة العتيقة. فقال وحيد:

- في الكلاسة يا سيدي.

- حسناً ... سأوصلك أولاً... وإياك أن تخرج من بيتك بعد الآن.

وصلوا إلى الكلاسة. نزل وحيد من العربة. أمسك يد ربيع، وراح يقبّلها وهو يبكي. حاول ربيع سحب يده التي بللتها الدموع والمخاط.

- هيا... هيا ... اذهب إلى أولادك... اترك يدي من فضلك.

- عقلي الصغير، والذي تعطل نهائياً لا يصدق يا سيدي ربيع... أنا في بيتي!! هذا لا يصدق... ماذا سأفعل لك مقابل ذلك؟ سأكون خادمك طوال عمري. لقد أنقذت بائساً من الموت. الآن عادت إليّ روحي. أنت لا تعلم مقدار امتناني. والله... لو طلبت مني نظري وروحي، لقدّمت لك كل شيء دون أن آبه لذلك... إلى اللقاء.. غداً سأمر عليك. قد تحتاج لأمر ما، فأنا خادمك المطيع يا سيدي وتاج رأسي...

هز الحوذي، صاحب العربة، الرسن، ثمّ همز كفل البغلة فأذعنت، وراحت تسير بتمهل.

مسح ربيع يده بمنديل. لقد أحس بشيء من القرف بسبب مخاط وحيد. ولكن هذا الرجل طيب القلب . فكّر ربيع في نفسه . ما ذنبه؟ لماذا يجنّدون هؤلاء الناس.

هل سنربح الحرب بمثل هذا الجيش؟ إلا أنّ ذهن ربيع تحوّل إلى اتّجاه آخر. المحطة الأخيرة. هناك في سوق الصغير، أمّه التي غاب عنها سنة كاملة. أخته بهية وأولادها. عائشة ابنة أبو حديدة ماذا حدث لها يا ترى؟ إلا أنّ الشعور الذي كان يكتنفه عندما كان يفكّر بها، لم يعد يتملكه. ماذا حدث يا ربيع؟ هل كرهت عائشة؟ إلا أنّ نفسه أجابته على الفور: لعب أولاد... هذا الحبّ ليس سوى لعب أولاد.. إلا أنه خجل من نفسه. أبو حديدة هو السبب، قد يكون زوجها الآن... في رأيه أن المرأة يجب أن تتزوج باكراً، خوفاً على عفتها. لقد سمع كفاية عن الفتيات اللواتي يغتصبن أو يختطفن. في إحدى المرات سمعه أبو حديدة يترنم بأغنية قديمة محببة إلى نفس ربيع. كانت تقول:

مريم يا دلي والشعر متدلي

عسكر عثمانلي خطوفها مريم

فقال أبو حديدة بحدة: ما هذا يا ربيع؟ من أين أتيت بهذه الأغنية؟ خطفوا مريم!! أنا لا أريد أن أسمع مثل هذه الأشياء في مداري، حتى ولو كانت مجرد أغنية...

صعدت العربة على طريق الخندق الجديد. لم يكن ربيع قد ولد بعد عندما شرعوا يردمون الخنادق والمنخفضات التي كانت عبارة عن بساتين حافلة بالأشجار المثمرة. كانت أمه تتذكر بحسرة كيف كان المرحوم زوجها يأخذها إلى هناك أيام الجمعة. كانا عروسين، إلا أنهم حولوا البساتين إلى صفوف من الدكاكين، وأصبح الخندق مركزاً تجارياً لا يهدأ.

ولكن ماذا حدث الآن؟ ما هذا الوجوم المسيطر على الطريق؟ كانت الدكاكين مغلقة، والمارة قلة، والجميع مسرعين يتطلعون بخوف إلى كلّ الجهات. هذه ليست حلب... عندما أخذوه إلى الجندية كانت البلد في حال لا بأس بها، رغم الخوف من فصائل التجنيد وبطش أحمد جمال باشا، وفقدان فرص العمل والخوف من المجاعة القادمة.

ومن باب النصر وحتى باب الحديد، صعوداً عبر الحوّار، كان الناس يتوارون عن الأنظار، بمجرد مشاهدة ثيابه العسكرية. ثمّ لاحظ أن أكثر الناس كانوا حفاة

قذري الثياب والرؤوس. طالت لحى كثير من الرجال، إلا أنها كانت لحى مهملة مشعثة. وعند ساحة باب الحديد كان هناك عدد من النساء والأطفال والشيوخ الذين كانوا يفترشون الأرض وهم في أسوأ حال. كانوا يمدون أيديهم باتجاه العربة، طالبين شيئاً من (مال الله) دون أن يقووا على النهوض. تذكر قول عيوش (الناس في بلادنا أصبحوا لا يجدون شيئاً للأكل)... إذن، لقد حلت المجاعة أخيراً. أن لا يكون فوقك سقف، وأن تتسول نصف رغيف من خبز دقيق الشعير أو البرغل أو الذرة، كي تطعم أولادك العديدين، وأن تكون حافي القدمين، رث الثياب، قذر الملامح. تلك هي المجاعة التي تحدّثوا عنها طويلاً. تلك هي مقبرة هذا الشعب الطيب المرح، الذي ينتمي إليه ربيع الزيات.

تذكّر أيام طفولته في سوق الصغير. كان الأطفال يركضون في الطرقات خلف الست خدوج المجنونة وهم يصفّقون ويضحكون:

ست خدوج، لبست البابوج، باجريها العوج.

إلا أنّ طريق سوق الصغير، الذي أكل من قدميه وهو يقطعه، جيئة وذهاباً، مع أقرانه، يمرحون ويغنون ويتعاركون، أصبح موحشاً. كانت الخانات فارغة، والدكاكين مغلقة بأبوابها الخشبية وأسياخها الحديدية. كان حارس جامع سوق الصغير، هو الوحيد الذي بقي جالساً أمام باب المسجد، يتطلع بتحدٍ إلى ذاك العثمانلي الكريه، الذي أوقف عربته أمامه مباشرة.

نقد ربيع الحوذي أجره. حمل حقيبته، ووقف أمام الشيخ حسن حارس المسجد. كان الحارس مستمراً في تحدي عيني ربيع. كان ينظر إليه بطريقة استغربها هو بالذات . كيف واتته الشجاعة ليعبر عن قرفه من ذاك الزي العسكري الرسمي، وما يعبر عنه من ظلم وتجويع وقتل و... ولكن من يكون هذا؟ ... سأل الحارس نفسه:

– مرحباً يا شيخ حسن. أنت لم تعرفني أليس كذلك؟

الآن فقط، نهض الحارس. ذاك الصوت ليس غريباً عليه، والوجه أيضاً.

– مالَكْ قد انسطلت يا شيخ. ألم ترَ في حياتك ابن بلدك في لباس عثمانلي؟ ... أنا ربيع الزيات.

– هذا لا يصدق... . قال الحارس وهو يقترب من ربيع . قالوا إنك مت، منذ

عام كامل، تأسفنا على روحك، وأذّنت لك بناء على طلب والدتك. ولكنك لم تمت... اذهب إليها يا ابني وأفرح قلبها. إنها عجوز طيبة، وهي لا تستحق كلّ هذا العذاب!

ربّت الحارس على ذراعَيْ ربيع، فرأى إلى الرتبة. تغيرت ملامح وجه الشيخ حسن فجذب يديه بعيداً عن سترة ربيع.

– ماذا حدث يا شيخ حسن؟

– ماذا فعلت حتى رفعوك هكذا؟ هل قتلت بريئاً؟ أم اغتصبت فتاة في الثالثة عشرة من عمرها؟

– لا هذا ولا ذاك . بادره ربيع . إلى اللقاء الآن، سوف نتحدّث طويلاً بعد ذلك.

شيّعه الحارس بعينيه حتى القسطل. هناك انعطف ربيع في طريق الماوردي، رفع الحارس عينيه إلى السماء وقال:

– اللهم. اترك لنا ربيع بن علي الزيات طيب القلب كما أعدته حياً.

دفع ربيع باب بيتهم الواسع، إلا أنه كان مدربساً من الداخل. دق بالسقاطة عدّة مرات. فجاءه صوت نسائي عرفه فوراً.

– مين؟

– أنا.. افتحي.

– من أنت؟

– افتحي يا بهية!

سمع الدرباس يتحرّك، فاهتز الباب الثقيل. دفعه بيد واحدة من الخارج، فركضت بهية على طول الدهليز، واختفت في الحوش. ثمّ مدّت رأسها لتتبين من هو ذاك العسكري الذي يقتحم البيت هكذا، ويعرف اسمها. في البداية، حسبت أنه عمر، فكاد قلبها أن ينخلع من مكانه. إلا أنّ ذاك الذي وقف أمامها، على بعد أشبار، لم يكن يشبه عمر.

بسملت بهية. يا للمفاجأة. هذا الوجه الملتحي والباسم يشبه ربيع. إنه هو. صرخت بأعلى صوتها: يوم... ثمّ ركضت، واجتازت الحوض، وصعدت الدرجات، ثمّ دلفت غرفة أمّها. كانت ترتجف. كانت خائفة. لم يمت ربيع. أو قل عادت إليه الحياة. داس عتبة الغرفة، فشاهد المرأتين تقبلان نحوه. كانت أمّه غير مصدقة

وتتمتم (قل أعوذ برب الفلق...).

صاحت الأم: ربيع... ربيع... ثمّ تحشرج صوتها، وغاب. كانت تحرّك شفتيها دون أن تصدر صوتاً. أما بهية فقد اقتنع عقلها أخيراً، إنه أخوها بالفعل. فصاحت أيضاً كما فعلت أمّها، ثمّ ركعت المرأتان عند ركبتيه، وأمسكت كل واحدة يداً من يديه، وراحت تقبّلها وهي تبكي.

– يا الله ... قوموا. ماذا حدث؟

قال ربيع، ثم راح يقبّلهما. وفجأة انفجر الأطفال بالبكاء، مقلدين المرأتين.

كانت أمّه قد نحلت، وبرزت عظام وجنتيها وصدغيها، وتطاولت أصابع يديها المصفرة جراء تدخين السجائر. وكانت تجاعيد وجهها قد ازدادت عمقاً وطولاً، وبرزت تجاعيد جديدة على العنق وأسفل الفم. أما شعر رأسها الأشقر فقد تحول نهائياً إلى اللون الأبيض، ممزوجاً باصفرار غريب لا يعطي أي فكرة عن لون شعرها الأصلي. لقد فقدت الأم جمالها الذي حافظت عليه طويلاً، وغارت عيناها، وسقطت معظم أسنانها.

– ماذا حدث يا أمّي؟ لقد تغيرت كثيراً.

كفكفت الأم دموعها بظاهر يديها. كانت كلما توقفت عن البكاء، بادرت بهية من جديد.

لماذا تبكي إذن؟ ها هو ولدها الوحيد قد عاد، سالماً معافى. يجب عليها أن تضحك أخيراً. أن تزغرد كما كانوا يزغردون في الأعراس... إلا أنها ستبكي. يجب عليها أن تذرف دموع الأسى الذي عاشته منذ عام وحتى الآن. كانت صامدة، خلالها، تمتنع بكبريائها المعهود، أن تتشكّى على الأقل. كانت هي دعامة ما تبقى من هذا البيت، فإن انهارت أو ضعفت، فمحكوم على البيت وعلى كل ما أسسته بالفناء والدمار. كان يكفيها أن تبكي ولدها فقط، الذي جاؤوا إليها بخبره خطأ. ومتى؟ في الليل عندما يصبح الظلام ستاراً لها يحجبها عن الأعين. أما الآن... فعليها أن تبكي ألمها وبؤسها وحال البلد جميعاً.

– الحمد لله على عودتك يا ابني. إنك بكامل الصحة والعافية. إن هذا يريحني تماماً. ويجعلني أسعد أمّ في الدنيا. ولكن ... دعني أبكي... فأنت قد رأيت حالنا.

انظر ... هذا ما فعل الله بنا. لقد أسأنا إليه فعاقبنا. عاقب البلد كلها. أخذ رجالها، وترك نساءها وأطفالها يعانون الجوع والمرض.

صمتت، راحت تنتفض وهي تبكي. لحقت بها بهية ثم حمودة الصغير ابن الأربع سنوات. لاحظ ربيع وجود ولد لا يعرفه. من يكون هذا. أين أحمد، الابن الأكبر لأخته بهية؟..

– من هذا الصبي؟

– إنه حسن. ابن صالح بنبوك. ماتت أمّه فأخذناه ليعيش معنا. لقد عاد أبوه من الحرب وهو يعمل حطاباً ويطعمنا. لولاه لكنا قد متنا جوعاً. إن الرجال لا يعملون، فكيف النساء... لقد بحثت عن عمل... ذهبت إلى الريجي من جديد، إلا أنهم لم يستخدموني. لكن بهية استطاعت أن تجد عملاً عند صاحب أنوال هو ابن الورد. لكنه أوقف ورشته، ثمّ سمعنا أن اللصوص قد قلبوا عليه، سرقوا ماله وقتلوه. إنهم يقتلون بعضهم في الشوارع من أجل رغيف خبز. أما نحن، فإننا نغلق الباب بالدرباس ولا نخرج. ولا يزورنا أحد. اللهم إلا صالح الذي يأتي كل أسبوع ليحضر لنا بعض الأكل. إنه يجوع من أجلنا ومن أجل ولده. بارك الله فيه، إنه شهم.

– وأين ولدك البكر يا بهية؟

إلا أن بهية عضت على سبابتها، وراحت تجهش بصوت عميق يخرج من صدرها الذي كان ينطبق عميقاً حتى تبرز عظام قفصه المتفرعة في الوسط. كانت قد نحلت هي الأخرى. وراح اللون الأزرق يلون البشرة الرقيقة تحت عينيها. أما شفتاها فقد تشقّقت، وغرزت خيوط الشيب شعرها الأسود الفاحم.

ولكن البكاء كان قد لون عينيها الواسعتين بلون أحمر خفيف، وتوردت وجنتاها أيضاً. لو تعلم بهية أن البكاء يفيد في إعادة جمال الوجه لفعلت ذلك دائماً. إلا أن كل الدموع التي ذرفتها، على ابنها أحمد، الذي أصيب بمرض غريب قتله خلال يومين، لم يجد شيئاً من أجل ذاك الشحوب الذي أصابها بعد موته. لقد راحت تعتقد أنها هي التي قتلت ابنها. لقد زنت وأخطأت، فجاء الانتقام شديداً. لو لم تذهب إلى البيك ابن الورد لما حدث شيء لابنها، فجعلت تعذب نفسها. تحتقرها. تتمنّى الموت لنفسها. كانت تنزل إلى القبو وتلطم نفسها، بأيّ شيء، بيديها وفي بعض الأحيان

بحذائها أو بعصا حتى تدمي نفسها. بعد ذلك كانت تحس براحة قليلة... آه... يا أحمد يا ابني. سامحني... ليتني مت عوضاً عنك. ليتني ذبت كما تذوب البيضة بماء روح الملح. أتمنّى أن أنفلق، وأنشق وأن تعود حياً!!

هز ربيع رأسه. ماذا يقول؟ كل شيء لا يبشر بالخير. نهض، وخلع سترته وحذاءه العالي المغبر. أدخل نفسه في (جلابية) مدعوكة تفوح منها رائحة الغار. لقد حافظت الأم على أغراضه رغم أنّها سمعت بموت. أخرجت ثيابها من صندوق عرسها، ووضعت أشياءه فيه. وضعتها برفق، وكأن روح ربيع قد انتقلت إليها. كانت تعود إليها في فترات متباعدة، عندما كانت تشعر بالحنين إلى ولدها. إلى كل شيء خاص به، فتمسّد على قمصانه وسراويله وجلابياته بيدها الخشنة ولكن الحنونة.

مدوا السفرة، بعد أن جفّت الدّموع وتبسّمت بهية. كان جائعاً. وضعوا أمامه قرصين من "أبو أمون"... طعام فقراء حلب المساكين. كان هذا كل ما يملكون، فأبقوه للأطفال الذين لا يعرفون كيف يصبرون وقت الجوع. جعل ربيع ينظر إلى الأقراص المصنوعة من دقيق البرغل الرخيص والزعتر . دون الزيت . ثمّ رف عينيه إلى أمّه. في الماضي، كان أبو حديدة يقرأ عليه المواعظ. كان يقول: اسمع يا ربيع. أنت ترى كل ما أنا عليه من معاش جيد. ولكني جعت وأكلت "أبو أمون" حتى أصابتني قرحة في أمعائي. عليك أنت أيضاً أن تأكله. فهذا الجيل لا يعرف طعم الجوع... طعم "أبو أمون".

دفع الأقراص بعيداً عنه... هذا هراء. نهض، وأخرج بعض القطع الذهبية من حزامه الجلدي. قدّمها لأمه. وضعها في حضنها. قالت الأم وقد لاحظت بريق الذهب الأخاذ:

- ما هذا يا ابني؟ من أين لك كل هذا الذهب؟ إنه كثير... كثير جداً.

فقال ربيع وهو يرتدي بدلته من جديد:

- لا تأبهي يا أمّي، إنه لنا، لن تجوعوا بعد الآن.

أعادتها الأم. مدت إليه يدها وقلبها يخفق. دخل الشك إلى قلبها. من أين كل هذا يا ربيع؟ إلا أنها فضلت ألا تسأله الآن. تركت الأمر إلى مناسبة أخرى، فلن تدخل معه في نقاش لا تعلم نتيجته. فهي لن تقتنع أخيراً، أن هذه النقود، هي نقود

حلال، كسبها ربيع من جهده وعرقه. لماذا هو بالذات؟ لقد سمعت كثيراً عن العائدين والهاربين من الجيش. كانوا جياعاً لا يملكون برغوداً، فكيف يعود ابنها وقد كسب ذهباً وليس براغيد فحسب؟

ثم هذه البدلة رفيعة الشأن، التي يرتديها ابنها. وجعلت ترى إلى تلك الشرائط التي ثبتها على ساعده. لقد أصبح من الضباط. ماذا قدّم لهم مقابل ذلك؟ ... فقالت أم ربيع في نفسها، الله أعلم ... ثم قالت بصوت مسموع، سترك يا رب...!!

* * *

(14)

أدار صالح المفتاح في ثقب باب خشبي لبيت موغل عميقاً في (خراق الجلوم) المتفرع من طريق الكلاسة الرئيسي. دفع الباب ودخل. هنا يختبئ الأستاذ عبد الجليل، أستاذ العلوم الطبيعية والكيمياء في مدرسة السلطانية. صالح، هو الذي استأجر له البيت المكون من غرفتين ومطبخ وحوش صغير، فاستطاع أن يضلل الدرك عن الأستاذ. فمن يستطيع أن يتصور أن الأستاذ عبد الجليل الشلاح المناضل ضدّ الاستعمار التركي، والحامل للأفكار الاشتراكية التي آمن بها أثناء دراسته في مونبلييه بفرنسا، والذي حاول أن يشكّل حلقة من أناس يشاركونه الإيمان بنفس هذه الأفكار، يمكن أن يعيش في بيت من بيوت (خراق الجلوم)؟

سلّك صوته بصوت عال، فجاءه صوت نسائي رفيع من الغرفة اليمنى:

– صالح؟ ... بإمكانك أن تدخل إلى هنا... من فضلك.

مسّى عليها. خلع حذاءه في العتبة، ثمّ جلس على الأريكة الخشبية الوحيدة. كانت الغرفة باردة. لقد احتفظت ببرودة الشتاء، رغم أن الربيع جاء مبكراً هذا العام، ولهذا السبب كانت زينب مرتدية فستانها الصوفي الطويل حتى كاحليها. كان لون الفستان وجواربها الصوفية الأسود يضفي عليها مهابة رغم أنها لم تتجاوز الخامسة والعشرين بعد.

كانت جالسة على نفس الأريكة، وقد انسدل شعرها الأشقر على الجانبين، تطرز بإبرتها كعادتها، وقد غاب وجهها بين شعرها وهي محنية الظهر إلى الأمام.

– أين الأستاذ؟

سأل صالح، فقالت زينب دون أن ترفع وجهها إليه:

– إنه نائم في الغرفة الأخرى. لم ينم جيداً في الليلة الماضية، فقد بقي يقرأ حتى الفجر.

راقبها وهي تحرك إبرتها صعوداً وهبوطاً في مكان محدد دقيق على القماش المحصور بين إطارين خشبيين. هذا العمل جيد . قال في نفسه . هؤلاء القوم يعرفون كيف يمضون الوقت.

رفعت وجهها، وشاهدته وهو يراقب حركة أصابعها. ابتسمت، فبانت أسنانها البيضاء الجميلة. قالت:

– لقد أهملتك أليس كذلك؟ اعذرني!

– استمري. عندما أراقبك، وأن تعملين، يصيبني خدر لذيذ في رأسي... ولكن... ارفعي شعرك إلى الأعلى كي أرى وجهك!

تطلّعت إليه مرّة أخرى. افترت شفتاها عن ابتسامة وقد تضجرت وجنتاها بحمرة خفيفة، وبحركة متقنة جداً من يدها، رفعت طرف شعرها، وثبّتته خلف أذنها، فبان بروفيلها الناعم. كانت أرنبة أنفها محمرة من الزكام، وحاجبها دقيقاً وكأنه رسم بقلم.

اشتم رائحة عطر الياسمين الرقيقة. كم يحلو له أن يجلس إلى جانبها، ويتحسس أنوثتها الشديدة. حتى وإن كانت تعمل، ليس لديه مانع، بل إن انشغالها في أعمال التطريز، التي لا تنتهي، يجعل ذاك الإحساس أشدّ عمقاً، ويعطيه حرية أكثر لمراقبة تقاطيع وجهها وجسدها الرقيقة وحركات أناملها الدقيقة.

لقد تغير موقفها منه منذ زمن غير قريب. منذ أن سافر أرتين. لقد تحول من مجرد رفيق لوالدها، إلى صديق لابد منه. بل أكثر من ذلك، راحت لا تمانع في جلوسه إلى جانبها، ومراقبتها أثناء انشغالها، سواء في التطريز أو أثناء عزفها على مندولين صغير جلبته معها من فرنسا. إلا أنّه تمادى في علاقته معها، ولكن دون أن يفصح، راح يحلم بها. كان عندما يعود إلى بيته في (جلة معروف) يستلقي على فراشه، يسند رأسه على راحتيه، ويروح يتخيلها إلى جانبه. هل يمكن لهذه القطة الجميلة صاحبة القد اليافع والتي يجري في عروقها خليط من الدم العربي والفرنسي، أن تشاركه حبّه؟ ... هو، صالح بنبوك، الحطاب، صاحب اليدين الخشنتين، والقامة المتوسطة، النصف أمي والذي لا يملك في هذه الدنيا سوى ابنه حسن وحمار ضعيف البنية أصابه الجرب، وتسلخ الظهر؟

ما هذا يا صالح، أليس هو مجرد حلم؟

في إحدى المرات، تذكّر خلوق أفندي. كان قد كتب شيئاً في مذكراته عن زينب.

نهض صالح والتقط الدفتر، وراح يقلّبه. عليه أن يتأكد فيما إذا كان خلوق

أفندي قد أحبّ زينب أم لا. هل كان هناك إعجاب متبادل بينهما؟ إن تأكد من وجود أيّة علاقة فإنّه سيهجر زينب. هكذا قرّر، فهو لن يخون صديقه العزيز. فقد يعود يوماً، وهو سيعود حتماً، فصالح يتمنّى ذلك من كلّ قلبه. إن عاد خلوق أفندي فليأخذ زينب إن كان يريدها، فهذا سيرضيه حتماً، فليس أحبّ عليه من رؤية خلوق حياً يرزق وبصحة جيدة ومتزوجاً من هذه الإنسانة الرقيقة، فهو يناسبها. أما صالح فعليه أن يكتفي بالحلم والتصور. يكفيه أن يشعر بذلك الدفء اللذيذ الذي يحسّ به حينما يجلس إلى جانبها وهو يراقبها.

فتح صالح كراس خلوق عند نفس الصفحة التي صادف فيها اسم زينب. كان هناك خليط عجيب من برامج العمل والأفكار الطارئة، والتي سجّلها خلوق أفندي كي لا ينساها قرأ:

(هل يمكن أن نعتبر الفلاحين، طبقة فقيرة وكادحة ومعرضة للاستثمار؟) لا جواب.. مرّ على عدّة أسطر دون أن يقرأها. كان فكره يعمل في نفس السؤال الذي كان خلوق أفندي قد طرحه... آه... هنا إذن... قرأ الفقرة الطويلة. إلا أنّه أعاد قراءة الأسطر التالية:

(5 نيسان 1915. اليوم، اقترحت زينب أن نخرج للنزهة في حديقة السبيل (سبيل الدراويش) إلا أن الأستاذ عبد الجليل اعتذر. لديه اجتماع مع بعض عمال المطبعة المارونية. أرتين هو الذي رتّب هذا الاجتماع بعد جهد جهيد. خرجنا معاً، أنا وزينب. استقلينا حنطوراً بحصانين. هناك تمتعنا جيداً بمناظر العشب والأشجار الخضراء. وعند نبع السبيل، شربنا الماء الصافي. ثمّ استدارت زينب، قذفت قطعة نقدية إلى الماء ثمّ تمتمت رغبة ما لم أسمعها. سألتها ماذا تمنيت؟ فقالت وهي تضحك، وتخبئ وجهها: أن يأتي شاب جميل ومثقف مثلك، على حصان أشهب... عندي رغبة جامحة في الهرب مع مثل ذاك الفارس إلى آخر الدنيا. هذا هو حلمي السخيف...

ضحكنا طويلاً. ثمّ أكلنا العقابية، وأوصلتها إلى بيتهم قبل الغروب) إذن... قد تكون أحبت خلوق أفندي. قالت له إنّها تتمنّى شاباً جميلاً ومثقفاً مثله. ولكن... لماذا لم يعقِّب خلوق أفندي على كلامها؟ لماذا لم يكتب شيئاً عن شعوره نحوها؟ هل قابل

خلوق ملاحظتها دون مبالاة؟ .. أبحث يا صالح... قد تجد شيئاً يفيد في ذلك... قرأ الكراس سريعاً وهو يبحث عن أيّ شيء يمُتّ بصلة إلى زينب. لم يكن هناك شيء جدي، اللهم إلا بعض الأحداث العادية:

(سهرت الليلة عند الأستاذ عبد الجليل، فعزفت زينب مقطوعة لموزارت. قالت لي اسمها بالألمانية كما يلي: "آين كلاين ناخت ميوزيك"، فضحكنا طويلاً. فالألمانية لا تناسب شفاه زينب الرقيقة).

(سألتني زينب فيما إذا كنت محتاجاً لخياطة أيّ شيء.. قالت إنّها ستقوم بذلك بكلّ سرور).

لم يجد في الكراس ما كان يبحث عنه، فقرّر أن يلاحظ زينب. هي وحدها التي يمكن أن تفيده في ذلك. هل هي متعلقة بخلوق؟ هل يبادلها ذلك؟ ... رفعت رأسها وتمطأت. طقت مفاصل ساعديها وقالت:

– إنك صامت اليوم.. مثل كل يوم.

– لا أريد أن أشغل ذهنك لئلا تخزي أصابعك بالإبرة.

ضحكت بصوت خافت ثم قالت:

– لقد أصبحت لطيفاً جداً هذه الأيام، كلا... أرجوك تكلم ولا تقلق على إصبعي.

– كنت أفكر في خلوق أفندي... فأنا أفتقده كثيراً. إنه مناضل شهم. تصوري... لقد نسي نفسه في غمرة النضال من أجل تكوين الحلقة وتوسيعها. كان عليه أن يتزوج ويؤسس أسرة... إلا أنّه يخيل إليّ أن خلوق لم يكن لديه الوقت الكافي لفعل هذا وذاك معاً.

رأى كيف فاض الحنين في عينيها. كانت تستمع إليه باهتمام. أجابت:

– هل قال لك ذلك؟

– كلا... حتى إنه لم يذكر أدنى شيء عن الزواج.

أطلقت تنهيدة خفيفة. شيء ما في داخلها عاد من جديد. أحس به صالح. لماذا إذن لا تتكلّم؟ اتركي لسانك على سجيته يا زينب، فأنت ابنة باريسية. رضعت منها حليباً صافياً لا تشوبه شائبة. وإن ماتت أمّك منذ زمن بعيد، فهذا يجب أن لا

يجعلك تحبسين عواطفك في داخلك.

تابع صالح وهو يلاحظ عينيها اللتين أصابهما الكدر:

– كنت أتمنّى أن يجد فتاة مثلك.

ابتسمت، وأطرقت في الأرضية. سألته دون أن تنظر في عينيه:

– ولماذا أنا بالذات؟

– إنكما متشابهان.

– كلا فأنا لا أصلح له.

– هذا تواضع غير مناسب. لو بحثت في نفسك جيداً فسترين أنك تناسبينه. أنا لا أتصور خلوق أفندي زوجاً لامرأة تافهة.

لمّت قماشها ووضعته جانباً على حافة النافذة. استدارت بكليتها، وأسندت رأسها على يدها وهي تنظر في عينيه. قالت:

– اسمع ... هذا الكلام ليس في وقته! أولاً... خلوق أفندي مفقود. الله أعلم أين هو، حي أم ميت؟ سيعود أم لا؟ هذا هو السؤال. أما عن زواجي، فأنا لا أهتم به كثيراً. لقد عشت تجربة في باريس. أقول ذلك لأنك صديق جيد. كان هناك شاب، عربي، يكبرني بعدة سنين. كنت في السادسة عشرة. طلب مني أن نتزوج فوافقت على الفور. كنت صغيرة وكنت لا أزال متعلقة بهذه الأوهام. صدقته. هل تعلم ماذا حدث؟... حسناً... سافر إلى أمريكا الجنوبية مع والديه، بعد أن عشنا سنتين نحكي عن الزواج والحياة الزوجية.

بعد أن ماتت أمّي . حدث ذلك قبل ست سنين . قرر والدي السفر إلى حلب. فقام ببيع البيت الذي كنا نسكت فيه بباريس. تألمت كثيراً لذلك، ولكنني سبقت والدي إلى الباخرة لعلمي أن باريس ليست سوى تلك الذكرى عن ذاك الشاب الهارب إلى أمريكا.

وعندما ظهر خلوق، ذاك الشاب المتحمس والرقيق وصاحب القلب الطيب، كنت ما أزال خائفة من تلك التجربة. خائفة من الرجال عموماً. لا تلمني... فهذا أصبح الآن من الماضي. ولكن آخر شيء فكر فيه خلوق أفندي... هو النساء. لقد أحببته، ولكن حبي كان من النوع المنزوي والمنفرد. كنت أشعر أن خلوق سيختفي

يوماً ما، فمن ذا الذي يعمل في السياسة ويبقى حياً وحراً. في تلك الأيام كان رقيقاً معي، وهذا يكفي.

مسدت شعرها بيدها، ثمّ تابعت:

كنت قد تحدّثت مع خلوق عن علاقتي الماضية بذاك الشاب، ففسرت عدم رغبته في الزواج، فيما بعد، بمعرفته بتلك العلاقة، فأصابني الإحباط. كرهت نفسي لأنني حدثته عنها. أنت تعلم المرأة.. تعيش نصف حياتها وهي تخطئ والنصف الآخر وهي تعاني الندم... . ضحكت زينب لتخفي حرجها . أما الآن فقد وجدت نفسي على خطأ، فخلوق أفندي لم يفكر في ذلك إطلاقاً.

أشعل صالح سيجارة. لفّها بورق جريدة عتيقة. نفث دخانها بلذة، فاختفت زينب خلف سحابات الدخان الكثيفة. قال:

– إذن... لم تصارحيه بحبك له. لو كنت فعلت لكان أفضل.

– لماذا أفضل؟

– لأنّ الرجل يضعف أمام اعتراف المرأة. يحسّ ضرورة اتّخاذ موقف إيجابي إزاءها.

جمعت قواها، وقالت:

– أنت تريدني أن أتوسل... أن أستجدي أليس كذلك؟

– معاذ الله. فقط، أريدك أن تكوني له. أنتما أحبّ الناس إليّ في هذه الدنيا. لقد فقدت زوجتي فكرية، وهذا ليس بالشيء السهل بالنسبة إلي، فأنا، بعد موتها، أعيش متوحداً. لم أعد أملك أحداً غير ابني حسن، ولكنه صغير، إنه طفل، لن يكون الصديق الذي أحتاجه.

– حسناً... إنني أستغرب إصرارك على أن أحبّ أو يحبني خلوق أفندي...

كانت تنظر في عينيه وصدرها يعلو ويهبط بشدّة. تابعت بعد أن بلعت ريقها بغصة:

– لماذا لا تكون أنت؟

أحسّ بحرج شديد. لملم نفسه. أصبحت الأريكة غير مريحة. لقد اكتشفته. اكتشفت ما كان يوجد أن يخفيه. تابعت وقد أحسّت بحرجه وصمته:

– لماذا لا تكون أنت؟ فأنت تلف وتدور حتى تتأكد من خلو الطريق أمامك. لأنك لا تريد أن تخون صديقك. أن تسلبه حبيبته. ولكن... فلتعلم يا صديقي. لم يكن هناك شيء غير عادي بيننا. وخلوق لم يقترح عليّ أيّ شيء. ثمّ... إنّنا نتكلّم عن إنسان أخذه الأتراك، والرب يعلم ماذا حصل له، بينما بالنسبة إليّ، عليّ أن أدفن حية، وأن لا يكون لي الحق في أن أعيش كامرأة لها مشاعرها وعواطفها. أتعجب منكم أيها الناس، ألا يمكن أن نشعر بقليل من السعادة في هذا الجحيم المستعر الذي تسمونه مدينة حلب؟

صمتا... كانا متواجهين إلا أنهما مطرقان. تابع يمجّ من سيجارته، وينشر دخانها ذا الرائحة الثقيلة والكريهة في جوّ الغرفة المعطر. يا لك من نذل يا صالح، قال يحدث نفسه، أنت لست رجلاً. كان عليك أن تكون امرأة. اذهب واحلق شاربك، فهذا أفضل لك... كيف يمكن لامرأة أن تقول لك، وبهذا الكلام الصريح، إنها لا تمانع من أن تبادلك حباً بحب، بينما أنت تناور وتكتم ما في قلبك؟ زينب تختلف عن بهية. هذه الفتاة الشاعرية التكوين لها الحق في أن تحبّ وأن تُحَبْ. أن تسمع كلاماً حلواً يختلف عن أخبار إعدامات جمال باشا وما يجري على الجبهات. أمّا بهية فهي شيء آخر. إنها مهووسة. فعوضاً عن أن تجلس وتنتظر زوجها تروح وتبحث، في أيّ مكان، عن أيّ شيء، تولجه فيما بين فخذيها.

وفي البيت، راح يفكر، وهو يقضم الخبز مع البصل، في كلام زينب. قلبه في عقله، ردده مرة ومرة وثالثة. وفي الأخير، قرر أن يصارحها. أن يقول لها بصدق. أن يقول لها إنه يحبّها، وإنه كم كان يحس بسعادة عندما كانت تجالسه، وتفتح معه حديثاً. عليه أن يقول لها إنّ السماء كانت تنفتح له عندما يفترّ ثغرها، له، عن ابتسامة تستقبله بها عندما يزورهم. آه... يا زينب. هل أناسبك؟ هل أنا الرجل الذي باستطاعته أن يسعدك أن يعوضك كلّ هذا الشقاء الذي تعيشين في هذا الجحيم المستعر كما قلت؟

سمع طرقاً مستعجلاً على الباب. انتفض، ثمّ ركض حافياً، وصعد إلى السطح. تطلع بحرص نحو الأسفل. كان ابنه حسن. هبط، وفتح له. قال له بعدما أوصد الباب بهدوء:

– ماذا حدث؟

– تريدك الحاجة أم ربيع. قالت لي أن آتي، وأصيح لك.

– لماذا؟

– أحمد ابن الخالة بهية، مريض. إنه يرتجف، كأنه سبح في ماء الجب. سمعتهم يقولون إنه يشتعل من الداخل، واليوم راح يتقيأ قيئاً أحمر. قالوا إنه دم. وهو لا يحكي ومنذ يومين لا يلعب. خالة بهية تبكي، وتصفع نفسها، وتقول إنها السبب. وأنا لم أفهم لماذا كانت هي السبب؟

– هل جاؤوا بطبيب؟

– كلا.

– انتظر!

وضع قدميه في حذائه، ثمّ هرعا نحو بحسيتا القريبة. كان الطبيب اليهودي موجوداً. نقده صالح أجره مقدماً، ثمّ ركضا أمام بغلته باتّجاه سوق الصغير. وما إن وصلوا إلى بيت الزيات حتى رنّت في أذني صالح ولاويل بهية الفزعة والملتاعة. كان باب البيت مشرعاً، وكان هناك بعض النساء الغربيات قد جلسن في الدهليز وقد لففن أنفسهن بملاحف سوداء مرقعة. صعد صالح والطبيب الدرجات إلى غرفة الحاجة أم ربيع. كانت متربعة تبكي، وقد أخفت وجهها براحتيها. أما بهية، فكانت ساجدة تلطم وجهها بكلتا يديها وهي سافرة الرأس، منفوشة الشعر. رفعت رأسها عن الأرض، فرأت صالحاً. كان وجهها متورماً، أحمر، وعيناها غائرين وكان هناك خيط من الدم نازل من أنفها يلون شفتيها وذقنها.

اقترب الطبيب من الولد الملقى على الفراش. كانت عيناه جاحظتين، أصفر اللون، أزرق الشفتين وقد تلوث بالدم الذي كان يتقيؤه.

صاح الطبيب في صالح الذي كان يقف مشدوهاً وقد تصلب جسده:

– ما هذا... ما هذا؟ ... اخرجوا الأطفال... الولد ميت. متى حدث هذا؟ ... الولد ميت.

أخرج حسن الولد حمودة والبنت الوسطى، وعندما سمعت بهية صياح الطبيب نصف الهستيري سقطت على الأرض مغشياً عليها وهي جاحظة، فارتطم رأسها

ببلاط الأرضية، ثم راح ريقها يسيل خارجاً من زاوية فمها.

استفاق صالح من انشداهه. التقط غطاء من الجنفاص، غطى به جسد بهية بعد أن أراح جسدها اللدن الذي تجاوب بسهولة مع يديه. كانت أم ربيع مازالت تنتفض دون وعي وهي متربعة في جلستها الأبدية تلك. استدار نحو الطبيب وسأله:

– هل مات الطفل فعلاً؟

– مات... يا له من حظ سيء. إنها الحمى الجديدة التي لا نعرفها بعد. تأتي فجأة فتفتك بصاحبها بأسرع من البرق. يا للطفل الصغير، لقد أصبح الموت أسهل كل الأشياء. عليكم أن تدفنوه فوراً، وأن تحرقوا أشياءه. أن تبعدوا الأطفال عن هذه الغرفة. اشتر بخوراً وبخر الغرفة.

ثمّ تمتم يسير باتجاه الباب الخارجي:

– لعن الله الحروب... هذه نتيجتها. هذا ما كان ينقصنا. الحمى الجديدة... اللعنة..

لف صالح جسد الطفل الهزيل بنفس الشرشف المتسخ بالقيء، ثم حمله على كتفه وسار خارجاً. كان الأطفال الثلاثة، واقفين في رتل، صامتين، يتطلعون إلى الجسد الملفوف والمنثني على كتف أبي حسن، وقد راحت دموع جاهلة إلا أنها عارفة، تنزل بهدوءِ تشقُّ طريقها على بشراتهم الناعمة مودّعة دون أن تفهم عقولهم، أن الولد لن يلعب معهم غداً صباحاً، عندما تشرق الشمس من جديد، على الجدار العالي للحوش، وتصب أشعتها على المزراب الحجري الممتد نحو الشرق، حين، يبدأ نهارهم كل صباح.

نام تلك الليلة في بيت أم ربيع. ترك المرأتين والأطفال في القبو، ثمّ قام بغسل أرضية الغرفة التي مات فيها الولد. لم يجد شيئاً للحرق. كيف يمكن أن يحرق الفرشة والمخدة واللحاف؟ ... فهذه الأشياء ثمينة جداً في هذه الأوقات. غسل ما علق عليهما من دم، دون جدوى، فقد بقيت بقع وردية كبيرة تذكر بتلك الحادثة المشؤومة التي أودت بالطفل إلى جبل العظام، ثمّ نشرها على السطح، في مواجهة شمس النهار.

كانت بهية نصف ميتة، أما الأم فقد قامت، وغسلت رأسها، ثم راحت تطعم

الأطفال دون أن تنبس بحرف. أشعل صالح عود ثقاب، وقرّبه من أنف بهية. ثمّ جرب روح الخل النافذ واللاذع، إلا أن المرأة لم تفق إلا في ظهر اليوم الثاني، حتى وعندما أفاقت، راحت تراقب أمّها وصالح والأطفال بلامبالاة. لم تأكل، لم تشرب، ولم تكن تجيب على الأسئلة. كانت تشخص لساعات طوال في السقف دون أن يرف جفنها أو تنام في الليالي.

بعد ثلاثة أيام، عادت بهية إلى البكاء، واعتبر صالح ذلك علامة خير وأن المرأة أصبحت طبيعية. قال لأم ربيع:

– دعيها تبكي. لا شيء يضاهي الدموع، فهي التي ستشفيها، وتعيدها إلى حالتها الطبيعية!

– إنها تزهق روحها، هذا قضاء الله.

– الابن غالي يا أم ربيع. كان يجب أن يعيش كي يحميها، ويذهب إلى العمل. من يعلم إلى متى ستستمر هذه الأحوال؟

فقالت أمّ ربيع وهي تصفق يداً بيد ودموعها تطفر من عينيها:

– لا حول ولا قوة إلا بالله... من كان يعلم بما تخبئه لنا الأيام؟

إلا أنّ بهية استطاعت أن تقضم بعض الخبز، وأن تشرب ماء. استغل صالح انفرادهما في القبو، فقال لها:

– كفى يا بهية. أنت تقتلين نفسك!

– ليتني أموت يا صالح... ليتني أموت. إن الذي يتعذب هو ضميري.

– أنت تظلمين نفسك. ليس لك علاقة بما حصل. لقد سمعت الطبيب كوهين، إنها حمى من نوع جديد لا يعرفها الطب بعد. جاءت إلى البلد بسبب المجاعات وأكل الفطائس والقطط.

– بل ... أنا السبب. لقد عاقبني الله في ابني أحمد.

عادت للبكاء من جديد. كانت تشهق، وتشرق أنفها. شدّت بعض خصلات من شعرها تريد تقطيعها، فأمسك صالح يديها، وأسبلهما. لقد اعتادت على الظهور أمامه دون حجاب حتى أنها رأت في ذلك شيئاً عادياً. قال لها صالح، وقد تجرأ فمسح دموعها بيده:

- عندك ابني حسن... خذيه، إنه لك. سيعوضك المرحوم. ولكن عليك أن تؤمني أن الله إذا ما قام بالانتقام من البشر بأولادهم، فلن يبقي أطفالاً يسيرون على هذه الأرض. كلّ الناس يخطئون في هذه الساعة، أما أنت فقد كنت تبحثين عن لقمة العيش عند ابن الورد. كنتم ستموتون جوعاً إن لم تفعلي، وهذا مبرر. أما عندما جئت أنا ورحت أعمل... عندها رفضت الذهاب إليه.

نظرت في عينيه. خف بكاؤها. إلا أن الشقاء كان يتلبسها. فهمست له:

- أنا أعرف نفسي، كنت أشتهي هذه الفعلة. كنت أذهب إليه بإرادتي. كان يقدم لي الخبز واللحم واللذة. ليس الطعام فقط. كنت أنتظر مجيئه بفارغ الصبر. كان البيت ملآن بالطعام إلا أنني كنت أنتظره. وعندما كان يدخل كنت أقوم باستقباله مفتوحة الذراعين، وإن لم يكن جاهزاً، أقوم باستثارته بيدي. لم يكن يرضيني أبداً أن يخرج من البيت دون أن يكون قد أطفأ النار التي كانت تحرق أحشائي... هل فهمت؟ ... وعندما جئت أنت، ومنعتني من الذهاب إليه، رحت أكرهك... أحقد عليك لأنك منعت عني ما كان يلزمني وما كان باستطاعتي الحصول عليه بسهولة.

تمخطت بعنف في خرقة مدعوكة كانت تشدّ عليها بقوة. ثمّ تابعت:

- ورحت أغويك، أثيرك، كي تحل محل ابن الورد. ألا تذكر؟ .. هذا الشيء لا ينسى أبداً. كنت أحلم بك في يقظتي. كنت تحت يدي، إلا أنك كنت تمانع. وهذا ما أغاظني. هل تعلم لماذا؟ لأنني قحبة لا أكثر ولا أقل. أشتهي الرجال كما أتنفس الهواء. أنا لا أستطيع أن أمكث يوماً واحداً دون رجل. هل هذا ذنبي؟ هكذا خلقني الله... سمّني ما شئت، عاهرة.. قحبة، شرموطة، أو قل ممحونة، إلا أنني أشتعل... هنا... (ضربت بعنف أسفل بطنها) لمجرد مرأى شنب رجل...

صمتت. أطرقت رأسها كأنها خجلى. كان يسمع شرق مخاطها فقط. لمس يدها المرتاحة على فخذها بلطف، ثمّ ربّت عليها. قال كي يكسر الصمت:

- ليت عمر يعود، وتجتمعان من جديد.

- بل قل ليت عمر يعود، ويذبحني، فهو سيعلم ولابد. كنت أخاف عودته. أما الآن، فأنا أتمنّاها، ما دمت أنت لا ترى، من حقك، ذبحي فهو الذي سيريحني.

عاد وربّت على يدها، ثمّ نهض، وقبل أن يصعد الدرجات إلى أرض الحوش

استدار إليها وقال:

– اسمعي يا بهية. لقد حلت بالبلاد المصائب، وبالبشر أيضاً. ولكن علينا أن نحافظ على أنفسنا وأرواحنا، فالأزمة ستمر وتنتهي. أنا متأكد من ذلك. المشكلة هي كيف سنكون بعد المحنة. بعد الجوع والموت والذل و... أنت تفهمينني، أليس كذلك؟ ليس من الحكمة أن نعيش في وهم وانتقام الله، والذبح وغيره. اصمدي يا بهية... إن فعلت، فستكون أمّك والأطفال بخير أيضاً. انسي الماضي! لا ذنب لك، لا ذنب لي بكل ما يحصل. انهضي. قومي واغسلي وجهك. أريد أن أسألك... هل كانت هذه الخصلة شائبة هكذا من قبل؟

– أي خصلة؟ من شعري؟ لا... لا أعلم. هل شبت هكذا سريعاً؟

تطلعت في صينية من النحاس موضوعة على أحد الرفوف. كانت خصلة كاملة من شعرها غرتها قد ابيضت. شهقت بهية، وابتسمت إلا أن شفتها السفلى المتشققة آلمتها. اقتربت من صالح. أمسكت يده، وراحت تقبّلها بعنف. وهي تهمس: أشكرك... أشكرك. سحب يده برفق، ثمّ صعد درجات القبو. عبَرَ الحوش، ثمّ غاب في الدهليز المؤدي إلى باب الزقاق.

عاد صالح إلى داره... في الطريق كان يفكّر. لقد صدمته ميتة الولد. لا فرق بينه وبين ابنه حسن. استعاذ بالله من الشيطان الرجيم عند ذكر ابنه وهو يقارنه بأحمد. كان مرهقاً، وراح يحسّ بدوار خفيف في رأسه. وتذكّر أنه لم يأكل شيئاً يذكر منذ ثلاثة أيام، اللهم إلا قطعاً صغيرة من الخبز وبعض الماء.

وبينما هو يقطع الأزقة الضيقة باتّجاه باب انطاكية، أحسّ بعطف شديد نحو بهية. لقد عانت هذه المرأة، كان الله في عونها. لقد فقدت أعز ما لديها الآن، إلى الأبد. كانت تحبّ الولد، تربيه كي يكبر قبل أوانه. لعله يكون الابن . الرجل الذي عليه أن يحمل عبء أمه وإخوته. وإلا ما الفائدة من تربية ولد.

شعر أنه كان صادقاً معها. قال لها خذي ولدي إن شئت. قد قال ذلك من كل قلبه. كان يعني ما يقول، وليس مجرد مؤاساة لها. كان عليها أن تجتاز المحنة. أن يساعدها في ذلك. في الماضي كان يطرح الأسئلة فحسب. أما الآن فهو يطرحها ويأتي بالإجابة عليها. كل المصائب التي أتت متتابعة، سببها شيء واحد فقط، وهذا

الشيء أصبح يراه كما يرى نوع الشمس الآن عند الأصيل. ليس غضب الله كما يشيعون، ولا انتقامه رداً على كفر الناس وزندقتهم كما يقولون في صلاة الجمعة. بل هناك شيء آخر، شيء على الناس أن يعرفوه كي يقضوا عليه. إنه الاستعمار التركي وحروب الدول الأجنبية، واستثمار الأمم الأخرى التي ترزح تحت نعال أحذيتهم العسكرية المغبرة.

كيف يمكن لأصحاب السنة أن يكدسوا القطارات بالحبوب، ويسيروها إلى ألمانيا بينما شعبنا يموت جوعاً، وتفترسه الأمراض، ثمّ يقولون إنه غضب الله. لماذا لا يغضب الله على السلطان التركي وعلى حكومته. لماذا لا يغضب على الأباطرة الشبعانين؟

كلّ يوم يمرّ، وكلّ محنة تمرّ، تقرّبه من الفهم الصحيح للأحداث. أمّا الأستاذ عبد الجليل وابنته، وفي الماضي أرتين وخلوق أفندي، فقد أعطوه رأس الخيط. قالوا له: يا صالح أنت إنسان عاقل، ولديك عقل جدلي. تمعّن في الأمور واعمل عقلك فيها، عندها، ستجد الحلقة الرئيسة. ولكن عليك أن تفهم البدهية الأولى، وهي أنّ الناس منقسمون، في هذه الدنيا، إلى فقراء وأغنياء، وكلّ المصائب التي نعيشها هي مصائب الأغنياء على الفقراء!

لكنه اتفق تماماً مع الأستاذ عبد الجليل، أثناء نقاشاتهما مؤخراً، على الثبات، على التفاؤل، ورفض التواكل، وترك الأمور تسير على غاربها. بل يجب الحفاظ على هؤلاء الناس الذين بعمق وعيهم، وقوة شكيمتهم يستطيعون فيما بعد أن يقودوا هذا الشعب الجائع والمسكين عبر العاصفة، بعد أن تكون قد بلغت ذروتها، وبدأت بالانحسار. عليهم الآن أن يقولوا لهذا الشعب أن اصمد في وجه المحن، ولابدّ من زوالها في الغد الآتي!

مرّ على البقال على ناصية (جلة معروف) وهو يسرع. لقد تذكر الحمار. تركه أربعة أيام دون علف أو ماء. لقد نسيه تماماً. سمع البقال يناديه. استدار وصاح: لحظة... سأعود. فتح الباب، ودلف. كان الحمار مستلقياً على جنبه في الدهليز الضيق، وقد أثنى قوائمه ومدّ رقبته. كان الذباب الأخضر يغطي عينيه المفتوحة ومؤخرته. لكزه بعصا فلم يتحرك الحمار.

مات الحمار. حتى الحمير تموت جوعاً... ابتسم صالح لهذه الفكرة. قرفص، وراح ينظر إلى جلد الحمار المتسلخ والبشع. كان الذباب يطير، ثمّ يعود، ويحطّ على الجروح. عليه الآن أن يخرجه، كيف؟ إنّه ثقيل، ثمّ المسافة طويلة إلى الأرض الخلاء أمام سوق باب إنطاكية.

- ماذا حدث له؟

التفت إلى الخارج، فرأى البقال وشخصاً آخر. أجاب صالح:

- مات الحيوان من الجوع. لقد نسيته أربعة أيام دون علف.

- ماذا ستفعل الآن؟

سأل البقال، فأجاب صالح:

- علي أن أخرجه إلى السوق.

- هيا سنساعدك..

سحب الرجال الثلاثة الحمار من قوائمه. وضعوه في وهدة صغيرة، ثمّ مسحوا أيديهم بالتراب. قال البقال إنه سيرسل ابنه كي يدفنه حتى لا تفوح رائحة الفطيسة. ولكن ابنه عندما حمل كريكاً في الصباح التالي، وذهب كي يدفن الجثة، لم يجد الحمار، بل وجد رأسه المقطوع وأحشائه فقط. كان الحمار قد قطع، وأخرجت أمعاؤه، ونقل إلى المطابخ رغم أنه كان يفوح برائحة نتنة.

جلس الثلاثة في حانوت البقال. كان الشخص غريباً على صالح. فقد كان في الأربعين من عمره، ذا جسد ناحل وطويل. وهو يتكلم بلكنة، غير لكنة أهل حلب الأصليين.

بادره الحانوتي بالكلام، وهم يشربون قهوة البن الخالص التي اختص الحانوتي ببيعها فيما مضى:

- هذا الأخ يبحث عنك منذ يومين. جاء أربع مرات ولم يظفر بك. أخبرته أنك ستأتي حتماً.

تطلع صالح في الرجل. إنه متأكد أنه لا يعرفه. ماذا لو كان دركياً؟ إلا أن الرجل قال بمودة ظاهرة:

- أحمل إليك رسالة من شخص عزيز عليك.

– من هو؟

– شخص اسمه خلوق.

– يا إلهي. إنه حي؟ الحمد الله. أشكرك يا سيدي.

أعطاه مظروفاً ملصوقاً بعجين دقيق القمح. دسّه صالح في جيبه، ثمّ راح يسأل الشخص عن خلوق أفندي.

– خلوق حي يرزق. وهو بصحة جيدة.

– أين التقيته؟ في السجن؟

– كلا ... إنه ليس في السجن، ولا أعلم إن كان مسجوناً أم لا. ولكنه الآن في فلسطين. لقد جنّدوه في الجيش. هو الآن في نابلس. هناك تحتشد قواتنا في مواجهة صحراء سيناء.

ودّعهم الرجل وذهب. ولم يمكث صالح عند الحانوتي إلا قليلاً، فقد كان يتحرق لمعرفة فحوى رسالة خلوق أفندي.

أشعل شمعة، قرّبها من فراشه الممدود، ثمّ حلّ اللصاق العجيني، وأخرج الرسالة. كانت بخط خلوق الجميل، فصالح يعرف خطه كما يعرف نفسه. قرأ:

سلامي إليك أيها الأخ صالح بنبوك وقبلاتي الحارة أرجو أن تكون في صحة ممتازة أنت والأصدقاء.

أما بعد، فأنا أكتب إليك من مدينة نابلس بفلسطين، حيث جرى معي التالي:

بعد أن قبضوا عليّ في ذلك الاجتماع أمام مدرسة السلطانية، أدخلونا إلى المدرسة واحتجزونا لعدة ساعات، أنا وخمسين طالباً. بعد ذلك نقلونا، وهم يضربوننا ويشتموننا إلى أحد المعسكرات خارج المدينة من جهة الشمال، وأنا لا أعرف هذا المكان من قبل. هناك أخبرتهم أنني طالب في المدرسة ولست أستاذاً، وكذلك قال عني الطلاب الآخرون لأنهم لو عرفوا ذلك فإنهم كانوا سيرسلونني إلى سجن بيروت وسيحاكمونني بحجة تحريض التلاميذ، وأنت تعلم إلى أين يؤدي ذلك، إلى المشنقة طبعاً. بعد أسبوعين ألبسونا ألبسة عسكرية مهترئة لحقها العث، ثمّ وضعونا في قطار (رياق) كالحيوانات، ومن ثمّ أرسلونا إلى فلسطين.

ولكن عمك خلوق لا ييأس. بحثت عن الأصدقاء، فتعرّفت على اشتراكي

بولوني فرتّب لي عملية هروب أنا وعدد من الطلاب إلى مصر. عندما تصلك رسالتي هذه مع الصديق نافع، أكون قد وصلت إلى مصر. هناك سيكون في انتظارنا بعض الأصدقاء، وعلى رأسهم شبلي شميل، مناضل لبناني يؤمن بأفكارنا، يقيم الآن في مصر.

كيف حال الأستاذ عبد الجليل والآنسة الناعمة زينب، وكيف حال أرتين وزوجته؟ أرجو أن تخبر الأستاذ عبد الجليل فحوى الرسالة. وقبلاتي الحارة لهم جميعاً.

أمّا من ناحية الآنسة زينب. فأنا لا أستطيع أن أسطّر لها رسالة الآن، فهذا يحتاج إلى وقت، حتى أستطيع أن أكتب كل ما أكنه لها من احترام وحب، فالأخ نافع سيسافر فوراً إلى حلب. ولكن أرجوك أن تخبرها بالآتي:

لقد اكتشفت أنني أحبّها، وأنّني نادم لأنني لم أفاتحها بذلك عندما كنت في حلب، وإلى جانبها. ولكن من سخرية القدر يا عزيزي أن أخبرها بواسطة عدّة رسل، من بعيد جداً، أنّني أحبّها، وأتمنّاها زوجة لي.

اطلب إليها أن تنتظرني، فأنا سأعود حتماً. أقبّل بحرارة أناملها الطاهرة.

أخوك ورفيقك خلوق

قرأ الرسالة عدّة مرات، وخصوصاً كلّ ما يتعلق بزينب. وفي المرة الأخيرة، كان يرى إلى الكلمات دون أن يقرأها. كان يفكر. لقد صح حدسه. خلوق أفندي يحبها، وهو لا يمكن أن ينافسه على زينب. ثمّ إنّ الاعتقاد جاء عن قناعة، فزينب تناسب خلوق، وهو يناسبها. إنهما مثقفان، يتكلمان اللغات، وعاشا في أوروبا، بلاد الحرية والثقافة والموسيقا... وقد تطبعا هناك بطبع واحد. طبع راق... أنت يا خلوق الإنسان الوحيد الذي تستطيع أن تسعد زينب. تستطيع أن توفر لها الحياة التي تحب. ولكن... ماذا عنه؟ ماذا عن صالح؟ لقد أحبّها، وها هو الآن يشعر بالسعادة لأنّ خلوق حي، وبالتعاسة لأنّ حبّه حُكم عليه بالموت. ماذا عنه؟ ماذا يفعل بقلبه الذي يدق الآن بقوة وعنف لم يعهدهما من قبل. ماذا يفعل من دون هذا الأمل العظيم الذي راح يشع في حياته بعد أن عرف طعم هذا الحبّ الغريب.

حب فكرية كان يختلف عن الحبّ نحو زينب. كان يحبّ فكرية كزوجة وكأم.

كان لا يشعر به، كان يحسبه ألفة بين زوجين. وعندما أخذوه إلى العراق أحسّ بفقدانها. ببعدها عنه. كان يحتاج عطفها ورقتها... أمّا هذا الحبّ الذي راح يتشعب في داخله، ويحتلّ كلّ مكان فيه، فهو مختلف. لقد أحبّها وهي إلى جانبه وأحبّها وهي بعيدة. كان يشتاق إليها، فيذهب لزيارتهم. كان يختلق الأعذار كي يدخل غرفتها. هل ذقتم أيها الناس حباً مثل هذا الحب. حباً صامتاً غير معلن؟ هل تعذبتم مثلي؟ أتعذب أنا ما بين الإخلاص لصديق ورفيق، وما بين مطاوعة القلب والتقرب إليها؟ ماذا عليّ أن أفعل؟ ولكنّها قالت لم لا تكون أنت... كانت تريد أن تفصح عن نفس الشيء الذي خفت من الإفصاح عنه، والذي كتمته وعندي شعور أنّ خلوق حي وسيعود ليجتمعا، ويتحابا، ثمّ يقترنا. اعذروني أيها الناس... فأنا أشغل بالكم معي كي تساعدوني وتدلوني على الطريق الصحيح. ولكن نصائحكم ستأتي متأخرة حتماً، فقد قرّرت أن أصبح قاتلاً. أن أقتل هذا البرعم الذي تفتّح في قلبي منذ عدّة أشهر. أن أخنق هذا الحبّ . الطفل الذي بدأ ينمو ونما بالفعل.

ذهب إليهم في اليوم التالي، وعندما أطلّ في الحوش، شاهد زينب تقف أمام باب غرفتها وهي تبتسم. كانت تريد أن تلج غرفتها عندما سمعت صوت المفتاح وهو يدور في القفل. فتنبأت فوراً بحضور صالح، فلا أحد يملك مفتاحاً آخر سواه. شاهد ابتسامتها. كانت زينب متألقة بجمالها. لقد ازدادت جمالاً عما كانت عليه قبل أربعة أيام، وكانت ابتسامتها تشرق في وجهها أكثر.

رفعت حاجبيها بحركة مسرحية وقالت:

– يسعد صباحك يا صالح، ماذا حدث؟ لقد تأخرت علينا. انشغل بالنا عليك.

– لقد انشغلت كثيراً.

– وهل تترك أصدقاءك يموتون جوعاً؟

– معاذ الله... يمكنكم أن تأكلوا من لحمي إن أردتم. ولكنني انشغلت كثيراً.

دعته للدخول إلى غرفتها. فسأل عن الأستاذ، إلا أنها أصرّت على دخوله.

قالت وقد وقفت أمامه، كان رأسها أعلى من رأسه فقد كان يقف في العتبة الواطئة:

– عندي شعور أنني أسأت إليك في المرة الماضية.

- ليس هكذا؟
- ولكنك غبت أربعة أو خمسة أيام، ليس من عادتك أن تغيب هكذا.
- قلت لك، كان عندي شغل مهم. سأحكي لك فيما بعد عنه.
- هذا ليس مبرراً. كان يمكن أن تمرّ لترانا. قل لي: هل جرحت شعورك؟
- بماذا؟
- عندما ألمحت لك أنه يمكن أن نحبّ بعضنا أنا... وأنت؟
- لا...

قاطعته:

- أنا لم أقصد الإساءة عندما قلت لك إنك تناور كي تتأكد من خلو الطريق أمامك، فقط كنت أريد أن أصارحك أنّني...
- لا تقولي شيئاً.
- أحبّك يا صالح. وأنت تحبني. إنك إنسان لطيف وشهم. وأحبّ فيك إنسانيتك، ثمّ إنّك رجل محترم لدى كلّ الناس ولدينا. لا تسيء إلى نفسك بيديك. أنت تختلف عن الآخرين..

أراد أن يقول شيئاً. وضعت يدها على شفتيه تمنعه من الكلام. ثمّ اقتربت وطبعت قبله على خده. ارتعش صالح، وأخذ الخدر اللذيذ نفسه يعود إلى رأسه وأنامله. لقد ثمل من رشفة نبيذ واحدة، فتجمع الدم في وجهه مورداً بشرته. إلا أنه شعر بنعاس شديد ومفاجئ. هكذا كان يشعر فيما مضى عندما كانت تمسد له، إحدى العجائز جبهته وهي تقرأ آيات الله كي تبعد عنه وجه الرأس المزمن الذي كان يلازمه، عندها كانت تصفو روحه، ويخلو ذهنه، ويتعطل تفكيره. كلّ هذا حدث الآن، إضافة إلى فرح عارم ولذة تغبِّش بشرته وعينيه. الحبّ لذيذ يا صالح.. ينسي الهموم والمشاكل والحروب والموت... والجوع. لعن الله الوحدة، لعن الله كل من يقف في طريق هكذا حب.

إلا أنه تذكّر الرسالة المدسوسة في جيب سرواله. عليه أن يطلعها عليها، وليكن ما يكون، فهذه هي البداية، ويمكن إيقاف أيّ شيء في بدايته، دون أن يترك أثراً محدداً. أما إذا ترك على غاربه، فإنّ مجرد التفكير في إبعاده سيكون محفوفاً

بالمخاطر.

دسّ يده في جيب سرواله، من دون أن يتكلّم، وأخرج الرسالة. دفعها إليها. تناولتها وعيناها تتساءلان عن هذا الشيء، ولكنه لم يبق ليرى إلى تعابير وجهها وهي تقرؤها. فتح الباب، وخرج. نقر بإصبعه على باب غرفة الأستاذ، ثمّ دفعه ودخل.

رحّب به الأستاذ الذي كان جالساً وراء منضدة يقرأ في كتاب صغير. نهض وصافحه. مالك يا شيخ تقاطعنا؟ هل حدث شيء.

- غصب عني يا أستاذ. كنت مشغولاً في بيت أم ربيع.

- ماذا حدث؟

- مصيبة جديدة. أحمد، الابن البكر لابن عمي عمر، مات.

- يا إلهي... العمر لك.

- ولكم جميعاً... لقد أصابته حمى لعينة كنّسته في يومين. لقد تقيأ دمه بأجمعه. قمت بدفنه. أمّا أمّه فقد أغمي عليها، وكادت تفقد عقلها. البارحة فقط راحت تتكلّم وتأكل. تصور يا أستاذ مقدار المصيبة.

- إنني أقدّر ذلك جيداً.

صمتا لحظة، ثمّ سأل الأستاذ:

- لم تكن تذهب إلى العمل أليس كذلك؟

- لا... ثم إنّ الحمار..

- ما به؟

- نسيته طوال هذه المدة. أربعة أيام دون علف. ففطس.

تبسم الأستاذ غصباً عنه. أراد أن يمزح مع صالح، وأن يقول له البقية في حياتك إلا أنه ردع نفسه. ولكن صالح فهم ما يدور في ذهن الأستاذ، فانفرجت أساريره.

- قلها يا سيدي... قلها!

قهقه الأستاذ بصوت خافت، وقال:

- لا لزوم لها الآن. وهل معك نقود؟

– كلا.

– خذ... ومد له عدة قروش فضية.

– لماذا؟

– اشتر حماراً. وعندما تكسب أعدها إذا أردت!

التقط صالح القروش. راح يخشخش بها في يده مدّة، ثمّ وضعها في جيبه.

– إن شاء الله، سأشتري بغلاً قوياً هذه المرة... نعم... هناك شيء آخر، مفرح، إن أردت أن تقول. وصلتني رسالة، البارحة، من فلسطين.

– من فلسطين؟ ... ممن؟

– احذر.

– من امرأة؟

ضحك صالح. هز رأسه معاتباً:

– من امرأة يا أستاذ؟ ... ومن هي التي ستراسل واحداً مثلي من آخر الدنيا؟ على كل... الرسالة من خلوق أفندي.. إنه حي.. و..

– الأستاذ خلوق؟

– نعم.

– برافو... إنه ليس في السجن؟ ... لم يحاكموه؟ هذا جيد جداً. هذا يعني أنهم جنّدوه فقط.

– هذا ما حدث بالفعل. كتب إنه، وبمساعدة الاشتراكيين الفلسطينيين سيهرب إلى مصر، وذكر اسم شبلي شميل. قال إنّه سيكون في انتظار خلوق وأصحابه عند وصولهم إلى مصر.

– الطبيب شبلي شميل؟ هل قال ذلك؟

– نعم.

– إنه شخصية اجتماعية مرموقة، ينادي بالاشتراكية ووجه بارز في حركة النهضة العربية. حكم عليه جمال باشا بالإعدام، إلا أنه كان قد هرب إلى مصر.

– خلوق يقول مثل هذا الكلام في رسالته.

– اجتمعت معه عدّة مرات في فرنسا، كان يؤكد لي على ضرورة جمع

المؤمنين بالاشتراكية في حلقات، وإلا لا فائدة من إيمانهم.

واستطرد الأستاذ بعد أن فكّر قليلاً:

– بالفعل... ستكون الفائدة عظيمة لحلقتنا، في المستقبل، إن استطاع خلوق الوصول إلى شبلي.

بعد ذلك تحول الحديث نحو المهام الحثيثة التي يجب أن يقوموا بها. ما العمل الآن؟ هل يستمرون منعزلين ومتمسكين بسياسة الخلد هذه، أم عليهم أن يبدأوا التّحرك والاتّصال مع الناس لشدّ أزرهم، وتنظيمهم وتحريضهم على مقاومة الأتراك وعملائهم؟ لديهم أصدقاء لا بأس بهم. في المطبعة المارونية، وشركة سكّة الحديد، وبعض الفلاحين الذين تعاطفوا مع صالح وأفكاره في الوضيحي. ماذا يمكن أن يقوم به الأستاذ وصالح واثنان آخران من الأرمن المذعورين اللذين تركهما أرتين لصالح قبل سفره. هل يستطيعون أن يكسروا هذا الحاجز . الخوف الذي بناه أحمد جمال ببطشه وإعداماته؟ السادس من أيار لم يبتعد بعد. فيه أعدم جمال باشا رؤوس الحركة القومية التحررية. تحدى وأعدمهم. أراد أن يكسر باقي الرؤوس. كان يشنق أو يطلق النار على الثوريين العاديين دون ضجة. أما الآن فالأمر يختلف. الزهراوي والعريسي والإنكليزي وغيرهم أعدمهم بعد محاكمة صورية. فأشاع الرعب والهلع مع الجوع والمرض. أي نضال يمكن أن يقوم في هذه الأيام؟ الخوف هو المانع، فلا يمكن أن تناضل مع أناس خائفين. تذكر صالح. كان قد اجتمع مع عدّة عمال من سكّة الحديد. أخذهم إلى بستان، وقعد يثورهم. طلب منهم أن يعوا أهمية النضال ضدّ الأتراك والألمان، وضدّ الإقطاع المتعاون معهم. أعجبتهم أفكاره. قالوا له إنّه يتكلّم زين، ولكنهم يعيلون أسرهم عديدة الأفراد، ولذلك فإنّهم لا يستطيعون الانخراط في أيّ حركة تساهم في طرد الأتراك، وقال أحدهم، وكان في خريف العمر: أنا خائف يا أخ. وقال آخر: اتركنا في سلام. الحياة رغم كل المصاعب والأمراض والمجاعة، حلوة.

إلا أنّهم كانوا، كلّما التقوا بصالح، يرحّبون به، ويسألون عن الأخبار. كانوا يصدّقون ما يقوله. يثقون به. وعندما أخبرهم، مرّة، أنه هارب من الجندية، وأنه كرّس حياته للنضال ضدّ الظلم والعبودية أحبوه أكثر، حتّى أنّهم أعطوه مرّة، قمحاً مسروقاً

كان يشحن إلى ألمانيا.

قال الأستاذ أخيراً:

– عندنا من نعتمد عليه. ولكن لا يمكن أن ننهض إلا بعد حدوث معجزة. معجزة تفجر قنبلة من الأمل في سماء هذا الليل الدامس.

ثمّ قاما بوضع قائمة بالأشخاص الذين سيقوم صالح والآخرون بالاتّصال بهم باستمرار، وجعلهم مرتبطين بالحلقة، حتى وقت حدوث تلك المعجزة.

ودّع الأستاذ، وخرج. ألقى نظرة وهو يجتاز الحوش نحو باب غرفة زينب. كان مغلقاً. أسرع الخطا، وهو يتلمس بأصابعه خده، حيث لمست شفتا زينب بشرته، وكأنه يخاف أن يفقد أثر القبلة. صفق الباب. إلا أنه تناهى إليه صوت زينب البعيد، من داخل الحوش تصيح: صالح... صالح...!

(15)

ركب صالح بغلته الشهباء وانطلق بها نحو الوضيحي. كان الفجر هادئاً والسماء صافية. نجمة الصباح مازالت تشع إلى جانب القمر الذي فقد بريقه، وأصبح باهتاً.

غذّت البغلة السير بعد أن نكشها صاحبها. كان يجربها، فعندما اشتراها من سوق الجمعة كانت ضعيفة، إلا أنّه علفها جيداً. استطاع أن يشتري رطلاً من الشعير المهرب المحصود حديثاً. كما اشترى كيساً من التبن. ومن سوق الجمعة أيضاً، حصل على جلال جيد غير ممزق بسعر بخس. فالناس في هذه الأيام تبيع كل شيء وبسعر هزيل من أجل إطعام أنفسها.

الفلاح الذي باعه البغلة، حلف له أيماناً غليظة، أنه يبيع بغلته لأنه لا يملك ثمن علفها. هذا صحيح. لقد صدّقه. أما بائع الجلال فلم يحلف ولا شيء. كان مظهره يوحي بصدقه. لقد ماتت بغلته من الجوع في الشتاء الماضي، وها هو الآن يبيع جلالها. لقد عرضه للبيع سبع عشرة مرّة. وفي كل مرة كان يحمله على ظهره، وينطلق به إلى سوق الجمعة، ولم يكن أحد يبتغي شراء جلال. قال له: لا تناقش. خذ هذه وأعطني ما أردت.

أخذ الجلال ونقده قرشاً فضياً. ما هذا يا ابن الحلال؟

- ماذا تريد ألا يكفي قرشاً فضياً؟

فقال له البائع: أنا لا أقصد ذلك... ولكنك أعطيتني الكثير. قرشاً كاملاً الله يرزقك، ويحسن إليك...

أخرج صالح كيس تبغه وهو مستريح على ظهر بغلته، إلا أنه أعاده إلى جيبه. لن يدخن الآن. كان يحسّ بألم الجوع في معدته. لم يفطر بعد. وعليه أن يستمر في استنشاق هواء هذا الفجر الحزيراني الجميل. وكان يستشعر رطوبة لذيذة على بشرته، فكل السهوب والمنحدرات قد اخضوضرت، وراح الجوّ يعبق برائحة العشب والزعتر وأزهار الكرز.

قبل الوضيحي بقليل قابل الحارس في نفس المكان. إنه حارس سكّة الحديد.

– صباح الخير أيها الحارس المحترم.

– صباح الخير يا صالح... خير إن شاء الله. منذ مدّة طويلة لم نرك.

– هذه هي حال الدنيا. لقد فطس الجحش.

– مبروك عليك بغلتك الجديدة.

– هل توصي شيئاً؟

– قطعة من الجبن يا أبو حسن. الله يخليلنا ياك ويرزقك ابنة الحلال يا رب.

– انتظرني. سأعود بعد ساعة.

رحّب به حراس آخرون، وطلبوا منه أشياء أخرى. انحرف عن السكة، وراح يصعد منحدراً إلى الشرق.

صعدت البغلة المنحدر بيسر. في الماضي كان ينزل عن الحمار حين يصل إلى المنحدر. ربّت على رقبة البغلة، وحدثها:

– عفارم عليك يا شهبا (هكذا سمّاها) يبدو أنّ دماً قبرصياً يجري في عروقك.

اجتاز طريقاً ترابية سحقتها الأقدام والحوافر. كانت تتوسط البساتين. لاحظ أن كثيراً من الأشجار التي قطّعها الجيش قد عادت إليها الحياة، فنبتت من قرمها أفرع دقيقة. بصق ثمّ أطلق شتيمة نابية بحق شرفهم، وهو يدخل بستان أبي زهرة.

كان البستان يعود لأبي زهرة. صاحب الأربعين عاماً والذي لم يرزق بصبي رغم إلحاحه الشديد لزوجته كي تلد له صبياً. كان يتهمها بقصورها. فقد ولدت له حتى الآن خمس بنات. أولهن زهرة، فكني بابنته البكر. إلا أنّ البنات كبرن وأصبحت زهرة وأخواتها يعملن في الحقل، فأصبح أبو زهرة مقلاً في اتهام زوجته.

في أحد الأيام شاهده صالح وهو يضرب زوجته:

– ماذا دهاك يا أبا زهرة؟

– إنها القحبة الكبيرة.

– ماذا عنها؟

– إنها حامل. خمسة أشهر ولا أدري. لقد خدعتني.

– وماذا في ذلك؟ مبروك. إن شاء الله ستلد لك صبياً.

فقال أبو زهرة، وهو يرمق صالحاً الذي هبط عليه في غير وقته:

– صبي؟ الله يسمع من فمك. ولكن أنا أعرف ما عندي. ستأتي السادسة. والله عندي إحساس بذلك. هل هذا وقته؟ إنها مثل القطط، ما أن تنكحها مرة حتى تحمل.

– طوّل بالك يا أبو زهرة، إنها امرأتك على كل حال.

فقال وهو يوجه كلامه إلى زوجته المتكورة على الأرض:

– والله إن ولدت بنتاً، فسأتزوج عليها صورية ابنة مصطفى وسأحرق قلبها...!

وما إن دخل صالح بستان (أبو زهرة) حتى سمع صوته العالي الوتيرة يرحب به. كانت تبدو عليه السعادة، والحال الجيدة.

– ماذا حدث؟ أراد على حال ممتازة.

– أحزر يا أبو حسن.

– وكيف سأحزر؟ ... هل زوجت إحدى بناتك؟

قهقه أبو زهرة بصوت جهوري. ربت بقوة على كتف صالح وعلى كفل البغلة.

– أنت مزوحي يا ابن العم... رزقني الله صبياً... ها ... ها ... ها...

راح يسعل من الضحك. عانقه صالح، وراح يرفعه في الهواء. تركه يسقط على الأرض، ثم رفسه على إليته. كانت عينا أبو زهرة تدمعان من الضحك المتواصل. لم يره صالح سعيداً بهذا الشكل من قبل. هكذا إذن يرحِّب بالصبي عندما يلد. إنه شيء فريد. لقد جلس بين فخذي زوجته عندما كانت تلد. حتى القابلة العجوز طردته. إلا أنه أبى أن يخرج. كان يريد أن يرى ذلك الشيء بين فخذي المولود. قرأ سورة الرعد كلها، وعندما خرج رأسه أولاً راح يعض على إصبعه وهو ينتظر خروج الوسط. أمرتها القابلة أن تستمر في الضغط هيا... أقوى!، فضرطت زوجته من عزم الضغط إلا أنه لم يأبه لذلك. وبعد نصف لحظة شاهد جذر عضو الذكر للمولود. فصاح بصوته الذي يشبه انفجار القنابل: ولد... ولد. ثمّ راح يرقص، ويقذف نفسه في الهواء، وبقي يشرب، دون وعي، عصير العنب المخمر ثلاثة أيام بلياليها احتفاء به.

تذكر صالح أحمد ابن عمر بنبوك فتوقف عن المزاح مع أبي زهرة.

جلسا على مقعد خشبي تحت شجرة جوز، وراحا يتحدّثان. كان أبو زهرة يصغي جيداً إلى صالح. فحدّثه عن آخر أخبار الحرب، وعن آخر عملية إعدام حدثت في بيروت ودمشق وعن المجاعة الرهيبة والمرض الذي ظهر حديثاً والذي

راح يقتل الرجال والنساء والأطفال. ثمّ قال له:

– لا خلاص لنا إلا بخروج الأجانب من بلدنا، أما من ناحية الحرب فنحن لن نحارب أحداً، بل سنصادق الجميع. لقد ذقنا ويلاتها. ولماذا؟ أقول لك يا أبا زهرة: ليس لنا مصلحة فيها.

– هذا صحيح . قال أبو زهرة . ليس لنا مصلحة في الحرب، ولكن متى تقف؟

– الله أعلم. سنة... اثنتين... عشر سنين؟ ... لا أعلم. هذا يتوقف على المنتصر. ولكن ... هناك حل.

– قل... ما هو؟

– إذا استطعنا إخراج الأتراك والألمان من بلادنا بأنفسنا، فإنّ الحرب ستنتهي بالنسبة إلينا. الباب العالي العثماني في الأستانة هو الذي أعلن الحرب على الإنكليز، أما نحن فلم يسألنا أحد.

– هذا صحيح يا أخ صالح. ولكن هل لدينا القوة؟ الأتراك عندهم سلاح.

– نعم . قال صالح بحزم . في المستقبل. عندما ننهض، ونخلع ثوب الخوف والهلع. نستطيع أن نطردهم. أما الآن فكل الناس خائفة. لا أحد يريد أن ينبس بكلمة، وهذا في رأيي حالة مؤقتة.

– مؤقتة؟ لماذا؟

– لقد أصاب الأتراك الإنهاك. وإعدامات ستة أيار فش خلق وإعادة أخيرة للهيبة وبث الهلع في نفوس الناس. ولكن الرجال نزحوا إلى الجبل، رجالنا. ويقولون إنهم يحصلون على السلاح. وسيأتي يوم معين ينزلون فيه من الجبال إلى السهل، والمدن والقرى، لطرد الأتراك والألمان وأعوانهم الباشوات.

تبسّم أبو زهرة. مسّد على شاربه، وقال:

– هذا كلام جميل، يا أبا حسن. سأنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر. أنا لا أنسى أنهم قاموا بقطع نصف أشجاري ليحرقوها في قطاراتهم المشحْوَرَة. والله العظيم... وأنا أقسم أمامك يا أبو حسن، بأنني سأفجر قطاراتهم وسكتهم بالبارود. هذا إن بقيت حياً. قل إن شاء الله!

فقال صالح متفاجئاً:

– إن شاء الله...

مُدَّت السفرة أمامهم، تحت شجرة الجوز، قامت زهرة ذات الاثني عشر ربيعاً باللازم. ثمّ قام المضيف بإحضار قنينة من عصير العنف (هكذا كان يسمي أبو زهرة النبيذ). جعلا يأكلانّ ويشربان. شربا نخب المولود ونخب البغلة شهبا ونخب التحرر من الأتراك. بعد قليل أحضرت زهرة قنينة ثانية، بناء على طلب والدها.

قال صالح بعد أن كرع كلّ ما في طاسته الفخارية:

– لقد عودتني على هذا المشروب أيّها اللعين.

فقال أبو زهرة وقد ثقل لسانه:

– اشرب. عليك أن تتعلم كلّ الآثام... في بستاني هذا لا وجود للحرب أو للمجاعة.

– إنّني أحسدك يا أبو زهرة.

ثمّ سأله بعد قليل:

– ماذا سميت الولد؟

– مهيار.

– يا لك من إبليس. إنه اسم جميل.

قهقه أبو زهرة، ثمّ قال:

– هل تعلم؟ ... بعد ولادة الصبي، قابلت مصطفى، والد صورية، كان متجهماً. قال لي بنصف فمه، مبروك عليك الصبي يا أبو زهرة. كان يتقطع من القهر، فقد خسر زواج ابنته بسبب ولادة الصبي. أنا، ضحكت، قلت له: عقبال عند بنتك صورية يا مصطفى. فبصق بلغماً كبيراً، ثمّ قال: من أين يا سيدي؟ مادامت قاعدة عندي. ها ... ها ... ها.

وفي اليوم التالي، قابلت صورية نفسها. هل تدري أين؟ في بستاني. إبليس يعلم ماذا كانت تفعل هناك. ولكنها كانت جميلة جداً. كانت تسير متمهلة تلعب بجديلتيها. اقتربت منها ومسيت عليها. قالت لي: كيف حالك يا أبو زهرة. هل أنت مبسوط؟ أصبح لك صبي. فقلت لها ولا يهمك سوف ينطلق نصبيك قريباً إن شاء الله. خجلت فأطرقت رأسها في الأرض. يا لها من فتاة شهية، أمسكت يدها فلم

تمانع. بل راحت تفرك يدي. قلت لها كنت أريدك على سنة الله ورسوله، ولكن... لم يعد ذلك في الإمكان. فقالت بعد أن استدارت وجعلتني خلفها: لم يكن عندي مانع. فقلت لها: إن امرأتي نفساء، وأنا أشتهي، ما العمل؟ فقالت: تعال اليوم إلى بيتنا بعد العشاء بساعة، سأشعل شمعة في غرفتي كي تستدل علي. والدي سيكون في سابع نوم.

بعد العشاء بساعة، حملت خنجري، وتعطرت بزيت الورد. ليس عندهم كلب، فلم تحدث ضجة حينما وصلت إلى صحن بيتهم. دفعت الباب بهدوء، فتجاوب معي، فأبصرت بصيصاً ينير لي من إحدى الغرف، فعرفت أين هي. ذهبت إليها، ودلفت إلى الغرفة. كانت مستلقية على فراش ممدود على الأرض ومتدثرة بلحاف رقيق. همست لي، أغلق الباب! أغلقته، وسحبت الدرباس.

اقتربت من فراشها، وأنا ألهث. كنت مبهوراً، جاحظ العينين، غير مصدق الذي كان يجري. أخرجت يدها العارية من تحت اللحاف. أمسكت يدي وشدّتني إلى الأسفل. قعدت إلى جانبها. رحت أمسد على وجهها وشعرها. كانت جميلة، أجمل من نقوش قلعة سمعان. كان شعرها مفروداً على المخدة، وشفتاها منفرجتين بشكل أفقدني عقلي. أمسكت طرف اللحاف وقذفته عنها... يا الله يا أبو حسن... ماذا رأيت. لو كنت معي يا أبو حسن. كانت عارية كما ولدتها أمّها. أصابتني الحيرة فوراً. من أين أبدأ... كانت كل قطعة من هذا العاج تصيح عليّ بقوة. أطفأ صالح سيجارته بعناية، وقال:

– يا لك من إبليس يا أبو زهرة. فعلتها إذن.

جلجلت ضحكة أبو زهرة. تبعه صالح. كان يحسّ بدوار خفيف وخَدَر في جفنيه. تابع أبو زهرة حديثه الشيق، ثمّ أخبره أنه يقابلها كلّ يوم. لقد أصبحت عشيقته. كل يوم تشعل له الشمعة. كلّ يوم يعصر جسدها، ويرتوي منه. لو كان لها أخت لعرفتك عليها يا أخي أبو حسن ولكن ليس لها أخت. وفي كلّ هذه الدنيا، لا مثيل لها. إنني سعيد... كسبت ولداً وعشيقة في آن معاً. ران صمت على شجرة الجوز. كان أبو زهرة مستلقياً على ظهره.

– قل شيئاً... لماذا سكت؟

لم يأته جواب. تطلع إلى وجهه. كان أبو زهرة نائماً. فنهض صالح. حمّل الحطب على البغلة، ثمّ استلم من أم زهرة بعض الخبز والجبن وقطعة لا بأس بها من لحم جدي الماعز، ثمّ انطلق عائداً إلى حلب.

أفرغ حمولة الحطب في حمام أبي إلياس، ثم قعد وإياه يتناقشان حول ثمن الحمولة الواحدة. كانت حمولة البغل تعادل ضعف حمولة الحمار، ثم إن الحطب أصبح نادراً ولولا أبو زهرة لما استطاع أن يأتي بغصن واحد. فقال أبو إلياس:

– والحمّام أيضاً حالتها تعيسة. فكرت مئة مرة في إغلاقها. إلا أن بعض الضباط الأتراك والقائم مقام الذين يأتون إلي، منعوني من إغلاقها.

– وما هو ذنبي أنا يا أبو إلياس؟ إنني أعيل نفسي وعائلة ابن عمي وحماته.

فقال أبو إلياس، وقد استبد به الغضب:

– حسناً.. حسناً. أنا أعرف أنك محتاج. سأعطيك ثلاثة قروش فقط. اذهب الآن واغتسل؟

صفا ذهنه بفعل الماء الحار. وتوقف الدوار البسيط الذي كان يشعر به جراء شرب النبيذ. خرج من بيت النار والتف بالقماطات ثم غفا على المصطبة.

استيقظ على أصوات زبائن أبي إلياس. كانوا من الأتراك. كانوا يتناقشون بصوت عال وهم يتضاحكون. راح يرتدي ثيابه بهدوء، دون أن يأبه لهم. وعندما انتهى لمح أحدهم، وقد ارتدى بدلة عسكرية رفيعة المقام، وهو يعاينه. قال له الضابط:

– نحن نعرف بعضنا أيها الأخ... أليس كذلك؟

سكت الجميع، وراحوا يراقبونه. هو، لم يعرف الضابط. وجهه غير مألوف . من أين يعرفه هو؟

رفع كتفيه، وقلب شفته السفلى، فسمع الضابط يقول:

– ولكني أعرفك جيداً.. أنت لاعب شطرنج أليس كذلك؟

استبدّ به الخوف من هذا الضابط. ماذا لو عرفه، وألقى القبض عليه؟ فلم ينبس بحرف.

– ماذا تعمل؟

- أنا حطاب يا سيدي.

أيده أبو إلياس. قال إنه يبيعه الحطب من أجل الحمّام.

- أنت حطاب الآن، ولكنك كنت جندياً.

قال الضابط، ثمّ استطرد:

- لقد جلبك العقيد زهدي معه من بغداد، ولكنك هربت منه بعد ذلك. ألا تذكر حادثة فندق بارون؟

ران الصمت على الحمّام. راح الجميع يراقبون ما سيحدث. رأوا إلى وجه صالح الذي اصفرّ من فعل المفاجأة. لقد وقع في الفخ . قال في نفسه . الآن سيقبضون عليه. كيف حدث وقابل أحد الرجال الذين كانوا حاضرين في تلك الأمسية في الفندق؟ تباً لك يا أبا إلياس. حمامك خطرة.

قال وهو يتلعثم:

- هناك خطأ يا سيدي. أنا مجرد إنسان بسيط لا أعرف الشطرنج أو غيره، ولم أعرف العقيد زهدي الذي تتحدّث عنه. هذا البلد كبير، ويخلق من الشبه أربعين.

نهض. هبط درجة إلى الممر واتّجه نحو الباب. أوقفه صوت الضابط، الذي ارتجت له أركان الحمام بفعل الصدى.

- قف. إلى أين أيها اللعين؟!

- ذاهب إلى بيتي أيها السيد الضابط.

- بل ستذهب معي!

تطلع إلى أبو إلياس مستنجداً. نهض الأخير من خلف صندوقه، وقال للضابط:

- أيها السيد النقيب، اتركه أرجوك. بدون ستبقى الحمّام من دون حطب، وأنت تعرف جيداً معنى ذلك.

- اسكت أنت يا أبا إلياس. هذا الرجل هارب من الجيش، ولا يهمني حطبك وحمامك!

حاول الهرب. فتح الباب وركض. إلا أن النقيب والآخرين لحقوا به، وقبضوا عليه. قيدوه بحبل، ثمّ قادوه معهم إلى مبنى عائد للجيش في الجميلية.

وضعوه في غرفة مظلمة ورطبة بعد أن فكوا وثاقه. كان يموت من الحنق. راح يشتم ويسب. أيّ حظ هذا؟ كيف تذكره ذاك النقيب؟ لو لم يغف في الحمّام لكان الآن طليقاً. إلا أنهم سيرسلونه من جديد إلى العراق. أو قد يرسلونه إلى فلسطين كما فعلوا بخلوق أفندي.

تذكر أم ربيع وبهية والأولاد. إنه يطعمهم. يعمل كي يعيلهم. ماذا سيحصل لهم من دونه؟ وزينب؟ هذه الفتاة الناعمة، كيف يمكن أن يعيش وهو بعيد عنها، دون أن يراها، ويحسّ بإشعاع براءتها. إنّه يحبّها، رغم أنه يكافح من أجل أن تكون سعيدة، وسعادتها ليست معه. الحب يعني أن تتمنّى للمحبوب السعادة، وسعادتها مع الأستاذ خلوق. صالح يحبّها، وخلوق اكتشف أنه يحبّها، وهو يطلب إليها أن تنتظره. لقد خطبها في رسالته، وقد أعطاها الرسالة. قرأتها إلا أنّه لا يعرف حتى الآن على أيّ حال هي زينب. هل أسعدتها الرسالة. إن صالحاً متأكد من ذلك، رغم أنه قد تحاشى معرفة ذلك. في نفسه شيء يحاول الهرب من هذه المعرفة. يكفيه أن يراها سعيدة، ضاحكة. يكفيه أن يرى إلى ابتسامتها الأنيقة.

كان يريد أن يحميها. أن يردّ عنها كلّ مساوئ هذه الأيام السوداء. إنها تستأهل أكثر، ولكنهم قبضوا عليه. لقد استهتر صالح. راح يخرج إلى الشارع. ويسافر إلى الوضيحي وكأنّ شيئاً لم يكن، وها هم الآن يجعلونه يدفع ضريبة ذلك. ماذا سيحدث له؟ سيان... إنه لا يأبه، لقد قام بواجبه إزاء كلّ هؤلاء الناس الذين ربطوا مصيرهم بمصيره. هم لن يموتوا، أما هو فلن يأبه. طظ... فليمت ألف طظ... اللعنة!!

استلقى على البطانية التي كانت تفوح بشتى روائح القذارة. أشعل سيجارة كي يطرد عنه الشعور الطاغي بالغثيان، ثمّ سمع صوت خربشة جرذ وهو يركض إلى جحره. لم لا يشعلون شمعة؟ تباً لهم، سينكحون أمّك يا صالح!... لقد بحثوا عنك طويلاً حتى ملوا. أما الآن، فقد وجدوك صدفة. وأين؟ في حمّام برهم باشا، حمّام أبي إلياس. عليك اللعنة يا أبا إلياس. أنت رجل طيب ولكنّ حمّامك فاسدة. موبوءة. كان على صالح أن يكون أكثر حذراً، فاتحاً عينيه جيداً. ليس من أجل مصلحته فقط، بل من أجل كلّ هؤلاء الناس الذين يطعمهم ويخبئهم، ويناضل من أجلهم.

من يعمل في السياسة سيختفي يوماً من الأيام، هذا قول زينب. ولكنهم لم

يقبضوا عليه من أجل السياسة، بل لأنه هرب من العقيد زهدي، من الجيش، هذا يبشر بالخير أولاً. سوف يضعون قدميه في الفلق، وسينهالون عليه ضرباً حتى يتعبوا، ثمّ... هيا إلى الجبهة من جديد... هذا ليس سيئاً. أما لو علموا أنه في الحلقة الاشتراكية، وأنه صديق الأستاذ خلوق والأستاذ عبد الجليل الشلاح، فإنهم سيعذبونه بشكل أقسى، وأكثر، ثمّ قد يعدمونه. قبل ذلك سيطلبون إليه تسليم عبد الجليل الشلاح... كلا... لن يسلّمه، حتى ولو هددوه بالذبح. هذا العمل ليس من شيمه. قال ألف طظ.. فليمت، ماذا بقي له؟ ابنه حسن في حالة جيدة. سيشبع من أم ربيع والآخرين أو سيموت معهم من الجوع. وفكرية ماتت. مثل حيوان حقير ماتت. ماذا يهم بعد ذلك إن عاش أو مات. تباً لهكذا حياة إن خان أو جبن. وزينب...؟

سمع صوت قرقعة المفتاح في القفل. فتح الباب فعمّ الضوء غرفة السجن. وضع الحارس صحناً، وترك الشمعة، ثمّ قال:

– قوم يا ابن الكلب. هذا عشاؤك.

امتلأ صدره بالغيظ. يا لهذا الحارس النكرة، فأجابه:

– اسمع أيها الدركي الحقير، إن قلت نفس الكلام مرة أخرى، سأقطع لسانك. هل فهمت أيها النذل؟

فقال الحارس:

– سوف ... أري!!

فقاطعه صالح:

– ماذا ستريني أيها البندوق؟ أنت لا تساوي فلساً. أنت وسلاحك وهيئتك، لا تساوون قرشاً. اذهب من هنا... أغلق الباب... عليك اللعنة يا ابن الخنزيرة!!

أغلق الحارس الباب بقوة، فانطفأت الشمعة. أعاد صالح إشعالها بالثقاب، ثمّ جذب الصحن نحوه. حبة بطاطا مسلوقة. هذا كل شيء. من دون ملح، ومن دون ماء. التقطها، ووضعها في جيب سترته. سيلتهمها فيما بعد، حينما يشعر بالجوع. أما الآن فهو يخاف من الجرذان أن تلتهمها.

لم يتذكر هل نام، أم لا؟ إلا أنّ ضوء النهار الباهت تسرّب من تحت الباب. ليلة كاملة في السجن، فكّر خلالها بكلّ الناس الذين عرفهم، وبكلّ هذه العلاقات

التي شيدها. هل أخطأ مع أحد؟ مع بهية؟ مع زينب؟

علاقته بالحلقة الاشتراكية؟ ما بها؟ هل أصاب؟ هل هذه هي طريقه التي تبناها وأراد أن يسير عليها في حياته؟ وفجأة أحس بسعادة تنمو في أحشائه. أصبحت الحلقة جزءاً من كيانه. لقد وجد معنى لكلّ شيء. أما أن لا تجد معنى أو تفسير لأيّ شيء فهذا هو الموت. إن نزعة التغيير التي تملّكت حياته، من خلال الحلقة، زادت من عنفوانه، جعلته إنساناً آخر، لا يُهان ويُضرب ولا يُساق كالبهائم. إنسان ذو لحم مر لا يؤكل.

فتح الباب مرّة أخرى. دركي آخر مع صحن آخر. سمع الحارس يقول:

- مرحباً. هل تحتاج لشيء. أتيتك بالفطور.

- أين المرحاض؟ أريد أن أتغوط.

- تعال معي!

نهض وسار خلف الدركي. كان في الخمسين، أشيب الشعر، محني الظهر قليلاً. أدخله في المرحاض، ثمّ راح يتمشى في الممر حتى يفرغ، بعد ذلك، ساعده في غسل يديه بالماء. سأله صالح وهما عائدان إلى الزنزانه:

- كم الساعة.

- العاشرة.

- ماذا ينتظرون؟

- لم أفهم.

- أقول إلى متى سيبقوني هنا؟ الجوّ خانق.

- ما هي تهمتك؟

- هارب من الجيش... فراري...

- قد يبقونك يوماً أو اثنين، ثمّ يرسلونك إلى إحدى الثكنات.

- هذا شيء بسيط.

- هذا غير العلقة التي ستأكلها في الثكنة. ثم ... (أشار بيده) إلى الجبهة.

- هل أستطيع أن أرسل خبزاً إلى أهلي؟ سأمنحك قرشين.

- طبعاً، قل العنوان!

إلا أنه لم يقل العنوان، فقد سمعا وقع أقدام على السلم، وقبل أن يوصد الدركي الباب على السجين، ظهر النقيب مع أحد الرقباء. جهر النقيب بصوته سائلاً:

- ماذا تفعل مع السجين؟

- لقد أراد الذهاب إلى المرحاض.

- افتح الباب.

ملأ النقيب بجسده فتحة الباب كلها. أمر صالح قائلاً:

- هيا انهض!

نهض صالح. مشى نحو النقيب، ثمّ خلفه، وصعد السلم.

أجلسوه على كرسي من خشب أمام أحد المكاتب. كان هناك جهاز هاتف يرن في بعض الأحيان. قدّموا له القهوة، ثمّ لفّ له الرقيب سيجارة، وأشعلها له. تحدّث النقيب بالهاتف، فسمع صالح حديثه:

- إنه هنا... إلى جانبي... بعد نصف ساعة... ساعة؟ حسناً. إلى اللقاء سيدي.

بادره صالح فور وضعه السماعة:

- إلى أين ستأخذونني إن شاء الله؟

- هذا ليس شغلك. أجابه النقيب بحدة.

صمتا لحظة، ثمّ قال النقيب بلطف:

- اسمع يا أخ... اسمك صالح أليس كذلك؟ حسناً. هل تذكر مع من لعبت دق الشطرنج في فندق بارون؟ إنه سيد أمير آلاي. سوف نذهب إليه. لقد علم بوجودك هنا هذا الصباح، فتأسف كثيراً لأنّك نمت هذه الليلة في السجن، فأنت إنسان ذو قيمة، وسيدي أمير آلاي يحبّ كثيراً أصحاب المواهب أمثالك. نحن نعلم أنك أغظت العقيد زهدي، وخسرت الدق مع سيدي، فأخطأ العقيد زهدي في حقّك. تصور، لقد مكث هنا عشرة أيام، وهو يبحث عنك. كاد يجن لأنّك هربت. أمّا الآن فأنت ملك لسيدي أمير آلاي.

- أنا لست ملكاً لأحد.

- حسناً... أنت لست ملكاً لأحد. ولكن سوف تتصرّف بلطف وعقل مع

سيدي. هل فهمت؟ إياك أن تظهر شذوذاً، واترك عنك نفسيتك العربية أمامه.

هذا النقيب يطلب إليه أن ينزع عنه قميصه أيضاً. قميصه الذي يعتز به. جلدته التي لا يمكن أن ينتزعها عن لحمه أبداً. يا لك من أحمق أيها النقيب. إلى متى ستبقون أغبياء؟

أركبوه حنطوراً يجرّه حصان واحد. أخذوه إلى مبنى القيادة القريب، ذي الطابق الواحد. جلس والنقيب في غرفة تتصل بغرفة الأمير ألاي بباب آخر. كانت تسمع، عبر الباب، أصوات ثخينة ورخيمة لضباط كبار. كانوا يتناقشون في أمر واحد، الاستيلاء على المزيد من الحبوب وإرسالها إلى الأستانة. هناك أوامر واضحة ومشددة. الجيش جائع، إنه بالوعة الأوطان. جيش السلطان، وجيش الألمان... وجيوش العالم كله. المتقاتل بقسوة لا ترحم. تذكر قول الأستاذ خلوق "إنها حرب الدول البرجوازية للسيطرة على الأسواق. أما وقودها فهو الشعب الجائع والشعوب المقهورة والمضطهدة والمستعمرة". حسناً يا خلوق، كلامك صحيح. فكلّ الشواهد تؤيد كلامك، ولنر ما يريده هذا القائد الحربي الكبير...

فتح الباب، فخرج عدّة ضباط من أصحاب الرؤوس الشائبة والبطون المتضخمة، وهم يحملون على أكتافهم وصدورهم نياشين وإشارات ملونه ومتنوعة.

نودي عليهما فدخلا. كان هناك مكتب كبير وفخم في صدر الغرفة. جلس وراءه نفس ذاك الرجل المهيب ذي الأيدي البيضاء، وكان ثمة سجادة ممدودة على أرض الغرفة وكثير من المقاعد الجلدية، وصورة كبيرة للسلطان رشاد.

نهض الأمير ألاي فاتحاً ذراعيه بحركة آلية اعتاد عليها. انتقل إلى أمام المكتب، ثمّ وضع يده على كتف صالح، كعادته أيضاً في التودد حين اللزوم، ففاحت منه رائحة محببة إلى النفس. كان نظيفاً، حليقاً مقلم الأظافر. كان لطيفاً كفتاة.

أقعده الأمير آلاي على مقعد جلدي، ثمّ عاد وجلس خلف مكتبه. طلب إلى حاجبه إحضار القهوة والسجائر، ثمّ راح يتحدّث مع النقيب حول ظروف سجن صالح. ثمّ استدار نحوه، وقال بتودد:

– أرجو أن لا تكون قد أوذيت أثناء القبض عليك ووضعك في الحجز.

حرك صالح يديه أن لا معنى للأسف وهو يبتسم للقائد، فتابع الأمير آلاي وهو

يغمز بعينه:

– لم يعد موجوداً العقدي زهدي، فلا تخف. نحن نختلف. ماذا تعمل هذه الأيام؟

– إنني حطاب يا سيدي. أبيع الحطب كي أتسبب.

فقال القائد وهو يطق بلسانه أسفاً:

– ياه .. إنها صنعة متعبة وليست لأمثالك. هل تريد أن تعود إلى الجيش؟ سأقترح عليك مكاناً مريحاً، هنا عندي، سأجعلك كاتباً في مكتبي كي تكون بقربي.

فقال صالح بحدة:

– كلا... فأنا لا أريد العودة إلى الجيش. أنا لا أفهم هذا الجيش. ثمّ إنني لا أحبّ القتل والحروب. أرجوك أيها القائد، أبعدني عنه.

قال الأمير آلاي وهو ينقر بأصابعه على المكتب:

– حسناً... ولماذا هذا النزق؟ الجيش... سنسرّحك منه. سنعطيك أمر تسريح دون العودة أبداً إلى الجندية، ولكن هناك أمراً آخر.

– قل ماذا تريد؟

– أعلم أنك لاعب شطرنج كبير، ورغم أنك خسرت أمامي في فندق بارون، إلا أنني مقتنع أنك تلعب بشكل فريد. لقد أعطتني ذاك الدق نكاية بالعقيد زهدي. المهم... أنت تعلم، نحن الضباط نحبّ أن نلعب هذه اللعبة. إننا نجتمع في الأمسيات كي نلعب ونتحادث، كما أنّ الضباط الألمان وبعض القناصل الأجانب يجتمعون معنا.

فقال صالح وهو يرشف قهوته:

– هل أفهم، أنكم تطلبون إليّ حضور هذه الحفلات؟ بمثابة ماذا؟

– كنت أودّ أن تحضر بمثابة مساعد لي. أمّا الآن فأنت لا تريد العودة إلى الجندية. علينا أن نجد لك عملاً مدنياً. هل تستطيع القراءة والكتابة؟

– نعم.

– سنجعلك كاتباً لدى البلدية. هذا هو حظنا يا صالح. أنت تكرهنا، نحن العسكريين.

– أنا لا أكره شخصكم يا سيادة القائدة. كل إنسان تعبّر عنه أفعاله.

– حسناً، عندي طلب، عليك أن تبدو مهذباً ونظيفاً. اذهب الآن مع النقيب، سوف يقوم بكل ما يلزم من أجل وظيفتك في البلدية. حسناً... لا تقاطعني، سوف يقوم أيضاً بكتابة أمر التسريح إلى الأبد من الخدمة. سوف أوقعه. إلى اللقاء الآن!!

خرجا... حتى الظهر كان كلّ شيء جاهزاً. حصل على وظيفة كاتب في البلدية، وعلى قرار تسريحه من الخدمة ممهورة بعدة تواقيع وأختام. ما أظرفهم هؤلاء الضباط.. ما إن يتعلق الأمر بوجاهتهم وافتخارهم حتى يؤمنوا لك كلّ شيء. حتى الممنوع يصبح فجأة مرغوباً. على أقل تقدير، كان يتوقع إرساله إلى إحدى الجبهات. هكذا كان يحسب في الصباح، أمّا عند الظهر فقد أصبح موظفاً لدى الحكومة وشخصاً مرحّباً به على أعلى المستويات. ماذا سيقول الأستاذ عبد الجليل؟ هل سيرحّب بالأمر أم أنّه سينهيه عن ذلك؟

ذهب ماشياً إلى سوق الجديدة. إلى حمّام برهم باشا. قعد إلى جانب أبي الياس الذي عانقه، ثمّ حكى له ما قد جرى. قال أبو الياس، وقد جحظت عيناه:

– أنت تتكلّم الصدق. أرى ذلك في عينيك. ولكنني لن أصدقك.

– حسناً يا أبا الياس، لا تصدق، ولكن أين البغلة؟

ركب بغلته. ربّت على رأسها، ثمّ اتّجه نحو بيت أم ربيع.

(16)

لم يعد ربيع ذاك الولد الوديع والمدلل. لقد أصبح رجلاً. ربيع الأمس لم يعد له وجود. فكرت الأم وهي تراقب ابنها الذي كان يقوم بتصليح بعض الأبواب الخشبية التي لحقها السوس واهترأت. كان قد جمع حوله الأولاد، وراح يفكّ العوارض الخشبية ثمّ يعيدها بشكل أمتن. كانوا ينتظرون منه أيّة إشارة، ليركضوا، ويقدموا له المساعدة.

وعندما كان يعمل، كانوا يتحلقون حوله، ويراقبونه بأعين متطفلة لا تشبع. كان يراقبهم بطرف عينه، ويشعر بلذة حينما كانوا يركضون ليحضروا له ما يطلب، وعندما انتهى من أعماله، استلقى في ظلّ شجرة التين البري الوارف. قرفص الأطفال حوله، وراحوا يرجونه كي يحكي لهم حكاية عن الحرب.

ابتسمت بهية، وقد رأت إلى الأطفال كيف ينصتون لحكايات الخال ربيع. ونهرتهم:

– هيا. اتركوا خالكم يستريح. اذهبوا والعبوا في مكان آخر...!

إلا أنهم لم يأبهوا لها.

كانت المرأتان تعملان منذ عدّة أيام في تخزين المواد التي اشتراها ربيع. فبليرة ذهبية واحدة، ابتاع عدّة شنابل من الطحين والبرغل والعدس. كما ابتاع كمية كبيرة من الزيت والسمن والجبن وعدّة أرطال من اللحم والملح وبن القهوة والتتن. لن يجوعوا بعد الآن. هكذا أراد ربيع، فقد خزّن من المواد ما يكفي لسنة كاملة. كما أنه نصح العجوز كي تفرز شيئاً لصالح، وعندما أرادوا وضع الطحين في حاصل المطبخ، وجوده مليئاً بكتب أجنبية غير مفهومة، فقام ربيع، وأخرج الكتب التي عرف من بهية أنها تعود لأحد أصدقاء صالح، ثم وضعها في إحدى السقائف.

كان السكان في السوق الصغير وباب الحديد واغيور قد انبهروا مما شاهدوا في ربيع من عز. ففي بادئ الأمر، راحت النساء تلوك الأحاديث حول عودة ابن علي الزيات بعد أن أشيع أنه مات. ثم راحت بعضهن يطرقن الباب كي يسألن عن أزواجهن أو أولادهن الذين أُخذوا إلى الحرب. وعندما كان يخرج من البيت ويسير في طريق الماوردي كن يصعدن إلى الأسطحة ليلقين عليه نظرة لا تخلو من تنهدات

وعض على أطراف الملاحف.

وفي كثير من الأحيان كانت تستوقفه إحدى النساء الجريئات أمام باب بيتها، وتروح تستجوبه حول هذا الأمر أو ذاك.

ماذا حدث يا أبو علي؟ إلى متى ستستمر هذه الحرب؟

هل صادفت زوجي محمود؟

لماذا لم تأتِ لزيارتي؟ تعال الليلة.

قل لي يا ربيع، هل بدأوا يعطونكم معاشاً؟ أرى أنك قد عدت غنياً...

انظري... انظري يا جارة، سأبيع أطفالي مقابل ليلة مع هذا الرجل الوسيم.

إلا أن ربيعاً اعتاد أن لا يلقي بالاً. كان يسير مرفوع الرأس مشدود القامة يرد السلام على الشيوخ الجالسين على باب مسجد السليمانية وسوق الصغير. أو كان يتوقف قليلاً ليتحدّث إلى المتطفلين الذين كانوا يسألون عن كلّ شيء لربما أشبع نهمهم إلى معرفة أيّ شيء عمّا يجري.

كان مقهى أبو حسين قد أغلق منذ زمن، فلم يعد هناك كثير من الرجال يرتادونه ومع ذلك فقد فتح عنوة ونهب. وعندما خرج ربيع مرة كي يروّح عن نفسه، وجد المقهى مغلقاً، وقد بسمرت أبوابه الخشبية، فراح يرتاد مقهى أبو سلمو في ساحة باب الحديد. هناك... تعرف ربيع على الحاج صالح متعهد تقديم الخبز إلى الجيش.

كان الحاج صالح لا يزال محافظاً على مكانته، رغم كلّ ما كان يجري في البلد. كان محافظاً على جلسته مع أصحابه وأولاده، يرأس الجمع من دون منازع. ورغم أن رواد المقهى قد أصبحوا قلة، إلا أنه منع أبا سلمو من إغلاق المقهى. أين سيذهب هو؟ هل تريدني يا أبا سلمو أن أجلس في بيتي مع النساء؟ هل هذه هي مكانتي؟

– معاذ الله يا زعيم، ولكنني أخسر.

– حسناً سأشاركك. سأشتري المقهى، وستعمل فيه أنت على حسابي.

وهذا ما جرى. اشترى الحاج صالح المقهى من أبي سلمو بخمس ليرات ذهبية فضمن عدم إغلاقه، ولكنه رفض أن يسمي المقهى باسمه، فهذا لا يليق بمكانته العالية.

وعندما اقترب أحد الرقباء وجلس على كرسي على الرصيف المقابل، الذي ضمه الحاج صالح إلى مقهاه، طلب الحاج صالح من أحد أولاده الكثر أن يعزم الرقيب للجلوس معهم. لبى ربيع الدعوة. صافح الحاج وأصدقاءه، ثمّ جلس في مكانه من الدائرة، وراح يتلقى التحيات مرّة أخرى، من الجمع، كلّ بدوره.

عرّف بنفسه. إنه ابن البلد وابن الحي. ربيع بن علي الزيات، فعرف البعض والده. ومن لا يعرف الحاج علي الزيات رحمه الله؟ تاجر الزعتر الشهير. تحدّث الحاج صالح عن والده. كان مثال الاستقامة في التجارة . كما قال الحاج . ثمّ راح يسأل ربيع عن الجندية وعن الحرب. ماذا حدث في الجبهة الغربية؟ والجبهة الشرقية؟ روسيا انتهت أليس كذلك؟ آل هندبرغ سوف ينكحون أم القيصر .؟.. وإنكلترا؟ سوف يأتي دورها. لقد تبهدلت في العراق. وما إن ترفع رأسها في مصر حتى يبتر نهائياً... على كل حال بينهم وبين الأتراك صحراء سيناء. هناك سيضيعون، وربما ماتوا عطشاً. موسى عليه السلام تاه أربعين عاماً هناك، فما بالك الإنكليز. إنهم ليسوا أنبياء في كلّ حال!!

وفي اليوم التالي، راح الحاج صالح يُجلس ربيع إلى جانبه. جلبوا له كرسياً ذا مسندين ونرجيلة. الحاج صالح يحبّ معارفه المهمين ويحترمهم، وربيع رجل مهم، صف ضابط في جيش الأستانة العظيم. ثمّ أنه بطل، ألم يمنح وساماً حديدياً، ويرفّع إلى رتبة لا بأس بها مع أنه لم يلتحق بمدرسة عسكرية؟ ألم يأسر ضابطاً إنكليزياً مهما؟

وفي إحدى المرات راح ربيع يتحدّث أمام أمّه، ويكثر من الحماس عن صداقته مع الزعيم. اعتبره رجلاً مهماً، وراح يكيل المديح لشخص الزعيم وأفكاره. كان صالح موجوداً، وكانوا متحلقين حول السفرة يتناولون طعام العشاء. قال ربيع:

– إنني أحترم هؤلاء الرجال. إنهم عبارة عن سلطة ومال وعقل. وكيف لا تحترمهم وأنت تشعر كيف يعاملونك بكلّ تقدير؟ وأن أمثاله هم قلة في المجتمع، وعلى هؤلاء تقع مسؤوليات عظام.

– مثل ماذا؟

سأل صالح وقد توقف عن مضغ لقمته، فأجاب ربيع:

– قيادة الشعب. إن الزعيم يستطيع أن يقود ألف رجل بمجرد إشارة بسيطة من إصبعه.

– يقودهم إلى أين؟

– إلى أيّ مكان. إلى أيّ شيء. دون أن تسمع كلمة (لا) واحدة.

مسح صالح شفتيه بباطن كفه، ثمّ ابتعد عن السفرة. أخرج كيس تبغه، وراح يلفّ لنفسه سيجارة، وقال:

– لماذا تتحدّثون عن الشعب بهذه الطريقة. ألا يمكن قول ذلك بشكل آخر؟ إننا لسنا بهائم، نقاد بإصبع الزعيم. وإلى أين؟ طبعاً إلى الحرب. لو كنت يا ربيع جائعاً مثل باقي الناس لغيرت رأيك في الزعيم. إنه متعهد كبير، يربح ألوف الليرات بسبب استمرار هذه الحرب. وكلّما جنّدوا رجلاً آخر تسبب ذلك في ربح زائد للزعيم. وحينما يتمّ طرد الأتراك من بلادنا، وتتوقف هذه الحرب البلهاء، فإنّ أمثال الزعيم سيحاربون من أجل أن لا يحدث ذلك.

– متى سيحصل هذا؟ سأل ربيع بسخرية.

– في وقت قريب. سوف ترى.

– ومن سيطردهم؟ أنت؟ ...

أطرق صالح. جعل يمج الدخان من سيجارته. لم يجب، بل قالت أم ربيع:

– كفى يا ربيع... كفاك سخرية. إن الرجل يقول الحقيقة.

صرخ ربيع:

– وأين الحقيقة في ذلك؟ الأتراك باقون، فنحن لا نستطيع طرد بعوضة، فكيف بجيش دولة عظيمة.

راقبت بهية وجه صالح الذي تورّد. سمعت أمّها تهزأ من قول ربيع (دولة عظيمة) ثمّ:

– ليست عظيمة في شيء. كلّ ما هناك أنّهم يسرقون لقمة عيشنا ويأخذون رجالنا. إنّ كلّ ما تزرعه البلد يتحوّل إلى قطاراتهم الملعونة، والويل لمن يخفي رطلاً من القمح أو الشعير. ونحن نعرف جيداً جنودهم، إنهم يرتدون الأسمال البالية وهم حفاة. أتعجب كيف تقول عظيمة. ولكن لا عجب في ذلك، فأنت ترتدي ثياباً جديدة

وجزمتك لامعة. يحق لك أن تتكلّم هكذا.

ارتفع حاجبا ربيع إلا أنّه لم يتكلّم. أراد أن يرد على أمّه ولكنه أبى، لقد قالت أمّه ما كانت تودّ قوله منذ اليوم الأوّل لوصوله، حينما استغربت حيازته كلّ ذلك المال. نهض ليحضر علبة سجائره الملفوفة. لم يطلب من بهية أن تحضرها له، فقد أراد أن يخفي حنقه من صالح بالذات.

وفي الأيام التالية، حدثت نقاشات أخرى بينه وبين صالح وأمّه. بهية، كانت تصمت وهي تستمع. كانت تؤيد رأي صالح، إلا أنّها لم تجد الشجاعة لقول ذلك في وجه أخيها، بل اكتفت بالإيماء برأسها. أمّا عندما كان ربيع يتكلم، فكانت تقطب حاجبيها، غير موافقة على كلّ ما يقوله. هي، الأمّ التي ثكلت، صالح قال الحقيقة حينها. كلّ هذه الظروف التي خلقها الأتراك هي سبب بؤسها، أما ربيع، فهو لا يعرف شيئاً. لم يفقد عزيزاً بعد، وإن فقد... فهل سيغير فيه شيئاً؟ ... تطلعت إلى أمّها، ففهمت ما كان يدور في ذهنها. ربيع باع نفسه نهائياً. حصل على الذهب مقابل كلّ هذا الكلام الذي يذيعه مقابل صداقته مع الزعيم وإضرابه. مقابل ارتدائه هذه البدلة وهذه الجزمة اللامعة والتي بنعلها يستطيع أن يسحق أيّ رأس لا يتفق معه في الرأي؟

إلا أنّ ربيع راح يدخّن سجائره الجاهزة المستوردة الواحدة تلو الأخرى. كان يقطر حنقاً من هذا الصالح؟ كيف يجرؤ على التحدث بنفس هذه اللغة التي حوكم من أجلها وأعدم ألوف الناس؟ كيف تمكّن من إقناع أم ربيع بآرائه؟ إنه ثعبان... لقد حدّثه الزعيم عن صالح عندما ذكر اسمه في إحدى المرات. قال له إنّ هذا الشخص خطر على النظام، لأنه يصادق مجموعة من المثقفين الموتورين والكفار. إنه صديق أحد الأساتذة... خلوق أفندي... كان صالح لا بأس به، ولكن خلوق هذا هو الذي (طبخه)، ضحك بعقله، وجعله يؤمن بنفس الأفكار. الزعيم متأسف لصالح، ما العمل مع مثل هؤلاء المثقفين؟ لم تقصِّر الحكومة، لقد اعتقلت الكثيرين منهم، ووصل إلى سمعه أنهم اعتقلوا أيضاً خلوق أفندي ... (كذا وكذا في فرج أمه). لعلهم شنقوه الآن وخلّصوا الناس من شروره، هذا الأفّاق القادم من إيطاليا.

قال له الزعيم في إحدى الأماسي الجميلة عندما كانا يتهامسان منفردين وهما

يتمتعان بضوء القمر الفضي اللامع في سماء صيف حلب الجميل.

– اطرده من بيتك. اجعل أمّك لا تستقبله في المستقبل. ألا تخاف على شرفك؟!

– ليس هكذا أيها الزعيم، لقد قام بالمستحيل من أجلهم.

– هراء، لن يشتريك بشيء. من المعروف أنكم تربون ابنه في كلّ الأحوال، ولكن الشيء الذي يحيرني كيف أمكنه الحصول على وظيفة في البلدية.

– لا أعرف... كلّ الذي قاله هو أنه قد توظف الآن، وأنه يتواجد في سراي البلدية حتى الظهر، وبعد ذلك هو حر، وبسبب ذلك يكثر من زيارتنا. لقد بدأت أكره رؤيته، ليس بسبب أقواله، بل لأنّ أمّي راحت تنظر إليّ نظرة سيئة. بدأت أفقد احترامها. إنّني أحسّ بذلك. تصوّر أيّها الزعيم. لقد ملأت لهم البيت بالمؤمن ولكنّها تنظر إلى كلّ هذه الخيرات نظرة شك، وكأنّها تتحسب أن يكون الطعام الذي خزنته لها مسموماً.

عاد ربيع في تلك الليلة وذهنه مشوشاً. صفق الباب خلفه، ثمّ راح يسلّك صوته عن عمد. كان صالح جالساً مع أمّه وبهية في ضوء القمر. ماذا يفعل حتى هذه الساعة؟ إلا أنه تذكّر أن العشاء لم يؤذن بعد.

كانت بهية جالسة سافرة الرأس. جلس، ثمّ نهرها:

– قومي يا قحبة وضعي خرقة على رأسك!!

نهضت، ثمّ انسلت إلى غرفتها، ولم تعد.

قام صالح ودّعهم وهو يزفر، ثمّ اتّجه نحو الباب. اعتذر عندما دعته أم ربيع أن يبقى للعشاء. قالت له أمّه بجفاء بعد أن انصفق الباب خلف صالح:

– ماذا حدث؟ أصبحت لا تطاق.

– هكذا أنا.

– بل لم تكن قاسياً وجلفاً من قبل.

– كلّ ما في الأمر أنّني لم أعد أطيق هذا الرجل.

– إنّك تظلمه. لا يجب عليك أن تكرهه بسبب أفكاره. كلّ الناس تكره العسكر العثمانلي. حتّى أنا وأختك. لن تصادف أحداً يحبّ منظرك سوى أمثالك.

- أرجوك يا أمّي، كفى!
- كم بقي في إجازتك؟
- أسبوعان.
- لو لم أحبّك لتمنيت ذهابك فوراً. عليك أن تعتذر لأختك.
- حسناً.
- هل ستتعشى؟
- لا.. لم تعد لي شهية.

نهضت الأم. راحت تمشي متثاقلة، فعظامها تطقطق عند كلّ حركة. راقبها وهي تسير باتّجاه المرحاض. استلقى على الأريكة التي وضعت بجانب حوض الورد، وقرّر أن ينام في الحوش.

كانت النجوم متألقة في السماء الصافية. سماء أواخر حزيران. أشعل سيجارة، وراح ينفخ دخانها إلى الأعلى. يا الله.. سماء بلادي صافية، كم هي مرصعة بالنجوم. نجومها أكثر من نجوم اليونستان وأشدّ بريقاً. وفجأة... أحس بحنين شديد يشدّه إلى تلك البلاد البعيدة. فروساكي... اشتاق إليها... ماذا تفعل الآن؟ لقد سافر دون أن يودّعها. لم يكن يحلم أن يرسله في إجازة لمدّة شهر. لو كان يعلم، لحاول أن يراها قبل أن يسافر إلى بورصا، ولكنه اكتفى بإخبارها بواسطة محفوظ، وهو سيخبرها أيضاً بعدم عودته، وأنه سيتأخر شهراً آخر. كم ستكون ضعيفة فروساكي حينها.. قالت له مراراً إنّها تشعر بالأمان وهو إلى جانبها، وأنّها تستشعر خطراً عندما يكون بعيداً. ممن تخاف؟ من مدحت باشا؟ لقد أحسّ خلال محادثته في القطار أنّه يرغب بها. عندها شعر ربيع بغيرة تجتاح صدره، وبحنق أيضاً. هل سيحاول مدحت باشا شيئاً معها؟ هل أرسله إلى حلب كي يفرغ له الجوّ؟ لقد أصبحت إجازته عبئاً ثقيلاً يجثم على صدره. فها هو يحن، من جديد، إلى حياة الخنادق التي كرهها فيما مضى. كان هدفه أن يرحل عنها، أن يهجرها إلى الأبد. إلا أنّه أصبح نظيفاً، هنا في بيته، بين أهله، ينام على أريكة مريحة، ويتناول الطعام المحبب إليه، حتى راح يشعر بالوحشة.

ماذا يريد؟ فروساكي؟ هل يحبّها؟ هل يذهب إليها عندما يعود إلى سالونيك

ويطلب إليها أن تتزوجه؟ أم أنّه يحن إلى السلطة التي كان يشعر بها هناك، إلى السلاح والنار ورائحة البارود والعفونة والتمرغ في أطيان الخنادق التي تفوح منها روائح القذارة؟

ولكن كلّ هذا لا يعجب أمّه. إنّه لا يريد أن يفقد صورته في عينيها. هي، أمّه ذات العيون الحادة رغم ما قامت السنون بإطفاء وهجها.

ليس الأمر بهذه البساطة، فما الذي يجمع أمّه وعيون بهية الصامتة والحذرة وروح صالح المتمردة وعيوش وعبد الكريم والآخرين؟ إنّه لا يريد الحرب، ولم يشعلها، ومن قال إنّه يريد الأتراك؟ إلا أنّ الإنسان يبقى إنساناً. ليس بمقدوره أن يقوم بما يجب بل بما يستطيع. إنه يحاول أن يفعل أكثر مما في إمكانه. الأتراك... حالة آنية لا يمكن أن يمحوها من ذهنه بممحاة. هم موجودون، وأقوياء، كالعاصفة، كالزوبعة الرهيبة التي تكنس في طريقها كلّ القامات المنتصبة. أما هو، فقد جرّته العاصفة معها إلى طريقها، وجعلته جزءاً منها. ساعداً قوياً من سواعدها. من قال إنّ العاصفة بدأت تهدأ، وتموت، ثمّ تتلاشى؟ هذا الكلام غير مقنع بتاتاً. فمازالت في عنفوانها، ومن يقف في طريقها سيقتلع من جذوره. ثمّ، هل كان بمقدوره أن يرفض وأن يختبئ حينما راحت تدفعه في طريقها، مثل آلاف الآلاف من الرجال الذين هم في موقعه، ويقومون بما يقوم به؟

هراء يا صالح... هراء!!

ولكنّه سمع نفسه تدينه: وماذا عن الركض وراء صيد الأسرى والمباهاة بذلك؟ لقد نسيت كيف كنت تحارب بحمية لا مثيل لها. كنت تطلق النار بلذة.. وعندما كنت ترى الإنكليز يسقطون دون حراك جثثاً هامدة كنت تكزّ على أسنانك بقوة كأنك تريد أن تهشمها.

حسناً . قال في نفسه وهو يراقب نجوم الدب الأكبر المتألقة . وهل يجب عليّ أن أموت؟ هذه حرب، إن لم تَقتل فإنك ستُقتل. لقد وضعوك يا ربيع، في مثل هذا الظرف. إنهم يقولون للجنود: اقتل إنكليزياً وخذ سلاحه، ليس عندنا أسلحة كافية، والموجود فاسد، حتى الخرطوش. وماذا يفعل الجندي الحافي؟ أيضاً عليه أن يقتل إنكليزياً ويأخذ وهكذا دواليك. هذه سنّة. هذه هي الحياة التي نعيشها هذه الأيام. تباً

لها. إنها لا تعجبك، ولكنك مرغم على العيش فيها.

وتذكر ما حدث في قرية مدحت باشا. بصق بقوة في حوض الورد، ثمّ أشعل سيجارة أخرى، وجاهد كي ينسى. ما لزوم كل هذا الآن؟ ماذا يساوي الإنسان في هذه الأيام؟ إنه حشرة. مجرد غنمة تنحر في أيّ وقت، وهذا ما حصل هناك. غنمة تسير في طريق مرسومة لها، فإن خرجت عنها عاقبوها. ليس ذنبه أن تهدر كلّ هذه الدماء بكلّ هذه القسوة. كما أنه لا يريد لنفسه أن تصبح مثل هذه الغنمة. عليه أن يبقى كبشاً يقود القطيع. كلباً ينبح على كلّ من ينسى نفسه، ويخرج عنه، أما الراعي فهو المسؤول عن كلّ ذلك.

تذكر الحديث الذي جرى بينه وبين أمّه في الليلة الماضية. قال له بعد أن أشعل لها السيجارة الخامسة:

- حان الوقت يا بني كي تصارحني وترطب قلبي. من أين لك كلّ هذه النقود؟ هل فعلت شيئاً يسيء إلى ربك؟ نحن قوم بسطاء ونأكل اللقمة الحلال، وسنبقى، حتى الممات، هكذا، هيا... صارحني!

- ليس هناك ما يسيء إلى ربك، كلّ ما في الأمر أنّ القائد مدحت باشا منحني إياها.

- لماذا؟ من أجل أيّ شيء؟

- لا لشيء. هكذا. لأنني ساعدته في ضيعته التي كان يقضي فيها إجازته قبل أن يرسلني إلى هنا في إجازة.

- لم أفهم؟

- يا أمّي. خلّي عنك هذه الوساوس. نحن نعيش في ظلّ حرب طاحنة. وأنا جندي أقاتل وأقتل هذا كلّ ما في الأمر!

- أنت جندي تقاتل وتقتل. ولكن الذي أريد فهمه، هل أصبحت قاتلاً؟

- هذا هراء، إنك تقولين بلسانك ما يفكر فيه صالح بعقله.

- إنني أقول ما يجب على كلّ أم أن تقوله، ولا دخل لصالح في هذا الأمر.

- ولكنك تخافين علي أن أغضب الرب، بينما صالح يقوم بذلك.

- ما هذا الكلام؟

– إنه صديق زنديق كبير اسمه الأستاذ خلوق. وهذه الكتب التي كان يخبئها في الحاصل وحملناها إلى السقيفة، هي كتب تكفر بوجود الله. لقد شنقوا خلوق هذا. قام بذلك الدرك. لقد قبضوا عليه لأنه كان يدعو لمناهضة الحكومة السنية، وإقامة حكومة من غير ديننا بالاعتماد على الأفكار الغربية والزندقة.

– من قال لك هذا؟

– الزعيم.

– إنه يكذب، صالح لم يتفوه بمثل هذه الأكاذيب. إنه، فقط، يدعو لطرد الأتراك من بلادنا. ليس لأنهم سيئون بل لأنهم أجانب، وليسوا عرباً، وهذا ما أريده أنا أيضاً.

– ولكنه يقول أشياء أخرى.

– مثل ماذا؟

– شيء مثل تحريض الفقراء على الأغنياء لإقامة نظام لا يمت إلى ديننا بصلة. ليس من شريعتنا الإسلامية.

– انظر يا بني. أنا لا أفقه في السياسة ولا أريد أن أقول كلام سياسة ولكننا، بعد وفاة والدك، أصبحنا من الفقراء، ورضينا بلقمة الحلال البائسة، ولم نفعل شيئاً يغضب الناس من أجل أن نشبع. ولكن هذا لا يعني أن ننسى ما فعله بنا أعمامك. لقد نهبوا تجارتنا رغم أنهم ليسوا محتاجين، وها هم الآن ما زالوا مترفين بالرغم من أننا كدنا نموت جوعاً. لم يدق بابنا سوى صالح. لم يسد رمقنا ورمق أطفالنا سواه. إن كل أقوال الزعيم لا تساوي عندي فردة حذائي، لأن من ينقذ حياة فقير لا يمكن أن يكون كافراً ولا يمكن أن أسيء إليه يوماً من الأيام.

وقبل أن يغفو حاول تذكر الاسم، الذي قاله له الزعيم، عن الجماعة التي ينتمي إليها صالح من دون جدوى.

في اليوم التالي خرج من البيت بعد الضحى. سار دون هدف وقد أصابه الملل. حاول أن يعيد مزاجه القديم، فترنّم بأغنية خفيفة، كان يشدو بها مع أصحابه الكثر الذين اختفوا، وكأنهم لن يعودوا أبداً:

شوفها عما تعبي مي   شعرا الأشقر يطوي طي

مديت إيدي قالت يي		جوزي سافر ووصاني

مانـي يا حبيب مانـي...

شفت الحلوة ببانقوسا		سحبت عليّ موسا

ماطلت أنا لأبوسا		تفشكلت أنا وحصاني

مانـي يا حبيب مانـي...

كان يصفر اللازمة بفمه، أما حذاؤه فقد كان يزقزق بقوة أثناء الخطو، ويلفت انتباه المارة القلقين. أعجبه صوت الحذاء. كم كان يحلم، في الماضي، بحذاء يزقزق هكذا. كان يحسد الرجال الذين كانوا يمرّون به، وهم يصدرون مثل هذا الصوت. أمّا الرجال الذين لم يحالفهم الحظ باقتناء مثل هذه الأحذية فقد كان يحسب أنهم يموتون من غيظهم. والآن يحسب ذلك أيضاً، فكثير من الناس يسيرون حفاة أو بالقباقيب الخشبية ذات الصوت السيئ. والحذاء الذي يزقزق يعطي انطباعاً أكيداً أن صاحبه من أصحاب الذوات أو من الوجهاء، آل الزيتوني أو السباهي أو غيرهم. أما أبو حديدة فلم يكن يحتذي سوى الأحذية والصرامي اللينة الطرية.

استفاق من خواطره ليجد نفسه أمام مدار أبي حديدة. كيف قادته قدماه إلى المكان، كأنهما دابة مدربة على السير في طريق واحدة لا تتغير. رأى إلى الباب العريض المقفل. طقطق بلسانه آسفاً. أين أيامك يا أبا حديدة؟ كانت أمّه قد أخبرته بنفسها، دون أن يسألها، أن أبي حديدة قد أغلق مداره بسبب ندرة القمح. ومن يحتاج إلى النشاء في هذه الأيام؟ حتى الأغنياء لا يحتاجونه.

نزل باتّجاه قسطل الحرامي، ثمّ انعطف إلى اليمين في زقاق الطويل. كان هناك مجموعة من الأطفال يصفّقون، وهم ينشدون:

أبو عمايا، كب الزيت، وكب المرقة بنص البيت

أبو عمايا، كب الزيت، وكب المرقة بنص البيت..

صمتوا عندما اقترب منهم، ثمّ عادوا ينشدون اللازمة نفسها بعد أن تجاوزهم وهم يتطلعون بأعينهم إلى بذته ذات البريق الخاص. اقترب من أحد الأبواب، ودق السقاطة انتظر قليلاً وهو يحسّ بقلبه ينتفض من الداخل. سمع صوتاً نسائياً رفيعاً يتهدج من خلف الباب المقفل.

– من؟

– هل أبو حديدة موجود؟

– من يريده؟

– صديق.

قال الصوت دون أن يفتح الباب:

– إنه طريح الفراش، فهو مريض.

– هل أستطيع أن أعوده؟ أنا ربيع الزيات.

صمت الصوت خلف الباب طويلاً، ثم سُحب الدرباس، فأصدر صوتاً بشعاً. انشقّ الباب، وسمع المرأة تدعوه للدخول. كانت عائشة، الحبيبة القديمة المترعة الجمال. تلك التي كان يحلم بها في الليالي الطوال، والتي أبعدوه قسراً عنها، وأرسلوه إلى آخر الدنيا. كانت تبحلق فيه، بعينين متعبتين، غير مصدقة وجوده، كأنها في حلم، إلا أنه مدّ يده مصافحاً. لمس يدها التي راحت تتعرق دون خجل فتكشف ارتباك صاحبتها. كانت صبية، فاتنة متوردة رغم كلّ ما يثقل كاهلها.

استدارت، ومشت أمامه باتّجاه غرفة والدها. تبعها وهو مندهش لنمو جسدها. لقد أصبحت امرأة بكلّ معنى الكلمة.

دخلا الغرفة الشمالية الباردة. صدمته رائحة التعرق والعفونة والبول. تطلع في أرجاء الغرفة. كان هناك سرير خشبي في أحد الأركان. اقتربا منه، فميز جسد أبي حديدة من انتفاخ اللحاف. كان الوجه مصفراً، وقد برزت عظامه بشكل حاد، وكانت المقلتان جاحظتين بشكل زائد من تحت الأجفان. أما الفم قد انشقّ عن ابتسامة ميتة وكأنّه كان يسخر من القدر الذي حطّمه.

وقفا بجانب السير برهة. لم يعتقد أبداً أنه سيجد أبا حديدة على هذا الشاكلة. كان يتوقع أن يجده وهو يملأ الدنيا بشكاويه التي لا تنتهي، أما الآن فهو يملأ صمت الغرفة بغطيط متحشرج غير منتظم.

همس ربيع:

– كيف حدث هذا، ماذا أصابه، كان قوياً كالحصان؟

تطلعت عائشة في عيني ربيع. هذه العيون عادت إلى عملها، إلا أنّ سوادهما

أصبح معتماً أكثر. كانت قد خبّأت في عمقها كلّ ما تريد البوح به. أحسّ بضعف المرأة المفاجئ من اختلاج عصب في رقبتها البيضاء المتطاولة. قالت له:

– ورم في الأمعاء، يسمونه السرطان. أصيب به من أشهر وكشفه أحد الأطباء الألمان.

– ألا يوجد دواء؟

– كلا... ولا يوجد أمل بتاتاً. نعطيه الخشخاش الذي نشتريه من سوق المدينة كي ينام، وينسى آلامه.

هل سيموت؟

– بالتأكيد... إنه يذوب. كما ترى. بعد شهر على الأكثر.

صمت ربيع، ماذا يضيف؟ يبدو على عائشة أنها مستسلمة وواقعية. ولكنه سأل وقد أمسك يدها:

– هل أستطيع تقديم أيّ مساعدة؟

رفعت الفتاة منكبيها دون أن تجيب، ولكنها أبقت يدها في يده برهة، ثمّ دعته للجلوس. جلس إلى جانبها على الأريكة. كان قريباً منها. في الماضي كان يرتبك ويحمرّ خجلاً، وينعقد لسانه ألف عقدة. أمّا الآن فالأمر مختلف إنه، وبشجاعة، يأخذ يدها بين يديه دون أن تمانع، أو دون أن يفكر أنها ستمانع. سألته:

– متى عدت؟

– منذ أسبوعين.

– تبدو في حال لا بأس بها. أين تخدم؟

أجابها وهو يتمعنها. لقد نسي المريض المستلقي على بعد خطوات منه. أبو حديدة الذي أضحى علكة في فم الزمن. كان يهابه، ويخافه. كان يسعى لإرضائه اتقاء لخبطات يده. فيما بعد تصادقا. عرض عليه الشراكة، وأوحى له أنه سيزوجه عائشة، إلا أنّ هذا المشروع لم يكتمل. لو لم تقع الحرب لكانت عائشة الآن في بيته تلد له أطفالاً.

– وأنت... كيف حالك؟

زفرت الصبية وكأنها "أم أربعين سنة" كانت يدها نائمة في يده:

– هل أحسست يوماً أن حياتك لا طعم لها؟ لقد بت أتحسر على الأيام الماضية. مات في نفسي كلّ أمل. إنني أستيقظ صباحاً، كلّ يوم، وعندي شعور أنني لم أنم بعد، وأنّ نفس اليوم يتكرر. إنني اليوم مثل تلك السفينة التي شاهدناها يوماً على ساحل إسكندرونة، تتهادى مع الرياح دون دفة، ولكن بفارق واحد، ففوق رأسي تصر غيمة سوداء راعدة أن تبقى هادرة، منذرة بالأسوأ.

شدّ ربيع على يدها، تابعت عائشة وهي تنظر إلى عنكبوت يهبط من السقف.

– عندما وقعت الحرب، خاف والدي عليّ وعلى شقيقاتي، فأرسلنا إلى جبل أريحا عند أسرة أحد أقاربه. هناك، خطبني أحد الرجال وكان في الخمسين من عمره ومتزوج من امرأة أخرى. جاء إلى حلب، وخطبني من أبي. ودون أن يأخذوا رأيي جاؤوا بالشيخ وكتبوا الكتاب. لم أعرف الرجل، لم أشاهده في حياتي. أدخلوني إلى بيته وأنا بنصف وعيي. كنت خائفة ومذعورة. هكذا أراد أبي. كان يريد أن يتخلص مني كي أنستر. هل تفهم معنى كلمة (السترة)؟ . أومأ ربيع بالإيجاب . بعد قليل دخل رجل كالغول. عندما رآني راح يمصمص أسنانه كأنه يتناول وجبة مقادم. عراني ثم راح يمصمص عظامي...

كرهت الرجل. كنت كل ليلة أختلق الأعذار كي يتركني من دون أن يلمسني. إلا أن الغول كان ينتظر حلول الليل بفارغ الصبر. وعندما كانت تغيب الشمس، كان يتملكني شعور طاغ بأن أجلي قد حان، وأنني لابد ميتة. كانت أمّي تبكي عندما تراني. كانت تزورني كلّ أسبوع، ثمّ استقرّت في الجبل مع البنات كي تكون قريبة مني. ولكن بماذا يمكنها أن تساعدني؟ إنها مجرد امرأة أخرى.

طلبت منه سيجارة، قدّمها لها، وكأن عقرباً قرصه. ثمّ أشعلها كما أشعل لنفسه واحدة. قال لها وهو ينفث الدخان بتواتر مع الأحرف الصوتية:

– أصبحت من المدخنين.

– وماذا تريدني أن أفعل، فالدخان يهدئ أعصابي.

تابعت سرد ذكرياتها:

– ذاك المهووس جنسياً بالبنات الصغار كان يهوى أشياء أخرى، كان يتلذذ بضربي قبل العمل الجنسي، وأثناءه. إنه يكمّل لذته بالضرب المبرح. كان يطلب

مني أن أسجد أمامه وأنا عارية. ثم يروح ينهال ضرباً على مخلفتي. عند ذاك يصبح جاهزاً، ويأتيني كالحيوان. وعندما ينتهي، كان يشخر وينخر كأنه يموت مختنقاً. كان يرتاح نصف ساعة ثم يعاود الكرة مرة ومرة وثالثة.

أما أنا فقد كنت أذعن له. كان يهددني بالذبح إن أنا رفضت طلباته الملكية أو قمت بإخبار أحد عما يفعله بي.

ولكنني كنت أبكي على صدر أمّي في النهار التالي، وأنا أهمس لها بكلّ شيء. إلا أنّ أبي لم يكن يصغي لتوسلاتي.

تنهدت عائشة، ثمّ أشعل ربيع سيجارتها الثانية. كانت عيناها تسبحان في دموع رقيقه لم تطفر بعد. شرقت أنفها وهي تمسح دموعها.

– ألم يكن ممكناً الهرب منه؟ سأل ربيع. فأجابت عائشة بسؤال:

– إلى أين؟

– إلى أيّ مكان بعيد عن هذا الحيوان.

– أنتم الرجال تقولون الأشياء بمنطق ذكور. أين يمكن أن تهرب امرأة صبية في هذا البلد الذي هو وكر ذئاب حقيقي. المرأة، هذه الأيام تغتصب على ناصية الشارع. ألم تسمع كيف تخطف النساء، حتى العجائز منهن، أياماً، ثمّ يجدونهن مذبوحات ومرميات في الأراضي البور؟

– لقد صدقت ما كان أبو حديدة يردد باستمرار.

– أنت لم تكن هنا ولا تعرف كيف أصبحت البلد بعد الحرب. عش هنا شهراً آخر وسترى بأم عينك ما تستغربه الآن..

صمتت لحظة وهي تمج من سيجارتها، ثمّ راحت تتساءل:

– ألم تسمع عن الآباء الذين يبيعون بناتهم لقاء ليرة واحدة؟ أبو كامل وأحمد جمعة وغيرهما... باعوا بناتهم بدراهم قليلة حتى يبعدوا عن أنفسهم وعنهم الموت جوعاً. المهم... هناك من يشتري. وهناك من يخطف. هذه الجارة التي أمامنا. أنت لا تعرفها، إنها تستقبل الرجال في بيتها ليلاً. مات حماها وهرب زوجها. قالت لي عندما نهيتها عن ذلك: وكيف سيأكل أطفالي؟

– وماذا حدث بعد ذلك؟ ماذا فعلت مع ذاك التيس المحترم؟

– مرض أبي هو الذي أنقذني من براثن الوحش الآدمي ذاك. في البداية راح يتألم من أمعائه ثم قلّ أكله، ولم يمض وقت طويل حتى راح يتقيأ بعض ما يأكله. ذهب إلى المشايخ والدجالين الذين كانوا يتمتمون وهم يمسدون على بطنه العاري، ثمّ جرب كلّ شرابات العطارين من دون فائدة. تحلت أمّي بالشجاعة، وأطلقت في وجهه قنبلتها. قالت له: إن ما يحدث لابنتك عائشة تراه في أحشائك الآن. اعتقها من ذاك الرجل فسوف تبرأ! أحد الدجالين قال له نفس الكلام بناء على نصيحة سابقة من أمّي. صدّق أبي هذا الكلام. راح يحسّ بتأنيب ضميره. حمل كيس نقوده وسافر إلينا. جلس مع زوجي المصون، وراح يساوم على طلاقي. في البداية قال الزوج: لن أطلقها ولو دفعت لي مال قارون وسليمان. ولكنه، رضي في النهاية، بست ليرات ذهبية ونصف من نوع نابليون. طلّقني الرجل بحضور الشيخ ذاته والشهود ذاتهم، ثمّ راح يعد ليراته والنصف. أبو حديدة يبقى هو ذاته مهما حدث. طالبه فوراً برد مهري المؤجل. رفض الرجل وكاد أن يحصل عراك بينهما. إلا أن الشيخ السمسار وفق ما بين الرجلين بالحل الوسط. نصف المؤجل فقط. وهكذا كان.

قدّم لها ربيع السيجارة الثالثة فلم ترفضها. تطلعت للمرة الأولى إلى والدها المسجى تحت اللحاف، ثمّ رمقت ربيع ضعف شديد. قالت بما يشبه الهمس:

– عندما كنت في بيت زوجي، كنت أفكر فيك، وما كان ينقصني في هذا الدنيا سواك. لقد أحببتك فعلاً. كنت أفكّر فيه باستمرار، رغم أنهم أشاعوا عن موتك. أمّك هي التي قالت لي ذلك. كنت قد زرتها قبل سفرنا إلى جبل أريحا. عانقنا بعضنا ورحنا نذرف الدموع، دون كلفة، إلا أنني لم أصدق الخبر. لم أقل ذلك جهاراً إلا أنني في قرارة نفسي كنت مؤمنة أنك ستعود. رغم أنني أصبحت على ذمة غيرك ومع ذلك كنت أمني نفسي ببقائك حياً. عد حياً، وتزوج من شئت، ولكن عد حياً. كنت متأكدة من عودتك. ربما لتنقذني لقد افتقدتك إلى الأبد، ولكن حبك بقي ملاذي الأخير، بقي خيط العنكبوت الذي يتمسك به الغريق، في منامي وصحوي، وعندما أكون بمفردي أو مع ذاك الوحش الذي كان يأتيني ليلاً من الخلف.

شدّ على يدها برفق، ثمّ رفعها إلى شفتيه، قبّل ظاهرها وباطنها. تركته يفعل... افعل ما شئت يا ربيع، يا حبيبي، يا نور عيني ويا مهجتي، أنت يا زينة الرجال،

أنت أيها الحبيب الغالي الذي كنت تأتيني في الحلم والصحو لتشجعني وتحليني بالصبر. ما أغلاك، ما أطيبك. كم أنت نقي وطاهر. سأبقى أحبّك كلّ الدهر، ولن يموت حبي لك مع موتي. فحبي ليس زوجة هندية. هيا خذني، إنني لك وحدك، رغم أنف أبي حديدة المتضخم. حاكم النساء هذا الذي أصبح كغصن شجرة التين. هيا افعل ما تشاء، هنا على الأريكة، إلى جانبه. دعني أقبّلك، فأنا لم أعد أحسب له حساباً. دعه يفيق ويرى إلينا، فهو أضعف من أن يقوم ليتبول. لقد انعتقت من بائع الرقيق هذا، وليس هذا فقط، بل أصبحت أقوى منه، أكبر منه. لقد عاد طفلاً، وآن الأوان كي أحفضه، كي لا يغرق فرشته بالبول والبراز. دعه يراني كيف أقبّلك، دعني أقبّل عنقك وصدرك، دعني أعريك وتعريني، ثمّ نضع ما كان يستر عُرْيِنا على لحافه. خذني. دعني أندمج فيك. اترك جسدك يسحقني بثقله العظيم، فأنا سأطلق صراخي وكأننا خارج هذا الكون. كأننا في عالم فارغ من الآباء والحكام والقوانين هيا.. ادفع، فلن آبه بعد الآن... ولن أكون بعد الآن امرأة محطمة.

استلقيا عاريين على فراش مدته عائشة في الظلّ الوارف في أرض الحوش. كانا ملتصقين وقد أسندت رأسها على صدره. كانا بمفردهما إن حسبنا أن أبا حديدة لم يعد من الأحياء، فأمّها تمكث مع بناتها في جبل الأربعين، بينما أرادوا من وراء إبعاد عائشة إلى حلب الاعتناء بالأب والابتعاد عن الزوج السابق.

مررت إصبعها بلطف على حلمة ثديه، ثمّ قبّلتها، وقالت:

– أخبرني شيئاً عن حياتك في الجبهة.

– لا شيء يسر.

– ولكنني أريد أن أسمع شيئاً عن حياتك هناك يا حبيبي، أحمد الله أنك بقيت حياً.

– لقد غصت في الأوحال حتى ذقني، وجرحت . أشار إلى جرح ملتئم في صدره . قاتلت وقتلت أناساً كثيرين. ثمّ أصبحت بدلاً لديهم فرفّعوني إلى رتبة لا بأس بها وأصبحت مساعداً للملازم في قيادة السرية.

– أعرف أنك ستصبح بطلاً، فهذا اللقب يليق بك.

– هذا إن صح ذلك. الظروف ساعدتني. هي التي قررت مصيري. هناك أناس

وقف الحظ في وجههم بالمرصاد، إذ أصابتهم رصاصة طائشة أو سقطت عليهم قنبلة هوجاء في أول معركة دخلوها. إنني أتساءل بيني وبين نفسي، ألم يكن في الإمكان أن يكون جرحي هذا قاتلاً؟ لقد اصطدم سيف الإنكليزي بأحد أضلعي فانحرف عن القلب، الصدفة أم الحظ؟

رفع كتفيه العاريين، ليس لديه إجابة، فبان التجويفان بين عظام الترقوة والكتفين.

– بل رعاية الله. قالت عائشة.

– وهل أخذت الرب على حسابي؟ إنها الصدفة، هي التي تصنع الحظ. ولكن... هل سيدوم ذلك طويلاً؟ لعبة الحظ والصدفة هذه؟ لا أدري...

– لماذا تتكلم هكذا؟ دع عنك التشاؤم. ها أنت قد أعدتني إلى الحياة من جديد. كنت مستلقية مع والدي أنتظر موته وموتي معاً. ولكنك جئت، أنت أيها الباعث للحياة، للعيش... لديّ إرادة الآن، في هذه اللحظة، أكبر ألوف المرات مما كانت قبل ساعة. إرادة العيش والحب والسعادة. لقد أنقذتني أيها الصبي المدلل.

قبّلته طويلاً في فمه، كرر كلماتها:

– العيش والحب والسعادة... هذه الأشياء لا تتواجد في الخنادق، إلا كذكرى... كماض بعيد لن يعود أبداً. يبقى الغموض والموت مسيطران، رغم كلّ الأوسمة والكلام الفارغ. أما الغد... فلا أحد يتوقع شروق شمس نهاره.

أشعل لها سيجارة ولنفسه، ثمّ تابع:

– ومع ذلك فإنني أحنُّ لحياة الخنادق. هذا هو طرف المعادلة الذي لا أفهمه. البارحة رحت أعدُّ الأيام الباقية من إجازتي. تصوري هذا. كدت أموت من الملل وحياة الكسل.

– ولكن الخنادق تعني الموت ولا أحد يذهب إلى حتفه بإرادته.

– لعلّني أهرب من كلّ شيء. لقد عدت، وماذا رأيت؟ هناك فارق كبير بين أهلي وبيني أقصد من ناحية الآراء، وقد وجدت نفسي على خلاف معهم، ونبتت الكراهية بيننا، وأصبحت كالغريب في بيت والدي المرحوم. هل عليّ أن أفتح جبهة هنا، وأتمترس خلف خندق آخر؟

– وما هو الخلاف الذي تقصده؟

– لقد وجدت نفسي أبارك الأتراك وحربهم ووجودهم في بلادنا.

– ولكن هذا خطأ يا حبيبي، فنحن طلقنا الأتراك نهائياً.

– من نحن؟

– نحن أصحاب هذا البلد. إنهم أجانب ولا يمتون إلينا بصلة.

قال بنزق:

– كفى، لا أريد أن أناقش في هذا الموضوع ثانية، ومعك بالتحديد. لا أريد أن أختلف معك أيضاً. يكفيني أنني لم أعد أفقه نفسي. قلت إنني وجدت نفسي، ولم أقل إنني مقتنع نهائياً بهذا.

فقالت بلطف وهي تشم رائحة تحت إبطه المالحة:

– حسناً يا حبيبي، لنترك هذا الأمر. لقد علّمتني الحياة أنني يجب أن أتبعك، أن أكون ظلّك... لن أختلف معك... هيا قبّلني.

ارتديا ثيابهما، ثمّ شربا القهوة التي صنعتها بمهارة. كان يشع من عينيها ألق فريد وسعادة هادئة. لم تكن لتجلس قبالته، فالنظر يكذب في بعض الأحيان، وهي لا تريد أن ترى إلى سراب يختفي بعد برهة، بل كانت تجلس إلى جانبه، وتلتصق به، لتحسّ بدفئه وتتلمس جسده.

زفرت تنهيدة قوية، ثمّ عادت وأسندت رأسها إلى ساعده. لو أنه يبقى، إلا أنه نهض، وأصلح ثيابه، وشدّ حزامه الجلدي. قبّلها من فمها، ثمّ ودعها وانصرف، وهي تشيعه حتى انصفق الباب دونه.

* * *

(17)

مشى باتّجاه باب الحديد. كان الوقت ظهراً، والشمس حادّة تَسْلُقُ الأجساد البشرية، ومع أنّه كان يسير في الظلّ إلا أنّ ثيابه راحت تبتل من العرق الغزير الذي كان يفرزه جسده.

قطع الساحة قطرياً، وراح يرتقي صاعداً حارة الباشا، فأنعشته نسمة معتدلة هبّت عليه من الشمال. زفر وتبسّم. إنّ لقاءه بعائشة هذه النسمة في هذه الظهيرة المحرقة. لقد أسعده اللقاء كثيراً. لم يكن حبّه لها "لعب أولاد" كما فكر فيما مضى. فما معنى أن يندفع الحب فيما بينهما هكذا بعد غياب دام سنتين. سنة بعدما أغلق أبو حديدة معمل النشاء وسنة أخرى عندما أخذوه إلى الجبهة؟

مط شفته السفلى مستغرباً. هل يمكن أن يولد حب كهذا من شيء كاد أن يموت. لقد ألقت بنفسها بين ذراعيه ليس فقط كي يحبّها، بل أيضاً كي يلتقطها من كلّ هذه الأوحال التي غطست فيها. كي يبعد عنها كلّ هذه الكوابيس المرعبة. لقد أرادت أن تستيقظ، وأن تدسّ رأسها تحت إبطه كما تفعل النعامة، وها هي الآن تلوذ به تريد أن تتمسك بالأمان، فهو أمانها وسكينتها، والخطو إليه يعني العبور إلى عالم آخر لا وجود فيه لكلّ هذا الذي عانته، وكلّ هذا الذي فكّرت أنّها ستعانيه في المستقبل.

ارتاح لهذه الأفكار، وهو يردّ تحية إمام جامع باشا. وغذ السير صاعداً وقد بدأ يلهث. لقد دعاه الزعيم إلى بيته. قال له إنّه سيقيم وليمة غداء لبعض الوجهاء بمناسبة طهور حفيده، فعليه هو أيضاً أن يحضر. هكذا جرت العادة، طهور الصبي البكر شيء مفرح حتى في هذه الأيام.

كان حشد كبير قد تجمع في ساحة جامع الدَرَجْ. اقترب، وراح يسير بين الناس فاتحاً طريقه بصعوبة. الأغلبية كانوا من النساء المتلحفات بملاحف سوداء وعدد كبير من الأطفال والأولاد الحفاة والقذيري الملامح.

كان الجميع يحملون صحوناً فارغة وهم ينظرون بثبات، بأعين جائعة نحو ذبيحتين كانت إحداهما معلقة بكلابات على الجدار. اجتاز الجمع، ثمّ مرّ من أمام

الذبيحتين اللتين كان القصاب يقوم بنفخ إحداها من قدمها كي يسلخها. رحّب به رجال الزعيم، ثمّ قادوه عبر الدهليز نحو الحوش الذي مدّ فيه سماط كبير، وقد أحاط به عدد كبير من المدعوين الذين كانوا متربعين على الأرض المفروشة.

ألقى السلام، فرجع إليه عاصفة من التحيات. أوسع له أحد الرجال مكاناً قرب الزعيم. كان هناك يوزباشي حليق الوجه، أسمر، في الثلاثين من عمره، جالساً إلى جانب الزعيم وهما يتهامسان. استدار الزعيم نحو ربيع، وعرفهما ببعض. اليوزباشي حكمت... تشرفنا. إنّه رئيس أحد المخافر في البلد، وكلمته مسموعة جيداً. ابتسم ربيع وهو يصافح النقيب. بعد ذلك عاد الزعيم إلى همسه في أذن الضابط وهو يلمس يده بأصابعه البيضاء النظيفة.

أجال ربيع عينيه في المدعوين. كانوا من الشيوخ الملتحين الذين كانوا يثرثرون وهم يعبثون بمسابحهم الخشبية، ويتضاحكون بأناقة. بعد قليل وصل إمام جامع الباشا أيضاً، فجلس إلى جانب زملائه.

بعد ساعة من الانتظار، كان ربيع خلالها يحملق في السحنات الملتحية، وضعوا على السماط صواني الأرز الفريكة وعليها قطع اللحم المطبوخة. راح الجميع يأكلون بشهية رائعة، وكأنهم أكثر جوعاً من هؤلاء النساء والأطفال الواقفين في الخارج وهم ينتظرون دورهم كي يوزع عليهم ما يجود به الزعيم بمناسبة طهور حفيده.

أكل ربيع قليلاً، ثمّ فقد شهيته. كان يزعجه صوت سف الأرز والفريكة بالأيدي، وصوت المضغ العالي. كان يرى إلى نهش اللحم بالأنياب وكأن العالم سينتهي بعد قليل.

يا لهم من ذئاب... وحوش...

انتظر حتى شبع أحدهم. نهض، وغسل يديه، ثمّ جلس يدخّن في الغرفة المحاذية للدهليز. لم يطل الوقت حتى جاء اليوزباشي والزعيم وجلسا يسحبان أنفاس النرجيلة الثقيلة.

– أين تخدم أيها الرقيب؟ سأل اليوزباشي.

– في اليونانستان.

– آه... إنها بلاد بعيدة ولكنها جميلة. كنت هناك أثناء حرب البلقان عام 1912... ثم سأل:

– وهل أنت في إجازة؟

– لقد منحوني إجازة لمدة شهر.

– لا بأس.

– إنه بطل أيها السيد اليوزباشي. لقد أسر شخصية إنكليزية مهمة، ومنحوه وساماً.

ثمّ أضاف الزعيم:

– كان جندياً عادياً.

هز النقيب رأسه موافقاً وهو يشرق من نرجيلته، ثمّ قال موجهاً كلامه للزعيم:

– إنّنا نقضي أياماً سعيدة، فكلّ يوم خمسي وأحد نجتمع في فندق بارون. لم يعد الجلوس في الفندق مملاً كما في الماضي. ثمّ إننا سئمنا من نفس الوجوه ونفس الكلام، أمّا الآن فقد وجدنا تسلية عظيمة. هل تدري أيّها الزعيم أن حلب تملك أفضل لاعب شطرنج في الشرق.

– ماذا تقول؟

– إنه صالح بنبوك.

تابع ربيع اليوزباشي بعد أن التقت عيناه بعيني الزعيم المتسائلة بهدوء:

– أي الله... كان يخدم مع أحد العقداء في العراق. جاء به إلى حلب وهو يريد أن يتباهى به، فأرغمه على اللعب مع سيدي الأمر آلاي قائد الإمداد في الجيش الرابع، إلا أنّ ذاك الخبيث أراد أن يكيد للعقيد زهدي، فخسر الدق عن عمد أمام القائد، فغضب العقيد، وراح يصبّ جام غضبه على رأسه بعكازه، ثمّ سمعنا أن صالحاً قد هرب من العقيد، واختفى في البلد. وفي أحد الأيام كنت في حمّام برهم باشا أستحم فوجدت هذا الصالح فعرفته على الفور، قبضت عليه وسلّمته إلى سيدي أمير آلاي.

– وماذا حدث بعد ذلك. سأل الزعيم.

– أطلق الأمير آلاي سراحه، ثم سرّحه من الجيش، ووجد له وظيفة كاتب في

بلدية حلب، ثمّ ضمّه إلى شلتنا كصديق له حينما نجتمع في فندق بارون.

– إذن ... الأمير آلاي هو الذي وجد له تلك الوظيفة؟

– نعم... هل تعرفه؟

– إنه قريب ربيع أفندي.

أومأ ربيع برأسه إيجاباً. تابع الزعيم:

– كيف أمكنكم أن تأخذوا مثل هذا الرجل إلى اجتماعاتكم؟

– ما به؟ إنه رجل مهذب وصموت، لا يرفع رأسه عن رقعة الشطرنج.

ثمّ ضحك، وقال:

– وهو لا يشمت بالخاسرين. لقد لعب مع جميع الضباط، وهم يتسابقون ويضربون القرعة كي يلعبوا معه، إلا أنّه لم يخسر دقاً واحداً حتى الآن. تصور هذا، حتى إنه أدار رأس قنصل بلجيكا المشهور بلعبه.

استدار نحو ربيع، وقال له:

– أهنئك يا أخ ربيع على قريبك هذا.

ابتسم ربيع لمجاملة اليوزباشي. أحسّ بشيء من الزهو. لم يحسّ بأيّة غيرة، فقد تقبّل التهاني بسبب صالح بالذات. هل أخطأ بحقّه؟ سوف يصلح الأمر فيما بعد.

إلا أنّ الزعيم كان مغتاظاً. قال وهو يشدّ على كلماته:

– يبدو أنك لا تعرف صالح بنبوك كما ينبغي يا حضرة اليوزباشي. أليس كذلك يا ربيع أفندي؟

نهاه ربيع بغمزةٍ من عينه ووجهه يتضرّج، ثمّ قال:

– لا تقس على صالح يا زعيم!

ولكن الزعيم تابع:

– هذا الرجل هو من أكبر الداعين للتحرر من الحكم العثماني. لقد حدث وتعارفنا يوماً في المقهى، إنه ينحاز فوراً إلى كلّ من يطرح نفس هذه الأفكار اللعينة، مثل الأستاذ خلوق الذي قبضتم عليه ولا نعرف عنه شيئاً. سأل اليوزباشي:

– ومن هو هذا الأستاذ؟

– إنه مناهض للأتراك، اشتراكي النزعة. كان في أوروبا وكان يدرّس في

السلطانية. ربما أعدمتموه...

- أنا لا أعرف رجلاً أعدم ويحمل هذا الاسم. هل أنت متأكد مما قلته عن صالح بنبوك؟

فقال الزعيم:

- آهه... أنا الحاج صالح...

قاطعه ربيع، وقال:

- ليس هكذا يا زعيم، إنه لا يفقه شيئاً بالسياسة. لقد تحدّثت معه عدّة مرّات و... فقاطعه الزعيم بدوره:

- هل ضعف قلبك؟ لقد شكوت بعظمة لسانك مما كان يتفوه به. إن هؤلاء الرجال يشكّلون خطراً علينا والتسامح معهم سينتهي بأن يسحقونا في النهاية. أنا لا يهمني كيف يلعب الشطرنج، ولكن يهمني هو كيف يلعب بنا، ويؤلب الناس علينا. لقد أيدّ صالح الأستاذ خلوق عندما كان يهددني بأنّ الحركة الاشتراكية التي هو من ضمنها، سوف تقوم بطرد الأتراك، ثمّ ستسحق التجار والإقطاعيين.

بعد قليل غادر النقيب وهو يتجشأ ورأسه مشغول بقضية بنبوك.

اختلى ربيع بالزعيم على انفراد، وقال له:

- لقد قسوت على صالح بنبوك كثيراً أيّها الزعيم. ما كان عليك أن تحرض الضابط عليه، فهو قريبي في النهاية، وقد قام بمساعدة أهلي أثناء غيابي. ثمّ إنه ليس سيئاً. إنه يقول نفس الشيء الذي يقوله كلّ الناس في هذا البلد.

- دعهم يروضونه يا ربيع... لا تخف، لن يعرف صالح شيئاً!!

- أنا لا أقصد ذلك. هل عليّ أن أردّ له الجميل بهذه البشاعة، لنفرض أنهم أعدموه.

- وماذا في ذلك؟ إنها معركة... حرب بيننا وبين هذا الفكر السخيف الذي يعادي ديننا.

أطرق ربيع برهة وهو يتحرّق غيظاً من كلمات الزعيم الكبيرة. تباً لك أيها الزعيم... أحسّ أنّ عليه أن يغادر قبل أن يفقد أعصابه ويوجه له لكمة تزهق روحه. صافحه وهو يغض نظره عنه، ثمّ مشى مسرعاً باتّجاه الحشد الذي تعاظم. كان

القصاب يتابع عمله. كان يقوم بفرم اللحم إلى قطع صغيرة، بينما تعالت الأصوات من النساء والأطفال الذين فقدوا الصبر، وراحوا يتدافعون، ويتعاركون. شاهد كيف قام ابن الزعيم بإبعاد الحشد بواسطة غصن من الخيزران، كان يهوي به على أكتاف الناس وعلى صدورهن وهو يطلق السباب البذيء.

– أبعدي أيتها القحبة... وأنت يا شلكة. سوف أعطيكم (........) عوضاً عن اللحم!!

أمسك ربيع بقوة ساعد ابن الزعيم، الذي كان يهوي بالغصن، خلّصه الغصن، ثمّ كسره إلى قطع، قذفها بعيداً، ثمّ رفع قضبته إلى وجه الشاب برهة، ثمّ سار في الدرب الذي فتحته النساء، وهن يتطلعن، بشغف، إليه.

دفع باب بيتهم، وهو يتميز غضباً. اندفع نحو الحوش وهو يتوقع أن يجد صالحاً. كانت بهية جالسة، وقد انحسر ثوبها عن فخذيها السمينين الأبيضين، تمعك غسيلها.

– أين صالح؟

سأل ربيع. جرّت بهية ثوبها نحو الأسفل، وتوقفت يداها، وهي مذهولة، عن العمل. تأتأت قليلاً إلا أنه كرر سؤاله:

– أين صالح يا بهية؟

– ليس هنا. لم يأت منذ عدّة أيام، ماذا جرى؟

توجست شراً في نفسها. ماذا يريد منه أيضاً؟

إلا أنّه لم يجب بل استدار، وخرج. استأجر حنطوراً من ساحة باب الحديد وانطلق به إلى باب انطاكية. قرع باب بيت صالح عدّة مرّات، إلا أنّه لم يسمع جواباً. وقف قليلاً في الزقاق الضيق، وراح يدخّن سيجارة. ربّما أتى بعد قليل. يجب أن أحذره من ذلك الضابط الذي قد يحرّك لسانه مثل ذنبه. اللعنة... اللعنة على الزعيم وعلى وليمته! فكّر في نفسه.

اقترب منه الرجل الوحيد الذي صادفه في الزقاق. كان يتكئ على عكاز، يسبّح بمسبحته وهو يقرأ القرآن. قال له العجوز:

– من تنتظر أيها الجندي المحترم؟

تفرّس فيه قليلاً، وقال:

- أبحث عن صالح بنبوك.

التمعت عينا الرجل. كان هو الحاج أحمد لبنية صديق صالح. حسب أن الجندي قادم كي يلقي القبض على صديقه.

- ماذا تريد منه؟

- ومن أنت؟

- أنا جاره... أسكن هنا. وأشار إلى أحد البيوت.

- هل أتى اليوم؟ قال صالح.

فقال الحاج أحمد:

- لا... إنه مفقود، لعلّه مات. لم نره منذ سنة كاملة.

ابتسم ربيع. عرف ما كان يجول في ذهن الرجل، إنّه يكذب لكي يبعد الشر عن جاره.

استمرّ ربيع في هذه اللعبة، فهمس في أذن الحاج:

- أنا هنا كي أقبض عليه... حياً أو ميتاً. إنّه رجل خطر. هل تعرف مكانه؟

اصفرّ لون الحاج. يا له من جندي وقح، حياً أو ميتاً؟ ... بهذه البساطة؟ ماذا فعل صالح المسكين؟ إنهم لا يتركونه يرتاح. ألا يكفي أنهم أخذوه إلى الحرب وماتت زوجته، ثمّ مات حماره...؟

فقال الحاج، وهو يمسح العرق الذي تفصد على جبينه:

- إنك تتعب نفسك أيها الجندي المحترم.

- أنا لست جندياً أيها المواطن. أنا أومباشي، ألا ترى إلى الشرائط؟!

- حسناً أيها الأومباشي. عبثاً تقف هنا. صالح بنبوك لن يعود!

- أين هو إذن؟

- قلت لك إنه مفقود... أو ربما هارب.. أو ربما ... ميت.

- إنك تكذب أيها الشيخ. سوف نضعك في السحن وإياه لأنك تخفيه عن أعيننا!

استدار الحاج أحمد لبنية، وأراد أن يهرب، فقد سمع تهديداً بالسجن. ضحك

ربيع وهو يبصق عقب سيجارته، ثمّ قال للرجل:

– إلى أين؟

– إلى بيتي.

– انتظر لا تخف. إنني أمزح معك!

– كيف تمزح معي؟

– صالح بنبوك قريبي.

شرح له نوع القرابة التي تجمعه بصالح، ثمّ قال له:

– أشكرك يا عم. فأنت رجل طيب. اعذرني على مزاحي السمج...

دعاه الحاج إلى بيته إلا أن ربيعاً رفض. مشيا خارج الزقاق، ثمّ جلسا عند الحانوتي على الناصية والذي كان فاتحاً حانوته رغم خلوه من أيّة سلعة. تطلع ربيع إلى الجلة المتدلية من سقف باب انطاكية الأثري. وقال:

– إذن هذه هي جلة معروف التي سمي الحي باسمها؟

فقال الحانوتي: نعم هذه هي.

ثم قال الحاج أحمد لبنية:

– سوف أذكر لك شيئاً من تاريخ هذه الجلة. منذ قديم الأزمان، أيام الأيوبيين، كان هناك حارس لباب إنطاكية اسمه معروف بن جمر فلاق الجماجم. كان طويلاً عريضاً أسمر. كان يشل كلّ من ينظر إليه. كان يسير حاملاً الجلة التي تزن سبعين كيلو بيد واحدة ويصارع بها الأعداء، إلا أنهم استطاعوا أن يقتلوه في النهاية. وتخليداً لذكراه علق أهل الحي الجلة في هذا المكان، فبموته مات الأمان أيضاً.

بقي ساعة، شربوا خلالها قهوة البن الخالص، التي قام الحانوتي بتحضيرها. طلب منهما أن يخبرا صالحاً، ثمّ ودّعهما، وانصرف بعد أن لاحظ أنّ الناس راحت تمتنع عن الخروج من بيوتها بسببه.

سار باتّجاه بين أبي حديدة. كان زقاق الطويل قد بدأ يتسربل في عتمة خفيفة حينما وصل. وراحت عصافير الدوري تهرع إلى الثقوب الآجرية في الجدران بصمت، ولم يكن يعكّر صمت الزقاق إلا زقزقة طويلة لطير الزرزور الذي كان يستقبل الليل بهلع.

وقف أمام بيت أبي حديدة، وراح يبحث عن قطعة نقود معدنية كي يقرع الباب بها، فسمع صوتاً نسائياً يأتيه من البيت المقابل:

- بست... بست. اقترب!

اقترب من الباب الخشبي المهترئ. شاهد رأساً لامرأة، في الثلاثين ممدوداً من خلف الباب.

- ماذا؟

- ادخل!

تذكر ما قالته عائشة في الأمس. هذه هي المرأة التي تبيع جسدها من أجل إطعام أطفالها. كان وجهها مطلوساً بالمساحيق بشكل فظ، أما عيناها وحاجباها فقد خططا بالكحل العربي الأسود في خطوط طويلة تصل حتى الصدغين.

- لن أدخل. قولي ماذا تريدين؟!

- أعطني قرشاً من فضلك. إنني بحاجة إليه. تستطيع أن تضاجعني لقاءه!

ارتعد لكلامها. يا للبؤس البشري. فتحت الباب أكثر فبان جسدها النحيل الذي يكسوه قنباز خيط بشكل داعر، واشتم رائحة عطر رخيص تنبعث منها. خرجت وراحت تنظر إلى جهتي الزقاق، لم يكن هناك أحد. أمسكته من كم سترته، وشدّته إلى الداخل، ثمّ أغلقت الباب. اقتربت منه، والتصقت به. قالت بغنج مصطنع لم تفكر يوماً في أن تصقله:

- ماذا؟ أنت لا تريد أن تدخل... آ؟ تبدو كالديك المرتوي بوقفتك هذه. ولكنني أختلف عن كلّ الدجاجات الأخريات. هيا مدّ يدك. تمتع. إنني رخيصة كما ترى. بقرش واحد تستطيع أن تلقيني إلى الفراش الليل كلّه!!

- هيا ابتعدي يا امرأة!

- امرأة... أنا لست سوى جمرة نار... هيا جرّبني وسترى.

- إنك مقرفة!

- صحيح... ؟ ولكنني لست كذلك على الفراش، يكفي أن تمنحني قرشاً واحداً. أنا لا أطلب ذلك مقدماً.

- خذي القرش، واتركيني!

مدّ يده إلى جيبه، وأخرج قطعة من فئة المجيدي. قدّمها إليها فالتقطتها كما يلتقط الطير دودة الأرض. نظرت إليه. كانت عيناها تلمعان بخبث. ابتعدت عنه ودست المجيدي تحت ثديها. كانت صورتها تتغبش في الظلام.

قال لها بصوت منخفض سُمع بالكاد:

– ألا تستطيعين كسب عيشك إلا بهذه الطريقة؟

– لا أحد يمنح النقود دون مقابل.

ثمّ أضافت:

– مثلك.

– كام طفل تطعمين؟

– أربعة، بالإضافة إلى حماتي.

– أين هي؟

– إنها في الداخل.

– وهي تعلم؟

– إنها تسكت الصغير حينما أكون مع أحد.

– وأين زوجك؟

– هرب منكم، لا أحد يعرف إلى أين.

– وماذا عن المستقبل؟

– أيّ مستقبل؟

– أقصد ... كيف ستعيشون غداً مع بعض بعد أن يكون قد عرف كلّ شيء عنك.

– علينا أن نبقى أحياء إلى حين ذلك. ثمّ ... يدبّرها ربّك...!

زفرت، ثمّ تابعت:

– وهل تظن أنّه لا يعلم؟ إنك ساذج أيّها الجندي، فالرجال يعرفون كلّ شيء ولكن، هناك فرق بين الشرف والموت جوعاً، وأنا لن أسمح بأن يموت أطفالي أمام عيني. وليعلم زوجي ما أراد، إنه معذور وأنا معذورة.

– هذا ليس مبرراً. انظري إلى نفسك في المرآة. فأنت أسوأ عاهرة عرفتها في

حياتي!

– شكراً...

– أنا لا أريد أن أكسر خاطرك، ولكنني أتعجب كيف يمكن لهؤلاء الرجال، الذين يأتون إليك، أن يضاجعوك وأنت على هذه الهيئة، حتى هذه المهنة تحتاج إلى مواصفات معينة.

– لم يعد هناك مواصفات معينة يا عزيزي الجندي. لقد اختلطت الأمور في هذه الأيام. أيام حروبكم هذه. أنت تريدني أن أكون جميلة كي تنام معي، ولكن... ما هو الشيء الجميل الذي بقي في هذه الحياة؟ حتى البلابل لم تعد تغرد، والأمسيات الجميلة التي كنا نقضيها مع أزواجنا، بعد أن يكونوا قد عادوا متعبين، بقروش قليلة، لم تعد كما كانت إلى الأبد. والحياة التي نحياها، لقد ماتت فينا أية رغبة للعيش فيها. هل أنت سعيد بحياتك أيها الطير الغريد؟

صمتت لحظة وهي مستندة على جدار الدهليز تلهث من انفعالها. قالت بعد لأي:

– هل تحبّ الأطفال؟

– كثيراً.

– هل تريدهم أن يعيشوا حيواتهم بشكل سليم، سعداء، ومبتسمين؟

– نعم.

– إذن... أوقفوا هذه الحرب اللعينة، وأعيدوا لنا أزواجنا إلى بيوتهم. أعيدوا للأطفال آباءهم. حينها سنعود لنتحدّث عن الحب والجمال والسعادة. أما قبل ذلك فلا يمكن...!

سمعا طرقاً خفيفاً على الباب، فتحت. كان هناك رجلان غابت ملامحهما في الظلام قالت لهما وهي تهز ردفيها بحركة فاضحة ورخيصة:

– ادخل يا حبيبي... وأنت يا عزيزي لم تتأخرا، جئتما في موعدكما، ثمّ قالت لربيع الذي قفز خارج البيت:

– عد مرة أخرى أيها الجندي الطيب، سوف نتابع حديثنا. إنني الآن مشغولة كما ترى. أشكرك على المجيدي!

اقترب من باب بيت أبي حديدة وقرعه بالسقاطة. انتظر قليلاً قبل أن يأتيه صوت عائشة.

دخل فبادرته عائشة بعد أن سحبت الدرباس:

– إنه يلوب، أظنه سيموت، حمداً لله أنك جئت.

كانت مصفرة وهي ترتجف، وبات خوف عميق في عينيها. أسرع إلى غرفة أبي حديدة، كانت هناك شمعة تشتعل بشكل باهت. اقترب من السرير. كان أبو حديدة يحرّك رأسه يميناً ويساراً من دون توقف. كان يتمتم بشيء غير مفهوم، مغمض العينين، فاقد الوعي.

قرّب كرسياً وجلس إلى جانب السرير. كان الضوء الباهت يجعل بشرة وجه أبي حديدة أكثر اصفراراً، واليوم رأى ربيع كيف أن رأس الرجل قد صَغُر، وبرزت عظام الجمجمة والصدغين والذقن. يا لهذه الميتة البشعة... أخرج أبو حديدة يده من تحت اللحاف، وراح يبحث عن شيء. أعطاه يده. قبض عليها بضعف، وراح يتلمسها. بعد قليل فتح عينيه وراح ينظر إلى السقف. نادى على زوجته، ثمّ على ابنته، ثمّ ذكر بعض الأسماء غير المعروفة.

– ماذا يا أبا حديدة؟ قال ربيع بهدوء.

تطلع الرجل في ربيع ملياً. ثبّت عينيه في نقطة واحدة. كان ينظر بهلع إلى وجه عرفه... إنّه ربيع الزيات الصبي الذي مات منذ مدّة بعيدة في الحرب. كيف أتى؟ أم أنه هو الذي انتقل إليه.

– ربيع؟...

كان صوته الهامس يخرج من أعماقه السحيقة. يأتي من عالم آخر يختلف كلياً عن هذا العالم، ولكنه يماثله بالرعب والذعر، ويتفوق عليه.

– أنا ربيع يا عمي أبو حديدة.

هز الرجل رأسه ببطء. سحب يده بعيداً عن يد ربيع، وكأنه لمس جثة أحد الموتى. قال:

– هل أنا من الأموات؟

– كلا... بل أنت حي. أنت في بيتك وعلى سريرك.

- ولكنك مت منذ زمن بعيد.

- بل أنا حي... كما ترى، جئت لزيارتك. لم أكن أعلم أنك مريض.

عاد يجول بعينيه في أرجاء الغرفة. كان يريد أن يتأكد من أقوال ربيع، فهو لا يستطيع أن يحدد فيما إذا كان حياً أو ميتاً. سأل:

- أين عائشة؟

- إنها في الخارج.

- أريد أن أراها.. أين البنات؟ وأمّهن؟

- قالت عائشة: إنّهنّ في جبل الأربعين.

دخلت عائشة، وراحت تسقيه ماء بالملعقة. وعندما انتهت، تشبث بطرف ثوبها ولم يدعها ترحل. جلست إلى جانبه، وتركته يتلمّسها بيديه. كان يريد أن يقتنع بوجودها.

قالت له:

- انظر يا أبي، لقد عاد ربيع حياً، أليس ذلك رائعاً؟!

- لقد شاهدته، ولكنني اعتقدت أنني انتقلت إلى العالم الآخر مثله.

ثمّ توجه بكلامه إلى ربيع:

- انظر ماذا حلّ بي، إنني أموت.

- أنت مجرد مريض يا عم.

- بل سأموت، إنّني أشعر بذلك. لقد حلمت بأبي وأمّي وإخوتي. كانوا يدعونني كي أذهب إليهم. وعندما رأيتك إلى جانبي، اختلط عليّ الأمر، فها هي الحياة تصبح شبيهة بالموت.

صمت لحظة، ثمّ تابع:

- الحياة والموت توأمان، وفي بعض الأحيان يصعب عليك التفريق بينهما.

فقال ربيع:

- الموت لازم للحياة مثل لحظة الخلق، لا يجب أن نخافها.

- ولكنني خائف.

- مم...؟

– إنني أترك مجموعة من العناصر البشرية الضعيفة وأرحل، أليس ذلك ذنباً كبيراً؟

– هل تقصد عائشة وأخواتها؟

– نعم.

– سيكونون في خير إن شاء الله، فالدنيا لم تصبح جحيماً مستعراً بعد. أولاد الحلال لا حصر لهم.

– هل حدّثتك عائشة عن زواجها؟

– نعم... عليك أن تنسى الموضوع الآن!

– لن أنساه، لقد أخطأت بحق ابنتي، يا لي من أحمق. لنترك الرب يعاقبني كما يريد.

قالت عائشة:

– لا ذنب لك يا أبي، بل قمت بمساعدتي في الخلاص من ذاك الوحش الضاري.

– يا لك من طيبة، أنت تريدين أن أموت مرتاح البال.

تطلّع في ربيع ملياً. كانت عيناه المطفأتان تسبحان في دموعهما، وكان عرْق باهت ينبض ببطء في صدغه. كانت شفتاه تفتران عن أسنان ذات لون بني، وبانت خلالها لثته الزرقاء وبعد لحظة أحسّ بنوبة التقيؤ تعاوده. استدار إلى الطرف الآخر، وراح يتقيأ في وعاء صدئ، فوصلت إلى ربيع رائحة كريهة.

إنّه يتقيأ برازه . قال في نفسه . ثمّ استقام، وراح يشغل ذهنه بتملي الغرفة، ولما هدأ أبو حديدة من جديد، ومسح فمه، راح يتجشأ بعنف وهو يحس ألماً شديداً في بطنه وصدره.

عاد ربيع، واحتل كرسيه. كانت عائشة تسقي والدها منقوع الخشخاش المخدر. كان وجهه قد استحال إلى شيء يشبه وجوه الموتى، وكان يقلص وجهه بشدة بسبب الآلام المبرحة التي يعاني منها.

أمسك يد ربيع، التي عادت وارتاحت على فراشه بلطف، فأحسّ ربيع ببرودة تنتقل إليه من يدي أبي حديدة. قال الرجل:

– كنت أريد أن تكون شريكي في المدار، وزوجاً لعائشة. سامحني يا ربيع... خذ أموالي كلّها. خذ المدار والبيت وكلّ شيء... ولكن... تزوج ابنتي.. احمها. فعائشة تستطيع أن تسعدك. كما أنني تركت لهن أموالاً كثيرة. تستطيع أن تتصرف بالنقود كما تشاء. تستطيع أن تفتح المدار من جديد حينما تتوقف الحرب، وتعود إلى حلب!!

أخذ نفساً عميقاً بعد أن أحسّ بزوال الآلام بفعل المخدر، ثمّ تابع:

– كنت أريد أن أرزق بولد مثلك، كي يتابع من بعدي. ولكن الحياة تضن عليك بما تطلبه بإلحاح... عدني يا ربيع أنك ستتزوجها...!

كانت عائشة متضرجة عندما نظر إليها. كانت تنتظر بصمت، ردّ ربيع وهي تعاني من خفقان قلبها الشديد.

أجاب ربيع بصوت هامس:

– حسناً يا أبو حديدة، فليكن ذلك... إنّني أحبّ عائشة. سأتزوجها. أعدك بشرفي.

ابتسم أبو حديدة، ثمّ راحت يده تمسّد على يد ربيع الدافئة. رفع رأسه إلى السماء، وقال:

– الشكر لك أيّها الرب. لم أتوقع أن أموت سعيداً هكذا. الموت لم يعد يخيفني. خذ أمانك. فلقد أردت أن تميتني في أحلك الأيام. فليكن ذلك!

كان ربيع قد أمضى الليل كلّه إلى جانبه، معانقاً عائشة. ها هو الآن قد امتلكها، لقد أصبحت زوجته من هذه الليلة، ولم يتبق سوى إجراءات بسيطة متعارف عليها.

كم يحلو له أن تلقي رأسها على كتفه وهي صامتة. يحسّ بأنفاسها الحارة تلفح عينيه. أما هو، فيروح يحدّثها عن ماضيه كلّه. الماضي الذي ابتدأ من نفس اللحظة التي لقيها فيها والذي ابتدأ في أوّل خفقة قلب حارة.

– عائشة يا عزيزتي... هذه الحياة لا تساوي قشرة بصلة. لا تساوي أكثر من قيمة حياة نملة تدبّ على هذه الأرض. فالإنسان في الخندق لا قيمة له إلا بمقدار ما للطين العالق به من قيمة، وقد جاهدت للخروج منه. ناضلت من أجل أن أصبح

أكثر من ذلك... نجحت بعض الشيء. ولكن على حساب شيء آخر لا أفهمه. لقد أصبحت ملكهم. أصبحت آلة عجيبة تشبه بغل مدار أبي حديدة معصوب العينين، الذي كان يقود الذراع دون كلل ودون أن يعارض. سحقاً للحياة في الخنادق وسحقاً للحياة خارجها، كلها متشابهة.

ألا ترين إلى أبيك كيف يموت. هناك يموت الرجل بنفس الذل. يتقيأ دمه وبرازه أيضاً، ثمّ يموت كما تموت حشرة صامتة متوحشة، وأنا لا أطيق مجرد التفكير أن أصير إلى مثل هكذا مخلوق.

لقد ساعدني القائد مدحت باشا، له الشكر، لكنّه صيّرني إلى كلب صيد حقير يرضى بعظمة في آخر المطاف. كلّهم كذلك، كلّهم يريدون إذلالي، والزعيم أيضاً. لقد وشى بصالح إلى أحد النقباء. قال عنه إنه من رجال التحرر وإنه يصاحب رجالاً يؤمنون بالاشتراكية. لقد فعل ذلك بحضوري، كم هو حقير هذا الزعيم...

إن صالحاً رجل لا بأس به. قد تتعارض أفكارنا ولكنه يبقى إنساناً جيداً. ولا تنسي أنه قريبي، وأنا لا أستطيع أن أشرب من البئر، ثمّ أبصق فيه، هذا ليس من عادتي.

عند الفجر وقبل طلوع الشمس مات أبو حديدة، لفظ أنفاسه الأخيرة دون أن يتألم، فلقد كان تحت تأثير المخدر الذي أعطته إياه عائشة.

خرج ربيع، وأحضر رجلين، قاموا بغسله ثمّ تكفينه، ثمّ حملوه، دون تابوت، إلى (جبل العظام) القريب حيث دفنوه وهم يقرأون القرآن، نقدالتربي والرجلين أجرهم، ثمّ سار ببطء نحو سوق الصغير تلحقه عائشة التي كانت تلتحف ملحفتها السوداء الحريرية ذات القطعتين.

لم يكن ترحيب أم ربيع بعائشة كما يجب، فقد فوجئت العجوز بها. لم يكن ربيع قد حدّث أمّه، بأيّ شيء، عن تردده إلى بيت أبي حديدة، إلا أنها كانت تعلم أن عائشة كانت قد تزوجت من أحد الرجال في جبل الأربعين، وعندما سألها ربيع عن الفتاة، في اليوم التالي لوصوله إلى حلب، أخفت أمّه الخبر عنه، وأصرت على كتمانه وذلك لاعتقادها أن ابنها قد يتأثر فيما لو علم بخبر زواجها.

أما أن ترى عائشة في بيتها بصحبة ابنها، فهذا ما لم تستسغه أم ربيع في

بادئ الأمر.

تركوا الفتاة قابعة في إحدى زوايا غرفتهم مع الأولاد، ونزلوا إلى القبو، وراحوا يتناقشون. قالت الأم:

– ما هذا. أرى أنك تتمادى في تصرفاتك. هل خطفتها من زوجها؟

– كنت تعلمين إذن؟ سألها ربيع.

– نعم... كنت أعلم، قل لي لماذا أتيت بها؟!

– لقد طلّقها أبوها من زوجها. حدث ذلك من أكثر من شهر. أما أبو حديدة فقد أعطاك عمره هذا الصباح.

صمتت أم ربيع، وجعلت تمج أنفاساً سريعة من سيجارتها. سألت بهية:

– كيف حدث ذلك؟

– أصابه ورم عظيم في الأمعاء.

– يا له من مسكين... هل بتّ ليلتك عندهم؟ لقد انشغل بالنا عليك.

– ليس هناك ما يخيف. كانت وحيدة معه. بينما كان يموت ببطء.

همست أمّ ربيع:

– ماذا تريد أن تفعل بها؟

– سأتزوجها فوراً.

شهقت أم ربيع، بينما قهقهت بهية.

– لقد كبرت، وأصبحت كالتيس، لم أعد أفهمك. لماذا تريد الزواج من مطلقة؟

– وماذا في ذلك؟ أنت تعلمين أنني كنت أريدها من قبل. ثمّ أنني قد وعدت أبا حديدة بذلك قبل أن يموت. كان قلقاً على مصيرها من بعده.

صمتوا لحظة، وهم يدخّنون بشراهة. راحت بهية تطق علكتها بين أسنانها، فقد راحت تشعر بدغدغة في داخلها لهذا التغيير المفاجئ في حياتهم. غمزت إلى ربيع بعينها. كان ينتظر برجاء قرار أمّه بقبولها. بينما أرادت بهية أن تعلمه بأنها سعيدة بهذه الخطوة.

قالت الأم دون أن تنظر في عينيه:

– إذن... أنت تريد أن تتزوجها، ثمّ ترحل؟ والله أعلم متى ستعود... ولمن

ستترك عروستك؟ لأمّك طبعاً كي تحرسها، ألا يكفيني بهية؟

امتقعت بهية، وقالت:

– ماذا عني يا أمّي؟

– اسكتي أيتها البلهاء! إنني أعرف كيف تفتقدين زوجك، والآن ... تصيران اثنتين وهذا فوق طاقتي. كنت أسمع تنهدات واحدة فقط، أما الآن فعليّ أن أصبر على تنهدات زوجتين شابتين معاً.

ضحك ربيع مجلجلاً، وانتقل المرح إلى عيني الأم الباهتتين. راح يقبّلها وهو يدغدغها في إبطيها. دفعته بعيداً عنها وهي تفكر: لقد عاد حياً، وهذا ما كنت أؤمل به نفسي. إن التفكير بعودته كان شيئاً مستحيلاً. ليتزوج من يريد. هذا ليس وقت الحسب والنسب ولا يهم إن كانت مطلقة أم عذراء.

ثمّ قالت بصوت مرتفع:

– خذ الغرفة الأخرى. سوف نساعدك على تنظيفها وفرشها. اذهب فوراً وأحضر الشيخ والشهود، فأنا لا أريد أن تمكث عندنا ليلة واحدة دون عقد قرانها!

وعمّت البهجة البيت. كانوا يبتسمون، وهم يعملون. غسلوا الغرفة الثانية وأشرعوا نوافذها، ثمّ غسلوا أرض الحوش. ساعدتهم الكنة بخجل رغم اعتراض الأم، وعندما انتهوا من أعمالهم، قامت بهية، وأخرجت ثوب زفافها، الذي كان يفوح برائحة الكيروسين المضاد للعث، وقدمته إلى عائشة. التقطته الفتاة فرحة، وقد تضرّج وجهها. ساعدتها بهية في ارتدائه وعندما أصبحت جاهزة، ضمّتها بهية، وقبّلتها قبلة طويلة صادقة، وهمست في أذنها:

– لماذا أنت خائفة؟ أنت مرحب بك في هذا البيت.

– حسبت أنّ أمّ ربيع ستعارض.

– إنها امرأة طيبة، وقد أحبتك. إنها متألمة لأنه سيتركك بعد أسبوع، ويرحل، لا عليك.. سنصبح صديقات، وسنحب بعضنا. إنّي أيضاً أنتظر زوجي، وسيهون الأمر علي وعليك عندما نكون معاً.

ابتسمت عائشة برقة، واستشعرت شجاعة من حديث بهية.

خرج ربيع. وبعد ساعة عاد برفقة أحد الشيوخ من كتبة العقود وشاهدين. كان

أحدهما الشيخ حسن آذن جامع سوق الصغير.

تمّ عقد القران، ثمّ خرج الشيخ حسن، ووقف على سطح الجامع، وراح يصيح بأعلى صوته: يا ناس... يا مؤمنون... يا أهل حي سوق الصغير واغيور وباب الحديد وحارة الريش وزقاق الطويلة، لقد تمّ عقد قران ربيع بن علي الزيات على عائشة ابنة خليل أبو حديدة اليوم على سنة الله ورسوله، والحاضر يعلم الغائب وهذا ما شاء الله.

ثمّ عاد يكرر قوله عدّة مرّات، وهو يتلمس المجيدي الذي حصل عليه من العريس. وتردد في طريق الماوردي صوت زغرودة بهية الصادحة واللامتناهية. وخرجت بعض النسوة إلى الأسطحة، ورحن يتساءلن عن الحدث، ويثرثرن بصوت مرتفع، فنهرهن أحد الشيوخ المارين في الطريق، وهو يدق الأرض بعكازه المصنوع من خشب الجوز الثقيل. ولم يمنع الشيخ تنهيدة طويلة لعذراء كانت في الماضي، تراقب ربيعاً، وتحلم أنه سيأتي يوماً ويخطبها من أمّها، ويخلّصها من بيتهم البائس هذا، الذي جاعت فيه طويلاً.

* * *

(18)

لبس صالح واحداً من أطقم خلوق أفندي، المصنوع من الصوف الإنكليزي الخالص، ثمّ عقد ربطة العنق، ورفع حاملات البنطال إلى كتفيه، ثمّ راح يسرّح شعره وهو واقف أمام مرآته العتيقة المتقشرة.

شكر في ذات نفسه خلوقاً، لأنه ترك له بعض ألبسته الأنيقة، والتي تناسب مجتمع فندق بارون. لقد اعتاد أن يرتديها كلّ خميس وأحد.

مرر ظاهر يده إلى ذقنه الناعمة، ثمّ راح يفرك عينيه بأصابعه.

لقد أصبح أكثر نحافة مما مضى، ولهذا السبب استطاع أن يستعير بعض ألبسة خلوق أفندي الذي كان، يوماً من الأيام، أنحف منه وأقصر قليلاً. وضع الطربوش الأحمر أيضاً. كان قد اشتراه خصيصاً لهذه المناسبات، فكلّ الذين يحضرون أمسيات الشطرنج، يعتمرون شيئاً على رؤوسهم، أما هو فعليه أن لا يتميز عن الآخرين، خصوصاً وأنه يبطحهم أرضاً ويدوسهم . كما يقول في نفسه دائماً . بعد دقائق قليلة من بداية كلّ لعبة.

كشّر عن أسنانه الصفراء. لقد ازداد اصفرارها، فراح يفركها بخرقة، فركاً قوياً، حتى راحت الخرقة تزقزق، ثمّ فتح موس الحلاقة، وأنشأ يوازن بين طرفي شاربه.

صفّر، ثمّ راح يدندن أغنية محببة وهو يتابع مراقبة أناقته، التي هبطت عليه من السماء فجأة، في المرآة:

شفتا واقفة على البركة ضربتني بالجانركة

يحرق بيّا شو حركة أخدت عقلي وإيماني

جلس على الأريكة، ووضع رجلاً على رجل، ثمّ لفّ لنفسه سيجارة، وراح يدخّنها. هكذا يجلسون في فندق بارون. الأمير آلاي والبكباشية واليوزباشية، وقنصل بلجيكا الهرم أيضاً، هذا العجوز الذي يهوى الشطرنج وجمع الآثار القديمة.

لقد دعاه القنصل إلى بيته الكائن في أحد خانات سوق المدينة، وعندما دخل استقبله استقبال القناصل، ثمّ راح يعرض عليه مجموعته الأثرية الضخمة. هذه القطعة من القلعة، وهذه من قلعة سمعان وتلك المجموعة من باب قنسرين و... إلى

آخر ما هنالك من قلاع وأبواب وأسواق. كان يشرح وهو يثني ظهره كما يثني غصناً ويخاف أن ينكسر.

كانت القطع الأثرية والتماثيل مصفوفة على الرفوف ومعلقة على الجدران. لم يخل شبر واحد من هذه الأحجار الأثرية، في الصالون وغرفة المكتبة وفي غرفة الطعام والنوم والمطبخ وفي الردهات... في كلّ مكان. فكّر حينئذ في نفسه وهو يستمع باهتمام إلى شروحات القنصل الغامضة.

إنه لص مهذب، هذا هو كلّ شيء. إنّهم يسرقون تاريخنا عن هواية.. ثمّ تذكر ما قالته زينب في أحد الأيام حينما كانت تصف له باريس: لقد أقاموا في إحدى ساحاتها مسلة حجرية مصرية هائلة مليئة بالنقوش والكتابات الهيروغليفية. نابليون هو الذي سرقها حينما احتلّ مصر. إنّها شاهد على ثقافتهم العالية ولصوصيتهم الدنيئة.

ثمّ تبسّم حينما تصوّر قلعة حلب منصوبة في إحدى ساحات بروكسل أو باريس أو لندن وهمس بصوت خافت، وكأنّه يخاف أن يسمعه أحد: الأندال...

كان صالح يكره اجتماعاتهم وأحاديثهم وروائح عطورهم المرشوشة على ذقونهم، وأضحى لعب الشطرنج معهم، في فندق بارون، وفي بيت القنصل البلجيكي مملاً إلى أبعد الحدود. وعندما أسرّ بذلك إلى الأستاذ عبد الجليل، نهاه الأخير عن الانقطاع عن الاجتماع بهم، وقال:

– أنت لم تعِ بعد أهمية وجودك معهم؟ لا تجعل اليأس يدخل إلى قلبي بسببك... إن صداقتك مع هذه الفئة لها فائدة عظيمة لحلقتنا، فهذا سيمكّننا من معرفة آرائهم وأفكارهم وآخر أخبار الحرب. إن صلتنا مع بيروت منقطعة الآن بسبب قمع جمال باشا، ولا نستطيع تقدير الوضع إلا من خلال ما ستعرفه أنت من هناك. تابع معهم وصادقهم وإياك أن تناقشهم في أمر ما. ستأتي اللحظة المناسبة، والتي فيها، سنستفيد من كلّ ما تجمع من أخبار!!

حكّ صالح قحف رأسه، وهو يطفئ سيجارته، ويسحقها بحذائه، ثمّ قال في سريرته: حسناً يا صديقي... إنها مهمة مقرفة، ولكنني سأتابع، فالحلقة أهم من غثيان معدتي.

سمع أحدهم يطرق على الباب بالسقاطة. سار باتّجاه الدهليز وهو يقلد مشية القنصل:

- تفضل يا حاج أحمد. كيف حدث، وتذكرتني؟

فقال الحاج أحمد لبنية وهم يبتسم عن لثته التي بقيت دون أسنان:

- ما هذا يا أبا حسن؟ إنك تبدو مثل الأساتذة والخواجات، وكأن أحد أفراد عائلتك كان من البيكاوات.

فقال صالح مازحاً:

- هل نسيت أن أمّي كانت أسوم باشا؟

ضحك الحاج أحمد وعيناه تدمعان:

- أسوم باشا اللحم عجينجي من سوق الزرب، أنت ابن أصل والله.

هدأ الضحك ومسح الحاج أحمد عينيه، ثمّ قال:

- أين كنت البارحة؟

- عدت متأخراً، ما حدث؟

- لا شيء... بحث عنك واحد من أقربائك، اسمه ربيع الزيات، كان يلبس بدلة العسكر.

- وماذا يريد مني يا ترى؟ إنه لا يحبني، فكيف جاء إليّ؟

- لا يحبّك؟ ... وهل يوجد رجل في حلب لا يحبّك؟

- حسناً... سوف أذهب إليه، مازال عندي وقت.

عندما دفع باب بيت الزيات ودخل، كانت أشعة الشمس الحمراء تسقط على الحيطان العالية بتكاسل، وراحت السنونو تزعق بصوت صفيري مزعج، وكان هناك عدد من عصافير الدوري تزقزق، وهي تنط على أغصان شجرة التين البري الوارفة.

هرعت إليه بهية والأولاد، وراحوا يتسابقون في نقل الخبر السعيد، حتى حمودة كان يتأتئ:

- عمو ربيع قد تزوج.

- ماذا يا بهية؟

- ربيع تزوج عائشة ابنة أبو حديدة، خبر مفاجئ أليس كذلك؟

عَلَتْ القهقهات والأصوات فطارت العصافير فزعة. كان السرور يشع من عيون بهية والأولاد، أما بهية فقد ازدادت حلاوة، وتضرّج خداها ولاحظ جمال عينيها الأخاذ وقد أطرتهما خطوط الكحل الجميلة.

- أين هو؟

- إنه في غرفته وإياها.

ثمّ غمزت بعينها، وضمّت شفتيها بقوة، ولاح أثر التهيج الجنسي عليها.

انصرف الأولاد بعد أن وزّع عليهم قطع الحلوى، ثمّ جاءت أم ربيع تسير متثاقلة، وجلست إلى جانبه على الأريكة. قالت أمّ ربيع:

- عقبيل عندك يا أبو حسن...

- أشكرك... كيف حدث ذلك؟

- كان يتردد عليهم الملعون دون أن ينبس بشيء، واليوم صباحاً أتى بها. قال إنه سيتزوجها وأن أبا حديدة قد مات.

أشعل لها سيجارتها، ثمّ تابعت:

- إنها ليست سيئة، عيبها أنها مطلقة يا أبا حسن.

- هذا ليس عيباً.

- أجل ... أفهم ذلك... لم يرد أن يتركها وحيدة في بيتهم.

تحادثا هامسين، ثمّ شربا القهوة التي قامت بهية بصنعها. سأل صالح:

- لقد جاء لعندي البارحة، ولم أكن موجوداً.

- لا أعلم أيّ شيء، هذا الولد صموت ولا يفصح عن أيّ شيء.

ثمّ قالت بهية:

- أجل... كان يبحث عنك، حتى إنني خفت من الطريقة التي سأل بها عنك.

فُتح باب الغرفة الثانية، وهبط ربيع الدرجات مسرعاً. صافح صالحاً، ثمّ عانقه وتبادلا التحيات والتهاني.

كان ربيع منتشياً وشفتاه محمرتان وقد بدا عليه أثر النوم. راح يرشف من قهوة أمّه، ثمّ أشعل سيجارة، وراح يدخّنها بمتعة كبيرة.

قالت أم ربيع وهي تبتسم:

– ها أنت تبدو أنيقاً يا صالح أفندي.

– أفندي...؟

ضحك صالح، فتابعت أم ربيع:

– إن وظيفتك في البلدية تلائمك.

فقالت بهية وهي تنظر مباشرة في عيني صالح:

– هكذا يبدو كلّ من يتوظف في البلدية يا أمّي، سيشرق عيون عذارى الحي... انتبه إلى نفسك يا صالح، فنساء حينا على استعداد لأن يخطفنك إذا ما تجولت في الطرقات من دون حماية.

ضحك صالح وقد احمرّ وجهه من غزل بهية المبطن، ثمّ شاهدها وهي تهز وركيها أثناء خطوها في الحوش، وقبل أن تغيب خلال باب القبو ألقت عليه نظرة ملعونة.

غابت الشمس. نامت العصافير، وراحت ظلمة شفافة تسربل قعر الحوش ذي الجدران العالية. كانوا يتبادلون الأخبار، وهم جالسون على الأريكة في صورة مغبشة، فارتاح صالح لموقف ربيع تجاهه. إنه لم يوجه له كلمة سيئة بل كل ما هنالك أنه راح يعبّر عن شعوره نحو العثمانيين بنفس تلك الطريقة التي يقولها كلّ فرد في هذا البلد، وكان قد حسب أن القطيعة بينهما قد تمّت، إلا أنّ ربيعاً كان يتصرف وكأنّ شيئاً لم يكن. قال ربيع:

– قَدِمْتُ إلى بيتك ولكني لم أجدك، وزياراتك لعندنا أصبحت نادرة... هذا لا يجوز... كلّ ما هنالك أنني أردت تحذيرك.

– من ماذا؟

– من خطر قد يهددك.

– أنا لا أفهم... ما هو هذا الخطر؟ ... ولماذا؟...

– لقد فسد عليك الزعيم. كنا في وليمة أقامها في بيته، وكان هناك يوزباشي يعرفك جيداً واسمه حكمت، قال إنكم تجتمعون للعب الشطرنج في الفندق، ولما علم الزعيم بذلك أخبره أنك قريبي، وأنك تحرّض الناس على الثورة ضدّ حكم الأتراك، ثمّ قال له شيئاً أعظم...

- ما هو؟

- قال إنك كنت تصاحب رجلاً من أصحاب الدعوة الاشتراكية، إنه مقتنع أنك واحد منهم.

- يا للسافل!

تابع ربيع وهو يهمس في أذن صالح السليمة:

- لقد حاولت أن أنفي الأمر إلا أنّ اليوزباشي بدا عليه أن اقتنع بكلام الزعيم، وأنه قرّر أن يفعل شيئاً.

صمت صالح، كان يفكر في الأمر، ثمّ سأل:

- متى حدث ذلك؟

- في الأمس.

توجست أم ربيع التي كانت تصغي، وقالت:

- لقد حذرتك يا أبا حسن من اللعب بالسياسة... ماذا ستفعل؟

فأجاب صالح:

- لا أعلم... ماذا أقول؟ ... شكراً لك يا ربيع، أنا سعيد لأننا متفاهمان.

ثمّ أضاف:

- اليوم هو الخميس، ونحن نجتمع مساء في الفندق، وخلال ساعة فقط لا أستطيع أن أفكر بشكل كافٍ، وأقدّر الخطر. هل عليّ أن أذهب إليهم، أم أهرب من جديد، وأختفي في البلد؟

فقالت أم ربيع وقد لاحظت ارتباك ذهن صالح:

- اهرب منهم... اترك بيتك وتعال إلينا، سنخبئك في أعيننا!

ثمّ سألت:

- ولكن ما هذه التي تسمونها الاشتراكية؟

فقال ربيع:

- لا أعلم..

فقال صالح:

- إنها أخذ من الغني وإعطاء للفقير.

فقالت أم ربيع مصفقة بيديها:

– إياك أن تخاف منهم يا صالح أفندي، فهذا الموضوع لا علاقة له بالسياسة!

بعد قليل، قرّر صالح الذهاب إلى الفندق، فحسم تردده، وأصرّ ربيع على الذهاب معه، فنهض، وولج غرفته كي يقوم بارتداء ثيابه، وفي الطريق راح صالح يعدد الاحتمالات في ذهنه، ماذا سيقول الأمير آلاي؟... إنه بلا شك ضابط لطيف المعشر ويقدّره كثيراً. هل سيترك النقيب يلعب بذيله؟ خصوصاً وإنه . أي صالح . قدم كل ما كان الأمير آلاي يتمنّى؟

ثمّ اقتنع أنّه في حال عدم اقتناع الضابط الكبير بدعاوى الضابط الصغير فإنّ على النقيب أن يأكل خراه، ويسكت..

إلا أن هذا الاطمئنان لم يدم سوى لحظات، السبب هو قنصل بلجيكا الذي راح يغار منه الأمير آلاي بعد أن لاحظ اهتمامه الزائد به، وبسبب من هذا الشعور قد يقدم الأمير آلاي على خطوة ليست في صالحه.

قد يفكّر أنه آن الأوان كي يتخلص منه قبل أن يحصل عليه قنصل بلجيكا كما يحصل على أيّ قطعة أثرية يريدها من أوابد هذا البلد.

سمعه ربيع يهمس: عليهم اللعنة أولاد العاهرة هؤلاء!

وصلا إلى الفندق. كانت العربات التي تجرها الخيول، مصفوفة في خطّ مستقيم، بينما راح الحوذية يثرثرون وهم يدخّنون. صعدا الدرج إلى الشرفة العلوية وولجا الباب الواسع. كانت صالة الفندق مضاءة بشدّة بواسطة لمبات اللوكس وثريات الشموع المعلقة إلى السقف.

همس ربيع إلى صالح:

– لا تخف، سوف أنكح أم كلّ من يريد أن يؤذيك.

ثمّ أضاف:

– إنني أحمل مسدسي.

ابتسم صالح لربيع الذي التصق في إحدى الزوايا، ثمّ راح يصافح الضباط أصحاب الرتب اللامعة، الذين راحوا يبتسمون بأدب جم.

كان هناك ما يربو على خمسة وعشرين رجلاً من بينهم قنصل بلجيكا ومعاون

قنصل أمريكا الذي كان أطول من الجميع بشبرين تقريباً.

– هذا واضح... الخروج من الإمبراطورية بمساعدة الحلفاء لإضعاف الأستانة في حربها ضدّ دول المحور.

– هل هذا فقط؟ . سأل أحد الضباط.

– سوف يعلن أمير مكة نفسه ملكاً على الدولة العربية التي يفكّر بسلخها عن إمبراطوريتنا الخالدة.

عاد الإقطاعي الثري، وسأل وهو يمسح عرقه عن رقبته بمنديل:

– ومتى تتوقع أن ينتهي الموضوع؟

– أيّ موضوع؟

– هذه الثورة اللعينة... إلى متى ستستمر؟

– إنّكم تضخمون الأمور دون معنى. في اعتقادي، أنّ الأمر سينتهي خلال أسبوعين أو ثلاثة. لدينا قوة لا بأس بها في جدة والموانئ المجاورة، كما أنّ قوة النجدة التي أرسلناها سوف تنزل الرعب فيهم، وسوف تربكهم.

ثمّ أضاف القائم مقام مهدداً بقبضته:

– أسبوعين أو ثلاثة.. أسبوعين أو ثلاثة فقط.

تركهم صالح، ومشى باتّجاه الحلقة التي تكونت حول قنصل بلجيكا. كان معاون القنصل الأمريكي قد حنى ظهره يستمع إلى رائد قصير القامة وهو يدخّن سيجاراً أسود اللون ذا رائحة نفاذة. وقف الرائد على أصابع قدميه، وراح يتحدّث بميكانيكية تناسب وجهه الجامد:

– أيّها السادة... من الطبيعي أن تحدث مثل هذه الأعمال الفوضوية في إمبراطورية ممتدة الأطراف بهذا الشكل الذي نحن فيه... وأستطيع أن أذكركم بحركة محمد علي باشا في مصر، وكيف امتدت إلى سورية. ولكنّ السؤال الذي يطرح نفسه في هذه اللحظة: إلى أين تسير مثل هذه الحركات؟ هل تستطيع هذه الثورات زعزعة الباب العالي؟ بالطبع لا... سوف تكون النهاية وخيمة لهؤلاء العروبيين. إنّ أقلّ ما يمكن عمله هو إلزام أحمد جمال باشا بحلّ هذا الإشكال. إنّ مجرد ذكر اسمه سوف يعيد الرؤوس إلى الأكتاف.

فقال معاون القنصل:

– لقد تغيّر الزمن يا حضرة اليوزباشي. نحن الآن في القرن العشرين، ولا تنسى أنّ إنكلترا تقرع الباب، وتتواجد بكثافة في العراق وعدن ومصر. وهناك شيء آخر... الحرب.. إنّ كلّ هذا يجعل الأمور لا تسير وفق قانون منطقي ترسخ في ظروف مغايرة.

في اعتقادي الشخصي . ولا دخل لحكومتي بهذا طبعاً. إنكم ستواجهون صعوبات جمّة.

ردّ الرائد بميكانيكية جعلته لا يبدي تأثراً بكلام معاون القنصل المتنبئ:

– دعنا يا صاحب السعادة نطرح السؤال على هذه الشاكلة، هل الشريف حسين يمثل فعلاً جميع عشائر الجزيرة؟ ثمّ، هل يستطيع أن يكسب تأييد شعوب العراق واليمن وشرق الأردن وسورية؟

إنّ الشريف حسين ليس بمفرده في الجزيرة، فهناك ابن سعود والإدريسي وابن الرشيد والإمام يحيى في اليمن. إنّ الباب العالي يا صاحب السعادة، يراهن على صراعاتهم المترسخة منذ أمد بعيد. سوف نرى كيف سيقوم بعضهم بإنهاك بعض، ومن يضحك أخيراً يضحك كثيراً.

– نعم... هذا المثل صحيح. ولكن نفوذ إنكلترا قوي عند جميع هؤلاء، وهي . أي إنكلترا . تستطيع بدهاء أن تجعلهم يتركون، جانباً، صراعاتهم على المصالح مؤقتاً، وتوجههم كجيش واحد، ضدّ الجيش التركي. فقال الرائد بثقة عظيمة:

– لا تستطيع إلى ذلك سبيلاً، فنحن نعرف العرب جيداً وقد قمنا بعمل جبار خلال أربعمائة من السنين.

توقف النقاش عند هذا الحدّ، فقد أحسّ الأمريكي بتجاوزه الحد، فأطلق نكتة بريئة عن الإنكليز جعلت الضباط الأتراك يقهقهون منشرحي الصدور.

قال الأمريكي موجهاً كلامه إلى صالح حتى يوجه الحديث بذكاء بعيداً عن الحرب:

– أين تعلمت الشطرنج هكذا ببراعة أيّها الأستاذ؟

– كانت عائلتي بارعة في هذه اللعبة.

– لقد شاهدتك تلعب في المرة الماضية، وقد أعجبت بلعبك جداً. أستطيع أن أنظم لك مباراة مع أحد الشطرنجيين الأمريكان.

– شكراً يا صاحب السعادة، فأنا أعتقد أنّي لم أتمكّن بعد من منازلة الأساتذة العالميين.

– لا يجوز أن تكون متواضعاً بهذا الشكل.

– هذا هو الواقع، قال صالح وقد أحسّ باقتراب اليوزباشي حكمت منهم. وضع الأخير ذراعه على كتف صالح، ثمّ استأذن من الجمع:

– سوف آخذ الأستاذ صالح برهة.

جلسا في مقعدين متجاورين. بحث صالح عن ربيع فوجده يراقبهما من مكانه ذاته. تطلع في عيني حكمت وهو يبدي هدوءاً منقطع النظير، فقد استعدّ لمجابهته، ليس أمامه سبيلاً آخر. كان يعتقد أن الأمير آلاي سيكون موجوداً ومن المحتمل أن يردع هذا النقيب الشكاك، إلا أنّ الأمير آلاي المشغول بأخبار الثورة المشتعلة في الجزيرة العربية أحبط آماله، ثمّ هناك ربيع، ومسدسه، الذي أوحى له، أنه على استعداد لأن يستعمله حين اللزوم.

ماذا يمكن لربيع أن يفعل؟ هل بإمكانه قتل ضابط كي يخلصه إذا ما قرروا إلقاء القبض عليه؟

قال حكمت وهو يشير إلى ربيع برأسه:

– أرى قريبك قد جاء معك هذه المرة...

– أراد أن يشاهدني ألعب الشطرنج كي يتأكد من أني أهزم الجميع.

ابتسم حكمت وصدق الكذبة. قال وهو يشعل سيجارة لنفسه ولصالح:

– هناك أمر أريد أن أعرف مدى صحته. يتعلق بك.

– لا بأس.

– قالوا إنك تدعو مجاهرة للتحرر من الحكم التركي، وإنك منخرط من أجل ذلك، في حزب اشتراكي. كلّ ما أتمنّاه أن يكون الخبر مجرد إشاعة جاءت من رجل مغرض، لذلك... تحدّث معي بصراحة ومن دون خوف أو كذب! نحن صديقان وتستطيع أن تثق بي جيداً. هل هذا الخبر صحيح؟

قال صالح في ذاته: إنه يتخابث، هذا الدب القادم من الشمال. ثمّ قال بصوت مسموع:

– ما رأيك أنت؟

– أنا لا أعرف شيئاً. كلّ ما أعلمه، قول صدر عن شخص ما، ولو كنت متأكداً لما سألتك بل كنت أرسلتك مباشرة إلى ديوان أحمد جمال باشا.

إذن ... إنه يلعب لعبته هذا اليوزباشي اللطيف. لو كان متأكداً لأرسلني... لقد راح يصعد هذا المعلون.

قال ربيع وهو ينظر إلى شفتي الرجل الممتلئتين:

– إن الذي نقل إليك هذا الخبر هو الزعيم صالح بالذات، لقد أراد أن يورطني معكم لأنه لا يحبّني.. كان عليك أن تردّ عليه فوراً، فنحن أصدقاء أليس كذلك؟

– أجل ... ولكنك لا تحبّ الجيش التركي.

– بل لا أحبّ أن أكون جندياً يحارب. لقد قلت لكم هذا أمام الأمير آلاي بالذات، وهذا ليس جرماً وقد وافقتم على تسريحي، وقمت أنت بكتابة الأمر.

– لماذا لا يحبّك الزعيم؟

– إنه لا يحبّ كلّ من لا يركع أمامه، فهكذا يتصرف كلّ أغنياء حربكم. أنا وأنت وربيع نكاد نموت في الخنادق من النار والجوع، بينما هو يستفيد منها في مضاعفة ماله وبنيه.

صمت اليوزباشي، كان مستمراً في تطلعه القاسي في عيني صالح، فلقد أصاب صالح الهدف في عقله مباشرة. عليه أن يتابع طرق الحديد وهو حام:

– أليس هو متعهداً لديكم؟... إذن فهو يسخّر الجيش لمصلحته الخاصة، وهؤلاء الناس يروحون يتطلعون إلى ما هو أكثر من خبايا الذهب.

لم يسأل اليوزباشي ما هو الأكثر، إلا أنّ صالح أجابه:

– إنهم يتطلعون إلى السلطة والوجاهة، وسلطتهم لا تتجسد إلا بسجود الناس لهم، كلّ ما هنالك أنني أستأ له عندما عارضت آراءه، ورفضت كوني خادماً لديه.

إلا أن اليوزباشي نفض رأسه، أراد أن يتحرر من أسر صالح الذي وضعه فيه، فقال:

– ولكنك تعرف أستاذ الحساب القادم من إيطاليا... أقصد خلوق رجائي...
– نعم... وماذا في ذلك؟
– إنه اشتراكي، يتكلّم عن الطبقات والحكم الجمهوري والديمقراطية وغيرها من مفردات الإلحاد.
– لم أسمع منه هذا الهراء.
– وماذا سمعت إذن؟
فقال صالح، وقد شعّ اليأس في عينيه:
– كلّ ما أعرفه عن الأستاذ خلوق، إنّه مهذب ومعلم للحساب والهندسة ولاعب شطرنج سيء، إلا أنّه يملك مجموعة لا بأس بها من الألبسة الأوروبية الجميلة.
ثمّ نهض، وأشار إلى الطقم الذي كان يرتديه، وسأله:
– ألا ترى إلى هذه البدلة الأنيقة؟ لقد أورثني إياها، فلم يعد بحاجة إليها بعد أن سحبوه إلى الجيش، إنه يتبختر في البدلة الخاكي في هذه اللحظة.
سلّك اليوزباشي صوته، وقد راح يتعرّق. كان يلعن في ذهنه، أم صالح. وقف هو أيضاً، ثمّ قال:
– سؤال أخير... هل تعرف رجلاً باسم عبد الجليل الشلاح؟
– من هذا أيضاً؟
– ملحد آخر...
– لو كنت أعرفه لقطعت رأسه، وقدّمته إليك على طبق.
مدّ يده وصافحه، كانت الصالة قد فرغت إلا من ربيع الذي كان قد قبع في أحد المقاعد وهو يراقبهما، ومن ذاك الضابط الذي كان يراقب إحدى رقع الشطرنج ورأسه لا يزال بين يديه. استوقفه اليوزباشي وتطلع في عينيه ملياً ثم قال وهو يعصر يده:
– انظر في عيني يا أستاذ صالح، سترى أنني لم أصدقك، أنت لعين.. ولكنني ألعن... سوف أصبر عليك حتى أفوز بك. يكفيني منك هفوة صغيرة كي أضع رقبتك في حبل المشنقة المتدلي من ساعة باب الفرج.
سحب صالح يده من يد الضابط، وقال هامساً:

– أنت تتعب نفسك أيها اليوزباشي المحترم.

استدار وابتعد عنه... نهض ربيع، ورفع يده مودعاً ثمّ اتّجها نحو المخرج. سمعاه يقول مهدداً بصوت عال: سنرى ... ثمّ خرجا.

هبطا السلم إلى الطريق. كان هناك عدد من الضباط مازالوا يتحاورون بصوت هامس قبل أن يستقلوا عرباتهم، وينطلقوا متسلّلين خلل ظلام الليلة اللامقمرة مبتعدين، وهم مهمومون، عن أضواء الفندق الباهرة والكاشفة لذاك الذعر الذي لبس سحناتهم، فجأة ودون إنذار.

كان شعاع الكون السديمي هو الذي ينير الطرقات، فساروا تحت قبّة السماء المظلمة المرصعة بملايين النجوم التي كانت تشع بنشاط غير معهود. ولأوّل مرّة أحسّ صالح أنّ النجوم أصبحت أليفة لديه، وأنّها قريبة جداً وباستطاعته أن يمدّ يده ليلتقط واحدة.

همس لربيع وهو لما يخفض عينيه عن السماء بعد:

– أين هو برج العقرب الشهير يا ترى؟

– لا أعلم..

– هل كنت ستقتل حكمت من أجلي؟

– أجل.

– لماذا؟

– لأنني أسأت إليك، لقد تجرأ الزعيم، ووشى بك أمامي لأنني كنت قد تحدّثت عنك بسوء.

– لهذا السبب فقط؟

– أجل.

– لماذا لا تخلع عنك هذه البدلة، وتترك الجيش، وتهرب؟ لقد سمعت قبل قليل بأخبار الثورة. لقد حانت ساعتهم يا أخي. اتركهم وتعال معي. المنتصر في النهاية هو نحن. اتركهم لتكون غداً بين المنتصرين!

توقف ربيع، ثمّ أمسك كتف صالح، وقال له وهو ينفث أنفاسه الحارة في وجهه:

– لماذا تقول لي هذا الكلام؟ لقد أصبحنا أصدقاء، وكنت قبل قليل على

استعداد لأنّ أثقب رأس اليوزباشي بمجرد أن يمسك، اتركنا هكذا. أمّا الثورة وطرد الأتراك فهذه أقوال بلهاء. أنت لا تعلم شيئاً عن قوة الدولة والجيش والمؤسسات والقانون والدين وكلّ شيء... هذه الأمور أقوى مما صورته لك أفكارك. هل رأيت الأستانة؟.. لم ترها بعد؟ أنا رأيتها، ودخلتها. إن الإنسان ليصبح أحقر من حشرة أمام قصورها وثكناتها الهائلة وحصونها وأبراجها العالية. اتركني يا شيخ، وخلِّ عنك أفكارك وثوراتك التافهة. احفظ رأسك، فأنت أخ وصديق يا صالح!!

– إذن مازلت تفكر بهذه الطريقة؟

– خلا ذلك لا أستطيع شيئاً... ربيع الزيات أصبح جزءاً من هذا القطيع. سمكة في هذا البحر الخضم إن أخرجتها منه ماتت... أرجوك أن تفهمني، أنا لا أستطيع أن أجابه نفسي.

فقال صالح وهو يعالج عود الثقاب كي يشعل سيجارته:

– البطل يحلم بأكثر مما حصل عليه، أليس كذلك؟

تفرّس ربيع لحظة في الوجه المسربل خلف غشاء الظلام الدامس:

– هل تهزأ بي؟

– كلا.

– قد يكون كلامك صحيحاً، إنني أحلم بأكثر من مجرد أومباشي. لديّ استعداد لذلك. فحياة الجيش والقيادة والحرب تلائمني. لقد كافحت كي أخرج من وحول الخنادق، وصار لي ما أردت، وجاهدت من أجل أن أصبح بطلاً بأعين القادة والجنود، وأصبحت... لماذا لا أستمر؟

التقط أنفاسه، ثمّ تابع بعد قليل:

– لقد صادفتني مواقف صعبة، وفي بعض الأحيان تعرّض شخصي لأذى، كما أنني أكره كثيراً من الرجال العثمانيين، حتى إنني أودّ لو أستطيع أن أحطمهم بسلاحي هذا، وهناك أيضاً الجوع وبعض الظلم والعهر الذي استفحل، إلا أنني سأتابع لأحارب الجوع والظلم والعهر.

– كيف ذلك؟

– في قناعتي أنّ حكومة عثمانية قوية هي التي بإمكانها أن تسوي الأمور كما

نريد.

– هذا الرأي خاطئ، فهي سبب كلّ ذلك، والاستعمار لا يمكن أن يوجد دون الجوع والظلم والعهر، وهو الذي يخلقها.

– إذن دعنا لا نتناقش، فأنا شديد التمسك بآرائي.

– حسناً يا ربيع... ليكن ذلك ما دمت تريد أن نبقى أصدقاء.

بعد أن ودّع ربيعاً، انعطف صالح نحو مبنى الساعة، كانت عقاربها تشير إلى العاشرة والنصف. أما على رصيفها فقد استلقى جمع كبير من الرجال وقد أسندوا رؤوسهم على أحذيتهم متكورين، وقد تلبدت جنباتهم بفعل صلابة الأرض. سمع صوتاً واهناً لأحدهم:

– شقفة خبز يا مؤمن... أكاد أموت...

اعتصر صوت الرجل صلب صالح. ليس هذا الرجل هو الجائع الوحيد في هذا البلد، البلد كلّها هكذا. لو كان يملك خبزاً، يكفي كلّ الجائعين، لبادر فوراً إلى إطعام الأفواه المهددة بالموت جوّعاً، ولكنّهم سيطلبون الخبز مرّة أخرى، ربّما بعد سويعات قليلة. من أين سيأتي حينها، بما يسدّ رمقهم من جديد؟ إنّ هذا عبث، فيجب القضاء على السبب، على سبب الجوع هذا؟ إنّه يختلف مع ربيع، فلا يمكن إشباع الناس وإبعاد الموت عنهم إلا بالعمل، والعمل يتوفر حينما تتوقف الحرب، ويزول الظلم، ثمّ من يمكنه إيقاف الحرب؟ هذه الأمور لا تحدث بالنيات الحسنة وحسب، بل النار مقابل النار. السيف لا يوقف باليد الطيبة الرقيقة بل يوقف بسيف آخر يماثله متانة وصلابة وقوة إن لم نقل يفوقه بذلك.

ها هي الثورة، إنه يسمع طبولها تقرع وأجراسها ترن بقوة. أين أنت يا خلوق أفندي؟ هل سمعت النبأ عن الثورة؟ ... هل أنت سعيد ومنفعل وممتلئ حماسة كما هو صالح بنبوك؟

وقال في ذات نفسه: هل هي نفسها الثورة التي تحدّث عنها خلوق مطولاً؟ إنْ كانت هي بالفعل، فقد حرّم عليّ أن أجلس منتظراً إياها كي تأتي، بل عليّ أن أنهض، أن أصيح بأعلى صوت يمكن أن يصدر عن رئتي: هيا... قوموا يا ناس. لقد حان وقت العزم وقت البأس الذي لا يلين!

ثم راح يضع الخطط، ثمّ يشطب عليها، ويضع خططاً جديدة، غداً... سوف يسافر إلى الوضيحي. عليه أن يثوّر الناس، أن يقودهم كي يشعلوا نفس الثورة هنا أيضاً. يجب أن تعمّ البلاد كلها. على أبي زهرة أن يفجّر قطاراتهم كما وعد. كفى يا أبا زهدي استلقاء بين أفخاذ زوجتك وعشيقتك! يمكنك أن تحرق أول قطار تصادفه! أما الآخرون فعليهم أن يتركوا الخوف، كفى هلعاً. إلى متى؟ لم يعد العثمانلي بعبعاً كما تعودتم أن تتصوروه. لقد شاهدت أشباله منهزمين اليوم. قلقين، مذعورين، يمنّون أنفسهم بالقضاء على الثورة في مهدها.

ولكنهم خسئوا... عليهم أن يتلقّوا الضربات من كلّ جانب، فلا يمكن للثورة أن تنجح إن لم تعمّ الدّنيا كلّها، إن لم يشترك فيها كلّ هؤلاء الجائعين والمظلومين والمقهورين.

اللعنة على اليوزباشي حكمت والعقيد زهدي والزعيم صالح وعلى كلّ الآخرين. لقد خبر أكثرهم أمام رقعة الشطرنج، لقد اعتاد أن يرى إلى ارتجافهم وانسحاقهم أمامه.

ثمّ وجد نفسه يبصق بصقة انطلقت كالصاعقة.

لم يدخل باب انطاكية إلى "جلة معروف"، بل استمرّ صاعداً في طريق الكلاسة باتّجاه خراق الجلوم، وهو يتذكّر تعابير وجه اليوزباشي، وهو يسأله عن عبد الجليل الشلاح. إنهم يعتبرونه خطراً عليهم . قال في نفسه . يبحثون عنه ولكنهم لن يصلوا إليه، لن يمسوا شعرة منه!

ثمّ أحسّ بنبضه قوياً في أذنه المعطوبة، وشعر كمن يتهيّأ لأن يهوي بحجر ضخم على رأس أفعى، وتملّكه زهو طاغ لأنّه يحمي، ويتحمّل مسؤولية ذاك الرجل المهم والعدو اللدود لهذه الحيوانات القارضة... وزينب؟

فهمس لنفسه بصوت لم يتجاوز أكثر من شفتيه: زينب...؟ ثمّ أحسّ بضربات قلبه تشتدّ وتسرع، وبتَلبُّك في جسده، وتعرقت يداه.

زينب يا أعز الناس، أيتها المرأة الرقيقة، يا ملاك هذه الدنيا المليئة بالشياطين، أيها الحبّ الصامت الخجول، يا من لا أستطيع مخاطبتها إلا من خلال نفسي... لا تسأليني لم أبتعد عنك... فهذا فوق طاقتي. إنني أذوب حبّاً بك ولكنّي أقاوم، وسوف

أقاوم إلى الأبد. سأحطّم قلبي إن كان حبّي لك يشردك في متاهات هذه الحياة ويبعدك عن هدوئك المعهود. آه يا زينب... كم أحبّك، كم أحبّ أن أبتعد عنك..

أدار المفتاح ودخل، كانت الحوش غاطسة في ظلام دامس. كاد أن يعود لولا أنه لمح بصيص جمرة غليون الأستاذ، ثمّ ميز فرشتين في أرض الحوش ومن إحداهما كان يصله نور الجمرة. جلس الرجل في فراشه، وهمس:

- صالح...؟

- أنا هنا يا أستاذ.. سأعود غداً، عذراً لأنّني قدمت في هذه الساعة المتأخرة.

- بل ادخل، لقد هرب النوم من عيني، هيا إلى غرفتي!

اجتاز صالح فراش زينب. كانت مستلقية، وقد أبقت يدها تحت رأسها، أمّا شعرها الأشقر الجميل، فقد افترش المخدة.

وعلى ضوء مصباح الكيروسين، جلسا على الأريكة صامتين.

بادره الأستاذ عبد الجليل بصوته الأجش العميق:

- هذه الليلة حارّة جداً، لم أطق النوم في الداخل، لقد رحت أخذن لأطرد البعوض.

فقال صالح وهو يراقب شعلة المصباح:

- نعم... كان النهار حاراً جداً، كدت أختنق في هذه البدلة وربطة العنق.

ابتسم الأستاذ، وهو يمتص غليونه المحشو بالتبغ المحلي الأشقر.

- لماذا لا تدخّن؟

- سوف أفعل...

- هل تريد فنجاناً من القهوة، سوف نصنعها معاً لأنّ زينب نائمة.

- لا داعي يا أستاذ... كلّ ما هنالك أنّني أردت المجيء لأنقل لك خبراً مهماً.

- خير إن شاء الله.

تطلّع صالح في وجه الأستاذ ذي التجاعيد الرقيقة، وقال:

- هل تعرف من هو الشريف حسين؟

- أجل ... إنّه أمير مكة صديق الإنكليز المشهور.

فقال صالح وهو يشدّد على كلّ كلمة:

– لقد قام بثورته في الخامس عشر من حزيران، استولى على مكة، وقتل، وأسر حاميتها، ثمّ احتلّ جدة وهو ينطلق نحو المدينة والطائف.

همس عبد الجليل، يا إلهي... ثمّ صمت مفكراً.

تابع صالح وقد خدّره الصمت وطنين أذنه:

– يقولون إنه يريد الحجاز والعراق والشام ليؤسس عليها دولته العربية، ثمّ ينصّب نفسه ملكاً عليها. الباب العالي يبدي انزعاجه وكذلك الضباط في الفندق. إنّهم يعتبرونه خائناً لأنّه يطعن السلطنة من الخلف حين انشغالها في الحرب.

لم يتفوه الأستاذ بل بقي يمتص دخان غليونه، أمّا صالح، فتابع:

– لقد أرسلوا قوة دعم لنجدة الحاميات التركية في مدن الجزيرة. إنهم يؤكدون أنهم سوف يسحقون هذه الثورة، وهم يطلبون رأس الشريف وأولاده.

لقد استقبلوا هذا الخبر بهلع، واختلط عليهم الأمر، ويبدو عليهم الضعف. لقد استغربت كيف انقلب بأسهم إلى جزع.

انتظر صالح لحظة، ثمّ سأل:

– أراد غير متحمس لهذه الثورة، حسبت غير ذلك.

رفع الأستاذ عينيه إلى صالح، ثمّ أبعد الغليون عن شفتيه، وقال:

– علينا أن لا نتحمّس دون عقل، علينا أن نفكر في هذا الأمر ملياً، ولكن الذي باستطاعتي قوله الآن هو الآتي: هذه الثورة ضرورية يجب علينا دعمها، ولكن لماذا الشريف حسين؟ إنّه صديق كتشنر واللنبي في مصر، ماذا يحضّرون. هل هناك صفقة ما؟ أم مجرد أنهم سيدعمون ثورة الشريف لقاء إضعاف عمق الجيش العثماني الذي يحارب الحلفاء في أوروبا والعراق وفي فلسطين؟

لقد خبرت أطماع الغرب عندما كنت في باريس. اسمع يا صالح... طوال عمري كنت شكاكاً من الدرجة الأولى، أمّا الآن فإنّني مضاعف شكوكي. لن يستطيع أحد في هذه الدنيا أن يجعلني أثق بالحلفاء، هذا بالإضافة إلى ما قررناه أن مجمل هذه الحرب القذرة هي صراع على النفوذ وهي حرب الدول الاستعمارية للسيطرة على هذا العالم.

إن ثورتنا تختلف جذرياً عن هذه الثورة، ولكننا معها لأنّها ستخلصنا من الظلم

الأول كي نتفرغ للظلم الثاني... والثالث...

هناك شيء مهم ورئيسي، قد تكون هذه الثورة بداية، فعليها تقع مسؤولية إبعاد شبح الهلع عن الناس وتعويدهم على أن يثوروا دائماً ضدّ كلّ أنواع الظلم بما فيه الاجتماعي.

صمتا... ثمّ سمع صالح صوت نهوض زينب من فراشها وصوتها وهي تخطو حافية على أرض الحوش. قال وهو يبعد زينب عن ذهنه:

- ماذا علينا أن نفعل يا أستاذ؟

- اتصلوا بأصدقائكم، وقوموا بالدعاية للثورة... قولوا إنّ على هذه الثورة أن تحررنا من الاستعمار التركي، وتخلصنا من الحرب، وفي النهاية أن يتمّ تأسيس دولتنا العربية الحرة غير التابعة إلى أيّ دولة مهما كانت.

- حسناً...

سمع صالح حفيفاً ناعماً فاستدار ناحية الباب. كانت زينب واقعة بردائها الليلي وقد لفّت كتفيها بمنشفة. راعت أن تسرح شعرها قبل أن تدخل.

كانت تنظر إليه، تخترق عينيه إلى أعماقه عبر دخان السجائر المغبش. ما أجملها، ما أرقّها وهي بردائها الليلي البسيط، ولكنها لم تبتسم كعادتها، بل كانت تسوطه بنظرة حادّة، بطريقة جعلته يغض بصره هرباً من قسوتها.

هو لم يعهدها كذلك. هل أضحت تكرهه لأنّه يهرب منها؟ ليس هكذا يا زينب! أعذريه فهو بشفافيته لا يستطيع أن يفرّق بين هذا الركام الكبير من المشاعر. السياسية والمبادئ والحبّ والأخوة والصداقة وما إلى آخر هذه المفردات التي تتناطح في ذهنه وفي قلبه دون رحمة.

جاءه صوتها الناعم تسأل أباها:

- ماذا حدث يا أبي؟

ثمّ استدركت:

- مساء الخير يا صالح.

- مساء الخير يا زينب.

ثمّ قال الأب:

– لا شيء... حدث أمر طارئ سنتحدث عنه فيما بعد.

– أمر طارئ ... ما هو؟

– حدثت ثورة في مكة ضدّ الأتراك.

صمتت قليلاً، ثمّ سألت:

– هل أصنع لكم القهوة.

فقال صالح، شكراً جزيلاً، ثمّ نهض، ومشى نحو العتبة، ثمّ قال:

– علي أن أذهب لأنام، كان يومي شاقاً وأعصابي تعبة، تصبحون على خير.

خرج إلى الحوش وسار باتّجاه الباب، سمع حفيف ثوبها، وهي تسير حافية خلفه. استدار عند الباب، كانت تقترب منه وثوبها يشع كما تشع السمكة السابحة في مياه صافية. قال لها وهو يسحب الرتاج:

– إلى اللقاء يا زينب... عودي إلى فراشك!

– صالح...

–أريدك أن تفهم شيئاً تقوله امرأة تحبّك... إنك تهرب مني وهذا لا يجوز، هل تسعى إلى تحطيمي؟... إنك تسيء إليّ. أرجوك، فأنا لا أحتمل أي أذى.

– معاذ الله يا زينب، إنك تفهمينني خطأ، سأحطّم قلبي إن أفعل ذلك.

– لقد أصبحت بارعاً في الكلام يا صالح، يجب عليك أن تنظر إلى الأمر بطريقة أكثر جدية، فأنا امرأة حرّة تعرف ما تريد، وتعرف كيف تختار.

ثمّ قالت بحسم:

– لقد اخترت، هل تريد أن تسمع اختياري؟

– ....

– سأقول كلمتي بالرغم من صمتك.

أخذت نفساً قوياً لتقول أحلى وأصعب ما قالته في حياتها كلّها. شعر بها منسجمة كتيار يسيل أبداً، وها هو الآن يريد أن يتدفق قوياً وجميلاً. استبقها، وقال وهو يدنو منها:

– لا تقول شيئاً يا حبيبتي... كنت أريد لك السعادة، ليس من الطبيعي أن يكون الرجل أنانياً تجاه من يحبّ، لكنني رأيت إلى العكس تماماً، في هذه اللحظة،

التي أريدك فيها قوية كالجدار، منيعة كالجبال وسعيدة كالعصفور.

لا يا زينب. أنا لم أرد أن ألقاك على هذه الشاكلة، لأنّني أحبّك أضعاف أضعاف ما تتصورين. تعالي إليّ!

اقتربت منه وضمّته. قبّلها من أذنها الصغيرة الدافئة، ثمّ أراحت رأسها على صدره وضغطت عليه بشدّة. سمعها تطلق تنهيدة، وكأنّها كانت تمتنع عن النشيج الذي يأتي بغتة.

قبّلت شفتيه، وقد جمعت وجهه الكبير بيديها الصغيرتين. رأى إلى ابتسامتها العذبة تعود إلى محياها على ضوء النجوم المتسلل.

- أحبك أيّها الجبل الجليدي.

- أحبك أيّتها الملاك الناعم.